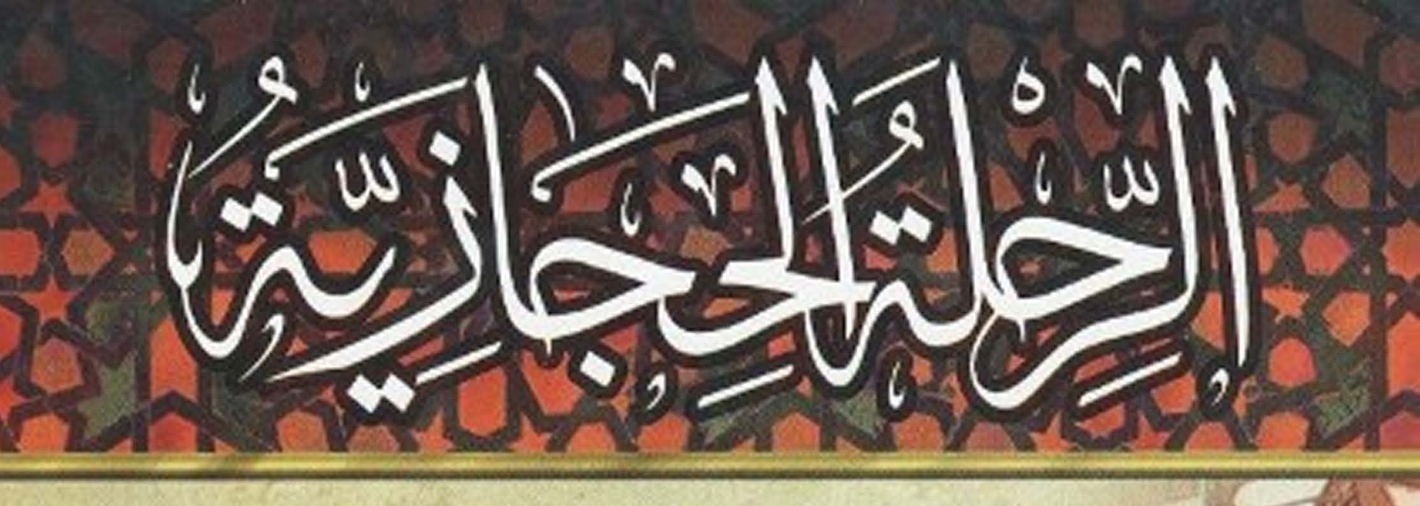
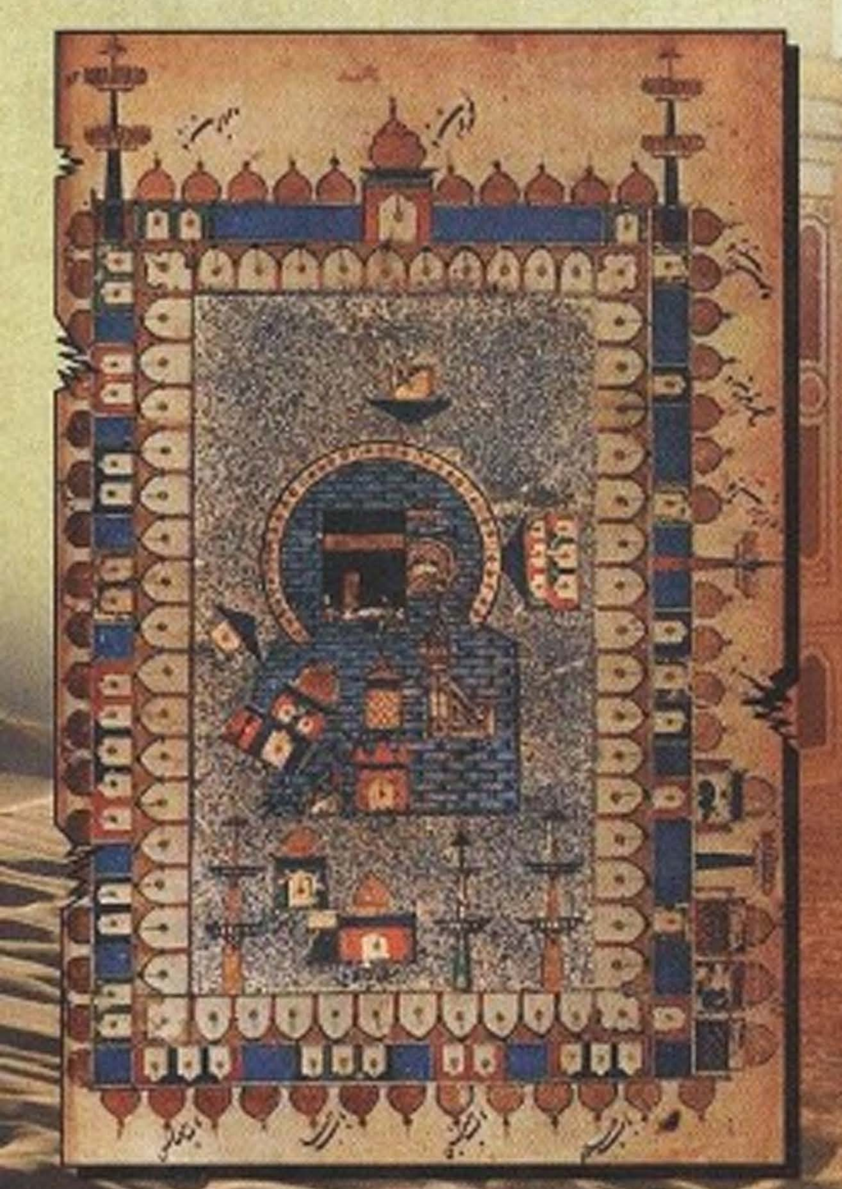
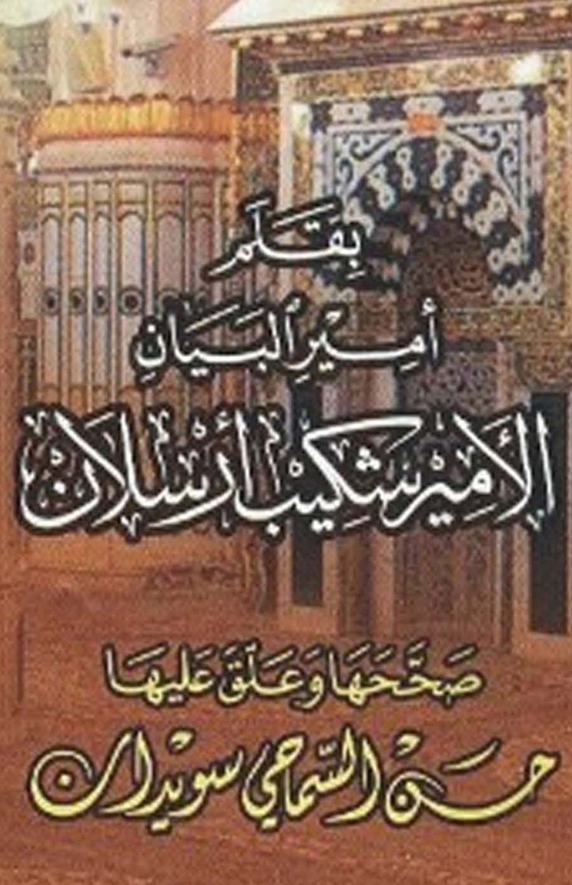


الرحلة الحجازية

المسماة
الارتسامات اللطاف
في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف





بقلم
أمير البيان
الأمير شكيب أرسلان

صححها وعلق عليها
حسن السماحي سويدان

دار النوادر



الرحلة الحجازية

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب ٣٤٣٠٦ - بيروت - لبنان - ص.ب ١٤/٥١٨٠

www.daralnawader.com



المسماة

الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف

بقلم

أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

قدم لها وعلق عليها

السيد محمد رشيد رضا

صححها وعلق عليها

حسن السماحي سويدان

دار النوادر


بسم الله الرحمن الرحیم
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الغرّ الميامين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فإنّ الأميرَ شكيب أرسلان رحمه الله تعالى نموذجٌ فذٌّ من الرجال، فهو شاعر، ناثر، مؤرخ، مجاهد، سياسي، رحّالة، عركته الأيام، وحنكته التجارب، وحمل بين جنبيه قلباً مفعماً بحب العروبة والإسلام، وقد تجلّتْ هذه الصفات في كل ما كتبه، وهي أجلى ما تكون في كتابه هذا الرحلة الحجازية المسمّاة «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» الذي وصف فيه رحلته إلى البلد الحرام، لأداء مناسك الحج في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين.

وأسلوبُ الأمير أسلوبٌ رفيع، مشرِقُ الديباجة، غنِّي بالألفاظ، يكسِبُ قارئه ذخيرة لغوية، وذوقاً أدبياً رفيعاً، وإنَّ كثيراً من النصوص التي كتبها الأمير تستحقُّ أن تُحْفَظَ عن ظهر قلب، لأنّها من عيون الأدب، انظر إلى وصفه لميناء جدة: «ولم يقع بصري على شيء يشبهُ

مياهَ بحر جُدّة في البهاء واللمعان ، كنتُ كيفما نظرتُ يمنةً أو يسرةً أشاهِدُ خطوطاً طويلة عريضة في البحر أشبه بقوس قزح في تعدد الألوان ، وتألُقُ الأنوار ، من أحمرَ وأزرقَ وبنفسجي وعُنّابي وبرتقالي وأخضرَ. ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى أن هذه الخطوط مستقيمة ، وأن قُسِيَّ قزح مقوّسة ، وأن هذه في السماء وهاتيك في الماء ، وقد تشبِهُ هذه الخطوطُ ذيولَ الطواويس ، لا فرق بينها إلا في كون هذه الذيول المنسحبة على وجه البحر عظيمةً جداً تمتدُّ مئات من الأمتار ، وبعرض عشرات منها ، ولكنْ في تعدُّدِ الألوان وموازاةِ بعضها لبعضٍ وشدّةِ تألُّقها الآخذة بالأبصار لا تجدُ بينهما بوناً.

فكأن في كلِّ جهةٍ من بحر جدة مسرح طواويس سابحةٍ في اللُّجَجِ الخضرِ ، وظهورُها إلى سطحِ الماء ، الواحدُ منها بقدر ألفِ طاووس مما نعهد»[1].

وانظر إلى حديثه عن مكة ، وعن دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام الناس إلى الحج فيقول:

«فبدعوة إبراهيم هوت إلى هذا المكان وإلى المتمكنين فيه أفئدةٌ، ورفرت عليهم جوانح من جميع فجاج الأرض ، ترى الناس من ألوف من السنين يحجّون إلى البيت المحرم، ويحرمون قبل الوصول إليه بمراحل، ويوفضون إليه كأنما يوفضون إلى أنزه بقاع البسيطة، وأطيبها نجعة، لا يكادون يصدِّقون أنهم مشاهدوه من شدة الوجد وغلبة الهيام، حتى إذا شاهدوه فاضت العبرات، وخفقت الجوانح، وتمايلت الأطراف، وانتقل الناس إلى عالم تكاد تقول: إنه غير هذا العالم»[2].

ثم يقول: «وكم رأتْ طريقُ البيت الحرام من هذه المحارات وهذه

---

(١) ص (٤١).

(٢) ص (٤٩).

الشقادف، وكم رأت من راكب وفارس، وحاف وناعل، وكم تطهّرت نفوسٌ، وتهذبت أرواحٌ، وصفت قلوب، وزكت أعمال، وخزيت شياطين، وحُقنت دماء، وكفكفت دموع، وصينت أموال. . . كل ذلك بسبب هذه الآية الكريمة: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ [آل عمران: ٩٧][(١)].

أما علم الأمير فهو دائرةُ معارفَ، يتحِفُ قارئه بكل فريدة، ويطرفُه بكل نادرة:

كالبَحْرِ يَقْذِفُ للقريب لآلئاً جُوْداً، ويَبْعَثُ للبعيدِ سحائبا
كالبَدْرِ من حيثُ التفتَّ وجدتَه يُهْدِي إلى عينيك نوراً ثاقبا

وما أقرب أسلوبه من أسلوب الجاحظ في استطراداته، إلا أن الجاحظَ يجمَعُ بين الجد والهزل، والأميرُ شكيبُ جادٌّ جاد.

وهو في هذا الكتاب يجمع بين مباحث جغرافية، وتاريخية، واجتماعية، ومسائل عمرانية، واقتصادية، ودقائق لغوية وأدبية.

ففي التاريخ تحدّث فيما تحدث عن تاريخ العمارة عند العرب من بناء مدن وقصور وسدود وقني، وتحدّث عن مشاهير من بنوا وشادوا، كالناصر الأموي، وعبد المؤمن الموحدي، والمنصور السعدي، ومولاي إسماعيل سلطان المغرب، والجواد الأصبهاني، وعبد الله بن كريز الأموي.

ولم يغفل شهيرات النساء اللائي ساهمن في هذه المكرمات كزبيدة زوج الرشيد.

كما تناول مباحث جغرافية عن الحجاز بعامة، ومنطقة الطائف بخاصة، فتحدّث عن التضاريس، والمناخ، والمياه، والثروات

---

(١) ص (٨١).

المعدنية ، وماضي ذلك وحاضره ومستقبله ، كما تحدّث عن أهمية هذه المنطقة سياحياً.

كما تحدّث بإفاضة عن سوق عكاظ ومكانته في التاريخ ، وانتقد أساليب المستشرقين في إثارة الشبهات[1].

أما **السياسة** فتحدَّث عن هموم العرب ، وأسباب تخلّفهم ، والسبيل إلى نهضتهم من إنشاء طرق مواصلات ، إلى اهتمامٍ بالعلوم التطبيقية الحديثة ، إلى اعتناءٍ بالصناعةِ والزراعةِ والصحةِ ، علىٰ أن يتمّ ذلك كله بأيدٍ عربيةٍ لا سلطانَ للاستعمار عليها، ولو أردتُ استعراض آرائه في هذا الباب لطالت المقدمة، ولكن أحب أن أشير إلى إيمانه بالوحدة العربية ذلك الإيمان الذي عبَّر عنه بقوله :

«إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وهذه الوحدة آتية لا ريب فيها»[2].

كما تحدّث عن سكان الحجاز في القديم والحديث معتمداً في بعض ذلك على سجلات الدولة العثمانية.

أما **اللغة والأدب** ، فقلّما مرَّ اسمُ مكانٍ إلا وذكر الأمير المناسبة بين الاسم والمسمّى ، وذكر شيئاً عن تاريخه ، وما قيل فيه من شعر.

ومن الجدير بالذكر أنّ الأمير كان قد نشر ثلث الكتاب مقالاتٍ في مجلة «الشورى» ، ثم استكمل كتابته ، وعهد إلى صديقه السيد محمد رشيد رضا أمرَ طباعته ، وتصحيحه ، والتقديم له ، والتعليق عليه[3]، فقام السيد رشيد بطباعته في دار المنار عام (١٣٥٠ هـ).

ولما كانت هذه الرحلة جمَّةَ الفوائد أردتُ إحياءها بنشرها مرةً ثانيةً

---

(١) ص (١٥٠).

(٢) ص (٢٧٣) ولكن هذه الوحدة لن تتحقق إلا بالإسلام وتحت رايته.

(٣) وقد ميزت تعليقاته بكلمة مصححه.

في حلة قشيبة ، وأن أضعَ بين يدي القراء كتاباً ينتفعون به في لغتهم ومعارفهم في عصرٍ كَثُر فيه الغثاء ، وقلَّ ما ينفع الناس.

كما أحببت أن أحيي تراث رجالٍ أمتنا ، الذي جاهدوا في سبيل رقِّيها حقَّ الجهاد ، وتحمَّلوا من أجل ذلك التشريدَ والنفيَ والفقرَ والحرمانَ ، فما وهنوا وما استكانوا ، وتركوا من الآثار ما يعجز عنه اليومَ جيل بأكمله.

عملي في الكتاب

١ ـ صححت الأصل ، وذلك بالرجوع إلى المصادر التي نقل عنها الأمير ، مثل «صفة جزيرة العرب» و«معجم البلدان» و«طبقات ابن سعد» و«ما رأيت وما سمعت» و«رحلة ابن جبير» و«وفيات الأعيان» وغير ذلك.

٢ ـ وضبطت ما يحتاج إلى ضبط ، إذ قارىء اليوم غير قارىء الأمس.

٣ ـ عزوت الآيات إلى مواضعها في المصحف الشريف ، كما خرّجت الأحاديث الواردة.

٤ ـ شرحت بعض الألفاظ الغريبة الواردة في الكتاب.

٥ ـ علقتُ على بعض المواضع ، وحصرتُ تعليقاتي بحاصرتين ، تمييزاً لها عن تعليقات الأمير والسيد رشيد رضا رحمهما الله تعالى.

٦ ـ أثبت المستدركات التي ألحقها الأمير في نهاية الكتاب في مواضعها.

٧ ـ وضع الأمير لكتابه اسمين هما «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف»[1] ، أو «الرحلة الحجازية» فقدّمت الثاني على الأول لأنه أوضح وأسهل حفظاً.

---

(١) (الارتسامات): الانطباعات ، و (أقدس مطاف): بيت الله الحرام.

٨ ـ ألحقت بالكتاب ملحقين بقلم الأمير شكيب ، لهما علاقةٌ بهذا الكتاب ، وهما : «تاريخ العرب الأقدمين» و«الأنساب». من كتاب الأمير (ملحق للجزء الأول من تاريخ ابن خلدون).

٩ ـ صدّرت الكتاب بترجمة للأمير.

١٠ ـ زودت الكتاب ببعض الخرائط والصور التوضيحية والوثائقية.

١١ ـ وضعت للكتاب فهارس كاملة تسهّل الرجوع إليه.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتقبل عملي إنه سميع قريب والحمد لله رب العالمين.

دمشق ٢٢/٦/١٤٢١هـ

١/١٠/٢٠٠٠م

وكتبهُ

حسن السماحي سويدان



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة السيد محمد رشيد رضا

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

يحجُّ بيتَ الله الحرام، ويزورُ مسجد رسوله وروضته عليه أفضل الصلاة والسلام ألوفٌ كثيرة من مسلمي الآفاق، أكثرُهم من العوام والفقراء، وبعضُهم من العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، ويقلُّ في جملتهم من يفقهُ ما يعملُ، ومن يعي ما يسمع، ومن يعقل ما ينظر. ويقلُّ في هؤلاء من يكتب لإخوانه المسلمين ما يفيدهم شيئاً لا يجدونه في كتب الفقه أو التاريخ والرحلات والأدب.

بل نرى مَن حُجّاج إخواننا المصريين من يكتبون في كلِّ عام ما يُغضِبُ الله تعالى، ويسوءُ جيرانه في حرمه، وجيران رسوله ﷺ في روضته، وخدّام قاصدي هذين الحرمين من المطوفين والمزورين، وحكامهما الحافظين لأمْنِ السّكان، وآمين البيت الحرام، وأطباءهما

المحافظين على صحة أهلهما، وصحة من يتشرّف بأداء المناسك والزيارة فيهما، بل يكتبون ما ينفِّرُ المسلمين من إقامة هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، ويصدُّهم عن إحياء هذه الجامعة العامة التي امتاز بها على جميع الأديان، فهذا يشكو من شِدَّةِ الحرِّ، وذاك يتململُ من كثرةِ النفقة، وآخر يتبرَّمُ بما يزعمُ من تقصير المطوفين وطمعهم.

وأغربُ من كلِّ هذا أنّ منهم من ينتقدون منعَ البدع والخرافات، والطواف بالقبور، والاستغاثة بالأموات، وإنّ منهم مَنْ كتبَ في هذا الشهر مشنِّعاً على حكومة الحجاز التقصيرَ في عمارة مسجد الرسول ﷺ، وتجديد فَرْشِه، وهو يعلم أنّ حكومة الحجاز الحاضرة على فقرها[1] قد فعلت ما لم تفعله حكومةٌ قبلها؛ من حِفْظ الأمن، وتسهيل السبل، وتوفير المياه، والاسعافات الصحية للحاج، فإنّ هذا قد صار متواتراً.

ويعلم أيضاً أنّ حكومتَه[2] هو قد منعت ما كانت ترسلُه إلى الحرمين وأهلِهما من الأموال والحقوق المقرَّرة لهما، التي كانت ترسلُها في كلِّ عام، وأنَّ هذه الحقوق هي بعضُ ما وقفه الملوك والأمراء وأهل البرِّ من الأغنياء.

ويعلم أن وزارة الأوقاف تجبي من أوقاف الحرمين في كلِّ عام مئات الألوف من الجنيهات، وتصرفها في غير ما وُقفت عليه.

ويعلمُ أيضاً أنّ الحكومة التركية قد استحالت حكومةً لا دينية، وضمّت أوقافَ الحرمين إلى أملاكها، بل هي تمنع من يريد الحج من شعبها، وحجتُها الظاهرةُ على هذا المنع أنّ الترك أحقُّ بأموالهم أن تبقى في بلادهم من أن تُصْرَفَ في بلادِ العرب!!.

---

(١) [كتبت هذه المقدمة قبل أكثر من ثمانين عاماً].
(٢) [الحكومة المصرية آنذاك].

وخيرٌ من هؤلاء الصادّين عن سبيل الله، المنفِّرين عن شعائر الله، والمؤذين لجيرانِ الله مَنْ يؤلّفون كتباً في رحلاتهم الحجازية، ينقلون فيها أحكامَ المناسك الفقهية، وبعضَ الأخبار التاريخية والأدبية، وقد كتبوا في رحلاتهم وفي الصحف ما أبلاه الحق من وصف أمن الحجاز، وتوفير أسباب الراحة للحاجّ، والثناء على الحكومة السعودية، ورجاء الخير العظيم للإسلام فيها.

بيدَ أنّك قلّما ترى فيما كتبوا عبرة جديدة، أو شيئاً من الاقتراحات المفيدة، أو ترغيباً في البذل لعمارة المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، أو لتسهيل السبيل على الحجاج والزائرين، وتوفير المياه لهم وللمقيمين، اقتداءً بما كان من فِعْلِ السلف الصالحين.

دع ما هو أعلى من ذلك منزعاً، وأروى مشرعاً، وأبعد في الإصلاح غايةً، وأقوى في دَرْءِ الخطر عن الإسلام وقايةً، فقد علم الواقفون على سياسة الاستعمار الأوربي أنّ خطرَه قد أحاطَ بجزيرة العرب، ونفوذَ بعضِ دوله تغلغلَ في بعض أنحائها، ثم طفِقَ يُوْغِلُ في أحشائها، ويَلَغُ في دمائها، فإنّ المستعمرين قد استولوا على سكةِ الحديد الحجازية، التي كان الغَرَضُ الظاهر القريب من إنشائها تسهيلَ أداءِ الفريضةِ، والباطنُ البعيد حفظُ الجزيرة نفسها من الاستعمار الأوربي، ومن قَتْلِ الإسلامِ في عُقْرِ دارِه، وإزاحتِهِ عن قرارِه، تمهيداً لمحوه من الأرض كلها.

كذلك كان شأنُ المسلمين في حجهم وزيارتهم، وكذلك كان ما دونوا في رحلاتهم ومقالاتهم، إلى أن أَذِن الله تعالى لعبده المجاهد في سبيله بمالِهِ ونفسِهِ، ولسانِهِ وقلمِهِ، وعلمِهِ وعملِهِ، **الأمير شكيب أرسلان**، الذي بحق لقّبته أمتُه بأمير البيان ـ أن يستجيبَ لأذان إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، فيؤدّي فريضةَ الحجّ، ويمرض مرضاً يضطره بعد أداء المناسك إلى الالتجاء إلى الطائف، والتوقُّل في جبالها وذراها،

والتنقُّلِ في مزارعها وقراها، والهبوط في أخيافها وأوديتها، فينالُ الشفاءَ والعافيةَ من مرضه، ومن مرض سابقٍ له، بما شمَّ من هواءٍ نقيٍّ، وشرب من ماءٍ رويٍّ، وجنى من ثمر شهيّ، ويشاهد ماثمَّ من قابليةٍ للعمران، لا يكاد يفضلُها مكان، في عصرٍ عمّ الحجازَ فيه العدلُ والأمان، وأن يصفَ ذلك بقلمه السيّال، وبيانه السّلسال، الذي يجري فتكبو في غاياته جيادُ الفرسان، ومن ذا الذي يطمع في لحاق أمير البيان في مثل هذا الميدان؛ ميدانِ التاريخ وعلم الاجتماع والعمران، وما فيه من عِبَرِ السياسة في هذا الزمان، لا سيّما سياسة الأمة العربية والإسلام؟!

أحمدُ الله تعالى أن وفّقَ أخي شكيباً لأداء المناسك، وشهود ما قرنه بها القرآنُ من المنافع، وإنَّما هي منافع أمته، لا منافع شخصه وأسرته، وأن يسّرَ له السير في تلك الأرض، لفقه ما أرشده إليه عقلُه، وهُدي له قلبُه، فيعرف بنفسه جبالها ووِهادها، وأغوارها وأنجادها، وسهوبها وصفاصفها[1]، ومجاهلها ومعارفها، ثم يبعث ما دُفِن في بطون الكتب من تاريخ عمرانها، وكنوز معادنها، مع بيان أماكنها، ووسائل استخراجها من مكامنها، ويجلّي للعقول ما فيها من العبر البالغة، ويقرن بها وصف حالتها الحاضرة، ويستنبط منهما ما يجِبُ على الأمة العربية وحكوماتها، والشعوب الإسلامية وزعمائها، من توجيه أصدقِ ما أُوتوا من إرادةٍ وعزيمةٍ، وأفضل ماأُعطوا من علمٍ وثروةٍ، في سبيل عمران الحجاز، وصيانته من خطر الاستعمار، وأنّ ذلك لا يتمُّ لهم إلا بعمران جزيرة العرب كلِّها، لأنّ انتقاصَها من أطرافها يُفْضِي إلى الإحاطةِ بسائر أكنافها.

تلك الغايةُ البعيدة المرمى هي التي وضع لها الأمير رحلته الحجازية التي سمّاها «**الارتسامات اللطاف في خاطر الحاجّ إلى أقدس مطاف**» وقد أقام الدلائلَ على إمكان ما دعا إليه وسهولته؛ من قابلية في المكان، ومواتاةٍ في الزمان، و أشار إلى ما يعتَرض به على ذلك من

---

(١) [سهولها].

شبهاتٍ داحضةٍ، وكرّ عليها بما ينقضُها من حججٍ ناهضة، بما لم يُبْقِ لمعتذرٍ عُذْراً مقبولاً، ولا لمقصّر قولاً معقولاً.

ثم إنه لم يقف في ارتساماته دون هذا المقصد الأسمى، بل ألمّ فيها بكل مايهمُّ المسلم من حال الحجاز وأهله وحكومته، فأفاض القولَ في تعظيم شأن المياه فيه، وما يُرْجى من زيادتها بالوسائل العصرية، ولا سيّما الآبار الإرتوازية.

واستشهد التاريخَ على ما كان من عناية السلف الصالح بعمرانه، وحبس الأوقاف الواسعة عليه، وعناية الخلف الطالح بتخريب ما عمروا، وإضاعة أكثرَ ما وقفوا، وتمهيد حكامهم الفاسقين سبيلَ ذلك لسالبي مُلْكِهِم من المستعمرين، وضَرَبَ لذلك الأمثالَ بتاريخ أكبر المعمرين من الملوك والأمراء والوزراء.

وأسهبَ في بيان أحوال المطوّفين والمزوّرين وقناعتهم، وما يجبُ من إصلاحِ حالِهم، ونوَّهَ فيها بفضلِ الحكومة السعودية الحاضرة، وخدمةِ ملكها للحجاز، وأعظمُها والمقدّمُ منها تعميمُ الأَمَنَةِ في بَدْوِ البلادِ وحضرِها، قريبِها وبعيدِها، وما يُرجى بحكمتِهِ من سائر أركان الإصلاح فيها.

وقد مَنَّ عليّ بأن عَهِدَ بنشر هذه «الارتساماتِ» إليّ، بأن أطبعها بمطبعة المنار، وأُشرِفَ على تصحيحها بنفسي، لتعذُّر إرسال مُثُلِ الطبع[1] إليه في أوربة، ليتولّى تصحيحَها بنفسه، بل مَنَّ عليّ بالأذن لي بتعليق بعض الحواشي على بعض المواضع التي أرى التعليقَ عليها مفيداً لقارئيها، ليكونَ اسمي مقروناً باسمه في هذا الأثرِ الخالدِ له في خدمة العرب والإسلام، كما منَّ عليَّ قبله بمثله في رسالته التي جعل عنوانها «لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدّم غيرُهم»؟ وهي هي الرسالة التي: سارتْ بها الركبانُ تطوِي نَفْنَفاً فَنَفْنَفاً[2]، وسَبْسَباً فَسَبْسَبا[3]،

---

(١) [تجارب الطبع].

(٢) [وادياً].

(٣) [صحراء].

فاضطربت بها بعضُ دُول الاستعمار[1]، وزُلزِلَتْ زلزالاً شديداً، حتى قيل لنا: إنّها أغرت حكومة سورية[2] بمنع نشرها فيها، وهي أحقُّ بها وأهلها، فانفردت بهذه العداوة للإسلام دونَ من أغروها بها.

ولما كان سماحُ الأمير حفظه الله لي بهذا وذاك إعلاماً لقارئي «الرسالة» و«الرحلة» بما بيننا من الأخوة الإسلامية الصادقة، والاتفاق في المقاصد الإصلاحية النافعة للأمة العربية والشعوب الإسلامية، التي نفخ روحَها في كلٍّ منّا شيخُنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بالتَّبَعِ لأستاذِه موقظِ الشرق وحكيمِ الإسلام السيد جمال الدين الأفغاني، قدَّس الله روحهما، وأجزل ثوابهما.

هذا وإنّ الأمير ـ أمتع بعلمه وعمله، ولسانه وقلمه ـ قد وضع للرحلة حواشيَ كثيرة، عزوتُها إليه في مواضعها، وكان يجب أن أشيرَ إلى ذلك في ديباجتها، ولكنني ما علمتُ بها إلا عند بلوغ أول حاشية منها[3].

وقد كان لي وِقفة ونظر في اقتراحه على الحكومات المختلفة في الدين والسياسة أن تشدِّدَ على حُجّاج بلادها الفقراء، فيما تفرضه من الشروط للسّماح لهم بالسفر إلى الحجاز، لا لأنّ هذا الاقتراح مُنْكَرٌ في نفسِه، بل لأنّ الحكومات الاستعمارية التي تكْرَهُ للمسلمين ـ المرزوئين بسيطرتها عليهم ـ أن يؤدوا هذه الفريضة، لم تقصِّرْ في إرهاقهم بالشروط المالية والصحيّة، بل أنا أعلمُ علمَ اليقين أنّ جميعَ الدول الاستعمارية تمقتُ قيامَ المسلمين بهذه الفريضة، وتتعاونُ على صدّهم عنها بما تستطيع من حول وحيلة، ولولا مال بواخرها وتجارتها من المنافع مِنْ نقلِ الحُجّاجِ لكان تشديدُهم في الصدِّ أكبرَ، ولكنْ

(١) [فرنسة].

(٢) [الخاضعة آنذاك للانتداب الفرنسي].

(٣) [وضعت عقب تعليقات السيد محمد رضا رشيد رحمه الله تعالى كلمة (مصححه) تمييزاً لها عن تعليقات الأمير، أما تعليقاتي فهي بين حاصرتين].

ما وضعوه من العواثير والعقاب في سبيل الحج باسم المحافظة على الصحة قد أنالهم بعضَ مرادِهم منه بقلّةِ مَنْ يتحمّل مشقته من ملوك المسلمين، وأمرائهم المترفين، وأغنيائهم المحسنين، وزعمائهم المفكرين.

وقد كانوا حاولوا أن يقرِّرُوا في مؤتمر طبيٍّ عُقِدَ بمصر في أوائل عهد الاحتلال البريطاني أنّ الحجازَ بيئةٌ وبائيةٌ بطبعه، يجبُ جعلُه تحت سلطة الحَجْرِ الدولي دائماً لذاته، فجاهد المرحوم سالم باشا سالم كبير أطباء مصر ـ والطبيب الخاصّ لسموِّ الخديوي توفيق باشا وأسرته ـ، يومئذٍ جهاداً كبيراً دونَ ذلك، حتى دحض كلَّ شبهة تؤيّدُ هذا الاقتراح، وأثبتَ بالأدلة الفنية الطبيّة والتاريخية أنّ الحجاز ليس بوطن لوباء الهيضة الوبائية (الكوليرة) ولا لغيرها من الأوبئة السارية المعدية، ولكنني لم أضع لهذه المسألة حاشيةً، بل أدعها إلى علم الأمير الواسع، ورأيه الناضج، لعلّه يستدرِكُ ما يرى استدراكه ممحِّصاً لهذا الرأي.

وها أنا ذا أَزفُّ إلى قُرّاءِ العربية هذه **الرحلة النفيسة، والارتسامات اللطيفة**، ولا ريب عندي في أنهم يقدّرونها قدرها، ويعنون معي بنشرها، وبثّ الدعاية إلى العمل بما فيها من النصيحة الثمينة، التي تتوقف عليها حياةُ هذه الأمة المسكينة، التي كانت هي الناشِرة لدعوة الإسلام، والمفيضة لنور هدايته، والمفجّرة لأنهار حضارته، وبإحيائها وعمران بلادها يناط بقاؤه، ويعود رواؤه، وينضُرُ إهابُه، ويتجدَّدُ شبابُه.

وأختم هذا التصديرَ لها بما يؤيد قولي هذا من الأحاديث النبوية في شأن الحجاز ومستقبله، وكونه مأرِزَ الإسلام ومعقِلَه، وحصنه ومَوْئله، عندما يشتدُّ على المسلمين البغيُ والعدوان، ويركبون المناكير، فيناكرهم الزّمان، أو تستباح بيضتهم بما أعرضوا عن هداية القرآن.

قال رسول الله ﷺ «إنَّ الإيمانَ ليأرزُ إلى المدينةِ كما تأرِزُ[1] الحيةُ إلى جُحْرِها» رواه البخاري (١٧٧٧)ومسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة.

والمعنى: أنه سيعودُ إلى المدينة والحجاز كله، ويأوي إليه كما تعودُ الحيَّةُ إلى جحرها، ولا سيّما إذا خافت.

وأعمّ منه وأدلّ على المراد قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الإسلامَ بدأ غريباً وسيعودُ غريباً كما بدأ، وهو يَأْرِزُ بين المسجدَيْنِ، كما تأرِزُ الحيةُ في جُحْرِها» رواه مسلم من حيث ابن عمر (٢٣٢ ـ ١٤٦).

وأعمُّ منه وأظهرُ قولُه ﷺ: «إنَّ الدينَ ليأرِزُ إلى الحجاز كما تأرِزُ الحيَّةُ إلى جُحْرِها، وليعقلنّ الدينُ من الحجاز معقلَ الأُروِيَّةِ من رأس الجبل[2]، إنّ الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً، فطوبى للغرباء، الذين يُصْلِحُون ما أفسدَ الناسُ بعدي من سُنَّتي»[3].

والمعنى: أنّ الإسلام سيضعفُ ويصيرُ غريباً ومضطهداً في الأقطار، فلا يجد له حصناً ومعقِلاً إلا الحجاز، فيعتصمُ فيه كما تعتصم الأُرْوِية في شناخيب الجبال.

وأوسع من ذلك كلّه، وأدلُّ على الباعث عليه ما رواه أحمد (١/ ٢٢٢) والبخاري (٣٠٥٣) ومسلم (١٦٣٧). من حديث ابن عباس

---

(١) أرز كعلم: انضم واجتمع وانكمش، وورد لغة من بابيّ ضربَ وقعَد.

(٢) الأُروِيَّة بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء أنثى الوعول، وهي تعتصم في أعالي الجبال.

(٣) [أخرجه الترمذي رقم (٢٦٣٠) في الإيمان باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وفي سنده كثير بن عبد الله المزني وهو ضعيف، ولأوله وآخره شواهد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن].

أنّ النبيَّ ﷺ أوصى عند موته بثلاثٍ أولُها: «أَخْرِجُوا المشركين من جزيرةِ العرب».

وما رواه أحمد (١: ٢٩)ومسلم (١٧٦٧) والترمذي (١٦٠٧)عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «لأُخْرِجَنَّ اليهودَ والنّصارى من جزيرةِ العَرَبِ حتى لا أدعَ فيها إلا مسلماً».

وما رواه أحمد (٦: ٢٧٥)من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: آخرُ ما عَهِدَ به رسولُ الله ﷺ أنْ قال: «لا يُتْرَكُ بجزيرة العربِ دينان».

وروى أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه قال: آخرُ ما تكلَّمَ به رسولُ الله ﷺ: «أخرجوا اليهود أهل الحجازِ ونصارى نجران من جزيرة العرب» والمراد أنّه آخر ما أوصى به عند موته[١].

وأما آخر كلمة نطق بها ﷺ فهي: «اللهم الرفيق الأعلى»[٢].

وقد بيّنْتُ في مواضع من جزء «التفسير»[٣] العاشر وغيره حكمة هذه الوصايا النبوية ، وهي ما أطلع الله تعالى عليه رسوله ﷺ وأخبر به ، كما في حديث ثوبان رضي الله عنه[٤] وغيرِه من تداعي الأمم على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصتها، وسَلْبِهم لملكِهم، واضطهادِهم لهم في دينهم، إلى أن يضطروا إلى الالتجاء إلى مهد الإسلام الأول ، أو معقله الأعظم، ومأرِزِه الآمن، وهو الحجاز، وسياجه من جزيرة العرب، ولذلك أوصى بأن يكونَ هذا المعَقِلُ خاصًّا بالمسلمين، لا يشاركهم فيه غيرُهم، فهذه الوصيةُ من دلائل نبوته ﷺ قد ظهر سرُّها في هذا العصر.

---

(١) [أخرجه أحمد(١: ١٩٥)].

(٢) [أخرجه البخاري رقم (٤٤٣٥) ومسلم رقم (٢١٩١)].

(٣) [تفسير المنار].

(٤) [أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) وأحمد (٥: ٢٧٨) وهو حديث صحيح أوله: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم. . .»].

وها نحن أولاءِ نرى أعداءَ الإسلام ما زالوا يطاردون المسلمين حتى انتهوا بهم إلى جزيرة العرب، وطفقوا ينازعونهم فيها، بل وصلوا إلى الحجاز، واستولوا بمساعدة بعض أمرائه(١) على أعظم موقع من معاقله البريّة والبحرية ما بين العقبة ومعان، وصاروا باستيلائهم على سكة الحديد الحجازية على مقربة من المدينة المنورة، التي خَصّها الرسول ﷺ من هذه الوصايا بالذكر، وأنشأوا يؤسسون وطناً لليهود في جوارها من فلسطين، التي يدّعون أنّها لهم وحدَهم، وسيطلبون ضَمَّ خيبر إليها. بأنها كانت لهم، وأخرجهم عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه منها. فإذا لم تتعاون جميعُ الشعوب الإسلامية على مساعدة حكومة الحجاز بالمال والنفوذ الصوري(٢) والمعنوي على حفظ الحجاز وعمرانه، بل إلجائها إلى ذلك واضطرارها إليه، فستتقطّعُ قلوبُهم أسفاً وندماً، ويذرِفون بدل الدموع دماً، إذ لاتَ حين مَنْدَمَ، ولا متأخر ولا متقدَّمَ.

ولقد كنتُ في حَيْرَةٍ لا أهتدي السبيلَ إلى أقرب الوسائل لهذا العمران، حتى وجدتُه مرسوماً في هذه «الارتسامات»، داحضةً أمامَه جميع الشبهات، فبادِروا إليه أيها المسلمون ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وكتبه

ناشر الارتسامات

محمد رشيد رضا

منشيء مجلة المنار

١٣٥٠ ـ ١٩٣١

---

(١) [الأمير عبد الله بن الحسين الذي صار ملكاً على شرقي الأردن].

(٢) [المادي. ومن الجدير بالذكر أن رشيد رضا من أوائل من نبهوا إلى الخطر الصهيوني].

تعقيب الأمير شكيب أرسلان على مقدمة السيد محمد رشيد رضا

أرسلنا إلى الأمير مثالاً من هذه المقدمة قبل طبعها، فكتب إلينا هذا الاستدراك:

اقتراحُ تشديد الحكومات على الفقراء بعدم الحج لم يكن مرادي به إلا منعَ الفقراء المعدمين، الذين لا يستطيعون إلى الحج سبيلاً، والذين إذا جاؤوا إلى مكة صاروا وَقْراً على أهلها وحكومتها.

وأما الفقراء الذين لم يبلغ فقرُهم هذه الدرجة، فليسوا المراد بكلامي.

إني أوافِقُ الأستاذَ على كون دول الاستعمار تُشدِّدُ الشروطَ عمداً على من يريد الحج، المستطيع وغير المستطيع، وذلك قطعاً لصلة المسلمين بمكة، وعزلاً لهم عن إخوانهم في الدين، وإذا سمحت أحياناً بالحج فيكونُ على كره منها، وتعتاض من ذلك بإكراه الحجاج على ركوب بواخرها، وتفرض عليهم أجرة فاحشة، وتحشرهم فيها حشراً يزيد قهرهم.

وفي السنة الفائتة لم تزلْ فرنسة تتنوّع في الشروط، وتتعنّتُ على الحجاج، حتى لم يَقْدِرْ على الحجّ إلا (٣٠) شخصاً من كل جزائر المغرب، مع أنّ الذين كانوا نَوَوْا الحج هم أكثر من ألف وتسعمئة.

ولا يكثر على الفرنسيس بعد ذلك أن يمنّوا بكرة وأصيلاً على

مسلمي المغارب بالحرية الدينية، التي أمتعوهم بها، وأن يملؤوا جرائدهم بما منحوهم منها، حتى يَخالَ من يطلع على الحقيقة أن مسلمي المغارب راتعون في بحابح الحرية الدينية، كما يصفها هؤلاء الخطباء والكتاب.

والحقيقة أنّ أهل المغارب جميعاً في عناء شديد من كل جهة، ولا سيّما من جهة حرية الاجتماع بسائر المسلمين، بل من جهة حرية اجتماعهم بعضُهم مع بعض.

ومنذ شهر نادى المنادي في أسواق فاس بأنّه ممنوع ذهاب التجار للبيع أو الشراء بين قبائل البربر، وجميعُ الناس يعلمون أنّه لا يقدر أحدٌ من الفقهاء ولا من حملة القرآن ولا من مشايخ الطرق الصوفية أن يدخلَ قرى البربر، ولا أن يجولَ في الجبال التي هم فيها إلا بإذنٍ خاصٍّ من الحكومة.

على حين [أن] مئات من الرهبان والراهبات والأَقِسَّةِ والمبشرين يجولون في بلاد البربر كيف يشاؤون، ويبنون المدارس والكنائس.

فهذا هو كنه الحرية الدينية التي تمنُّ بها فرنسة على مسلمي المغارب، ومن كان في شك من كلامنا هذا، فليذهبْ إلى تلك البلاد، أو فليسأل الثقات من أهلها.

وكتب
شكيب أرسلان
لوزان ـ سويسرة

ترجمة المؤلف

١ ـ عصره: عاش أمير البيان شكيب أرسلان عصراً حافلاً بالأحداث، فقد شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كما شهد النصف الأول من القرن العشرين، وفي هذه الفترة حدثت أحداث ووقعت أمور، ففيها استكلب الاحتلال الأوربي على بلاد العروبة والإسلام، وفيها استبان عسف الحكام الأتراك بالعرب، وفيها تنبه الوعي القومي العربي، ونشأت فكرة التخلص من الحكم العثماني، والاستقلال في الحكم العربي، وفيها سقطت الخلافة، وانطوى حكم بني عثمان، وفيها وقعت الحربان العالميتان الأولى والثانية، وفيها اقتسمت بريطانية وفرنسة بلاد العرب بعد تمزيقها، وفيها اقتُطِعَتْ فلسطين من أرض العروبة، واغتصبها اليهود، وفيها ظهرت بدع الاستعمار: الوصاية والانتداب، وفها تخلص العرب من الاحتلال الأوربي في كثير من بلدانهم، وفيها قامت عصبة الأمم ثم ماتت، وفيها نشأت هيئة الأمم المتحدة.

٢ ـ اسمه ونسبه: هو الأمير شكيب بن حمود بن حسن بن يونس بن فخر الدين بن حيدر بن سليمان بن فخر الدين بن يحيى بن مذجج بن محمد بن أحمد بن خليل بن مفرّج بن يحيى الأرسلاني اللخمي، وأمه شركسية، وكلمة شكيب فارسية معناها الصابر.

٣ ـ ولادته ونشأته: ولد في ليلة الإثنين أول ليلة من رمضان سنة (١٢٨٦) هـ الموافق للخامس والعشرين من كانون الأول ـ ديسمبر سنة

(١٨٦٩) م في قرية الشويفات إحدى قرى مقاطعة الشوف في لبنان.

لما بلغ شكيب الخامسة من عمره، أحضر له أبوه معلماً اسمه الشيخ مرعي شاهين سلمان فعلمه مبادىء القراءة والكتابة، وفي الصيف ذهبت الأسرة إلى بلدة عين عنوب، وهناك أحضر له أبوه معلماً آخر اسمه أسعد فيصل فعلمه تلاوة القرآن الكريم، وحفظ جانباً منه.

وبعد رجوع الأسرة إلى الشويفات دخل شكيب المدرسة الأمريكية بالقرية، حيث تلقَّى دروس الجغرافية والحساب واللغة الانكليزية وغيرها.

في سنة (١٨٧٩) دخل مدرسة دار الحكمة ببيروت، فمكث فيها ثماني سنوات، ومن أبرز أساتذته فيها عبد الله البستاني صاحب معجم «البستان».

وفي عام (١٨٨٧) دخل شكيب المدرسة السلطانية، وفيها درس على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الفقه والتوحيد بجوار علوم المدرسة الأخرى، وقد أعجب الإمام بالفتى الذكي، الذي بدأ يقول الشعر، وتوقع له مستقبلاً عظيماً، ومن ذلك اليوم أخذت علاقة الأمير بالإمام تتوثق فيسمع منه ويتأثر به.

وفي عام (١٨٨٩) سافر شكيب إلى دمشق، وحضر مجلس الشيخ محمد المنيني مفتي الشام، وتعرف على العلامة جمال الدين القاسمي والعلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار، ونابغة الشام الشيخ طاهر الجزائري وغيرهم من أعلام النهضة في سورية.

وفي عام (١٨٩٠) سافر إلى مصر لأول مرة، واجتمع بالشيخ محمد عبده، وبصفوة المفكرين والعلماء أمثال الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» وغيره.

وفي أواخر عام (١٨٩٠) سافر إلى الآستانة والتقى بحكيم الإسلام وموقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني وسمع منه وتأثر به.

وفي عام (١٨٩٢) سافر إلى فرنسة، وهناك تعرف بالشاعر أحمد شوقي.

٤ ـ **وظائفه وجهاده**: في عام (١٩٠٨) عين مديراً لشويفات، ثم قائم مقام لمقاطعة الشوف لمدة ثلاث سنوات، ولما صدر الدستور العثماني سنة (١٩٠٨) وتألف مجلس المبعوثين في الآستانة عام (١٩٠٩) اختير شكيب ليكون نائباً عن حوران.

وفي عام (١٩١١) اعتدت إيطالية على ليبية، فانبرى شكيب يكتب المقالات النارية حاضاً العرب والمسلمين للدفاع عن حوزتهم، ولم يتكف بهذه المقالات بل حمل السلاح، وذهب إلى ليبية متخفياً، ليشترك في قتال الطليان إلى جانب أنور باشا.

في سنة (١٩١٢) سافر شكيب إلى تركية حيث اختير مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري فقام بمهمته خير قيام.

وفي عام (١٩١٢) علم بتقسيم فرنسة وبريطانية لسورية وفلسطين، وذلك من خلال اعترافات المسيو بوانكاره، لذلك لم يتحمّس للثورة العربية عام (١٩١٦) لما يعلم من نوايا الإنكليز والفرنسيين، فاختار أهون الشرين، اختار الترك على الحلفاء واليهود، وهاهو يقول: «**لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهباً مقتسماً بين إنكلترة وفرنسة، وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود، وهذا التكهن كان عندنا مجزوماً به**».

وفي سنة (١٩١٢) سافر إلى المدينة المنورة لإنشاء مدرسة فيها.

عاد إلى دمشق ليشهد مذابح الأحرار في دمشق وبيروت على يد السفاح جمال باشا، وعبثاً حاول الأمير ثني السفاح عن جرائمه، واستغلَّ زيارة صديقه أنور باشا لسورية ليشكو إليه جرائم جمال باشا وبطشه بأحرار العرب.

بدأ السفاح يضايق شكيباً، ليوقع به، ويلحقه بإخوانه من أحرار

العرب، ولما علم شكيب بنوايا السفاح فر إلى إستانبول، ليشكو السفاح إلى الباب العالي وناظر الحربية أنور باشا.

في عالم (١٩١٦) تزوج الأمير من الآنسة سليمى الخاص بك حاتوغو، وهي فتاة شركسية.

في عام (١٩١٦) بدأت الثورة العربية الكبرى، لكن الأمير لم يتحمَّس لها، لما يرى فيها من أصابع بريطانية فهو يقول: «لو أعلم أن الثورة العربية ستؤدي إلى استقلال العرب لما سبقني إليها أحد».

مع دخول الفرنسيين سورية، وبعد مقاومة اشترك فيها الأمير، فرّ إلى مرسين بتركية ومنها إلى برلين، حيث أنشأ جمعية الشعائر الإسلامية وبقي هناك عدة سنوات.

وفي عام (١٩٢٢) سافر إلى جنيف رئيساً لوفد سوري فلسطيني للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم أمام عصبة الأمم، ومن ثَمَّ اختار جنيف مكاناً لإقامته.

وفي عام (١٩٢٦) سافر شكيب على رأس الوفد السوري إلى رومة ليبسطَ أمام لجنة الانتداب القضية السورية، وقدَّم لرئيس اللجنة مطالب سورية، التي تتلخَّص في إلغاء الانتداب، ووحدة سورية، وإصدار دستور لها.

كما نشر مقالاً فضح فيه ألاعيب فرنسة مع تركية على حساب سورية باقتطاع أجزاء منها ـ أنطاكية واسكندرونة ـ لتقديمها إلى تركية.

في سنة (١٩٢٧) سافر الأمير إلى أمريكة الشمالية حيث رأس مؤتمراً عربياً في مدينة دترويت بناء على دعوة من عرب المهجر هناك.

في أواخر سنة (١٩٢٧) زار روسية، واستُقبل هناك بحفاوة وإجلال.

وفي سنة (١٩٢٩) حج شكيب إلى بيت الله الحرام، والتقى الملك عبد العزيز آل سعود، وكتب «الرحلة الحجازية» المسماة «الارتسامات

اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» وهي هذا الكتاب.

وفي سنة (١٩٣٠) قام برحلة إلى إسبانية، وعاد فكتب «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» وكتب «تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط» وفيه ردٌّ غير مباشر على دعاة الاستعمار وأذنابه من الشعوبيين الجدد.

كما أصدر «مجلة الأمة العربية» بالفرنسية في جنيف دافع فيها عن قضايا العرب والمسلمين.

في سنة (١٩٣٤) اشترك في وفد الصلح الذي أرسله المؤتمر الإسلامي بالقدس للتوفيق بين الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن بعد أن نشبت الحرب بينهما، واستطاع الوفد أن يقوم بمهمته على الوجه المرضيّ.

في صيف (١٩٣٧) سمحت له فرنسة أن يزور سورية، واستقبله أبناؤها استقبالاً رائعاً، وسعد بتقبيل يديّ أمه، وأرادت الحكومة السورية أن تعبّر عن تقديرها له، فأصدرت قراراً بتعينه رئيساً للمجمع العلمي العربي، لكنَّ فرنسة نكثت بوعودها فترك شكيب سورية، وعاد إلى أوربة.

وفي عام (١٩٣٩) أذنت له الحكومة المصرية بزيارة مصر بعد أن حيل بينه وبينها سنوات طويلة، فزارها، وبعد أن قضى في مصر أربعة أشهر عاد إلى أوربة.

وقامت الحرب العالمية الثانية بظروفها القاسية التي نال منها شكيب نصيبه، ولكنّه لم يكفّ عن الجهاد في سبيل العروبة والإسلام.

٥ ـ عودته إلى وطنه ووفاته: انتهت الحرب عام (١٩٤٥)، وتحررت سورية ولبنان، فعاد شكيب إلى وطنه في أواخر تشرين الأول ـ أكتوبر عام (١٩٤٦) واستقبله أبناء العروبة بحفاوة وإكبار.

وضعفت صحة الأمير بمرور السنين، وطول الكفاح، وتوالي المتاعب، وكثرة الأمراض.

وفي يوم الإثنين (١٥) من المحرم سنة (١٣٦٦) الموافق للتاسع من كانون الأول ـ ديسمبر سنة (١٩٤٦) لحق شكيب أرسلان بربه بعد حياة طويلة حافلة، وصُلّي عليه في الجامع العمري ببيروت، ثم نقل جثمانُه إلى قريته الشويفات حيث دفن فيها، حيث أبّنه الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى بخطبة جامعة.

مات الأمير تاركاً زوجة وابناً هو غالب، وابنتين هما: مي وناظمة، وداراً ببرلين فيها كتبه وأوراقه.

تصفه زوجته قائلة: **كان متديناً، محافظاً على الصلاة، قضى حياته كلها في الكتابة أو القراءة أو الحديث أو الرحلة.**

٦ ـ **حليته**: كان شكيب يميل إلى طول القامة، حنطي اللون، أميل إلى الامتلاء في شبابه، لكنه نحل في آخر عمره، كما ضعف بصره، وابيضّ شعره، وكانت يده ترتعش إذا كتب، وكان صوته أميل إلى الخشونة والامتلاء.

كان يعرف الفرنسية والتركية والإنكليزية وجانباً من الألمانية.

٧ ـ **مؤلفاته**: لشكيب أرسلان عشرات من الكتب والرسائل بعضُها مطبوع، وبعضها الآخر مخطوط، وها هي أسماء هذه الكتب:

أ ـ المطبوعـات:

١ ـ «الرحلة الحجازية» المسماة «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ـ مطبعة المنار ـ الطبعة الأولى سنة (١٣٥٠ ـ ١٩٣١) وهو هذا الكتاب.

٢ ـ «أناطول فرانس في مباذله» تأليف جان بروسون، ترجمه وقدم له وعلق عليه شكيب أرسلان المطبعة العصرية بالقاهرة الطبعة الأولى

لم تذكر سنة الطبع، ولكنها سنة (١٣٤٥ ـ ١٩٢٦).

٣ـ «تاريخ ابن خلدون» تعليق شكيب أرسلان الجزء الأول والثاني مطبع النهضة بالقاهرة ـ الطبعة الأولى سنة (١٣٥٥ ـ ١٩٣٦).

٤ ـ «تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط» مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه بمصر الطبعة الأولى سنة (١٣٥٢ ـ ١٩٣٣).

٥ ـ «حاضر العالم الإسلامي» تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي ـ ترجمة عجاج نويهض ـ تعليق شكيب أرسلان ـ الطبعة الأولى بالمطبعة السلفية، في جزئين والطبعة الثانية بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة (١٣٥٢ ـ ١٩٣٣) (٤)أجزاء.

٦ ـ «ديوان الأمير شكيب أرسلان» طبع وتصحيح السيد محمد رشيد رضا مطبعة المنار بمصر الطبعة الأولى سنة (١٣٥٤ ـ ١٩٣٥).

٧ـ «رواية أخر بني السراج» تأليف الكونت دي شاتوبريان، ترجمة شكيب أرسلان، ومع الرواية خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب، وكتاب «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» لمؤرخ مجهول، و«أثارة تاريخية رسمية في أربعة كتب سلطانية أندلسية» مطبعة المنار بالقاهرة الطبعة الثانية سنة (١٣٤٣ ـ ١٩٢٥).

٨ ـ «روض الشقيق في الجزل الرقيق» شعر نسيب أرسلان جمعه وقدم له وعلق عليه شكيب أرسلان مطبعة ابن زيدون بدمشق الطبعة الأولى سنة (١٣٥٥ ـ ١٩٣٥).

٩ ـ «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» مطبعة ابن زيدون بدمشق، الطبعة الأولى سنة (١٣٥٦ ـ ١٩٣٧).

١٠ ـ «شوقي أو صداقة أربعين سنة» مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر الطبعة الأولى سنة (١٣٥٥ـ ١٩٣٦).

١١ ـ «عروة الاتحاد بين أهل الجهاد» جمعت وطبعت على نفقة جريدة «العلم العربي» لصاحبها عبد اللطيف الخشن في بونس أيرس

الطبعة الأولى في رجب سنة (١٣٦٠ ـ ١٩٤١) لم يطبع غير الجزء الأول.

١٢ ـ «لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم؟» مطبعة المنار بمصر سنة (١٣٤٨).

١٣ ـ «رد على كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين طبع مقدمةً لكتاب «النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي» تأليف الدكتور محمد أحمد الغمراوي المطبعة السلفية بمصر ـ الطبعة الأولى سنة (١٣٤٧ ـ ١٩٢٩).

١٤ ـ «النهضة العربية في العصر الحاضر» محاضرة للأمير شكيب أرسلان في دار المجمع العلمي العربي بدمشق في تشرين الثاني ـ أكتوبر عام (١٩٣٧) وطبعتها ونشرتها إدارة جريدة «الجزيرة» بدمشق، وليس على الكتاب سنة الطبع، ولكن يظن أنها سنة (١٣٥٦ ـ ١٩٣٧).

١٥ ـ «الوحدة العربية» محاضرة ألقاها الأمير شكيب أرسلان في النادي العربي بدمشق في (٢٠) أيلول ـ سبتمبر (١٩٣٧) وطبعت في مطبعة الاعتدال بدمشق، نشر محمد ياسين عرفة صاحب مكتبة عرفة بدمشق، الطبعة الأولى سنة (١٣٥٦ ـ ١٩٣٧).

١٦ ـ «باكورة» ديوان شعر.

١٧ ـ «الدرة اليتيمة» لابن المقفع تحقيق وتعليق.

١٨ ـ «المختار من رسائل الصابي» تحقيق وتعليق.

١٩ ـ «أعمال الوفد السوري الفلسطيني».

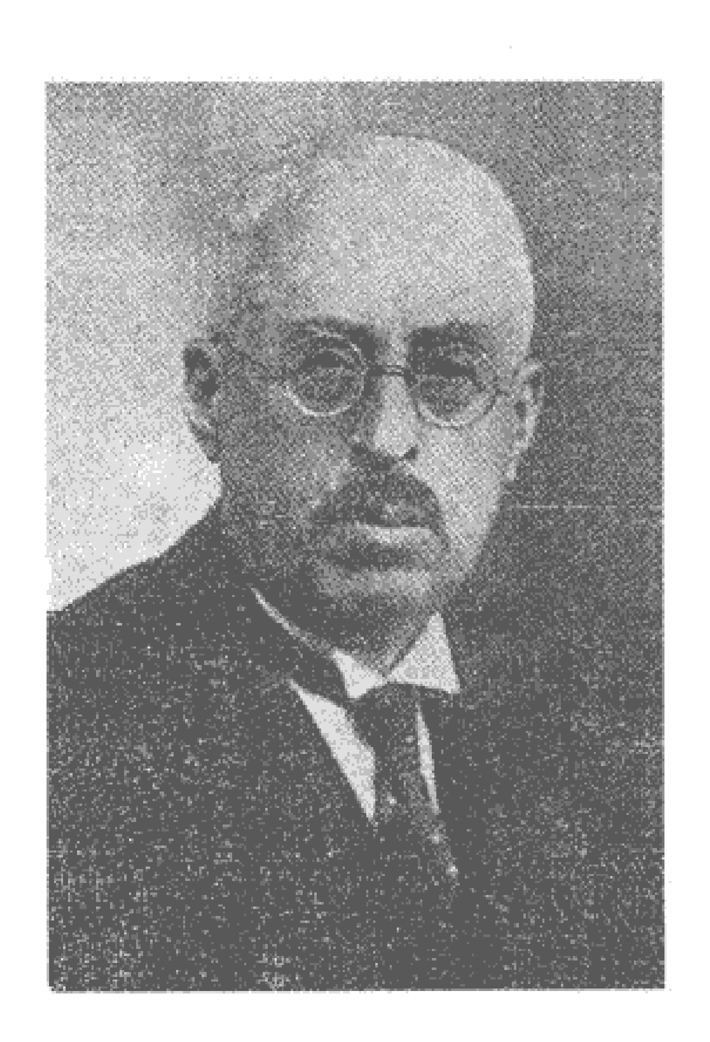
٢٠ ـ إلى العرب: بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية. طبع في مطبعة العدل في الآستانة عام (١٣٣٢)هـ، وهو ملحق بكتاب «تاريخ الدولة العثمانية» للمؤلف طبع دار ابن كثير.

٢١ ـ لائحتين إلى المسيوجوفنيل [المندوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان].

٢٢ ـ «مجلة الأمة العربية» بالفرنسية في جنيف.
٢٣ ـ «محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي» تحقيق وتعليق شكيب أرسلان طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.
٢٤ ـ «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» صدر منه ثلاثة مجلدات.
٢٥ ـ «رحلة روسية».
٢٦ ـ «رحلة ألمانية».
٢٧ ـ رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق.
٢٨ ـ مقالات شكيب أرسلان.

ب ـ المخطوطات:

٢٩ ـ بيوتات العرب في لبنان.
٣٠ ـ البيان عما شهدت بالعيان.
٣١ ـ تاريخ بلاد الجزائر.
٣٢ ـ مالم يرد في متون اللغة.
٣٣ ـ حياة شكيب بقلمه.
٣٤ ـ بحث عن طرابلس وبرقة.
٣٥ ـ بقية الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية».
٣٦ ـ «اختلاف العلم والدين» ترجمة.
٣٧ ـ الحلة السنية في الرحلة البوسنية.
٣٨ ـ مدنية العرب.
٣٩ ـ الجيش المعبا في تاريخ أوربة.
٤٠ ـ قضيتنا مع سمو الخديوي عباس حلمي الثاني.
٤١ ـ تاريخ لبنان.
٤٢ ـ إصلاح العامية.
٤٣ ـ التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف.



الأمير شكيب أرسلان



المسماة

الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف

بقلم

أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

قدم لها وعلق عليها

السيد محمد رشيد رضا

صححها وعلق عليها

حسن السماحي سويدان


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للهِ الواحدِ الخلاّق، وسبحانَ الله وبحمدِه في العشيِّ والإشراقِ، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ شهادة الإخلاصِ، التي نرجو بها الخلاصَ يوم التلاق، وتَهُوْنُ بها سكراتُ الموتِ إذا حَشْرَجَتْ الأنْفُسُ في التراق.

ونشهدُ أنّ محمداً عبدَ اللهِ ورسولَه أشرفُ الخَلْقِ على الإطلاق، المبعوثُ لإقامة الحقّ والعدْلِ وإتمامِ مكارِمِ الأخلاق؛ بكتابٍ باهرِ المحَجةِ، وسُنَّةٍ واضحةِ الحُجَّةِ، وبراهينَ كالصُّبحِ في الإنفلاقِ، والشَّمْسِ في الائتلاق.

صلّى اللهُ عليه وعلى آله الغطاريفِ، وعلى أصحابِه الصناديدِ، وعلى أنصارِه الكرامِ العتاقِ، الذين نشروا التوحيدَ المحض في الآفاق، وجمعوا كرمَ الأفعال إلى كرمِ الأعراق ـ ما هبّتْ نسائمُ الأسحار، وتفتّقتْ كمائمُ الأزهار، وسَجَعَتْ الوُرْقُ على الأوراقِ ـ وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد: فقد مضتْ عليَّ حججٌ كثيرةٌ، وأنا أهمُّ بأداء فريضةِ الحجِّ، والعوائقُ تعوقُ ، والموانعُ مِنْ حَوْلٍ إلى حَوْلٍ تحولُ، إلى أنْ يَسَّرَ اللهُ بلطفِه وحسنِ توفيقِه لي أداءَ هذا الفرض في سنة (١٣٤٨)هـ أي منذُ

سنتين كاملتين، فكان قصدي إلى الحجاز من لوزان بسويسرة، عن طريق نابولي بإيطالية، إذ ركبت منها البحرَ على باخرةٍ إنكليزية إلى بور سعيد، حيث نزلتُ، وفي اليوم التالي ذهبتُ إلى السويس، ومنها أبحرتُ إلى الحجاز، في باخرةٍ مكتظَّةٍ بالحُجّاجِ، فأَحْرَمْنا ولبينا من بحرِ رابغ، ووصلنا إلى جدة من السويس في اليوم الرابع، على ما وصفتُ في رحلتي الحجازية التي سيقرؤها المطالعُ.

وفي مساء يوم وصولي إلى جدة يسَّرَ اللهُ دخولي إلى البلد الأمين، مبادِراً إلى البيتِ العتيق بالطواف، وإلى المروة والصفا بالسعي، وبعد ذلك بيومين، صعدنا إلى منى فعرفة، ثم أفضنا منها إلى المزدلفة، حيث بتنا ليلةً، ثم عُدْنا إلى مِنى، حيثُ لبثنا ثلاثَ ليالٍ، وعدنا إلى البيت الحرام، وتممنا مناسك الحجّ، واللهُ يتقبّلُ منا، ويتوبُ علينا، إنّه قابلُ التوبِ، غافرُالذنبِ، العليُّ الكبيرُ، لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به، ويَغْفِرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء، ويعفو عن كثيرٍ.

ولقد وجدتُ مناسباً أن أنشرُ ما ارتسم في مخيّلتي من هذه المشاهد، وما انطبعَ في لوحِ دماغي من مناظر تلك المشاعر المباركة والمعاهد، مقروناً بما يعنُّ لي من الآراء، مشتملاً على ما عندي من الملاحظات التي أحِبُّ أن يطّلع عليها القراء، فأرسلت إلى جريدة «الشورى» بمقالات كنتُ نشرتها فيها الفينةَ بعد الفينةِ. ذاكراً فيه مكة وعرفة، ومِنى والمزدلفة، وتلك البقاع المعظمة المشرّفة.

ولما كنتُ بعد ذلك قد صعدت إلى الطائف مستشفياً من سَقَمٍ أصابني في أثناء أداء الفريضة، كتبتُ أيضاً عن الطائف وجبالِها ومرابِعها ومنازِهِها، وجنانِها وكرومِها وفواكِهِها، ولم أقتصرْ في الوصف على جنانِها الناضرة، وأحوالِها الحاضرة، بل كررت النظر إلى الوراء من أمورٍ تاريخية ماضيةٍ، ومددتُه إلى الأمام في أمورٍ اجتماعية مستقبلَة، بحيثُ جمعتُ في هذه الرسائل بين مباحث جغرافية وتاريخية، ومواقِفَ

سياسيةٍ واجتماعيةٍ، ومسائلَ عمرانيةٍ واقتصاديةٍ، ودقائقَ لغويةٍ وأدبيةٍ، متناولاً من القديم والحديث، ومتنقِّلاً بين التالد والطريف.

ومن حيث أني كنتُ أصدِرُها من وقت إلى آخر في جريدةٍ سيّارة كانت هيئتُها أقربُ إلى أسلوب الجرائد منها إلى أسلوب الكتب، لأنّ الكاتبَ إذا كتب بين أسبوع وآخر متأثِّراً بالعوامل المختلفة، ملاحِظاً المتجددات اليومية، مراعِياً حالة قرّائه الروحية ـ ذهب به الاستطراد كلَّ مذهب، وشرّدتْ به شجونُ القول فشرّقَ وغرّبَ، ولهذا جاء في هذا الكتاب استطرادٌ ليس بيسيرٍ من فصلٍ إلى فصلٍ، وإن كان جميعُه مرتبطاً بالموضوع، ومردوداً إلى الأصل.

ثم رأيتُ أنّ إكمال هذا التأليف على الخطة التي انتهجتها أوّلاً ـ مِنْ نشرِه رسائلَ متفرّقَةٍ على الأسابيع ـ قد يأخذُ وقتاً طويلاً، ولا ينتهي بأقَلِ من سنتين أو ثلاث، على أنّي صرتُ مشغولاً مستغرِقاً برحلتي الأندلسية، التي قد تأخذ مجلّداتٍ عِدَّة[1]، ولا يتأتّى لي الاشتغالُ بغيرها هذه المدة، فعدلتُ مؤخّراً عن الطريقة الأولى، وقطعتُ رسائلَ هذه الارتسامات عن «الشورى»، وانصرفتُ إلى إكمال هذا التصنيف توًّا، حاثّاً مطية القلم إلى غايته، ماضياً به بلا توقف إلى آخره، فكان ما نُشِرَ منه «الشورى» نحو الثلث، وما لم يُنْشَرْ في «الشورى» ولا في جريدةٍ غيرِها نحو الثلثين.

هذا، ولمّا تسنّى إكمالُه، وبلغَ الإبدارَ هلالُه، رأيتُ أنْ أُتَوّجَهُ باسم جلالة الملك الهمام، الذي هو غُرَّةٌ في جبين الأيام:

«عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود»

ملك الحجاز ونجدٍ وملحقاتها

تذكاراً لجميل الأمنِ الذي مدّ على هذه البلدان سرادِقَه، وعرفاناً لقدر العدلِ الذي وطّدَ فيه دعائمَه، وناط بالإجراء مواثقه، وابتهاجاً

(١) [وقد نشر منها ثلاثة مجلدات بعنوان «الحلل السندسية»].

بالملك العربي الصميم، الذي صانَ للعروبة حقّها، وللإسلام حقائِقَه، أدام الله تأييده، وأطلعَ في بروج الإقبال سعودَهُ، وخلَّدَ شمسَهُ الشارقةَ، ووفّقَهُ للاتفاق مع سائر ملوك العرب وأمرائها، والعمل مع رجالاتها العاملين لرقيّها وعلائها، ولا سيما الملِكين الهمامين، الفاضلين الكاملين، الماهدين المجاهدين، المتوكلِ على الله «**الإمام يحيى بن محمد بن حميد الدين**» صاحب اليمن، و«**الملك فيصل بن الحسين**» صاحب العراق والرّافدين، أدامَ الله توفيقهم جميعاً لما به حفظ تراث الأمة العربية، وإبلاغها المقام الذي تسمو إليه نفوسُ العرب الأبيّة، وحياطتها بوحدة الكلمة من سطواتِ الغدرِ، وغوائلِ المكر، التي لا تفارِقُ حركات الدول الأجنبية. والله تعالى سميعُ الدعاء، كفيلٌ بتحقيق الرجاء: آمين.

وكتب بلوزان
في (٥) ذي الحجة الحرام (١٣٤٩)
شكيب أرسلان

من السويس إلى جدة ووصف الإحرام والتلبية

فَصلْنا من ميناءِ السويس في (٨) مايو ـ أيار على باخرة تقلُ نحواً من (١٣٠٠) حاج من إخواننا المصريين، وفيهم بعضُ المغاربة، فسارت بنا الباخرة رهواً ورخاء، لم نشعر فيها إلى جدة بأدنى حركةٍ للبحرِ تُزعِجُ الراكبَ، وإنما كان المزعجُ هو اكتظاظُ السفينةِ بالراكبين، حتى لا يَقْدِرَ أحدٌ أن يمرَّ من شدّةِ الزّحام.

وفي اليوم الثالث من مسيرنا، ناوحنا[1] ميناء رابغ، ولما كان الحجيجُ الوارد من الشمال في البحر الأحمر عليه أن يُحْرِمَ من رابغ، فقد أحرم جميعُ الحجاج الذين في الباخرة، وارتفعتْ الأصوات من كل جهة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمدَ والنعمةَ لك والملك، لا شريك لك» فاستشعر النّاسُ من الخشوع في أثناء ضجيجِ الحجيجِ هذا ما اتصل بأعماقِ القلوب، وتغلّغلَ في سرائرِ النفوس، وأحسَّ الجميعُ أنَّ البيتَ الذي يخلعُ النّاسُ تعظيماً له أثوابَهُمْ قبل الوقوف بعتبتِهِ بمسيرة يومين، ويشتَمِلُونَ في القصد إليه ما ليسَ فيه شيءٌ من المخيطِ ـ لَبيتٌ مقدَّسٌ، لا يؤمُّهُ النّاس كما يؤُمُّوْنَ سائرَ البيوت، وإنّه فوقَ بيوتِ الملوك، وفوقَ مقاصيرِ القياصرة، وأواوينِ الأكاسرةِ، التي لا يحرِمُ في الطريق إليها أحدٌ، لا من بعيدٍ ولا من قريبٍ.

---

(١) [حاذينا].

وما زال النّاس مستشعرين الخشوعَ تلك الليلة، مواظبينَ على التلبية، مترقّبين طلوعَ الفجر، الذي يدنيهم من جدة، ميناءِ البيت العظيم الذي يؤمونه، إلى أن انفلق الصبحُ، وأخذتْ تبدو جبالُ الحجاز للعين المجردة، فارتفعت الأصواتُ بالتهليل والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيجُ التلبية للعليِّ الكبيرِ، وخالطَ الهيبةَ والخشوعَ بالقدوم على البيت الحرام الفرحُ والابتهاجُ بالوصول إلى أطهر بقعة وأقدس مرام، ولم تكن ترى إلا عيوناً شاخصةً، ولا تحِسُّ إلا قلوباً راقصةً، والجميعُ متطَلّعون إلى سواحلِ الحجاز، منتظرون بذاهبِ الصبر أن يقبلوا على جدة.

فلمّا كان ضحى اليوم الرابع من ذي الحجة دخلت الباخرة مرسى جدة، لكن بتؤدة عظيمة، لما في هذا المرسى من الجبال والصخور، التي تكاد رؤوسها تبرز من تحت لجج البحر، وإذا بخمسَ عشرةَ باخرةً راسياتٍ في ذلك الميناء على أبعادٍ متفاوتةٍ من البر.

وصف جدة، وغرابة ألوان بحرها

ولقد طاب لي من ميناء جدة منظران، لا يزالان إلى الآن منقوشَيْنِ في لوح خاطري:

أحدهما: **رؤية هذه البواخر** الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها: إنّه وإن كانتْ هذه السواحلُ قِفاراً، لا تستحقُّ أن ترفأ إليها البوارجُ ولا السّفنُ، فإنّ وراءها من المعنوي أمراً عظيماً، ومقصِداً كريماً، هذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة من أجله، ولقد قيل لي في جدة: ماذا رأيتَ!!؟ فمن العادة أن تجتمع في مياه جدة ثلاثون باخرة وأربعون باخرة، وقد يبلغُ عددُ الراسي فيها إلى خمسين باخرة، حتى يعودَ البحرُ هناك غاباً أشبى[1]، وتظن نفسك في هامبورغ أو نيويورك.

---

(١) [الملتف].

وأما المنظر الثاني: **فهو منظر مياه هذا الميناء**، فلقد طفت كثيراً من البحار، وعرفت أكثر البحر المتوسط، والبحر الأسود، وبحر البلطيق وبحر المانش، والأوقيانوس الأطلانتيك[1]، ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان، كنتُ كيفما نظرتُ يمنةً أو يسرةً أشاهِدُ خطوطاً طويلة عريضة في البحر أشبه بقوس قُزَحٍ في تعدُّدِ الألوان، وتألُّقِ الأنوار، من أحمر وأزرق وبنفسجي وعُنّابي وبرتقالي وأخضر إلخ. ولا فرقَ بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى أنّ هذه الخطوط مستقيمة، وأن قِسيَّ قزح مقوَّسةٌ، وأنّ هذه في السماء، وهاتيك في الماء، وقد تشبه هذه الخطوط ذيولَ الطواويس، لا فرقَ بينهما إلا في كون هذه الذيول المنسحبة على وجه البحر عظيمةً جداً، تمتد مئات من الأمتار وبعرض عشرات منها، ولكن في تعدد الألوان وموازاة بعضها لبعض، وشدة تألقها الآخذ بالأبصار لا تجد بينهما بوناً. فكأن في كلّ جهة من بحرِ جدة مسرحُ طواويس سابحة في اللُّجَجِ الخُضْرِ، وظهورُها إلى سطح الماء الواحد منها بقدر ألفِ طاووس مما نعهدُ.

قضيتُ العَجَبَ من هذا المنظر، وقلت: إنّ مثلَ هذا الميناء لا تملّه النواظرُ، ولا تشبهُهُ المناظرُ، مهما كانت نواضرُ.

ثم سألتُ رُبّانِ الباخرة ـ وهي من البواخر الهندية ربانها إنكليزي ـ عما إذا كان رأى هذا المنظر في بحرٍ آخرَ، وقلت له: إنّي جلتُ كثيراً في الدنيا، ورأيتُ أبحراً وبحيراتٍ وأنهاراً لا تحصى، ولم أعهدْ مسرحَ لمحةٍ على سطحِ ماءٍ يحاكي في البهاءِ هذا الميناء، فما قولك أنتَ؟

قال لي: مهما يكن من سيرك في الأرض ومعرفتُك للبحار، فلا

---

(١) [المحيط الأطلسي].

تعرِفُ منها جزءاً مماأعرفُ، وأنا أقولُ لك: إنّي لا أعهد هذه المناظر البديعة إلا لهذا الميناء وحده.

فسألتُه عن السبب في تشكُّلِ هذه الألوان.

فقال: إنّ قعرَ البحر هنا ليسَ ببعيدٍ، وإن فيه أضلاعاً مكسوَّةً نباتاً بحرياً متنوّعَ الألوان والأشكال، وإنّ هذه الأضلاعَ ناتئةٌ قريبةٌ من سطح الماء، فتنعكس مناظرُها إلى الخارج، ويزيدُها نورُ الشمس رونقاً وإشعاعاً.

وقيل لي فيما بعدُ: إنّ ملوحةَ البحر الأحمر زائدةٌ، وإنّ هذه الملوحة هي السبب في تكوُّن هذه الشعاب، التي تكثرُ في هذا البحر، وتجعلُ مسالكه خطرة، وإنّ هذه الشعاب تنمو وتعلو حتى تقارِبَ سطحَ الماء، ومنها ما يبرزُ عن سطح الماء، فيكوّن جزيرةً.

وإنّ هذه الشعاب متكونةٌ من أعشابٍ وحيواناتٍ بحرية من طبقة الإسفنج، وهي ذواتُ ألوانٍ شتّى، كلُّها ناصعٌ، ومنها ما هو أحمرُ ساطع، ومنها ما هو أخضرُ ناضرٌ، ومنها ما هو أصفرُ فاقعٌ، ومنها ما هو دونَ ذلك.

وقد يقتلع الملاّحة والغواصةٌ منها أشجاراً تسمى بشجر المرجان، وهي في غايةِ الجمال، ومن أبهى ما يوضَعُ في أبهاء القصور للزينة.

فهذه الشعاب هي التي تنعكِسُ ألوانُها على سطح الماء، فتكونُ أشبهَ بذيولِ الطواويس، أو بقسيِّ السّحاب، وهي في الوقت نفسه الأخطارُ الدائمة على السفن، والغِيلانُ المتحفِّزةُ لِابتلاعها، فسبحانَ الذي أودعَ فيها الحُسْنَ، ولكنَّه أنزلَ فيها البأسَ، وجعلها غائلةً للمراكب. ولقد صدق المثل: «إنّ مِنَ الحُسْنِ لشقوةٌ».

قالوا: وإنّ آمن مرسى في الحجازِ مرسَى رابغ، ذلك لعمق غوره، وقِلّةِ شعابِه، وعللوا ندورَ الشعاب فيه بكون ملوحة بحر رابغ أقل من ملوحة سائر المراسي، وهذا من كثرة السيول المنصبَّةِ على رابغ، فالماء

الحلو قد نقّص من ملوحة ميناء رابغ، وعافاه من تلك الشعاب، التي هي آفةُ الموانىء الأخرى في البحر الأحمر.

وحبذا لو قامت هيئةٌ جيولوجية بالفحص اللازم لأحوال البحر الأحمر الطبيعية، وأعطتْ حكمَها في أسبابِ تكوُّنِ هذه الشعاب، وكثرتها في هذه الموانىء، وفي منشأ هذه المناظر الجميلة، التي تلوح للرائي إذا أقبلَ عليها، فإنّ الأسبابَ التي ذكرناها لم نتوكّأ فيها على تقريرٍ فني، بل على الكلامِ الذي يدور على ألسنة النّاس.

هذا ما كان من تأثيرِ بحر جدة في خاطري.

فأما بر جدة، فالبلدة لا بأس بها، ولا يوحش الداخلَ منظرُها. نعم إنّ بناءَها لا يزالُ كأنه من القرون الوسطى، ولكنَّ بناءَ القرون الوسطى ليس كلُّه منبوذاً. وقد بدأ المهندسون يقلّدونه، ويرجعون إلى كثيرٍ منه.

ولعمري لستُ ممن يحبُّ الجدة لجدة في طرز البناء، ولكنّي أتمناها لها في استعمال الآلات الميكانيكية الحديثة، والطرق العصرية في مرافق الحياة، وفي الصناعة، والتجارة، وسائر أركان العمران.

وأما أسلوب البناء فليس فيه ما يستهجَنُ، بل أرى نجارة الأبنية فيها راقية، وهذه الرواشنُ الكثيرة اللطيفة ـ التي قد أعجبت الكولونيل لورانس الإنكليزي يوم جاء جدة في الحرب الكبرى ـ قد أعجبتني أنا أيضاً.

وقد أَخْنَتْ الحربُ الكبرى على معظم عمران جدة فيما أخنت عليه من عمران هذا العالم، وازداد جَزْرُها في الحصار الأخير ـ قبل أن استولى عليها الملك ابن سعود، فلما ألقتْ بمقاليدِها إلى جلالته، بدأ يَرْجِعُ إليها العمران، واستؤنف النشوء، ولا تمضي سنواتٌ معدوداتٌ حتى تسترجعَ درجة عمرانها السابقة.

شعوري القومي في جدة والحجاز

يلذُّ الإنسانُ عند دخوله إلى جدة تذكره أنّها بابُ مكّةَ المشرَّفة، وأنّ المزارَ أصبحَ قريباً، وقد لذّني أنا يومَ دخولي إليها زيادة على ذلك ما شعرتُ به من أنّي هنا لستُ تحتَ سيطرةٍ أوربية... نعم شعرتُ منذ وطئتْ قدمي رصيفَ جدة أنّي عربيٌّ حرٌّ، في بلادٍ عربية حُرَّةٍ، شعرتُ أني تملّصتُ من حكم الأجنبي الثقيل، الملقي بكلكله على جميع البلاد العربية ـ ويا للاسف ـ حاشا مملكتي الإمامين عبد العزيز ابن سعود، ويحيى بن محمد حميد الدين.

شعرتُ أني حرٌّ في بلادي، وبين أبناء جلدتي، لا يتحكّمُ في رقبتي المسيو فلان، ولا المستر فلان إلخ بحجّةِ انتدابٍ أو احتلالٍ، أو سيطرةٍ أو حمايةٍ أو وصايةٍ، أو غيرِ ذلك من الأسماء المخترعة، التي يُرادُ بها تنعيم مَسِّ الفتوحات، وتخفيفُ مرارتها في الأذواق.

شعرتُ أني إنْ كنتُ خاضعاً هنا لحكومة، فكخضوع لويد جورج لحكومة إنكلترة، وكخضوع كليمنصو لحكومة فرنسة، أي أنّي خاضعٌ لحكومة عربية بحتة، رأسُها وأعضاؤُها مني وإليّ، وأنا منها وإليها، وبعبارة أخرى إنّي هنا خاضع لنفسي، وإنّ كلّ من أراه من رعاياها إنما هو خاضعٌ لنفسه، وأن الأمرَ في هذه الديار مع العرب هو على حد ما قال الصوفية: المكلَّف هو المكلِّفُ، وإنّ تعدادَ الوجوداتِ هو تعدادُ ألوانٍ، لا تعدادُ أنواعٍ.

شعرتُ أنّ رئيسي هنا هو ابن جلدتي، الذي يغار عليَّ كما أغار على نفسي، وأنّ الجندَ الذي يحيط بي ، ويحفظُ الأمَنَةَ عليَّ وعلى غيري هم ممن أجتمعُ وإيّاهم في أرومةٍ واحدةٍ، وممن أرمي وإياهم إلى هدفٍ واحدٍ، فلا تثقلُ علي سلطتُهم، ولا يتكاءدني[1] الخضوعُ لنظامهم، لأني أرى فيه نظامَ أمتي، وانتظامَ شملي.

وليس هنا ذلك الرئيس الغاشم، الثقيل الوطأة، السيءُ النية، المتكبّر المتجبّر المتغطرس، الغريب عني، الذي لست منه ولا هو مني، الآتي إلي بلادي ليتحكَّمَ في أمورها، ويستغلَّ خيراتها، ويضربَ على سكانها الذّلَ والمسكنة، لأنه لا يقدِرُ أن يعتز إلا بذلهم، ولا أن يُثري إلا بفقرهم، ولا أن يقوَى إلى بضعفهم، ولا أن ينصَّعَ وجَهه إلا بفقر دمهم، وسيأتي يومٌ نقول فيه: ولا يحيا إلا بموتهم.

لم أكن هنا في البلاد التي مع أنّها وطني ووطن آبائي وأجدادي، ووطنُ قومي وأمتي، وجنيُ سواعدهم، وثمرةُ دمائهم، التي سالتْ فيها أنهاراً، لا يؤذَنُ لي أن ألقيَ عليها نظرةً بعد غُرْبَةٍ متطاولة، ونَبْوَةٍ متمادِيَةٍ، ولا أن أدوسَ على ترابها بقدمٍ خفيفةٍ، ولو ساعةً من الزّمنِ، وذلك لأنّ غريباً غَلَبَ عليها، فقبضَ على أعنّتها، وتصرَّفَ بها كيف شاءَ، يُدْخِلُ من يشاء، ويُخْرِجُ من يشاء، فأصبحَ هو صاحبَ البيت، وأصبحَ أصحابُ البيت هم الغرباء...

شعرتُ في الحجاز أنّي تظلُّني رايةٌ عربيةٌ محضةٌ حقيقيةٌ، لا رايةً مشوبةً بشعار أجنبي، ولا رايةً ليس يسيرُ من تحتها جندٌ عربي، إلا ما كان من قبيلٍ مرتزقة أو مستأجرين تحت قيادة مَنْ لا يرقُبُ في هذه الأمةِ إلاً ولا ذِمَّةً، وإنما ينظرون إليها كطعامٍ للأمم، التي تدّعي عليها الوصايةَ، وكمتمم لأسباب رفاهيتها أو نعيمها.

---

(١) [يشق عليه].

لقد صدقت الجريدة الدمشقية التي قالت: إنّه لم يبقَ في البلاد العربية بلادٌ أَقْدِرُ أن أدخلها إلا الحجاز، والحقيقةُ أني أدخلُ أية بقعةٍ أردتُ دخولها من جزيرة العرب حامداً الله على بقاء هذه الجزيرة تحت سلطان أهلها دون سواهم، وعلى أنّ حكومتي الحجاز ونجد واليمن لا تعرِفُ شيئاً من الامتيازات الأجنبية، التي تكادُ تغرَقُ في لججها الأممُ التي تحت الوصاية، والتي لا يزال منها رسيسٌ حتى في تركية، فالإفرنجي ـ سواء في مملكة ابن سعود أو في مملكة الإمام يحيى ـ خاضعٌ للشريعة الإسلامية بجميع أحكامِها.

الملك ابن السعود

ثم شاهدتُ جلالةَ ملك هذه الديار وخادمَ الحرمين الشريفين «عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود» وكان في جدة ذلك اليوم، فوجدتُ فيه الملكَ الأشمَّ الأصيدَ، الذي تلوحُ سيماء البطولة على وجهه، والعاهلَ الصنديدَ الأنجدَ، الذي كأنما قُدَّ ثوبُ استقلال العرب الحقيقي على قَدِّهِ، فحمدتُ اللهَ على أنّ عيني رأتْ فوقَ ما أذني سمعتْ، وتفاءلتُ خيراً في مستقبل هذه الأمة.

لا أقصد في إعجابي هذا بشخصية الملك ابن سعود تنقُّصَ أحدٍ من ملوك العرب الآخرين، ولا التعريضَ بأيّ ملكٍ أو أميرٍ ينطِقُ بالضاد، بل نحن نتمنّى تأييدَ الجميع، وتسديدَ الجميع، كما نتمنى تأييد ابن سعود وتسديده بدون فرق، وحباً بمصلحة الأمة العربية التي استقلالُها مربوطٌ باستقلالهم، فأما إذا كانوا يشترطون على المحب لهم والمتواجد على خيرهم أن يكره لهم ابن سعود، أو أن يسكتَ عن الإشادة بحسناته، والإعجابِ بما آتاه الله من المواهب، فإنّ شرطاً كهذا ليس من الانصاف في شيء، ويكون من البديهي أننا لا نقبله.

ركبتُ بدعوةِ جلالة الملكِ ابن سعود إلى يساره في السيارة[1] وسرنا بمعيته مساءَ يوم وصولي، وذلك إلى البلد الأمين، حماهُ ربُّ العالمين.

ولم أجد الحرارة في جدة فوق ما تتحمله النفس، حتى نفس الذي لم يتعوّدْ الحر، نظير هذا العاجز، بل هواء البحر يرطِّبُ جوَّ جدة، ويخفف من سموم الصحراء، وذلك بخلاف مكة التي حرُّها شديدٌ.

الطريق من جدة إلى مكة

فأما الطريق من جدة إلى مكة في هذا الفصل، فليسَ فيها ما يَسْرَحُ به النظر في مونقٍ أو ناضر، فلا ترى من أولها إلى ما يقارِبُ آخرَها غصناً أخضرَ يلوحُ، ولا رقعةً بقدر الكفِّ خضراءَ، ولا يكادُ يقعُ بصرُكَ من الجانبين إلا على رمال محرِقةٍ، تدخل العشايا، ويجن الليل، وهي حافظةٌ لحرارة النهار، وعلى آكام وأهاضيبَ أكثرُها من الحجارة السود، كأنها من بقايا البراكين.

ولما وصلنا إلى بحرة ظننت أنّي أرى فيها قريةً أشبه بالقرى، فإذا بمجموع عِشاشٍ وأخصاصٍ وبيوتٍ لا تُرضي ناظراً، وهناك أماكنُ استعاروا لها اسم المقاهي، وهي في الحقيقة أخصاصٌ، تشتمل على مقاعد من خوص، يجلس عليها المسافرون، الذين بلغ بهم الجهد، فيشربون شيئاً من الشاي، أو ينقعون غُلَّتَهم بماءٍ لا غناءَ فيه، وكان الأولى بأهلِ مكة وجدة أن يجعلوا من بحرةٍ منزلاً تَقَرُّ به عينُ المسافر، ويجدُ فيه خضرةً ونعيماً بعد تلك الرمال المحرقة، والآكام الجرداء، والأملِ أنّ حكومة الملك ابن سعود تنظرُ إلى هذه العلّةَ فتزيلُها.

---

(١) اصطلحوا في الحجاز على تسمية (الأوتوموبيل) سيارة، وقد يقولون موتر، أي (Moteur) ويجمعونها على مواتر)

وقد قيل لي: إنّ طريق جدة إلى مكة ليستْ طول السنة في هذه القسوة التي رأيتُها فيها، بل هي في الربيع غيرُها في الصيف، إذ يرى منها المسافِرُ في الربيع كلأً كثيراً، وخِصباً نضيراً، وقتاداً وطلحاً، وشجراً وسَرْحاً.

كانتْ قوافلُ الحجاج من جدة إلى مكة خيطاً غيرَ منقطع، والجمالُ تتهادَى تحت الشقادِفِ، وكثيراً ما تضيق بها السبيل على رَحْبها، وكان الملك ـ أيده اللهُ ـ من شدة إشفاقِه على الحاجّ، وعلى الرعية، لا يرفَعُ نظره دقيقةً عن القوافل والسوابل، ولا يفتأُ ينتِهرُ سائقَ السيارة، كلّما ساقها بعجلةٍ، قائلاً له: «تريدُ أن تذبحَ الناس». وكلُّ هذا لشدَّةِ خوفه أن تمسَّ سيارتُه شقدفاً، أو تؤذي جملاً أو جمّالاً، وهكذا شأنُ الراعي البَرّ، الرؤوف برعيته، الذي وجد أنّه مأمورٌ بمعرفة واجباته.

وما زلنا نسيرُ حتى دخلنا حدودَ مكة، التي يُحَرَّمُ فيها الصيد، فالمسافة بالسيارة لا تتجاوز أربعَ ساعات، وبعد ذلك وصلنا إلى الثُكنة العسكرية، وصرنا بين البيوت، فعلمنا أننا تشرّفنا بدخول البلدة التي تشرّفَتْ بمولد محمد ﷺ سيد الوجود، وبالبيتِ الذي طّهره إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما الصلاة والسلام للطائفين والعاكفين والرُكّع السجود، فقصدنا توّاً إلى البيت الحرام، حيث طفنا وسعينا، وجأرنَا ودعونا، واللهُ يتقبّلُ الدعاء، ويغفرُ الذنوب في ذلك المقام الكريم ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

* * *

الكلام على مكة المكرمة

صفتها الحسية ـ ومكانتها المعنوية ـ وكعبتها البهية ـ
وهويّ القلوب إليها من جميع البرية
ورزقها من جميع الأغذية والثمرات استجابةً لدعاءِ إبراهيم ﷺ.

جعل الله مكة مكاناً لعبادته تعالى لا غير، وكأنّه سبحانه وتعالى لما قضى بأن تكونَ محلاً للعبادة ومثابةً للناس وأمناً قضى أيضاً بتجريدها من كُلِّ زخارفِ الطبيعة، ولم يشأ أن يطرّزها بشيءٍ من وَشْيِ النباتِ، ولا أن يخصَّها بشيءٍ من مسارحِ النظرِ المونقة، حتى لا يلهو فيها العابد عن ذكر الله بخُضْرَةٍ ولا غدير، ولا بِنَضْرَةٍ ولا نمير، ولا بهديل على الأغصان ولا هدير، وحتى يكونَ قصدُه إلى مكة خالصاً لوجه ربّه الكريم، لا يشوبهُ تطلُّع إلى جِنانٍ أو رياضٍ، ولا حنينٌ إلى حياضٍ أو غياضٍ. وحتى يبتليَ اللّهُ عبادَه المخلصين، الذين لا وُجهةَ لهم سوى التسبيح له، والتأمل في عظمته تعالى، فكانتْ مكةُ أجردَ بلدةٍ عرفها الإنسانُ، وأقحلَ بقعةٍ وقعتْ عليها العينانُ.

مكة هذه البلدةُ المقدسةُ، التي هي فردوس العبادة في الأرضِ، وجنة الدنيا المعنوية عبارةٌ عن وادٍ ضيّقٍ ذي شعابٍ متعرّجة، تحيطُ بذلك الوادي جبالٌ جرداءُ، صخريةٌ صماء، لا عُشْبَ [فيها] ولا ماءَ، قاتمةُ اللون، كأنّها بقايا البراكين، إذا مرَّ عليها الإنسان يوماً من أيام الصيف

في هاجرةٍ ظنَّ نفسَهُ يدوسُ بلاطَ فُرْنٍ، أو يضّطجعُ في حمّامٍ، وإن تركَ على تلك الصخور لحماً كادَ يشتوي بلا نارٍ، أو ماءً كادَ يغلي بلا وقودٍ، وليسَ في تلك الشعاب أشجار ولا أنهار، ولا مروج ولا عيون تلطِّفُ من حرارة تلك الحجارة السود في حَمّارة القيظ، وكأنَّ القاصدَ إلى هذا الوادي إنما يزدادُ بهذه القسوة الجغرافية أجراً وثواباً وارتفاعَ درجاتٍ، فبقدر ما أفاضَ الله على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بحرمانِهِ من الحِليةِ الماديَّةِ.

وقد وصفَ اللهُ تعالى هذه الحالة فقال عن لسان إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وظاهرٌ من هذا أنّه وادٍ مجّردٌ للعبادة دونَ غيرِها، وأنّه غيرُ ذي زرعٍ ولا ضرعٍ، ليزدادَ أجرُ النّاس بالقصدِ إليه، والعكوفِ فيه.

ولما كان شدُّ الرحال إلى وادٍ كهذا خالٍ من جميع أسباب الحياة تقريباً ليس مما يرغَبُ فيه النّاس، الذين من عادتهم أن يقصدوا الأماكنَ الرغيدة والمتنزهات، وأن يعوِّلوا على البقاع المَرِيعة التي يأتيها رزقها رخاءً ورغداً، دعا إبراهيم ربَّه فقال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فبدعوة إبراهيمَ هذه هوتْ إلى هذا المكان وإلى المتمكنين فيه أفئدةٌ، ورفرفت عليهم جوانحُ من جميع فجاج الأرض، ترى النّاس منذ ألوفِ من السنين يحجُّون هذا البيتَ المحَرّمَ، ويُحْرِمُون قبل الوصول إليه بمراحل، ويُوْفِضُون إليه كأنما يُوفِضُون إلى أنزهِ بقاع البسيطة، وأطيبها نجعةً، وأكثرِها خيراً وميراً، وتجدُ قلوبَهم في الرحلةَ إليه ملأى بالفرح، لا يكادون يصدِّقونَ أنّهم مشاهدوه من شِدَّةِ الوجد، وغلبة الهيام، حتى إذا شاهدوه، فاضت العبراتُ، وخفقت الجوانحُ،

وتمايلت الأعطافُ، وانتقل النّاسُ إلى عالمٍ تكاد تقول: إنّه غيرُ هذا العالم، قال ابن دريد[1]:

يحمِلنَ كُلَّ شاحبٍ مُخْقَوْقِفٍ   منْ طُوْلِ تِذْآبِ الغُدُوِّ والسُّرَى
ينوي الّتي فَضَّلها ربُّ السما   لما دَحا تُرْبَتَها على البُنَى
حتّى إذا قابَلَها استعبرَ لا   يَمْلِكُ دمعَ العينِ من حَيْثُ جَرَى

وهم إذا وصلوا إلى مكة وجدوا عندها من الثمرات والخيراتِ مالا يجدونه في البقاع التي تشقُّها الأنهار، وتُظِلُّها الأشجار، وذلك أنّ المجلوب إلى مكة من أصنافِ الحبوب، والخضراوات، والفواكه، والمحمولِ إليها من البضائع، والمتاجر، واللباس، والفراشِ، والرياشِ، والطيبِ، وغيرِ ذلك ـ يفوقُ ما يُجْلَبُ إلى عَشْرِ مدنٍ من أمثالها في عدد السكان، وربما أكثر.

لا يكاد الحاج يشتهي شيئاً إلا ويجده في هذه البلدة القاحلة، فحولَ مكة من المزارع، والمباقل، والمباطخ، والمقاثي، وفي جبال الطائِف من الجنان والبساتين والكروم ما لا يأخذه العَدُّ، ولا يُدْرَكُ منه شيءٌ في فصل من الفصول إلا انحدر به أهلُه إلى مكّة، فالثمراتُ التي دعا إبراهيمُ ربَّه من أجلها، تفيضُ على البلد الأمين كالسيل المتدفّق، أو العارض المغدِقِ.

مياهُ مكة في الجاهلية والإسلام

وأمّا الماء، فقد كان في أم القرى من أيام الجاهلية آبارُ نبعٍ ومصانع، مما يجتمع من مياه المطر، ومن هذه الآبار اليسيرة، التي حفرها لؤي بن غالب، والروي، التي حفرها مرة بن كعب، وخمّ ورمّ، هما من حَفْرِ كلاب بن مرة، والجفر والعجول وبذر، التي حفرها

---

(١) [«المقصورة»: ٤٩ و٥٠].

هاشم بن عبد مناف، وسجلة وخم ورم أخريان، حفرهما عبد شمس بن عبد مناف، وأم أحراد، والسنبلة، وهي حفر بني جمح، والغمر لبني سهم، والحفير لبني عدي، والسقيا لبني مخزوم، والثريا لبني تيم، والنقع لبني عامر بن لؤي، وبئر حويطب لحويطب بن عبد العزى من بني عامر بن لؤي، وبئر أبي موسى الأشعري بالمعلاة، وبئر شوذب، وبئر بكار، وبئر وردان، وسقاية سراج، وبئر الأسود للأسود بن سفيان من مخزوم، وغيرها.

ومن هذه الآبار ما هو معروفٌ إلى اليوم باسمه ومكانه، ومنها ما قَدْ طُوِيَ اسمُه، أو رُدِمَ مكانُه، فإذا سألتَ علماءَ مكة لم يعرفوه، والظاهرُ أنّ جميعَ هذه الآبار لم تكن لتكفيَ مكةَ في الجاهلية، إلى أنْ وسَّعَ عبدُ المطلب بئر زمزم، فكثرَ الماءُ، وارتوى الحجيجُ.

عين زبيدة رحمها الله

أما بعد الإسلام فكثر الحجاج أضعافاً مضاعفةً عن ذي قبلُ، واشتدتْ أزمةُ الماء، لا سيّما في عرفة ومِنى أيام الحج، فانتدبتْ زُبيدةُ امرأةُ الخليفة هارون الرشيد رحمها الله لهذا الأمر، وأسالت العينَ المسماة عين زُبيدة من مسافة نحو أربعين كيلو متراً، وهو عملٌ عظيمٌ جداً، يستنطِقُ الألسنَ بالترحُّمِ عليها كلّما ذكرتْ، أو كُلّما روى حاجٌّ ظمأه، أو أسبغَ وضوءَه، منذ نحو (١١٠٠) سنة إلى اليوم ـ وإلى ما شاء الله.

ولقد جرّت زبيدةٌ رحمها الله هذا الماء من وادي نَعمان الشهير في قناة، كانت تنتهي قبلَ الوصول إلى مكة بمسافة ثلاثة أرباع الساعة، وهذه القناة أكثرُها تحتَ الأرض، وفي بعضِ الأماكن تظهَرُ على وجهِ الأرض تابعةً لخطتها الهندسية، وأما عُلُوُّ سقفِ القناة، ففي بعض الأماكن يَقْدِرُ أن يمرَّ فيها الفارسُ راكباً، وفي غيرِها لا يقدِرُ أن يمشي

إلا الراجلُ، وليس خطُّها مستقيماً على اطراد، بل فيه تعاريجُ كثيرةٌ، قد تكون اقتضتها طبيعةُ الأرض، أو يكونَ مهندسو القناة مرُّوا بعيونٍ أرادوا أخذَها في طريقهم، فعرّجوا عليها، وحيطانُ القناة من الجانبين غير مطلية بالجير، ولا مجصَّصةٍ، بل مبنية بالحجر البسيط، وذلك حتى يرشحَ الماءُ من خلال الحيطان، لأنّ الجص من شأنه أن يمنعه كما لا يخفى، ومن دقائق هندسة هذه القناة أنّهم جعلوا انحدار الماء في المجرى خفيفاً، وذلك خشية من أن يحفرَ في الأرض فيما لو كان شديداً، فتصيرَ أرضُ المجرى مع توالي القرون أسفل كثيراً من الحيطان، فتصبحَ هذه على شفا جُرفٍ هار.

ولهذه القناة خرزات مفتوحة من سطحها، على مسافة كل (٢٠) أو (٣٠) ذراعاً واحدة، وذلك لأجل سهولة التعزيل.

قالوا: إنّ زبيدةَ أنفقتْ على هذه العين مليون دينار، وأنها لما انتهت من العمل جيء إليها بدفاتر الحسابات لمراجعتها، فأمرت بطيها، وقالت: إنما عملنا ما عملناه في سبيل الله، فلا فرقَ بين أن تكونَ النفقةُ أكثرَ أو أقلّ.

وكان في الماضي موكلاً بهذه القناة ثلاثمئة رجل من بيشة، وكانوا يحرسُونها ليلاً ونهاراً، ومنهم أناسُ عند كلّ خرزةٍ، فأما الآن فإنَّ الحكومةَ جاعلةٌ لها دَرَكاً خاصّاً ومفتشين، لا يزالون يتعهَّدونها من رأسِ نبعِها إلى مكة.

وقيل لي: إنّه لا يزالُ في وادي نَعمان عيونٌ من الممكن شراؤها، وإضافتُها إلى عين زُبيدة.

ثم إنّه يوجدُ عينٌ أخرى اسمها عينُ الزعفران، جددتها ملكةٌ أخرى اسمها زعفران، قيل لي: إنّها من إحدى الأسر المالكة كانت بمصر، ولم أجدْ ذلك في كتابٍ، فهذه العين مجرورةٌ من وادي حُنين، من

مسافة لا تقلُّ عن مسافة قناة عين زُبيدة، إلا أنَّ ماءَ عين زبيدة أغزَرُ وأعذَبُ.

وتتصلُ قناة الزعفران بقناة عين زُبيدة في محلةِ المعابدة، في أول مكة من جهة الداخل من مِنى.

وكان [سليمان القانوني] أحدُ سلاطين بني عثمان قد أوصل هذه المياه إلى مكة سنة (٩٧٩) هـ، فأكمَل ذلك العمل العظيمَ، الذي قامتْ به زُبيدة، واقتدت بها الزعفرانُ فيما قالوا.

وبعدَ ذلك منذ نحو أربعين سنة جاء أحدُ الهنود المسلمين، وتبرّعَ بمبلغٍ من المال، وجمعَ من مسلمي الهند مبلغاً آخر، وبنى بهذه الأموال بضعةَ عشر خزّاناً للماء، في كلِّ حارةٍ من حاراتِ مكة خزان، فكان بذلك للنّاس مرفَقٌ عظيم، وهذا الخزان يقال له اليوم بمكة بازان، وهي لفظةٌ إنكليزية، جاءتهم من الهند، معناها بركة أو صهريج، ومع هذا فقد بقي الماءُ عزيزاً في موسم الحج، فربما بِيعتْ قربةُ الماء بأربعينَ قرشاً.

ولما تولّى الحجازَ الملك «**عبد العزيز بن سعود**» زادَ سُبَلَ الماءِ في مكة ومِنى، فأزاحَ جانباً كبيراً من العِلّة، وفي أيامه تأسس في مكة معملان للجَمَدِ (الثلج) فكان في هذين المعملين من إزاحة العِلّةِ، وشفاء الغُلَّةِ، ما لا يخفى على من يعلم حَرّ مكة في أيام السرطان والأسد والسنبلة[١]، فقد أصبحَ أكثرُ الحجاج والسكان يَشْفُونَ أُوامهم[٢] بالماء المثلوج، ولعمري لا أجدُ مُؤْنِساً في حرٍّ كهذا الحر كألواح الجمد، التي ترتاح النفس إلى مجرّدِ النظر إليها، قبل النهل والعلّ[٣] منها، وكأنّها في فصل كهذا حصونٌ منيعةٌ يتقي بها الإنسانُ لفحاتِ السَّمُوم.

---

(١) [النهل: الشرب أول مرة، والعل: الشرب ثانيةً].
(٢) [أشهر الصيف وتبدأ من ٢٢ حزيران حتى ٢٢ أيلول].
(٣) [الأوام بالضم: حَرّ العطش].

الحر في الحجاز وما يقتضيه من كثرة المياه

والحرُّ في الحجاز نوعان:

أحدهما **الوَمَدُ**، وهو الحرّ الشديد، مع انقطاع الريح.

والثاني: **السَّمُوم**، وهو الريح الحارة، وهذه الريح إذا اتقاها الإنسان بمنشفةٍ مبلولةٍ بالماء، أو بحصيرٍ مرشوشٍ بالماءِ، معلَّقٍ فوقَ بابٍ أو نافذةٍ انقلبت باردةً.

وبالجملة فأشدُّ ما يعاني المرء من حَرِّ مكة هو فيما لو تعرَّضَ للشمس في وسط النهار.

أما المتعوِّدُون، وأبناء مناطق خَطّ الاستواء، فلا كلام لنا فيهم، فقد كنتُ أراهم في وقت الظهيرة، يمشون ويتهادَوْنَ في الشمس، كما يمشي الواحدُ منا في ظلال جنة، ولم يكن يصيبهم أدنى ضرر.

ولم يكن يُصابُ بضربةِ الشّمسِ إلاّ من تعرَّضَ لها من حُجّاجِ الشّمال لا غيرَ.

من فوائد هذه الحرارة الشديدة في مكة في أيام الموسم أنّها تقتل بشدتها جميعَ الجراثيم المضرَّةِ، فلا تجدُ في الحجِّ شيئاً من الأوبئة السارية، وقد مات في هذا الموسم من مئتي ألف حاج نحو (٢٥٠) نسمة فقط، كلُّهم تقريباً ذهبوا بضربة الشّمس، ولا أريدُ أن أجعلَ الفضلَ كلَّه في قلة الأمراض لحمَّارة القيظ، بل الإدارة الصحية في الحجاز بفضل تدابيرِ مديرِها، وهمّةِ الخمسة والعشرين طبيباً الذين يعاونونه ـ هي خيرُ إدارةٍ صحية عرفها الحجازُ إلى اليوم، ما عدا الأيام التي كان فيها المرحوم قاسم بك عز الدين في زمن الأمير عون الرفيق، وأسس الترتيبات الصحية التي لا تزال نبراساً إلى هذه الساعة، فالدكتور محمود حمدي يحذو حذو المرحوم الدكتور عز الدين، وتجده هو وأطباؤه في أيام الموسم لا يعرفون لذّةَ الكرى من أجل سهرهم على صحة الحجاج.

وكلّ سنة يستزيد الدكتور حمدي جانباً من المخصصات المالية، لأجل القيام بتدابير صحية جديدة، وفي هذا الموسم رأيتُ العربات في مِنى ترشُّ الحوامضَ المطهرة، فكان لذلك أحسن وقع في النفوس.

وأما الجمد فتقاتِل به الصحية كثيراً من الأمراض، ولا سيما الحمى، وإن كانت تنهى عن الإفراط في شرب الماء المذاب من الثلج، فالثلج إذااقتُصِدَ في شربه رَوْحٌ للأرواح، وشفاءٌ للملتاح، في مثل الحجاز (حاشا الطائف وجبالها حيث لا لزوم له ألبتة) وكنتُ هممتُ بنشر رسالةٍ اسمها «**قطف العُسْلُوج، في وصف الماء المثلوج، بجوار البيت المحجوج**» أصفُ فيها محاسنَ هذا الماء في مكة أيامَ القيظ، وأجعلُها تقدِمَةً للأستاذ الأكبر السيد محمد رشيد رضا.

ونعودُ إلى حديث الماء في مكة، فقد سمعتُ أنهم حفروا فيها في محلة الشهداء، فعثروا على قُنِيٍّ قديمةٍ عُدْمُلية[1] تحت الأرض، وعلى مياه جارية، وأخرى مطمورة، ولعلّ الحكومة السعودية تتابع الحفر في هذه المحلة، فتنشر هذه المياه من قبرها، ولعلّها تهتمُ بإضافة مياهٍ من وادي نَعمان إلى عين زُبيدة.

ولكنّ هذا العاجزَ يرى أنّ كلَّ هذه الجهود لا تغني عن مشروع آخرَ لا بدَّ منه للبلد الحرام والمشاعرِ العِظام، وهو احتفارُ الآبار الإرتوازية.

إنّ مكة اليوم أصبحتْ لا تكتفي بسدِّ حاجتها من جهة الشرب ولوازم البيوت، ولو فاضَ فيها الماء فيضاناً يغني الحاج والسكان عن شراء الماء بالدرهم، بل مكةُ محتاجةٌ إلى مياهٍ تكفي لرش طرقٍ، وسقيا حدائق بلدية، وإحدار شلالات من مرتفعات مكة الكثيرة، وإنّ مكةَ بعد اليوم لمحتاجةٌ إلى ري الشجر، فضلاً عن ري البشر.

ذلك أنّ فصولَ مكة الأربعة تنحصر في فصلين:

---

(١) [قديمة].

أحدهما: الشتاء، وهو في غايةِ اللطف، وكأنّه فصلُ الصيف في أعالي لبنان.

والثاني: فصلُ القيظ، المصادف ما يسمونه بأشهر السرطان والأسد والسنبلة، وهو فصلٌ قد تصعَدُ فيه الحرارة في الظلّ بميزان سنتيغراد إلى الدرجة (٤٥) وإلى (٤٩) وفي الليل يتعذَّرُ النوم حتى على سطوح المنازل، فإنّ الذي يبقى لاصقاً بتلك الصخور من لُعابِ الشّمس، يكفي لتسخين صفحة الليل إلى أن ينبلج الصبحُ، وإنّ اليوم الذي تكون فيه الحرارة (٣٨) أو (٣٩) يعدّه المكيون معتدلاً، ويقولون: اليوم براد، فإذا نزلت الدرجة إلى (٣٥) قالوا: براد بالحيل بفتح فسكون، أي برودة زائدة، وقد تأتي في هذه الأشهر الثلاثة أيامٌ وليالٍ مقبولةٌ، إلا أنّ هذا من النادرِ الذي لا يُعْتَدُّ به.

فالحج الشريف يصادِف على مدة ستة أشهر فصلَ القيظ، الذي فيه حر شديد، وحر أشد، هو حر السرطان والأسد والسنبلة، وهذا لا يطيقه إلا أهالي خط الاستواء والتكارنة، ومَنْ هم في ضربهم.

فأما حجاجُ مصر، والشام، والمغرب، والأناضول، والبلقان، وتركستان، وشمالي فارس، وأفغانستان، وشماليّ الهند، فإنهم يتطوّقون من هذا الحر عذاباً واصباً.

وقد شاهدت علماء من العراق، فسألتهم عن نسبة حر العراق إلى حر تهائم الحجاز، فقالوا: إنّ حَرَّ الحجازِ أشدُّ.

وأكثرُ من يموتُ من الحجاج في المواسم المصادفة لفصل القيظ إنما هم من حجاج الشمال، وذلك بضربة الشمس، وأكثر ما تصيبهم هذه الضربة في عرفات، حيث يجبُ أن يكونوا مكشوفي الرؤوس.

فليتأملِ المتأمل في قضية الحسر عن الرأس في عين الشمس، عندما تكونُ درجةُ الحرارةِ في ظل الخيمة (٤٨) بميزان سنتيغراد، ومعَ أنّه يجوز للحاجِّ اتقاءً للضرر أنْ يستظلَّ بمظلةٍ عاليةٍ فوقَ رأسه، فتجدُ

أكثر الحجاج يتورّعون عن ذلك، ابتغاءَ زيادة الأجر والثواب، وعملاً بأنّ الأجرَ على قدر المشقة، وهم ينسون أنّ الله نهى عن إلقاء الإنسان بيدِه إلى التهلُكة، وأنّ احتمالَ المشقة إن كان فيه أجرٌ وثوابٌ، فالتهوُّرُ في الهلكة ليس فيه أجرٌ ولا ثوابٌ، بل يكادُ يكون انتحاراً، والانتحارُ ممنوع حتى في العبادة، إنّ الإنسان لا يجوزُ له أن يهدمَ بنيةَ اللهِ تعالى ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى، الذي لا يرضَى بذلك منه، وإنه ليس في الشرع الإسلامي ما يجيزُ للمسلمِ أن يضرَّ بجسمهِ ضرراً بيِّناً متحققاً، ولو في سبيل التعبُّدِ، فعدم الاستظلال بمظلةٍ عند ما تكونُ درجةُ الحرارة كما وصفنا نراه مخالِفاً لروحِ الشرع[1]، ومِنْ باب طلب الزيادة والوقوع في النقصان.

إنّ الهنودَ الهندوسَ الذين يرون في فِصال النفسِ عن هذه الحياة الدنيا رجعى منها إلى الروح الكلية، التي الاتحادُ بها أعلى درجات السعادة عندهم يقصدون الهلاكَ، ويستعذِبونَ العذابَ، ويرونَ في المحن سَبْكاً للنفوس، وتصفيةً لها، كما يصفَّى الذهبُ الإبريز بالنار، فتجدُهم في عبادتهم ينزِعون إلى الموت نزوعاً.

ولكن الشرع الإسلاميَّ خالٍ من هذه العقائد، وهو شرعُ دنيا وأخرى، وكما أنّه نهى عن الإفراط في حُبِّ الدنيا، نهى عن الإفراط في كرهها.

وإنّ كان الإسلامُ انتدبَ المؤمنَ إلى عزائمَ، هي قوام الرجولية

---

(١) قد احتاط الأمير في قوله هذا، ولو قال: لنصِّ الشرع لم يكن مخطئاً، فالغلوُّ في الدين منهيٌّ عنه، ولو لم يكن فيه ضررٌ بدني محقَّقٌ ولا مرجَّحٌ، ونصوصُ الكتاب والسنة في ذلك كثيرة، والأفضل للمحرم أن يُضحي (أي يبرز للشمس) إذا كانت الشمس لا تضره، فإنْ خشيَ الضررَ كُرِهَ له، فإنْ تحققه بالتجربةِ، أو بقول طبيب يعتقد صدقه، حُظِر عليه، ووجبَ الاستظلالُ. وكتبه مصححه.

والإنسانية، فقد أوجبَ عليه القيام بها ما لم يتحققْ منها عليه ضررٌ أو خطر.

وإنَّ الموطنَ الوحيد الذي حبَّبَ فيه القرآنُ احتقارَ الموت هو موطِنُ الجهاد، حيث يموتُ البعضُ لحياةِ الكل، ولأنَّ الأمةَ التي يعزُ على أفرادها أن يموتوا لا يمكنها أن تحيا، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فالشهادة إنما وعدَ اللهُ بها الذين يموتون في الذب عن بَيْضة الإسلام، وفي صدِّ العدو عن أن يستذلَهم ويستعبدَهم، ولكنّه لم يَعِدْ بها الذين يموتون من ضربة الشمس في عرفات أو مِنى، لأنهم أبَوْا أن يتقوا لهيبَ حرارتها بمظلة، فتحمُّلُ المشاقِّ في القيام بمناسك الحج واجبٌ، وفيه تمحيصٌ للذنوب، ولكن أوجبُ من ذلك الوقوفُ فيه عند الحد الذي لا يؤذِنُ بالخطر، وكانَ حقاً على العلماء أن يعطوا هذا المعنى حقَّه في الدروس التي يلقونها في الحرم أمامَ الحجاج المتواردين، فإنَّ قتلَ النفس في العبادة أشبهُ بأن يكونَ منزِعاً هندياً، من أن يكونَ منزعاً إسلامياً.

على أنّ منع جميع الحجاج من مثل هذه الأمور مع كثرة العامة بينهم سيبقى متعذِّراً، فكان الأولى أن ينظرَ في أمر عرفة ومِنى، وأن تُقلبا عن حالتهما الرملية الصحراوية الحاضرة، فينبغي أن يُبادَرَ إلى حفر آبارٍ إرتوازيةٍ في طول صحراء عرفة وعرضها، حتى تفيضَ المياه من تحتِ الأرض إلى ما فوق الأرض، ثم تبنى القنوات والصهاريج، وتغرسَ حفافيها صفوف الأشجار والرياحين، فتتهدلَ هناك الأغصان، وتتدلّى الأفنان، وترِفَّ الظلال، ويتسلل الزلال، فتخفَّ حرارةُ الشمس، ويلجأَ الحجاج في مثل هذه الأيام العصيبة إلى ظِلٍّ ظليل، وهواءٍ بليلٍ، فتكونَ درجة الحرارة تحت فينان الدوح أدنى منها في الشمس بخمس عشرة درجة، ويصيرَ الحاجُّ إذا تعرّض للشمس قادراً أن يفيء إلى الظل، وقد

يجد القارئُ هذا الفكر خيالاً[1]، ويصعب عليه أن يرى في تلك الصحراء حياضاً وجناناً، ورروحاً وريحاناً، وهذا كلُّه خطأٌ في خطأٍ، أو استخذاءٌ في الهمم.

فالأوربيون احتلوا بلداناً كثيرة من أفريقية وآسية، هي في الحرارة مثل مكة، ومنها ما هو أشدُّ حرارةً من مكة، وترى هذه البلدان الآن ـ بفضل العلم والفَنّ والدأب والثبات ـ غيرَ ما كانت [عليه] من قبلُ، قد بُدِّلَتْ فيْها الأرضُ غيرَ الأرض، وقد خَفَّتْ فيها الحرارة درجاتٍ عما كانت، بما أسالوا إليها من مياه، وما غرسوا من أشجار، وما أحدثوا من مروج خضر، وما أزالوا من غبار، وهكذا صارت قابلةً للسُّكنى، وصار كثيرون من الأوربيين يقيّظون فيها بسهولة، وذلك أنّهم سألوا العلم فأجابهم، واستدرُّوا ضرع الفَنِّ فجاد عليهم، واعتصموا بحبل الثبات فأورثهم الثبات نباتاً، وتغلّبوا على الطبيعة، وخففوا بأسها، ونعَّموا خُرْشَتها[2].

ونحن باقون على ما كُنّا عليه في القرون الوسطى أو قريب، من ذلك، نجدُ كلَّ تغيير بدعةً، وكلَّ بدعةٍ ضلالةً، وننسى أنّ من البدع بدعاً مستحسنةً لا بدّ منها، وأن الضلالةَ كلَّ الضلالةِ هي الجمودُ على القديمِ، الذي لا قوةَ له إلا حكمُ العادة، ولا كتاب يأمرُ به ولا سنة[3].

---

(١) [وهذا ما تحقق فعلاً، فقد شجّرت حكومة المملكة العربية السعودية عرفات، وأصبحت أشجاراً وجناناً].

(٢) [الخشونة].

(٣) قوله ﷺ «كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ» [رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح] مرادُه به البدعةُ في الدين نفسِه، كما يدلُّ عليه السياق. وقولُ العلماء: إنّ البدعةَ تنقسِمُ إلى حسنةٍ وسيئةٍ مرادُهم به ما يتجدَّدُ للنّاسِ من المصالح والمنافعِ العلمية والعمليةِ، ودليلُهم عليه حديثُ «مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فلَهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها بَعْدَهُ، مِنْ غيرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أجورِهم =

وإنْ لم يبق لنا عذرٌ من قِبَلِ الدِّين والعُرْفِ، رجعنا نلتمسُ لأنفسنا المعاذيرَ من عَدَمِ إجابةِ الطبيعةِ نفسِها إلى ما نريدُ.

وأجيبُ ـ بشأن عرفة ـ بأنّ صحراءَها رمليةٌ، وأنها بحذاء جبال عاليةٍ، وكلٌّ من رآها يحكم بأنَّ في باطنِ أرضِها مياهاً، لا بل فيها آبارٌ قديمةٌ مسمولة(١)، تدلُّ على وجودِ المياه، فما علينا إلا أن نجرّبَ عملية الآبار الإرتوازية في عدة مظانٍّ منها، فإنْ رأينا الأرض لم تبضَّ بالماء في كل ذلك السهل الأفيح، تركنا المشروعَ من أساسِه.

ولقد بلغني أنّ الملك ابن سعود ـ أيده الله، ووفقه إلى كل خير ـ قد أَذِنَ لأناسٍ من الهولنديين أنْ يجرّبوا حَفْرَ آبار إرتوازية بين جدة ومكة، فشكرتُ لجلالته هذا الإذن، ورجوتُ أن تثمِرَ هذه التجربةُ بما ينشّطُ الملكَ على الأمر بالحفر في مواضع كثيرة من هذه البلاد، من جملتها عرفة والمزدلفة ومِنى، والله قد جعلَ من الماءِ كلَّ شيءٍ حيّ في الأقاليم الباردة، فكيفَ في الحجاز؟ والأرضُ الرمليةُ التي مثل عرفة هي أسرعُ نباتاً، وأبدرُ إلى الخضرة، فإذا جاءها الماءُ لم تكن إلا سنةً واحدةً حتى اهتزّتْ وربت، وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ.

وقد يُؤتى من البلاد الحارة كالهند وجاوَة بأشجارٍ سريعةِ البسوق، ورياحين باكرة السموق، لا تمضي سنوات حتى تُرى فروعُها في السماء، وأغصانُها لاحقةٌ بالأرض، فتنقلب عرفات من هذه الغبرة الباسرة، إلى الخضرة الناضرة، التي لا تضرُّ شيئاً بمناسك الحجاج، بل تزيدهم من الفرح والابتهاج.

= شيءٌ، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سنةً سيئةً، كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بها مِنْ بعدِه، مِنْ غيرِ أن يَنْقُصَ مِنْ أجُوْرِهم شَيْءٌ» رواه مسلم [١٠١٧] مصححه.

(١) [قليلة المياه].

عرفة في القديم

إنَّ في صحراء عرفة آباراً معطَّلة، احتفرها آباؤنا، وأهملناها نحن، فدلَّتْ على أنّ الأبناء قصّروا عن شَأْوِ الآباء، وأنّ الأبناء إنما ارتفقوا بما عَجِزَ الحدثان عن طمسه من مآثر الآباء، ولكنّهم لم يزيدوا عليها شيئاً، بل هم لم يُصْلِحُوا ما عطّله الدهرُ من حلاها، والحال أنّ الآخِرَ حقيقٌ بأنْ يزيدَ على الأول، وأنّ الذي يتسنّى للخلف بما استفادوا من عبر الدهر المتراكمة، واستثمروه من التجارب المتكررة، لم يكن يتسنّى للسلف، **فنحن ترانا بعكس القاعدة، نعجز في عنفوان المدنية عن مباراة ما حققه أجدادُنا في حداثتها**، وليتَ شعري لو لم تكن زُبيدة امرأةُ هارون الرشيد جرّتْ مياه نَعمان إلى عرفات، من يقول: إنّ رجلاً من مسلمي اليوم، فضلاً عن امرأة، تسمو همتُه إلى القيام بمشروع كهذا؟

فعرفات التي هي ما هي اليوم من القحولة واليبوسة، والتي كان الحاجُّ يظمأ فيها إلى الموت، لولا قناة عين زُبيدة المارة بها، قد كانت في الماضي ذاتَ رياضٍ وغياضٍ، وسقاياتٍ وحياضٍ، انظر مافي «معجم البلدان» (٤ : ١٠٤) بشأن عرفات، فهو يقول: قال ابن عباس: حَدّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عُرنة إلى جبالها، إلى قصر آل مالك ووادي عرفة.

وقال البشاري: عرفة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ، وبها دور

حسنة لأهل مكة، ينزلونها يومَ عرفة، والموقِفُ منها على صيحةٍ عند جبل متلاطىء (أي متدانٍ إلى الأرض) وبها سقايات وحياض وعَلَمٌ قد بُني يقفُ عنده الإمامُ الخ.

خبر عبد الله بن عامر بن كريز

وقد ذكروا في أخبار عبد الله بن كريز العبشمي، الذي كان من شجعان الصحابة، وأسودِ فتوحاتِ الإسلام، وهو الذي فتحَ فارسَ، وخُراسان، وسِجستان وكابل (بضم الباء) أنّه اتخذ النِّباجَ[١]، وغرسَ فيها، فهي تُدْعَى نباجُ ابنِ عامر، واتخذ القريتين، وغرس بها نخلاً، وأنبطَ عيوناً، تعرف بعيونِ ابن عامر، بينها وبين النباج ليلةٌ على طريق المدينة، وحفر الحفير، ثم حفر السُّمينة، واتخذ بقرب قباء قصراً، وجعل فيه زِنجاً ليعملوا فيه، فماتوا، فتركه، واتخذ بعرفاتٍ حياضاً ونخلاً، وولي البصرة لعثمان بن عفان، فاحتفر بها نهرين، وحفر نهر الأُبلّة، وكان يقول: لو تُرِكْتُ لخرجت المرأةُ في حداجتها على دابتها ترِدُ كلَّ يومٍ ماءً وسوقاً، حتى توافي مكة، وكان علي بن أبي طالب يقول عنه: إنّه فتى قريش، مات سنة (٥٩).

فالإسلام ولا سيّما العرب في أشد حاجةٍ اليوم إلى رجالٍ كعبد الله بن عامر بن كُريز العبشمي الفاتح الماتح، المعمّر المشمّر، الذي كان مغرَماً بالعمارة حيث حلّ، وأينما ارتحل، وناهيكَ بمن يقول فيه أمير المؤمنين علي كرَّمَ الله وجهه: إنه فتى قريش[٢].

---

(١) هو بالكسر ككتاب اسم قرية.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته من «الإصابة»: ولد على عهد النبي ﷺ وأتي به إليه وهو صغير، فقال: هذا أشبهنا، وجعل يتفُلُ عليه، ويعوِّذُه، فجعل يتبلَّعُ ريقَ النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إنّه لمسقيّ» وكان لا يعالجُ أرضاً إلا ظهر =

ولنا الرجاء في معالي همة جلالة ابن سعود، الذي حضّر طائفةً كبيرةً من الأعراب، وبنى لهم الهُجَر[١] وحملهم على الحرث والزرع، ولا يزال يشوِّقُ النّاسَ إلى الحضارة ـ أنْ تنصرفَ تلك الهمة الشماء، إلى استنباط المياه، واحتفار الآبار الإرتوازية في الصحارى المحرقة، حتى يعودَ بها الغامِرُ عامراً، واليابسُ ناضراً، والموات حيّاً، والجمادُ غضّاً طريّاً.

ولنذكر شيئاً عن البقاع التي عمّرها الصحابي الجليل عبد الله بن عامر بن كريز: فالنِّباجُ كما نقله ياقوت عن أبي منصور [الأزهري] نباجان:

أحدهما: على طريق البصرة، يقال له: نِباجُ بني عامر، وهو بحذاء فَيْد.

والآخر: نِباجُ بني سعد بالقريتين.

وقال أبو عبيد الله السكوني: النباج من البصرة على عشر مراحل.

وقال: النباج استنبط ماءَه عبدُ الله بن عامر بن كُريز، شَقَّ فيه عيوناً، وغرسَ نخلاً، وولدُه به، وساكنُه رهطُه بنو كريز، ومن انضمَّ إليهم من العرب. انتهى[٢].

= له الماء، حكاه ابن عبد البر اهـ ثم قال: وهو أول من اتخذ الحياضَ بعرفة، وأجرى إليها العين.

(١) جمع هجرة، وأصل معنى المهاجرة ـ في العربية ـ النزوع من البادية إلى الحاضرة، ثُمَّ عمّ استعماله في كلّ تحوّلٍ من مكان سُكنى إلى غيره، ومنه هجرة النبي ﷺ وأصحابِه رضي الله عنهم من مكة إلى المدينة، ولفظ الهجرة اسمٌ للمهاجرة، واسم المكان ماجَرٌ بفتح الجيم، بوزن اسم المفعول، وفي نجد يسمونه هجرة.

(٢) معجم البلدان ٥: ٢٥٥.

وأما الحفير، فإنه اسمُ لأكثرٍ من عشرين بئراً ومنزلاً في بلاد العرب، هذا على تقدير أنّه بوزن فعيل بفتح الأول وكسر الثاني.

وأما إذا كان لفظُه مصغَّرَ حفرٍ، أي بضم الأول وفتح الثاني، فهو اسم لمنازل عدة أيضاً[1].

وقال الحفصي: إذا خرجتَ من البصرةِ تريدُ مكةَ فتأخذ بطن فلجٍ، فأولُ ماءٍ تَرِدُ الحُفيرَ. قال بعضهم:

وَلَقَــدْ ذَهَبْــتُ مــراغِمــاً أرْجُــوْ السّــلامــةَ بــالحُفَيْــرِ
فَــرَجعــتُ مِنْــهُ ســالمــاً ومَــعَ السّــلامــةِ كــل خَيْــرِ

وأمـا السُّمينـة ـ بضـم الأول وفتـح الثـانـي علـى التصغيـر ـ ففـي «المعجم» أنّه أول منزلٍ من النباج للقاصد إلى البصرة.

وأما قباء التي اتخذ بها عبد الله بن عامر بن كريز قصراً، فلا نظنُّها قباء التي في المدينة على مسافة ميلين منها على يسار القاصد إلى مكة، والتي فيها المسجدُ الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، ولكنّي أظنُّها قباء التي يقول عنها ياقوت في «معجمه»: إنّهاموضعٌ بين مكة والبصرة، والدليل على ذلك أنّ عبد الله بن عامر وَلِيَ البصرةَ لعثمان بن عفان، فأكثرَ من البناء والحفرِ والغراسِ على الطريق المؤدية من البصرة إلى مكة، فالنّباج والحُفير (بضم ففتح على التصغير) والسُمينة (بالتصغير أيضاً) كلُّها على هذا السمت، فالأشبَهُ أن تكونَ قباء التي بنى عبدُ الله فيها صَرْحاً هي قباءُ التي موقعُها بين مكة والبصرة.

---

(١) قال في «المصباح»: والحَفَر بفتحتين بمعنى المحفور، مثل العدد والخبط والنفض بمعنى المعدود والمخبوط والمنفوض، ومنه قيل للبئر التي حفرها أبو موسى بقرب البصرة: حَفَر، وتضاف إليه فيقال: حَفَرُ أبي موسى، وقال الأزهريُّ: الحفَر اسم المكان الذي حُفِرُ كخندقٍ أو بئرٍ، والجمع أحفار، مثل سبب وأسباب، والحفيرة ما يحفر في الأرض، فعيلة بمعنى مفعولة، والجمع حفائر، والحفرة مثلها، والجمع حُفر، مثل غرفة وغرف ا هـ. =

لقد أوردَ ياقوتُ بعد ذكرِه قباء التي بين مكة والبصرة أبياتاً للسَّري بن عبد الرحمن بن عتبة بن عويمر بن ساعدة الأنصاريّ، مما يوهم أنّ هذه الأبيات قيلت في قباء هذه.

والأَوْلى أن تكونَ قباء المقصودة في شعر السَّري بن عبد الرحمن الأنصاري هي قباء المدينة المنورة، لأنَّ الأنصارَ كان لهم مساكن فيها، ولأنّه يصفُ فيها ماءَ بئرِ عروة، الشهيرة بالعذوبة، والتي يقال: إنّه كان يُحْمَلُ من مائها إلى هارون الرشيد وهو بالرقة، وبئرُ عروة هي في ضواحي المدينة كما هو معلوم، وعندها بستان لطيف، وقد قسم الله لي النزهة ـ أو القيلة كما يقول أهل الحجاز ـ عند هذه البئر منذ خمسَ عشرةَ سنة قبل الحرب العامة بقليل[1]، ووجدتُ من خِفَّةِ مائها وحلاوتِه ما تذكرتُه هذه المرة عند شربي من بئر جِعرانة، التي في ضواحي مكة.

أما الأبيات التي استشهد بها ياقوت فهي هذه:

ولهـا مَـرْبَـعٌ بِبُـرْقَـةَ خـاخٍ   ومَصِيـفٌ بـالقَصْـرِ، قصـرِ قُبـاءِ
كفِّنوني إنْ مُتُّ في دِرْعِ أروى   واغسِلُوني مِنْ بِئْرِ عروةَ مائي
سُخْنَةٌ في الشّتاء، بارِدةُ الصَّيـ   ـفِ، سِرَاجٌ في الليلةِ الظَّلْماءِ

وخاخ هي روضة خاخ بقرب حمراء الأسد من المدينة، كانت من الأحماء التي حماها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون، يقال: إنّها في حدود العقيق بين الشوطي والناصفة، وقد أكثرَ من ذكرها الشعراءُ، وكانت فيها منازلُ الأئمة من آل البيتِ وغيرِهم من أعيان المدينة.

وأما نهر **الأُبلّة**، الذي يقال: إنّ عبدَ الله بن عامر شقّه، فهو نهر بالبصرة، وهو إحدى جِنان الدنيا الأربع بحسب قول بعضهم، وهيَ: غوطةُ دمشق، وصُغْدُ سمرقند، وشِعْبُ بوّان، ونهرُ الأُبلَّة.

وحكي أنّ بكر بن النطاح مدحَ أبا دُلَفِ العجلي بقصيدةٍ، فأثابه عليها

(١) [عام ١٩١٣].

عشرةَ آلافِ درهم، فاشترى بها ضيعةً بالأُبلُّة، ثم جاء بعد قليل وأنشدَهُ:

بـكَ ابـتعتُ في نهرِ الأُبلَّـةِ ضَيْـعَةً ... عليهـا قُصَيْـرٌ بـالـرُّخـام مَشِيْـدُ
إلى جَنْبِهَا أختٌ لها يَعْرِضُوْنَها ... وعِنْـدَكَ مـالٌ للهبـاتِ عَتِيْـدُ

فقال أبو دُلَف: وكم ثمنُ هذه الضيعة الأخرى؟ فقال: عشرةُ آلاف درهم، فأمرَ أن يدفعَ ذلك إليه، فلمَّا قبضها، قال له أبو دُلَف: اسمعْ مني يا بكر، إنّ إلى جَنْبِ كُلِّ [ضيعةٍ ضيعةٌ] أخرى إلى الصين، وإلى ما لا نهاية له، فإياك أن تجيئني غداً وتقول: إلى جَنْبِ هذه الضيعةِ ضيعةٌ أخرى، فإنّ هذا شيءٌ لا ينقضي.

خاف أبو دلف أنْ تصيرَ ضِياعُ بكرٍ بن النطاحِ مثلَ مستعمراتِ الإنكليز، كلٌّ واحدةٍ تجرُّ جارتها، وهلم جرا.



المناهل في مكة

وذكر الاعتداء على الأوقاف التي وقفها السلف

نعود إلى عرفات التي كُنّا فيها، وإلى عبد الله بن عامر بن كُرَيز المغرم ـ كان ـ بالعمارة وإحياء الأرضين، فنقول: قال ابن حوقل ـ صاحب كتاب «المسالك والممالك» الذي عاش في أوائل القرن الرابع للهجرة، وهو من أشهر جغرافي العرب: وعرفة ما بين وادي عرنة إلى حائط بني عامر (الحائط: البستان) إذا ما أقبل على الصخرات التي يكون بها موقِفُ الإمام، وإلى طريق حصن. وبحائط بني عامر نخيل، وكذلك في غربي عرفة بقرب المسجد الذي يجمعُ فيه الإمامُ بين صلاتي الظهر والعصر في يوم عرفة.

ونخل الحائط والعين تُنْسَبُ إلى عبدِ الله بن عامر بن كُرَيز ـ إلى أن يقول ـ وليس بمكة ماءٌ جارٍ إلا شيءٌ قد أُجرِيَ إليها من عينٍ قد عَمِلَ فيها بعضُ الولاة، واستتمَّ في أيام المقتدر، ويمتح (أي يمتدُّ) إلى مسيلٍ قد جُعل إلى باب بني شيبة في قَناةٍ عُمِلَتْ هناك، وكانت أكثرُ مياههم من السماء إلى مواجنُ بها كانت عامرة، فخرّبتْ باستيلاء المتولين على أموال أوقافها، واستئثارهم به، وليس لهم آبار تشرب، وأطيبها زمزم، ولا يمكن الإدمان على شربه.

هذا ما يقوله ابنُ حوقل، ولا أعلمُ هل يقصد بهذه العين قناة زُبيدة، أم عيناً غيرها[1]، وكنتُ أودُّ لو سألنا عن ذلك القرشيَّ العريقَ،

---

(١) الراجح أنّه يعنيها، إذ لم يكن ثَمَّ غيرها يطلق الكلام عليها دونها.

والعبدريَّ العتيقَ، الشيخ عبدَ القادر الشيبي زعيمَ بني شيبة سدنةَ البيت الكريم، ومقامِ إبراهيم، والذين إليهم مفاتيحُ الكعبةِ بمحكم الذكر الحكيم، فإنَّ الشيخَ الشيبيَّ مِنْ أعلمِ النّاسِ بخطط مكة، وأهلُ مكة أدرى بشعابها، فكيف إذا كانوا من أعرق بيت فيها؟

وأما (المواجن) فالظاهر أنّه يريد بها ما نسميه اليوم بالسبُل، ولكننا لم نجدْ في متونِ اللغة المواجنُ بهذا المعنى، وإنما (المواجن) جمع (ميجنة) وهي مدقة القَصّار، كما لا يخفى، نعم يوجد في اللغة (ماء مَجّانٌ) أي كاف مستفيض، ويوجد (مَجّان) أي بدون ثمن، وكلاهما يطابِقُ هذا المعنى، ولكن على هذا يكونُ ابنُ حوقل عدل عن (فعال) إلى (فاعل) ولو أنّ المؤلف ذكرها مرة واحدة في كتابه لكنا نقول: لعلّها من غلط النسخ أو الطبع، ولكنّها وردتْ في كلامه مراراً بالجمع (مواجن) وبالمفرد (ماجن) وكلُّ ذلك بالنون.

وأما الأزرقيُّ أبو الوليد محمد صاحبُ كتاب «أخبار مكة»[1] فقد أوردها باللام، فهو يقول عند ذكر العيون التي أُجريت إلى الحرم: ومنها: حائط خرمان، وهو من ثنية إذا خرَّ إلى بيوتِ جعفرِ العلقمي، وبيوت ابن أبي الرزام، وماجلُه قائمٌ إلى اليوم، وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر، وكانت له عينٌ ومَشْرَعٌ يردُه الناس.

ويقول في موضع آخر[2]: وكانت عيونُ معاوية تلك قد انقطعت وذهبت، فأمرَ أميرُ المؤمنين الرشيد بعيونٍ منها فُصِلتْ وأحييتْ، وصُرفتْ في عين واحدة يقال لها: الرشاد، تسكب في الماجلَيْنِ، اللذين أحدُهما لأميرِ المؤمنين الرشيد بالمعلاة، ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام ا هـ.

---

(١) [أخبار مكة: (١: ٢٢٩)].

(٢) [أخبار مكة: (٢: ٢٣١)].

وفي «القاموس»: الماجِلُ كلُّ ماءٍ في أصلِ جبلٍ أو وادٍ، وقال الزَّبيدي في «التاج»: إنّ بعضَ ثِقات اللغة رواه بدون همز، وإن الآخرين تحفظُه بالهمز.

وجاء في «القاموس» ما هو أصرحُ، وهو أن الماجِلَ موضِعٌ بباب مكة، يجتمِعُ فيه الماءُ، يَتَحلَّبُ إليه.

واستدرك صاحب «التاج» في هذه المادة بقوله: وفي حديث أبي واقد، كنّا نتماقل في ماجِلٍ أو صهريجٍ، قال ابن الأثير: هو الماءُ الكثير المجتمِعُ، وقيل: هو معرب.

و(التماقل) لتغاوُصُ في الماء.

وبالاختصار الماجِلُ هو في مكة ما يسمّونه اليوم بالبازان، وهي (Bacin) الإنكليزية، أو (Bassin) الإفرنسية. وهكذا الألفاظ مثل سائر الأشياء، تحيا وتموت بآجال مقدَّرَةٍ، ففي دَوْرٍ من الأدوار يقولون: حَوْض، وفي آخر: بازان الخ، والمعنى واحد، ولعلّهم في زمان ابن حوقل (نحو سنة ٣٣٠) كانوا حرّفوا هذه اللفظة من اللام إلى النون، كما قالوا في جبريل جبرين[١]، وأما في زمان الأزرقي (نحو المائتين للهجرة) فقد كانوا يلفظونها باللام.

* * *

---

(١) لا شكّ في تحريف الكلمة، وأنّ أصلها باللام، والأرجحُ أنّ المحرِّفَ لها الناسخُ، ويحتمل أن يكون ابن حوقل نفسه، فقد قال صاحب «كشف الظنون»: إنّه لم يضبِطْ الأسماءَ.

سوء تصرف المسلمين في أوقاف سلفهم وأكلها بالباطل

وأما الذي لم نجده ـ مع الأسف ـ تحرّف ولا تغيّر، فهو أكلُ أموالِ الأوقافِ، حتى التي على حياض الماء، فقد رأيتَ كيفَ أنَّ ابنَ حوقل يذكر خرابَ تلك المواجِنُ أو المواجل، باستيلاءِ المتولّين على أموال أوقافِها واستئثارهم [بها]، وهذه شنشنةٌ قلَّ أن يخلوَ منها بَلَدٌ من بلدان الإسلام، وبسببها تعطّلَت هذه البلدان من الحلي التي تجدها في بلاد الإفرنج.

فآباؤنا لم يقصّروا في حَبْسِ العقارات الدارّة على كلّ ما يخطُر في البال من طرق الإنسانية، ووسائل المدنية، ولكنّ الخلفَ ـ إلا من رحم ربك ـ خانوا أماناتِ السلف، وخاسوا بعهدِهم، وتركونا خجالى أمام الأجانب في مساكننا ومدائننا.

وكلُّ ما أورده الشرع من الإعظام والإكبار لكبيرةِ الأكلِ من الأموالِ المرصدَةِ للخير العام، بل ما قذفَ به من الصواعقِ على مَنْ يستبيحُ لنفسه الغلولَ منها ـ قد ذهب سدًى.

فالوقفُ لا يمضي عليه قَرْنٌ أو نِصْفُ قرنٍ حتى تتعاوره[1] الأيدي

(١) [تتداوله].

بالأكل والبلع[1]، وكثيراً ما يندرِسُ، ولا يبقى إلا ذكرُه في الكتب، أو على ألسنة النّاس، يأكلون في بطونهم ناراً، لا يخافون الله ولا يشعرون. ويا ليت شعري! ماذا تنفعُ صلاةُ مَنْ يفعل ذلك؟ وماذا يفيدُه صيامُه، وتلك النّارُ في بطنه.

ولهذا تحامى كثيرٌ من المتورِّعين والمتحققين بالشرع الشريف النظارة على الأوقاف، وأخْذَ مقابِلَ عمله من ريعها، قال الإمام خير الدين الرملي رحمه الله:

بورِكَ لي في المَرِّ والمِسْحَاة[2] فما هو الموجِبُ للجِهاتِ[3]؟
وهيَ لِمنْ قامَ عليها صَدَقَةْ وللَّذِي فَرَّطَ نارٌ مُحْرِقَةْ

* * *



(١) أحفظُ عن أخي جدي السيد أحمد أبي الكمال، وكان يُعنى بالتاريخ: في كل مئة سنة يتحوّلُ وقفُ طرابلس مِلكاً، ومِلكُها وقفاً مصححه.
(٢) [المر والمسحاة: من أدوات الفلاحة].
(٣) [الجهات: تولي الأوقاف].

أهمية المياه في الحجاز

أعود إلى ذكر المياه والعيون بمكة، وقد يقال لي: لماذا هذا الإسهابُ كلُّه في قضية الحياض والقُنيّ والمواجل والبازانات، وفيما عملته زُبيدةُ، وفيما عمله عبد الله بن عامر بن كُريز وغيرهما من المعمرين والمنظمين الخ؟

والجواب: مَنْ لم يعرف الحجاز لم يعرف قيمة المياه في الأرض، وإذا كانت آية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] صحيحةً. في أسوج ونروج، لا بل في القطب الشمالي، حيث الثلوج عامة للأقطار، طامّةً للأنظار، فكم تكون هذه الآية الكريمة صحيحةً في قطرٍ مثل الحجاز، تصعد درجة الحرارة فيه بالصيف إلى (٤٧) و(٤٨) بميزان سنتيغراد، وكثيراً ما يعزّ فيه المطر، فتنضب من ذلك عيونٌ كانت جارية، وآبارٌ كانت دافقة، وتتوقف سوانٍ كانت دائرة، وتصوّحُ جنانٌ كانت بهجةً للناظرين، وتموتُ أشجارٌ كانت آيةً للسائلين، وتصبحُ الرّياض التي كانت أشبهَ بالزمرُّدِ قاحلةً غبراءَ مربدَّةً، كأنّها فيافي بني أسد.

إنّ شأن الحجاز في هذا المعنى هو غير شؤون سائر البلاد، فالماءُ فيه يجوز أن يوزنَ بالمثقال، والماء فيه هو الذهب، والماءُ فيه هو الماس، ونُقَطُ الغيث فيه هي اللآلىء.

وبالجملة فالماء فيه هو الحياة نفسها، وهي أغلى من كل هذه، ولو ألَّفَ حجازيٌّ قاموسَ لغةٍ، وعند تعريف الحياة قال: إنها الماء، أو عند

تعريف الماء قال: إنّه الحياة ـ لكان جديراً.

ورُبَّ قائل: إنّ هذا لا يخصّ الحجازَ دون غيره، بل الماءُ هو الحياة في كلِّ أقسام الكرة.

والجواب: إنّه في سائر البلاد لا تبدو من الماء هذه النزارة والكزازة التي تبدو منه في الحجاز، وأينما تحولتَ تجدُ عيوناً جارية، وأودية سائلة، وأحياناً تجدُ أنهاراً مثل البحار، وبحيراتٍ تسيرُ فيها السفن الكبار.

هذا والأمطارُ في بعض البلاد تسحُّ في أشهر الشتاء سحّاً، لا يخشى معه ظمأ ولا قحط، وقد تشحُّ آونةً لكن سحاً لا تنضب به العيون، ولا تجف الآبار، وإنما تنتقصُ نقصاً قد تنقص معه الثمرات، وتذبلُ الأشجار، وتذوي الزروع، ولكن لا يقتلها العطشُ هذا القتلَ الوحي[1]، الذي يقتلها في الحجاز.

ومن بلادِ الله ما الأمطار فيها لا تكادُ تقلِعُ لا صيفاً ولا شتاءً، فتجدها دائماً زمردة خضراء.

وأما الحجاز فالغيثُ فيه قلّما يعمُّ، وأكثر ما ينزِل نُفْضاً (جمع نُفضة بضم أوله) وهي المطرة تصيب القطعة من الأرضِ وتخطىء القطعة، فإذا أصابت النُّفضةُ أرضاً زهتْ تلك السنة، وأثمرتْ، وعاش أهلُها. وإذا أخطأتها، أو جاءت بها رذاذاً، يبس كل ما هناك من زرع، وعطش كل ما هناك من ضرع، ولم يبقَ أمامَ أهلِها إلا التحوُّلُ عنها إلى أرضٍ أخرى، يكونُ الغيث قد سقاها، ولا يعودون إلى الأرض الأولى إلا إذا أصابتها الرحمة، وقد تكونُ الأرضات متجاورة، وإنك لتَجدُ هذه زاهيةً ناضرةً، وهذه على مسافة ربع ساعة منها غامرة باسرة، وذلك لأنّ الغيثَ أصابَ هذه وأخطأ هذه.

---

(١) [السريع].

وصادف أنّه لما كنّا بعرفة جاءنا عارِضٌ[1] صحبتْهُ رواعدُ[2] بينما نحن مفيضون من عرفات إلى المشعر الحرام، وكان المطر على الجبال أشدَّ منه على الأماكن التي كنّا فيها. وبعدَ ذلك بثلاثة أشهرٍ، كنا نتنزّه في جبال الطائف، فقصدنا قرية الهدا الموصوفة، التي يفضِّلُها كثيرون على الطائف، بحجة أنّها أعلى مكاناً، وأفسحُ منظراً، وهي أعلى من الطائف بنحو مئتي متر، تعلو الهدا عن سطح البحر نحواً من (١٨٠٠) متر، فلما دخلنا القريةَ، لم يبق إلا قليلٌ حتى نقولَ: إنها خاويةٌ على عروشها، وجدنا بعضَ أهلها نازحين إلى حيثُ يقدرون أن يشربوا، والبعضُ الآخر يرِدُون المناهلَ البعيدة، ووجدنا تلك البساتين قد علتها غَبْرَةُ الموتِ، فمنها ما صوّحَ شجرُه، ومنها ما مات موتاً لا حياةَ بعده.

وقصدنا إلى ساقية كانت مشهورةً بغزارةِ المياه، فنظرنا إلى قعرها، فوجدنا الذي فيها قد يكفي لشربنا، فجلسنا نقيل تحت شجرات هناك، ونزعنا بالدلو، حتى سقينا نحن وربعنا، ولكنَّ الأنفسَ أَرمضها منظرُ الأشجارِ المحزن، فلم نمكث إلا ساعتين، حتى فارقنا الهدا مهرولين إلى وادٍ قريب منها يقال له: وادي الكُمَّلِ (بضم ففتح مع التشديد) وقد علمنا من أهلِ الهدا أنّ العارض الذي جاء الحاجَ يومَ عرفة لم يكن ممطرَهم، ولقد أمطرَ جيرانهم على درجات متفاوتة، فمنهم من رُزقوا ثمرات وغلاّت وافرة، ومنهم من أتتهم غلة متوسطة، ولكن الهدا كانت محرومةً مغمورةً تماماً هذا الصيف كلّه، وبقيت في هذه اللأواء ليس فيها نَبْتٌ أخضر إلا الصبير، حتى دخل فصل الخريف (وفي الحجاز يقولون له الشتاء، ويقولون للشتاء الذي عندنا الربيع) فجاءنا الخبرُ

---

(١) العارِضُ: السحابُ الذي يعرِضُ في الأفق قبلَ أن يطبق السماء، وحدَّهُ بعضُهم بما يعرِضُ في قطر من أقطار السماء من العشي، ثم يصبح وقد حبا واستوى.

(٢) والرواعِدُ السحاب التي فيها رعد، قال في «الأساس»: سحابة راعدة، وسحاب رواعد.

ونحن في الطائف أن الهدا سُقيت وأُغيثت ورجعت إليها رُوحها.

وليس في الحجاز أوحى[1] مِن أخبار المطر، فهي لشدّةِ غزارةِ القَطْرِ تسري من وادٍ إلى وادٍ، ومن نَجْعٍ إلى نَجْعٍ بسرعة اللاسلكي، وتراهم من شدة ترقبهم للأمطار يعرِفون من مواقعها بمجرّدِ النظر ما لا نعرفه نحن في بلادنا، فإذا تلبّدتِ السحب في أفقٍ من الآفاق، أو قصفَ رعدٌ، أو أومضَ برقٌ، قالوا لك: هذا في أرض عسير، أو في بلاد ثُمالة، أو في الشفا، أو في بلاد هُذيل، وهلم جرا، وقد تكون المسافة ساعات بل أياماً وتجدهم يخمّنون ويصيبون.

بالجملة سكان البوادي أقرب إلى الطبيعة الفجة، وآلف لها، **وأعرف** بالسحب ومساقطِ الغيث، وبالأرض وأنواعها، والتراب وخواصه وروائحه، والنبات وحياته، والنجوم ومطالعها ومغاربها، وما أشبه ذلك ـ **من سكان الحواضر**[2].



* * *

---

(١) [أسرع].

(٢) [ومن هنا تعلم بطلان قصة نبوة المتنبي، لأنه لا يمكن لإنسان كائناً من كان أن يدلّس على الأعراب في شأن من شؤون المطر، والقصة كلها مختلقة كما ذكر ذلك العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى في كتابه الفذ «المتنبي» (١٩٩ ـ ٢١٥).

والحقيقة أن المتنبي لقب بهذا اللقب وهو صغير، بسبب ترفعه وتكبره على أقرانه، فهو مأخوذ من النَّبْوَةِ، وهي المرتفع من الأرض، لا من النبوَّة، ولمّا لازمه هذا اللقب ركّب خصومُه عليه قصة ادعاء النبوة، وجعلوها علّة للقبه، فاللقب سابقٌ في التاريخ لدعوى النبوة المزعومة].

لذةُ الماء والخضرةِ في البلاد الحارة غيرُها في البلاد الباردة

ترى مما تقدّمَ أنّ مطرة واحدة في الحجاز تحيي وتميتُ، وليس الأمرُ كذلك في سائرِ البلاد، التي تهطُلُ فيها الأمطار فتعمُّ، وإن لم يُصِبْ هذه القطعة عارِضٌ ممطِرٌ هذه المَرة أصابها مرّةٌ أخرى.

نعم إن الوَدْقَ في الحجاز ـ وفي جميع البلاد الحارة ـ أشدُّ منه في البلاد الضاربة إلى الشمال، وإنّ مزنةً واحدةً في الآحايين، لا تستمرُّ أكثر من نصف ساعة، فتسيل لها أوديةٌ بقدرها، تجرِفُ وتجحف، وقد تذهب بالحيطان[1] والبيوت، وقد تغتالُ القوافلَ والسوابلَ إذا جاءتهم على غِرّة. ولكنّ طغيانَ المياه هذا لا يستمرُّ إلا ريثما ترفع النقطة، فعند ذلك تنظرُ في الأرض، فإذا هي قد بلعت ماءَها، وعاد ما كنتَ تراه نهراً هدّاراً قد نضب ماؤه، وصحت سماؤه، وكأنّه لم يمرَّ من هناك ماءٌ، ولم تمطرْ سماءٌ.

وفي مدينة الطائف وادٍ شهير مذكورٌ في الكتب يقال له: وَجّ، إذا سال هذا الوادي شبعت الطائف وكلُّ ما جاورها خيراتٍ وأقواتاً، ومع هذا لا يسيلُ في السنة كلِّها إلا مرّةً أو مرتين، وكلّ مرة ساعةً أو ساعتين.

فمن أجل هذا كان الماء في الحجاز أثمنَ وأغلا منه في سائر

---

(١) [البساتين].

الأقطار، وكان ألذَّ وأبهجَ، وأعلَقَ بالقلب، وأشرحَ للصدر، وكأنَّ الماءَ في الحجاز يساوي خمسين مرة الماء في الشام، ومئة مرة في سويسرة مثلاً، وكأنَّ الغصنَ الأخضرَ في الحجازِ أحلى منه مئة مرة في أوربة، وكم من عينٍ لو كنتُ في سورية ومررتُ على مثلها لم أقف دقيقةً، ولا نظرتُ إليها إلا كما أنظرُ إلى التراب، فأما في الحجاز فقد كنتُ أقيلُ إلى جانبها، وأحدِّقُ في قطرات مائها، ولا أبرحُ أتحدّثُ إلى الإخوان عن قسطلة جريها، وصفاء لونها، وكم من مرّةٍ جلسنا في الحجاز إلى ثمال[1] وأوشال[2]، لاتمرُّ في غير الحجاز على بال، فكنّا نستعذِبُها، ونتلذَّذُ بالمقيل عندها، كما لو كنّا على نبع الباروك، أو نبع الصفا في جبل لبنان.

لا جَرَمَ أنّ الأمورَ في الغالب نسبيةٌ، تغلو وترخص، وتحسن وتسمج، بحسب الزمان والمكان، وقد يلذُّ لك في الصيف ما تجدُه ثقيلاً في الشتاء، وترتاحُ في الأقاليم الحارة إلى ما تفِرُّ منه في الأقاليم الباردة، والثلجُ فاكهة الجُروم[3]، على حين أنّ النار فاكهة الصرود[4]، وهلم جرا. ولذلك أراني أتلذَّذُ بالماء والظل والخضرة في الحجاز وفي الشرق كلّه أكثرَ مما أتلذَّذُ بها في أوربة، لا سيّما في القسم الشماليِّ منها.

ففي أوربة مياهٌ تتدفَّقُ، وأنهارٌ تهدِر، وشلّالاتٌ تتحدَّرُ، ولكنْ كلُّ ذلك في جوٍّ لا ترتفع حرارته عن (١٥) أو (٢٠) بميزان سنتيغراد إلا أياماً قلائلَ من السنة، وكلّ ذلك في جو مطير متلبّدٍ بالسحب أكثرَ السنة، فأيُّ لَذةٍ لماءِ الجداول والأنهار الجارية على الأرض، حينما تكونُ المياهُ نازلةً من السماء؟ وأيةُ لذةٍ يجدُها الإنسان في الظّلّ الظّليل

---

(١) [جمع الثمالة: وهي البقية في أسفل الإناء من شراب ونحوه].

(٢) [جمع وشل: وهو الماء القليل تحلّب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره].

(٣) [جمع جَرْمٍ، والجرم الحارُّ، معرَّبٌ].

(٤) [البرد].

والحرجات الملتفة إذا كانت الشَّمسُ في الغالب محجوبةً بالغمام؟ والماء البارد إنما يولَعُ به الخلق في بوارح القيظ، يتبرّدون به بالعلّ والنهل، والغسل والمجاوَرَةِ، فأما إذا كان الهواء بارِداً من أصله، فما لك وللتبرد والابتراد؟!

إنّ الإنسان بُني مزاجُه على التعديل، فتجدُه لا يعرِفُ الراحة والهناء إلا بتسليط العناصر بعضها على بعض، حتى تصلَ إلى درجة الاعتدال، فإذا أفرطَ به الحرُّ لجأ إلى الماء والثلج وأهوية الجبال، وإذا أفرطَ به البردُ لجأ إلى النار والشمس والصوف وأهويةِ السواحل.

فما دامَ الإنسان لا يشعرُ بالحرارة، فالبهجةُ التي عنده للماء الزُّلال والظل، والمرج الأخضر، والشجر الملتفّ ـ لا تكادُ تُذْكَرُ بالقياس إلى البهجة التي عنده بها والسَّموم تهبُّ، والجوف يتلهبُ.

فالجنات والعيون، والأنهار، والأشجار، إنما جعلها الله نعيماً في البلاد الحارة والمعتدلة، كجزيرة العرب، ومصر، والمغرب، والشام، والعراق، وفارس، وما في ضَرْبها، ففي هذه الأقاليم تظهَرُ قيمتُها، ويغالِي المرءُ في ثمنها، ويلحق بهذا الضرب من البلدان إيطالية وإسبانية والجزائر التي في البحر المتوسط، وجميع جنوبيِّ أوربة.

ولقد وُجدتُ مرة في رومية[1] في فصل القيظ، ففررت منها إلى بلدة تيفولي، على مسافة ساعتين من رومية في سفح الجبل، ونعمتُ من النهر العذب الفياض المنحدر من هناك، وبشلالاتِ ذلك النهر، وبحيراتِه وحياضه، بما لا أنساه طول حياتي، وإنما كانت درجة الحرارة البالغة (٣٤) هي التي توحي إليَّ بتلك المحاسن التي رأيتها على نهر تيفولي، وتنطِقُني بهذه الفِقَرِ الشاعرة في وصفها.

* * *

---

(١) [رومة عاصمة إيطالية].

أثر السيدة زبيدة

من حيثُ قد تقرّرَ أنّ الماء هو في البلاد الحارة والمعتدلة أحيا وأعذب، وأبرد على الأكباد وأطيبُ أضعافاً مضاعفة منه في البلاد الباردة، فقد كان أعظمُ ما يُرزقُ به الإنسان من الصواب والثواب، وما ترتفعُ به درجتُه في المبدأ والمآب، هو تفجيرُ الينابيع، وإسالةُ الجداول، وتقريبُ المشارع في بلادٍ نظير الحجاز، تقصد إليها الحجاج من الحار والبارد، والرطب واليابس بالألوف، وعشرات الألوف، ومئات الألوف، زائداً إلى مَنْ فيها من السكان.

فالمشروع الذي شرعته زُبيدة بنت جعفر في هذا المشروع العظيم الذي فتحته لجيرانِ البيت الحرام، ولقصّاده من جميع بلاد الإسلام، هو كما تقدم عملٌ قصّر عن مثله الأولون والآخرون.

وانظر إلى ما قاله أبو الوليد محمد الأزرقي[1] الغساني في هذا الشأن، وقد عاش في عصرها: ثم كان الناس بعدُ في شدة من الماء، وكان أهلُ مكة والحاج يلقَوْنَ من ذلك المشقة، حتى إنّ الروايةَ لتبلغُ في الموسم عشرةَ دراهم وأكثر وأقل، فبلغ ذلك أمَّ جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور، فأمرتْ في سنة أربع وتسعين ومئة بعمل بركتها التي بمكة، فأجرت لها عيناً من الحرم (لا يقصد بالحرم هنا المسجد الحرام، وإنما يقال حرم لمنطقة مخصوصة معينة حول مكة كما لا يخفى)[2] فجرت بماءٍ قليلٍ لم يكن

(١) [«أخبار مكة»: (٢: ٢٣٠)].

(٢) حرم مكة هو ما حرّم الله فيه القتالَ والصيدَ وقطعَ النبات وعضد الشجر، وله =

فيه ري لأهل مكة، وقد غرمت في ذلك غُرماً عظيماً، فبلغها، فأمرت جماعةً من المهندسين أن يجرّوا لها عيوناً من الحِلّ (أي من الأرض الخارجة عن الحرم) وكان النّاس يقولون: إنّ ماء الحل لا يدخلُ الحرم، لأنه يمر على عقاب وجبال، فأرسلت بأموالٍ عظام، ثم أمرتْ من يزِنُ عينَها الأولى، فوجدوا فيها فساداً، فأنشأتْ عيناً أخرى إلى جانبها، وأبطلت تلك العيون، فعملت عينها هذه بأحكم ما يكون من

= حدودٌ معروفةٌ من كل جهة بأعلام مبنية، كالذي بين جدة ومكة، وبين المزدلفة وعرفة، فعرفات من الحِلّ، لا يحرمُ فيها الصيد على غير المحرِم.

[قال محقق «أخبار مكة» (٢: ٣٠٩) تحت عنوان حدود الحرم، وأودية الحل والحرم، ومواقيت الحج: قد نصبت على حدود الحرم أعلام في جهاتٍ ستٍ، كما ذكر الأزرقي، وهي كمايلي:

(١) التنعيم: في طريق المدينة الغربي، والأنصاب في هذه الطريق على رأس ثنية ذات الحنظل، فما كان من وجهها في هذا الشق فهو حرم، وما كان في ظهرها فهو حِلٌّ.

(٢) الحديبية: في طريق جدة، والأنصاب في هذه الطريق على رأس التخابر، والتخابر يصبُّ في الأعشاش، وما أقبل من الأعشاش على بطنِ مُرّ فهو حل، وما أقبل على المرير فهو حرم.

(٣) إضاءة لبن: على طريق اليمن من جهة تهامة، والأنصاب على رأس جبل غراب، والجبل بعضه في الحل وبعضه في الحرم.

(٤) ذات السليم: في طريق عرفات والطائف واليمن من جهة جبل كرا، والأنصاب في هذه الطريق على رأس الضحاضح، وهي ثنية ابن كُريز، بعضها في الحل وبعضها في الحرم.

(٥) المقطع أو الصفاح: في طريق نجد والعراق، والأنصاب على رأس ثنية الخل منتهى الحرم.

(٦) المستوفرة: في طريق الجعرانة، وعلى رأسها أنصاب الحرم، فما سال منها على ثرير فهو حل، وما سال منها على شعب بني عبد الله بن أُسيد فهو حرم].

العمل، وعظمتُ في ذلك رغبتُها، وحَسُنَتْ نيتُها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية خل، فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل، فأمرت بالجبل فضُرِبُ فيه، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم تكن تطِيبُ به نفسُ كثيرٍ من الناس، حتى أجراها الله عزّ وجل لها، وأجرت فيها عيوناً من الحِلّ، منها عينٌ من المشاش[1]، واتخذت لها بركاً تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها، ثم أجرت لها عيوناً[2] من حُنين، واشترت حائطَ حُنين، فصرفت عينَه إلى البركة، وجعلت حائطه سداً يجتمع في السيل، فصارت لها مَكْرُمَـةً لم تكن لأحدٍ قبلها، وطابت نفسُها بالنفقةِ فيها، بما لم تكن تطيب نفسُ أحدٍ غيرُها به، فأهلُ مكة والحاج إنما يعيشون بها بعد الله عز وجل.

ثم أمر أميرُ المؤمنين المأمون صالحَ بن العباس في سنة عشر ومئتين أن يتخذ له بركاً في السوق خمساً، لئلا يتعنّى أهلُ أسفل مكة والثنية وأجيادَيْنِ (بالتثنية) والوسط إلى بركة أم جعفر، فأجرى عيناً من بركة أم جعفر من فضل مائها في عينٍ تسكبُ في بركة البطحاء، عند شعب ابن يوسف، في وجه دار ابن يوسف، ثم يمضي إلى بركةٍ عند الصفا، ثم يمضي إلى بركةٍ عند الحناطين، ثم يمضي إلى بركةٍ بفوهة سكة الثنية، دون دار أويس، ثم يمضي إلى بركةٍ عند سوق الحطب بأسفلِ مكة، ثم يمضي فيسرب ذلك إلى ماجلِ أبي صلابة[3]، ثم إلى الماجلَيْنِ اللذين

---

(١) جاء في «معجم البلدان»: المُشاش بالضم قال عرام: ويتصل بجبال عرفات جبال الطائف، وفيها مياهٌ كثيرة أوشال وعظائم قني، منها المُشاش ، وهو الذي يجري بعرفات، ويتّصل إلى مكة.

(٢) [قال محقق «أخبار مكة»: (٢: ٢٣١): وهي عين ميمونة، وعين الزعفران، وعين البرود، وعين الصرفة أو الطارقي، وعين ثقبة، وعين الخريبات].

(٣) [قال محقق «أخبار مكة»: (٢: ٢٣٢): المعروف اليوم ببركة ماجل، وقد حرفها العوام فقالوا: بركة ماجد].

في حائطِ ابن طارق بأسفلِ مكة.

وكان صالح بن العباس لما فرغ منها ركب بوجوه النّاس إليها، فوقفَ عليها حين جرى فيها الماء، ونحر عند كل بركة جزوراً، وقسّم لحمها على الناس. انتهى.

وقال ابن خلكان[1]: أمُّ جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، هي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد، وكان لها معروفٌ كثيرٌ، وفعلُ خيرٍ، وقصتُها في حَجِّها، وما اعتمدته في طريقها مشهورة، فلا حاجة إلى شرحها.

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في «كتاب الألقاب»: إنها سقت أهلَ مكة الماءَ بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عَشرةَ أميال بحَطِّ الجبال، ونحت الصخر، حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبةَ البستان، فقال لها وكيلُها: يلزمُك نفقةٌ كثيرةٌ، فقالت: اعملها، ولو كانت ضربةُ فأسٍ بدينار، وكانت وفاتُها سنة ست عشرة ومئتين في جمادى الأولى ببغداد رحمها الله تعالى. انتهى.

وأما ابنُ جُبير الأندلسي[2]، وقد كانت حجته في سنة (٥٧٩) فإنّه ذكر زبيدة في كلامه الذي يلي: فاجتمع بعرفات من البشر جَمْعٌ لا يُحْصِي عددَه إلا اللهُ عزّ وجل. ومزدلفةُ بين مِنى وعرفات، من مِنى إليها مثل ما من مكة إلى منى، وذلك نحو خمسة أميال، ومنها إلى عرفات مثل ذلك، أو أشفُّ قليلاً، وتسمّى المشعر الحرام، وتسمى جَمْعاً.

قال الحريري في «مقاماته»:

وقلتُ لعاذِلي مَهْلاً فإنّي سأختارُ المَقَام على المُقَام

---

(١) [«وفيات الأعيان»: ٢: ٣١٤)].

(٢) [«رحلة ابن جبير» (١٣٤)].

وأنفِقُ ما جَمَعْتُ بأرْضِ جَمْعٍ وأسلو بالحَطِيْمِ عن الحُطامِ

فلها ثلاثة أسماء.

وقبلها بنحو الميل وادي مُحسِّر، ومضت السُّنَّةُ بالهرولة فيه، وهو حدٌّ بين مزدلفة ومِنى، لأنّه معترض بينهما.

ومُزْدَلفة بسيطٌ من الأرضِ فسيحٌ بين جبلين، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمان زُبيدة رحمها الله.

أقول: هذه الخمسة الأميال من عرفات إلى مِنى أخذتْ معنا أكثرَ من خمس ساعات من بعد المغرب إلى نصف الليل، على أننا كنا في سيارة، وهذا مع سعة الطريق، الذي هو أحياناً سهلٌ أفيحُ، ولا عجبَ فإنّ نحواً من مئتي ألف نسمة كانوا مفيضين ذلك المساء في وقت واحدٍ من عرفات إلى مُزدلفة، فمنها قطر الجمال بالألوف لا بالمئات، وعليها الهوادجُ يخيَّلُ لرائيها من كثرتها وارتفاعها وحركة الأباعر من تحتها أنّ هناك مدينةً سائرةً على متون الأيانق، وهناك الركبان والفرسان، والمشاة على الأقدام، وبالاختصار محشر من الخلائق، وقد يبلغُ الحاجُّ في بعض الأعوام ثلاثمئة ألف، وأربعمئة ألف، وجميعُهم لا بدَّ لهم من الإفاضة في وقتٍ واحدٍ.

وقد يتأخَّرُ حُجّاجُ الشيعة ليلةً أخرى إنْ لم تثبت عندهم هم رؤيةُ الهلال، وبعضُهم يرى أنّه يسعهم ما وسع أهلَ السنة، وعندي أنّ الأولى تركَ النّاس وحريتهم في أمورٍ كهذه، إذ ليس في ذلك مخالفةٌ للشرع، وإنما هو مجرّدُ اجتهادٍ لا غير[1].

---

(١) أما تركهم وشأنهم فذلك ما جرتْ ولا تزال تجري عليه الحكومات من أهل السنة ـ وأما هَدْيُ أئمة السلفِ، وهو اللائق بالوحدة الإسلامية، فهو عدم الخلاف، واجتنابُ التفرُّقِ في الشعائر الإسلامية العامة، وذلك بأن يترك أمر إثبات أوّل ذي الحجة إلى حكومة الحجاز، ولا يحاولُ الشيعةُ إثباتَ ذلك فيها بشهادة من يشهد منهم برؤية الهلال في حال إمكان الرؤية الخ.

وإنما كان يعمل كل أحدٍ باجتهاده الشخصي في المسائل الشخصية، وحكم =

روعة موقف عرفات العام
ومواكب الحج فيها أيام دول الإسلام
ووصف ابن جبير الأندلسي لها في القرن السادس

لا أنسَى منظرَ عرفات ليلاً، فهو من أبهج ما ارتسمَ في خاطري من مناظر هذه الدنيا الفانية، مع كثرةِ ما شاهدتُ في حياتي، وما تقلبتُ في الأمصار والعواصم، فقد أقبلنا عليها غَلساً، آتين من مِنى، فكانتْ أشبهَ بسماءٍ في كواكبها وطرائِقها منها بسهولٍ وهضابٍ في خيامها وقبابها المضروبة، ومصابيحها المعلقة، ونيرانها المشبوبة، فكان منظراً قيّدَ النواظرَ، لا يشبعُ منه الرائي تطلُّعاً، ولا يزدادُ به إلا ابتهاجاً.

وليست عرفاتُ في النهار بأقلَّ حسناً وجلالاً في تموُّج جموعها، وتراصّ قبابها، ولا سيما في مناظر الخشوع التي تأخذ بالألباب، ومسامع الأدعية التي ليس بينها وبين الله حجاب.

وصف ابن جبير لموقف عرفات

وإني أتركُ وصف عرفات في مثل ذلك اليومِ لكاتبٍ شهيرٍ لا يُلْتَفَتُ إلى فقير فقراتي بجانبِ مليءِ أماليه، ولا يُؤْبَهُ بحقيرِ خرزاتي في معرض بديع لآليه، ألا وهو ابن جُبير الكناني الأندلسي برّد اللهُ ثراه، قال[1]:

فأصبح يومُ الجمعة المذكور في عرفات جمعاً لا شبيهَ له إلا الحشر،

= الحاكم يرفَعُ الخلافَ في المسائل الاجتهادية المتعلِّقةِ بمصلحةِ الأمةِ، وتفصيلُ الموضوع ليس هذا محلّه. مصححه

(١) [«رحلة ابن الجبير» ١٣٦ ـ ١٣٨].

لكنّه إن شاء الله حشرٌ للثواب، مبشِّرٌ بالرحمة والمغفرة يومَ الحشر للحساب.

زعم المحققون من الأشياخ المجاورين أنّهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعاً أحفلَ منه، ولا أرى كان من عهد الرشيد ـ الذي هو آخِرُ من حَجّ من الخلفاء ـ جمعٌ في الإسلام مثله، جعلَه الله جَمعاً مرحوماً معصوماً بعزته.

فلمّا جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور، وقف النّاس خاشعين باكين، وإلى الله عزّ وجل في الرحمة متضرّعين، والتكبيرُ قد علا، وضجيجُ الناس بالدعاء قد ارتفع، فما رُؤِيَ يومٌ أكثرَ مدامع، ولا قلوباً خواشع، ولا أعناقاً لهيبةِ للهِ خوانِعُ خواضِعُ ـ من ذلك اليوم.

فما زال النّاسُ على تلك الحالة، والشمس تلفَحُ وجوههم إلى أن سقط قرصُها، وتمكّن وقتُ المغرب، وقد وصل أميرُ الحاجّ مع جملةٍ مِنْ جنده الدارعين، ووقفوا بمقربةٍ من الصخرات[1] عند المسجد الصغير، وأخذ السَّرْوُ اليمانيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبال عرفات، المتوارثة عن جد فجد من عهد النبي ﷺ، لا تتعدّى قبيلةٌ على منزلِ أخرى.

وكان المجتمعُ منهم في هذا العام عدداً لم يجتمِعْ قطُّ مثله، وكذلك وصل الأمير العراقي في جمع لم يصل قط مثله، ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين، ومن السيدات بنات الأمراء كثير، ومن سائر العجم عددٌ لا يحُصى، فوقف

---

(١) هذه الصخرات التي يتكَررُ ذكرُها معروفةٌ، وهي التي وقف النبيُّ الأعظمُ ﷺ عندَها في حَجّة الوداع، ولكنه قال: «وقفتُ هاهنا وعرفةُ كلُّها موقفٌ» رواه مسلم [رقم (١٢١٨ ـ ١٤٩) من حديث جابر رضي الله عنه] يعني أنّ وقوفَهُ هنالك إتفاقيٌ، لا لفضيلةٍ في المكان، لئلا يتهافتَ النّاسُ بعدَهُ عليه، ولكنهم يفعلون ذلك ما استطاعوا. مصححه

الجميعُ، وقد جعلوا قدوتهم في النَّفْر الإمامَ المالكي، [لأن مذهب مالك رضي الله عنه يقتضي أن لا يُنْفَرَ حتى يتمكنَ سقوطُ القرص، ويحين وقت المغرب][1] . . . إلى أن يقول: فلما حان الوقت أشار الإمام المالكي بيديه، ونزل عن موقفه، فدفع النّاس بالنَّفْرِ دفعاً، ارتجّتْ له الأرض ورجفت الجبال، فياله موقفاً ما أهولَ مرآه، وأرجى في النفوس عُقباه، جعلنا الله ممن خصّه فيه برضاه. وتغمّده برحماه، إنّه منِعمٌ كريم، حنّان منّان.

وكانت محلةُ الأمير العراقي جميلةَ المنظر، بهيةَ العُدّةِ، رائقةَ المضارب والأبنية، عجيبةَ القبابِ والأروقة، على هيئاتٍ لم يُرَ أبدعَ منها منظراً، فأعظمُها مرأى مضرَبُ الأمير، وذلك أنّه أحدقَ به سرادقٌ كالسّورِ من كتان، كأنه حديقة بستان، أو زخرفة بنيان، وفي داخله القباب المضروبة، وهي كلُّها سوادٌ في بياض، مرقَّشةٌ ملوّنةٌ، كأنّها أزاهيرُ الرّياضِ، وقد جَلَّلَت صفحاتِ ذلك السرادقِ من جوانبه الأربعة كلَها أشكالٌ درقية[2] من ذلك السواد المنزّلُ في البياض، يستشعِرُ الناظِرُ إليها مهابةً، يتخلَّلُها درقاً لمطية[3] قد جلَّلتْها مزخرفات الأغشية.

لهذا السرادق الذي هو كالسور المضروب أبوابٌ مرتفعةٌ، كأنّها أبوابُ القصورِ المشيَّدةِ، يُدخَلُ منها إلى دهاليزَ وتعاريجَ، ثم يُفضَى منها إلى الفضاء الذي فيه القباب، فكأنّ هذا الأميرَ ساكنٌ في مدينةٍ، قد أحدقَ بها سورٌ، تنتقلِ بانتقاله، وتنزِلُ بنزوله، وهي من الأُبّهاتِ الملوكية المعهودة.

وداخل تلك الأبواب حُجّابُ الأمير وغاشيتُه، وهي أبوابٌ مرتفعةٌ،

---

(١) [زيادة من رحلة ابن جبير].

(٢) [الدرقة هي الترس].

(٣) [نسبة إلى قبيلة (لمطة) في المغرب الأقصى عندهم أحسنُ التراس].

يجيء الفارس برايته، فيدخل عليها دون تنكيسٍ ولا تطأطؤٍ، قد أَحْكَمَتْ ذلك كلَّه أمراسٌ وثيقة من الكتان، تتصل بأوتادٍ مضروبة، أديرَ ذلك كلُّه بتدبيرٍ هندسي غريب.

ولسائر الأمراء الواصلين صحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك، لكنّها على تلك الصفة، وقبابٌ بديعةُ المنظرِ، عجيبة الشكل، قد قامت كأنّها التيجان المنصوبة، إلى ما يطول وصفه، ويتسع القول فيه من عظيم احتفالِ هذه المحلة في الآلة والعُدّةِ، وغيرِ ذلك مما يدلُّ على سَعة الأحوال، وعظيم الانخراق[1] في المكاسب والأموال.

ولهم أيضاً في مراكبهم على الإبل قبابٌ تظلُّهم، بديعةُ المنظر، عجيبةُ الشكل، قد نصبت على محامل من الأعواد، يسمُّونها القشاوات، وهي كالتوابيت المجوفة، هي لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال، تُمْلأ بالفُرُشِ الوثيرة، ويقعد الراكب فيها مستريحاً، كأنّه في مهادٍ ليّنٍ فسيحٍ، وبإزائه معادِلُه أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى، والقبـةُ مضروبة عليهما، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران، أو كيفما أحبا، فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحطّان بها ضُرِبَ سرادقهما للحين، إن كانا من أهل الترفُّهِ والتنعُّمِ، فيدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان، يُنْصَبُ لهما كرسيٌّ ينزلان عليه، فينتقلان من ظِلِّ قُبةِ المحمَلِ إلى قُبةِ المنزل، دون واسطة هواء يلحقهما، ولا خطفةِ شمس تصيبهما، وناهيك من هذا الترفيه، فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وإن بَعُدَتْ شُقَّتُه نَصَباً، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً.

ودون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات، وهي شبيهة الشقادِف، لكن الشقادف أبسطُ وأوسعُ، وهذه أضمُّ وأضيقُ، وعليها ظلائل تقي

---

(١) [التوسعة].

حَرّ الشّمس، ومَنْ قَصُرَتْ حالُه عنها في هذه الأسفار، فقد حصل على نصب السفر، الذي هو قطعة من العذاب الخ ا هـ.

أقول: وكم رأت طريقُ البيتِ الحرام من هذه المحارات وهذه الشقادف، وكم رأتْ من راكبٍ وفارسٍ، وحافٍ وناعلٍ، وكم تطهّرت نفوسٌ، وتهذّبتْ أرواحٌ، وصفتْ قلوبٌ، وزكتْ أعمالٌ، وخزيت شياطينُ، وحُقِنَتْ دماءٌ، وكُفكفت دموعٌ، وصِينَتْ أموالٌ، كلُّ ذلك بسبب هذه الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وكم عاشت بهذه الآية مخلوقاتٌ، ودخلت على الحجاز أموالٌ، اللهم إنّ كلّ ذلك لمما هو فوق تصوُّرِ العالمين.

أما النعمة والرفاهية اللتان أشار إليهما ابن جبير من حال حُجّاج العراق وفارس وخراسان في ذلك الوقت، فلم يبق منها شيء تقريباً إلى الأعصر الأخيرة، لأنّ تلك الحال تحولت بسبب الحروب المتواصلة، ولا سيما غارة المغول التي أتت على الحرث والنّسل، ونسفت عمران المشرق نسفاً، فأقفرت البلادُ، وتقلّصت الزراعةُ، وتشتتَ العبادُ، ونضبتْ موادُّ التجارة، وجاء فتح تُرْعةِ السويس في الزمن الخير، فتحولت به تجارة الهند والصين عن فارس والعراق والشام، واستأثر بها الأوربيون رأساً[1]، مع أنّ ثروة بغداد والبصرة وشيراز وإصفهان وسِيْرَاف الخ كانت أيّامَ العباسيين مما تعجَزُ عن وصفِه الأقلام، وتتقاصَرُ الأرقام، وتلك الأيام نداوِلُها بين الناس.

---

(١) [كانت رحلات ماركو بولو وماجلان وغيرهما من الرحالة الأوربيين بداية الحصار الاقتصادي على العالم الإسلامي، تبعها تحويل طرق التجارة البرية والبحرية عنه، فلما ضعف المسلمون اقتصادياً، وافتقروا، جاءهم الغزو العسكري والفكري، فاحتل بلدانهم، وشوّش أفكارهم، فصاروا متخبطين لا يدرون إلى أيّ وجهة يسيرون، وهذا حالهم إلى اليوم، انظر كلام الأمير ص (٩٨ ـ ١٠١)].

ولقد أخطر ببالي ذِكْرُ المحامل التي ينتقل منها إلى المنازل بدون أن يخرج الراكب من الظل إلا إلى الظل عملُ الملك ليوبولد ملك بلجيكة السابق، فقد رأيتُ له في بروكسل قصراً حوله حديقة فيحاء، وكان أنشأ فرعاً من سكة الحديد إلى الحديقة فالقصر، داخلاً في نفقٍ تحتَ الأرض إلى ما تحت القصر، فيأتي القطارُ الخاصُّ بالملك من الخارج، فيدخل إلى ما تحت القصر، ويخرج الملك من العربة التي هو جالس فيها بخطوة واحدة إلى المصعد، الذي هو محاذٍ لباب العربة، فيرقى به المصعد توّاً إلى غرفة نومه الخاصة، وهكذا ينتهي من سكة الحديد إلى غرفة مبيته، دون أن يتكلَّفَ لا مشياً ولا صعوداً، ولا نعلمُ هل كانتْ عندهُ آلةٌ ترفعُه من أرض الغرفة إلى السرير!؟

* * *



الوزير جمال الدين الجواد الأصفهاني

وزير صاحب الموصل أتابك زنكي

من حَيْثُ إننا في ذكر المعمِّرين (عمّر المنزل بالتشديد جعله آهلاً) والمثمِّرين (ثمَّرَ المالَ بالتشديد أيضاً كثّره) والمسدين للمبرات، والسابقين إلى الخيرات، والمشيدين للممالك، والممهدين للمسالك، وإن سيرةَ مثلِ هذه الطبقة في الإسلام هي أحسنُ السير، وبها يَحْسُنُ المبتدأُ، ويَعْطُرُ الخبرُ، فليسمحْ لنا القرّاءُ بنشر شيءٍ من سيرة الجواد الأصفهاني، وزير صاحب الموصل أتابك زنكي بن آق سنقر.

فهو الوزير أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور[1]، اتصل بخدمة أتابك زنكي في الموصل في الثلث الأول من القرن السادس للهجرة، وبعدَ أن قُتِلَ الملك المذكورَ على قلعة جَعْبَرَ، استوزرَهُ سيفُ الدين غازي بن أتابك زنكي، وفوّضَ الأمورَ وتدبيرَ أحوالِ الدولةِ إليه.

قال ابن خلكان: فظهر حينئذ جود الوزير المذكور، وانبسطت يدُه، ولم يزل يعطي ويبـذل الأموالَ، ويبالغُ في الإنفاق، حتى عُرِفَ بالجواد، وصار ذلك كالعلَم عليه، حتى لا يقال نه إلا جمال الدين الجواد ـ إلى أن قال ـ وأثر آثاراً جميلة، وأجرى الماء إلى عرفات أيّامَ الموسم من مكان بعيدٍ، وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى أعلاه[2]،

---

(١) [كتب الدكتور صادق أحمد جودة كتاباً لطيفاً في سيرة هذا الوزير سماه «الجواد الأصفهاني وزير الموصل والشام»].

(٢) يعني الجبل الذي في وسط عرفات المعروف بجبل الرحمة، فإنّه مُقَسَّمٌ إلى =

وبنى سور مدينة الرسول ﷺ، وما كان خرب من مسجده، وكان يحمِلُ في كلِّ سنة إلى مكة شرّفها الله تعالى والمدينة على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين، ما يقوم بهم مدةَ سنةٍ كاملةٍ.

كان له ديوان مرتّبٌ باسم أربابِ الرسوم والقُصّادِ لا غير، ولقد تنوع في فعل الخير حتى جاء في زمنه بالموصل غلاءٌ مفرِطٌ، فواسى الناس حتّى لم يُبْقِ شيئاً.

وكان إقطاعه عُشرَ مُغَلّ البلاد، على جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية، إلى أن قال عن وفاته: توفي في العشر الأخير من شهر رمضان المعظم ـ وقيل من شعبان ـ سنة تسع وخمسين وخمسمئة، وصُلّي عليه، وكان يوماً مشهوداً من ضجيج الضعفاء والأرامل والأيتام حولَ جنازته، ودُفِنَ بالمَوْصِل إلى بعض سنة ستين، ثم نُقِل إلى مكة حرسها الله تعالى، وطيفَ به حولَ الكعبة، وكان بعد أن صعدوا به ليلةَ الوقفة إلى جبل عرفات، وكانوا يطوفون به كلَّ يوم مراراً مُدَّةَ مقامهم بمكة شرّفها الله تعالى، وكان يوم دخوله مكة يوماً مشهوداً من اجتماع الخلق والبكاء عليه، وقيل: إنه لم يُعْهَدْ عندهم مثل ذلك اليوم، وكان معه شخص مرتَّبٌ، يذكر محاسنَه، ويعدِّدُ مآثرَه إلى أن قال ـ ثم حُمِلَ إلى مدينة الرسول ﷺ، ودفن فيها بالبقيع، بعد أن أدخل المدينة، وطيف به حول حجرة الرسول ﷺ مراراً، وأنشد الشخصُ الذي كان مرتباً معه[1]:

= درج [مصاطب] بعضُه فوق بعضٍ، كما يرى من وقوف الناس عليه طبقةً فوق طبقةٍ، وهذا الدرج هو الذي كان يُسمّى إلا لا ـ بكسر الهمزة، وحُكِيَ فتحُها.

(١) [البيتان من قصيدة للقاضي أبي يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبي حصين يرثي بها مخلص الدولة مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، وهي من فائق الشعر، وقد ذكرها ابن خلكان بتمامها في «الوفيات» (٥: ٢٧٠ ـ ٢٧٣)].

سَرَى نعشُه فوقَ الرِّقابِ، وطالما سرى جودُه فَوْقَ الرِّكابِ ونائِلُهْ
يمرُّ على الوادِي فُتِثْني رِمالُه عليه، وبالنادي فَتَبْكِي أرامِلُه

انتهى كلام ابن خلكان[1].

وانظر إلى ما يقوله عن هذا الوزير ومآثره ـ الرحالة ابن جُبيرٍ الأندلسي[2]، وقد عاشَ في ذلك العهد، وهو: ولهذه البلدة المباركة (أي مكة) حمّامان.

أحدهما: ينسَبُ للفقيه الميانشيّ أحدُ الأشياخ المحلّقين[3] بالحرم المكّرم.

والثاني: وهو الأكبر، ينسَبُ لجمال الدين، وكان هذا الرجل كصفتِه جمال الدين، له ـ رحمه الله ـ بمكة والمدينة ـ شرّفهما الله ـ من الآثار الكريمة، والصنائع الحميدة، والمصانع المبنية في ذاتِ الله المشيدة ما لم يسبقه أحد إليه فيما سلف من الزمان، لا أكابر الخلفاء فضلاً عن الوزراء.

وكان رحمه الله وزيرَ صاحبِ الموصل، تمادى على هذه المقاصد السنية، المشتملة على المنافع العامة للمسلمين، في حرم الله تعالى وحرمِ رسوله ﷺ، أكثر من خمسَ عشرةَ سنة، لم يزل فيها باذلاً أموالاً لا تُحْصَى، في بناءِ رِباعٍ بمكة، مسبلةٍ في طرق الخير والبر، مؤبّدَةٍ محبّسةٍ، واختطاطِ صهاريجَ للماء، ووضعِ جِبَابٍ في الطريق، يستقرُّ فيها ماء المطر، إلى تجديدِ آثار من البناء في الحرمين الكريمين.

وكان من أشرف أفعاله أنْ جلبَ الماءَ إلى عرفات، وقاطع عليه بني شعبة سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء بوظيفة من المال كبيرة،

---

(١) [«وفيات الأعيان»: (٥: ١٤٤)].

(٢) [رحلة ابن جبير: (٩١ ـ ٩٣)].

(٣) [الذين لهم حلقات للعلم].

على أنْ لا يقطعوا الماء عن الحاجّ، فلما تُوفي الرّجلُ رحمة الله عليه عادوا إلى عاداتهم الذميمة من قطعه.

ومن مفاخره ومناقبه أيضاً أنّه جعلَ مدينةَ الرسول ﷺ تحت سورين عميقين، أنفقَ فيهما أموالاً لا تُحصى كثرةً.

ومن أعجب ما وفّقه الله تعالى إليه أنّه جَدَّدَ أبوابَ الحرم كلَّها، وجدّد بابَ الكعبة المقدسة، وغشّاه فضةً مذهبةً، وهو الذي فيها الآن، حسبما تقدّم وصفُه، وجَلَّلَ العتبةَ المباركة بلوحِ ذهبٍ إبريزٍ، وقد تقدّم ذكُره أيضاً، فأخذ البابَ القديمَ، وأمرَ بأن يُصنعَ له منه تابوتٌ يدفَنُ فيه، فلما حانت وفاتُه، أوصى بأن يوضَع في ذلك التابوت المبارك، ويُحَجُّ به ميتاً، فسيق إلى عرفات، ووقف به على بعد، وكُشِفَ عن التابوت، فلما أفاض النّاسُ، أُفِيْضَ به، وقُضيت له المناسكُ كلها، وطِيْفَ به طواف الإفاضة، وكان الرجل رحمه الله لم يحج في حياته[1].

ثم حُمل إلى مدينة الرسول ﷺ، وله فيها من الآثار الكريمة ما قدَّمنا ذكره، وكاد أشرافُها يحملونه على رؤوسهم، وبُنيتْ له روضةٌ بإزاء روضة المصطفى ﷺ، وفتح فيها موضع يلاحظُ الروضةَ المقدسة، وأبيحَ له ذلك ـ على شِدّةِ الضّنانةِ بمثله ـ لسابقِ أفعاله الكريمة، ودُفن في تلك الروضة، وأسعده الله بالجوار الكريم، وخصّه بالموارِاةِ في تربة التقديس والتعظيم، والله لا يضيع أجرَ المحسنين. ا هـ.

---

(١) هذه الأعمال من نبش القبر، والسفر بالجثة أو العظام وأعمال المناسك والزيارة والندب كلُّها محرّمةٌ في الإسلام، فهل أنكرها العلماء ولم يسمع لهم كلام؟ أم اشتركوا مع الحكام والعوام؟
والعبرة في هذا أنّ بذلَ المال في المنافع العامة ولا سيّما عمران الحرمين الشريفين، وتسهيل الحج، والزيارة فيهما، له أكبرُ شأنٍ في قلوب المسلمين، ويكبرونَ مِنْ شأنِ صاحبه حياً وميتاً ما يرفعونه على العلماء والخلفاء والسلاطين. مصححه

ثم يعود إلى سيرته أيضاً فيقول: ولهذا الرجل رحمه الله من الآثار السنية، والمفاخر العلية ـ التي لم يسبِقْه إليها أكابر الأجواد، وسُراة الأمجاد، فيما سلف من الزمان ـ ما يفوتُ الإحصاء، ويستغرِقُ الثناء، ويستصحِبُ طول الأيام على الألسنة الدعاء، وحسبُك أنّه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرقِ المسلمين بجهة الشرق، من العراق، إلى الشام، إلى الحجاز، حسبما نذكره، واستنبط المياه وبنى الجِباب، واختطّ المنازل في المفازات، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وكافّة المسافرين.

وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عيّنها لنزولِ الفقراء أبناء السبيل، الذين يضعف أحدُهم عن تأدية الأكْرية[1]، وأجرى على قوَمة تلك الفنادق والمنازل ما يقومُ بمعيشتهم، وعيّنَ لهم ذلك في وجوه تأبّدتْ لهم، فبقيتْ تلك الرسومُ الكريمة ثابتةً على حالها إلى الآن، فسارتْ بجميلِ ذكرِ هذا الرجل الرِّفاقُ، ومُلِئَتْ ثناءً عليه الآفاقُ.

وكان مدةَ حياته بالموصل ـ على ما أخبرنا به غيرُ واحد من ثقات الحجّاج التجار، ممن شاهد ذلك ـ قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء، فسيحة الأرجاء، يدعو إليها كلّ يوم الجفلى[2] من الغرباء، فيعمهم شبعاً ورياً، ويردُ الصادر والوارد من أبناء السبيل في ظله عيشاً هنياً، لم يزل على ذلك مدةَ حياته رحمه الله، فبقيت آثارُه مخلّدة، وأخبارُه بألسنة الذكر مجدَّدة، وقضى حميداً سعيداً، والذكُر الجميل للسعداء حياةٌ باقيةٌ، ومدّةٌ من العمر ثانية. اهـ.

العبرة بتعمير السلف وتخريب الخلف

قلت: ولو لم تكن آثارُ هذا الرجل مخلدةً، وأخبارُه بألسنة الذكر

---

(١) [الأجرة].

(٢) [دعوة جفلى: وليمة عامة].

والشكر مجددة، لما جئنا نحن بعد سبعمئة وثمانٍ وثمانين سنة نُجدِّدُها ونُنوِّهُ بها، ونجعلها مناراً للمهتدين، وقدوة للمقتدين، ولا شكَّ أنّ التاريخَ إنما يَشْرُفُ ويَكْرُمُ بتراجم رجالٍ كهؤلاء، جعلوا أنفسهم مصداقَ الحديثِ الشريف «الخلقُ كلُّهم عيالُ اللهِ فأحبُّهم إلى اللهِ أنفعُهُمْ لعيالِهِ»[1].

فتأمّلْ في هذا الرجل، وما أجراه من الخيرات العامة، وما بَرَّدَ من حَرٍ، وما أغنى من فقر، وما آوى من قفرٍ، وما آمن من خوفٍ، وما قوّى من ضعفٍ.

وتبصَّرْ فيما شاده من الفنادق في الطرقات، وما بناه من المنازل في الفلوات، وما حبس على هذه المؤسسات الخيرية من الأوقاف الدارّة، إلى غير ذلك من المآثر التي يتحلّى بها تاريخُ الإسلام، وتطيبُ بقراءتها الأنفسُ، وترتفع الأرؤس.

وقابلْ هذا الصبر على الخير، وهذا الجلَد في الإنسانية، وهذا الثبات في الفعل الجميل بما تعرفه من غيره، ممن هم ـ ويا للأسف ـ أكثرُ عدداً في ولاة الأمور وأعزُّ نفراً، وذلك في صرفهم أموالَ المسلمين إلى جيوبهم، وإنفاقِهم ريع أوقافهم وغلةَ رباعهم على شهوات أنفسهم، وفي إعراضِهم عن المصالح العامة إلى المنافع الخاصة، بل المنافع الخاصة الخسيسة، والمطامع الشخصية الدنيئة، ولهوهم بسفساف الأمور عن معاليها، وخيانتهم الأمة في أماناتها التي حملوها بالأجرة، وتراهم لا تهتزُّ لهم أريحية إلى ميرة، ولا تسمو لهم هِمّةٌ إلى عمل شريف، ولا إذا تداعى جدارٌ جدّدوا بناءَه، ولا إذا توعّرتْ طريقٌ أزالوا حرشتها[2]، ولا إذا جفّتْ عينٌ أسالوا غيرها، ولا إذا تشعّثَتْ قناةٌ بادروا

---

(١) رواه أبو يعلى والبزّار من حديثِ أنس، والطبراني من حديث ابنِ مسعود.
[وهو حديث ضعيف جداً كما قال في «ضعيف الجامع» رقم (٢٩٤٥)].

(٢) [الحرشة: الوعورة].

إلى رمّها. لا يهمهم حِفْظُ الماضي على حاله، فضلاً عن أن يبدأوا مآثر، ويفترِعُوا مفاخَر، بل دأبُهم في ولاية أمورِ المسلمين كما جاء في المثل العامي «يأكلون الخضراء، ويقطعون اليابسة»، وكأنما أورثهم الله خراجَ المسلمين لينفقوه في السّرفِ والسّفه، ولذات الكروش والفروج، كأنما هو تراثُ آبائهم وأجدادِهم، بل لو كان تراثَ آبائهم وأجدادهم ما ساغ لهم ذلك فيه، ولمنعهم القضاة العادلون عن هذا السّفه، ولكن أين القضاة العادلون وأين العلماء العاملون، الذين يقولون الحق في وجه الملوك، ويخاطرون بأنفسهم ومصالحهم لأجل نصح الأمة!؟

فو الله ما أفسدَ أمرَ الإسلام إلا أمراؤُه ـ إلا من رحم ربك ـ وما أفسدَ هؤلاءِ الأمراء إلا العلماءُ الذين أُخذت عليهم المواثيق بأن لا يقارّوا على معصية، ولا يواطئوا على معرّة[1]، فكانوا يقارّون على المعاصي، ويتزلّفون إلى الأمراء بالأباطيل، ويفتون لهم بتأويل النصوص الشرعية بغير معناها الحقيقي، ويسهّلون لهم الموبقات بأجمعها، والمرديات بحذافيرها، طمعاً في الدنيا الفانية، والمطاعم الوبيئة الذاهبة.

وهكذا تحوَّل أمر هذه الأمة من العظمة إلى الصغار، ومن التمكن في الأرض إلى البوار، ومن المآثر والمباني إلى الدمار، ومن أحاديث المعالي إلى أقاصيص العار والشنار[2].

* * *

---

(١) [الأذى والسماءة والمكروه].

(٢) [الأمر المشهور بالشُّنَعَة والقُبْحِ].

الإسلام دين العمران بريء من تبعة الانحطاط
الذي عليه المسلمون الان
وتاريخ سلفهم المعمّرين حجةٌ على خلفهم المخرّبين

ولما كان يستحيلُ أن تسوءَ الإدارةُ في الداخل بدون أن يستأسِدِ العدو من الخارج، لأن الأمم المتجاورة بعضها لبعضٍ بالمرصاد، يهتبل الغِرّة، ويقتحم العورة، لم يلبث ظُلْمُ الأمراءِ بتساهل العلماء، وما نشأ عن ذلك من اضطراب الدَّهماء ـ أنْ أحدَثَ الأثرَ المنتظر، وأتى بالنتيجة البديهية من امتداد يد الغريب، وطَمَعِه في ممالك المسلمين، واقتطاعه العالم الإسلامي قطراً بعد قطر، وضربه على المسلمين الذُّلَ والمسكنة، بعد أن كانوا سادةَ الأرضِ وحلفاءَ النصر، وما أحسَ قولَ شوقي في مخاطبة النبيِّ ﷺ:

أقطعتَهُـمْ غُـرَرَ البـلادِ فضيَّعُـوا وغَدَوْا وُهُمْ في أَرْضِهِمْ غُرباءُ

لم يخسر المسلمون بلدانهم فقط، وما تسلّط عليها الأجنبيُّ، وأخذ كلَّ ما فيها أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ فحسب، بل خسروا في نظر الناس حقائقَهم وفضائِلَهم، ومعاليهم وأحسابهم وآدابهم، وصار الناس يمارون في مآثرهم السوابق، ومعاليهم السوامق، ويجادِلون في صحة نظرياتهم الاجتماعية، ويرونهم من أبعدِ الخلق عن العمران، وينسبون ذلك إلى الدين الإسلامي وإلى القرآن، وإلى التوحيد، وإلى عقيدة القضاء والقدر، وإلى غير ذلك من الأسباب التي يعلمها مَنْ له أُلفة بكتب الإفرنج، أو من يجالس الناشئة الحاضرة في الشرق.

وصَدّقَ هذه الأقاويل كثيرٌ من المسلمين أنفسِهم، واتخذوا تلك السفسطة قضيةً مسلّمةً، ونبذوا الإسلام بتاتاً، وأوشكَ آخرون أن ينبذُوه بحجة أنّه مصدرُ الانحطاط.

ونسوا أنّه ما مِنْ أمةٍ على وجه الأرض إلا وقد سعدتْ وشقيتْ، وعلتْ ونزلتْ، وتداولتها أدوارٌ مختلفةٌ، وكانت ديانتها واحدة في دوري علوها وهبوطها، وأنّ الإسلام لهو أجدَرُ من غيره بأن لا يكون مسؤولاً عن انحطاط أحدٍ، وأنّه طالما نهضَ بأهله إلى الدرجات العلى، عندما كانوا يعملون بمقتضاه حقَّ العمل، وإنما كان المسؤول عن هذا الانحطـاط، المسلمـون لا الإسـلام، والقّـراء لا الكِتـابُ، والحملـة لا المحمول، والخزنة لا المخزون، وهؤلاء هم الذين فقدوا الممالك، وخسروا المجد القديم، وجنوا هذه الجناية على الشريعة الإسلامية، والمبادىء القرآنية، والآداب العربية، والثقافة الشرقية، وجعلوا كلَّ أولئك مسؤولاً عن أمور لا مسؤول فيها غير الأشخاص في الحقيقة، ولا مُجْرِمَ غير الخلف الفاسد، الذي أضاع الصلاة، واتبع الشهوات، ولقي الغيَّ.

وإنك لتجدُ كلَّ كلمةٍ من القرآن شاهدةً عليهم، وكلَّ نصٍّ من الشرع حاكماً بسوءِ سيرتهم، ولو أنفقتَ مافي الأرضِ جميعاً لم تقدرْ أن تطبقَ أعمـالَ هـؤلاء الملـوك والخلفـاء والـوزراء، والقضـاة والعلمـاء مـن المسلمين ـ الذين وصلوا بالأمة إلى ما وصلت إليه ـ على آيةٍ واحدةٍ من القرآن الكريم مفهومةٍ حقَّ الفهم، أو حديثٍ مشهورٍ، لا يتطرّقُ إلى إسناده الشك، بل خالفوا قواعدَ الإسلام من أولها إلى آخرِها، واتخذوا كتابَ الله لمجّردِ الترتيل والتجويد، ولم يعملوا بِعُشْرِ معشارِ ما فيه من الأوامر والنواهي، ورجعوا يعاتِبون اللهَ على الخذلان الذي هم فيه، واللهُ قد أجابهم مِنْ قبلُ على اعتراضهم، وقال لمثلِهم: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

مثل هذه الأحوال من رجال الإسلام الموكول إليهم أمرُ الأمة قد أوسع للطعنِ أشداقاً، وللنظر بالازدراء أحداقاً، وصار الأوربيون يقولون لنا: أنتم لا تعرفون إلا التخريبَ، وليسَ لكم حَظٌّ من العمران، ولا من سداد الإدارة، وما الإدارة عندكم إلا فوضى، وبينكم وبين النظام ما بين المشرق والمغرب، إلى غير هذا من المثالب.

وكذلك انهالَ أكثرُهم بالطعن على الإسلام نفسه، يقولون فيه: لو كان خيراً لكانَ أهله قد أثَلُوْا مدنيةً، ووُفِّقُوا إلى حضارةٍ حقيقيةٍ، والشجرةُ إنما تُعرَفُ من ثمارها.

ولم ينفردْ بهذا القول الضابط الإفرنسي سيكار، ولا اليسوعي لامنس، ممن نشرنا كلامهم في «مجلة المنار» مردوداً عليه بالبراهين الساطعة، والحجج الدامغة، التي أجبرتْ سيكارَ نفسَه أن يعترفَ بأهميتها، ولكن تشدّقَ بهذا الكلام كثيرون من علماءِ الإفرنج ومؤلفيهم، وزعموا أنّ الإسلام والمدنية هما على طرفي نقيضٍ، حتى قالوا: إنّ المدنية التي يقال لها في التاريخ: المدنية الإسلامية، لم يكن منها شيءٌ من علم المسلمين، وكابروا في هذه القضية المحسوس، وأنكروا بدائه الأمور، وكلُّ هذا من أجل أنّهم أدركوا أعمال هؤلاء الظلمة الخاسرين من أولياء أمورِ الإسلام، وساحوا في بلاد المسلمين، فوجدوا الغربان تنعق في الأماكن التي كانت معمورةً في القديم بملايين البشر، ووجدوا الآثارَ الجميلةَ الباقيةَ من الماضي أشبهَ بواحاتٍ في وسط صحارَى من القذارة والشناعة والغبرة، ووجدوا الطرقات لا يكادُ السالك يسلكها من الدعارة[1] وفقد الأَمَنة، ووجدوا شوارعَ المدن لا يقدِرُ السائر فيها أن يسيرَ إلا محوِّلاً نظره، ساداً أنفَه من كثرة ما فيها من الأوضار

(١) [الفساد].

والأوساخ، ووجدوا القُنِيَّ مقطّعة، والآبارَ معطّلة، والقصورَ غيرَ مشيّدة، والقناطر مهدّمة مبعثرة.

ونحن وجدنا هذه المرة في تسيارنا في جبال الحجاز ـ فضلاً عما نعرفُ من غيرها من بلداننا ـ من آثار العمران الدارسة، والسدودِ الدائرة، والقنوات المنقورة في الصخور، المنقطعةِ عنها المياه الجارية، ما لا يكادُ يأخذُه الإحصاء، ورأينا منها شيئاً كثيراً ليس ترميمُه بالأمر المعجز، مع شدة ضرورته، وقضينا العَجَبَ من إهمال الولاة الغابرين إياه، وتهاونهم بعمارة البلاد إلى هذا الحد، كأنّ البلاد بلادُ أعدائهم[1].

فمن أجل ذلك فسحنا مكاناً واسعاً في كتابنا هذا لابن كُريز، وزُبيدة العباسية، والوزير المَوْصِلي جمال الدين الجواد، ومَنْ في ضربهم من رجالات العمران، وبناة المدنية، ونمثلها لهم بقول المعري:

جمـالُ ذي الأرضِ كـانـوا فـي الحياة وَهُـمْ
بَعْـدَ الممـاتِ جمـالُ الكُتْـبِ والسِّيَـرِ

وإذا كان قد جرى ذكر المنازل في الفلوات، فسنأتي على أخبارٍ أخرى لطيفةٍ من هذا الموضوع، لا تضيقُ بها رسالة «الارتسامات اللطاف» بل تكون بالعكس وشياً لطرازها.

* * *

---

(١) وقد حبّس المسلمون المتقدمون على الحرمين الشريفين من الأوقاف الكثيرة في كلّ قطرٍ ما يكفي لجعلِ الحجازِ أعظمَ بلادِ الله عمراناً، وقد أكلَ المسلمون أكثرَ تلك الأوقاف، ولا يزالُ المعروفُ منها يكفي لعمران الحجاز، ولكنْ يحولُ دونَ وصوله حكامهم الظالمون، وأعداؤهم الكافرون، الذين استولوا على أكثر بلادِ المسلمين.

شغف بعض ملوك الإسلام بالعمران

١ ـ مثال منه : آثار عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس

أردنا أن نردف أخبارَ أبطالِ العمارة، وصناديدِ البناء والتشييد، وكفاة الشبع والري من مسلمي المشرق، بأخبارِ بعضِ أقرانهم من مسلمي المغرب، ليعلمَ النّاسُ أنّ الإسلامَ أنجبَ ملوكاً وسلاطين، كانوا يحتفِلُون بالعمران، ويعمِّرون القِفار، ويرتِّبون من أمور المدنية ما يرتبه الإفرنج اليوم، وما لم يكونوا يُحْسِنُون مثله في تلك القرون، التي كان المسلمون فيها هم الأعلون في كّلِ شيء.

فمن هؤلاء في المغرب الخليفة عبد الرحمن الثالث، الملقب بالناصر الأموي، ولستُ بمتعرّضٍ الآن إلى ذكر خلافتِه التي استمرت خمسين سنة، ومغازيه في بلاد الإفرنج، ومآثره الباهرة التي اتفقت عليها تواريخ الشرق والغرب[١]، ولكنّي أريدُ أن أذكر من علو همته في البنيان من تتحيَّرُ به العقولُ.

ذلك أنه بنى قصَر الزهراء بقرطبة، فكان طولُ هذا القصر من الشرق إلى الغرب ألفين وسبعمئة ذراع، أيِ نحو كيلو مترين، وعرضُه من الشمال إلى الجنوب ألفاً وخمسمئة ذراع، أي نحو كيلو متر، وكان في الزهراء أربعةُ آلاف وثلاثمئة سارية، وكان فيها ما يزيُد على خمسةَ عشر

---

(١) [انظر سيرته في كتاب «عبد الرحمن الناصر» للأستاذ علي أدهم من سلسلة «أعلام العرب»].

ألفَ بابٍ، وكان يتصرَّفُ في عمارة الزهراء كلَّ يومٍ من الخُدّام والفعلةِ عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمئة دابّة، وكان من الرجال مَنْ له الدرهم ونصف، ومن له الدرهمان والثلاثة.

وكان يصرفُ كلَّ يوم في الزهراء من الصخر المعدل المنحوت ستة آلاف صخرة، سوى الآجر والصخر غير المعدل.

قالوا: وكان الناصر يثيبُ على كلِّ رُخامة كبيرة أو صغيرة عشرةَ دنانير، سوى ما كان يلزم لقطعها وحملها، وجلب الناصر الرُّخام إلى الزهراء من كل البلاد، فالأبيضُ من المرية، والمجزَّع من رية، والورديُّ والأخْضَرُ من صفاقس وقرطاجنة بأفريقية، وجلب إليها الحوضَ المنقوش المذهّب من الشام، وقيل من القسطنطينية، وفيه نقوشٌ وتماثيلُ وصورٌ على صور الإنسان، ولما جلبه أحمد الفيلسوف ـ وقيل غيره ـ أمرَ الناصرُ بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنِس، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً.

قالوا: وبنى في الزهراء القصرَ المسمّى بقصر الخلافة، وكان سَمْكُهُ (سقفه) من الذهب والرُّخام الغليظِ، الصافي لونُه.

وكانت حيطانُ هذا القصر مثلَ ذلك، وجُعِلَتْ في وسطه اليتيمة، التي أتحفَ الناصرَ بها ليون ملك القسطنطينية، وكانت قرامِدُ هذا القصر من الذهب والفضة، وكان في وسط المجلس صهريجٌ مملوءٌ بالزئبق، وكان في كلِّ جانب من هذا المجلس ثمانيةُ أبوابٍ، قد انعقدتْ على حنايا من العاج والأبنوس المرصّع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرُّخام الملون والبلور الصافي.

وكانت الشَّمْسُ تدخلُ على تلك الأبواب، فيضرب شعاعُها في صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نورٌ يأخذ بالأبصار.

وكان الناصر إذا أراد أن يفزّعَ أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته، فيحرِّكُ ذلك الزئبق، فيظهر في المجلس لمعانٌ كلمعان البرق

من النور، يأخذ بمجامع القلوب حتى يخيَّلَ لكلٍّ مَنْ في المجلس أنّ المحل قد طاربهم، وهذا المجلس لم يتقدّم لأحدٍ بناءُ مثله، لا في الإسلام ولا في غيره، وإنما تهيأ للناصر لكثرة الزئبق في ملكه.

وأجرى الناصر إلى الزهراء المياه، وأحدقَ بها البساتين، وبنى فيها مسجداً من أبدع المساجد، وقيل: إنّ العملَ في الزهراء استمرَّ أربعينَ سنة من ملك الناصر، وقيل: إنّه كان بقصر الزهراء من الوصفاء ثلاثة عشر ألفاً، وكان الجاري لهم من اللحم فقط كلَّ يومٍ عدا الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل، وكان في القصر من الجواريّ والخوادم أكثرَ من ستة آلاف امرأة، وقيل: إنّ المرتبَ من الخبز لحيتان الزهراء السابحة في بركها العظيمة اثنا عشر ألف خبزة كل يوم.

قالوا: وكان يرد من الجير والجص في كلّ ثالث من الأيام إلى الزهراء ألف ومئة حمل، وقدّرَ بعضُ أهل الخدمة في الزهراء أنّه كان ينفقُ فيها كلّ عامٍ ثلاثمئة ألف دينار، وأنّ ذلك استمرّ خمساً وعشرين سنة، إلى نهاية ملك عبد الرحمن الناصر.

وذكروا أنّ الحوض المنقوشَ المذهّبَ الذي جلبه الفيلسوف أحمد مع ربيع الأسقف من القسطنطينية لم يكن وحدَه، بل جلبوا إليه أيضاً حوضاً آخر، يقال له: الحوض الصغير، أخضر منقوشاً بتماثيل الإنسان، وأنّ الناصرَ نصبَه في بيتِ المنام بالمجلس الشرقي، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعةً بالدُّرِّ النفيس الغالي، مما عُمِلَ بدار الصناعة بقرطبة: صورةُ أسدٍ، إلى جانبه غزالٌ، إلى جانبه تمساحٌ، وفيما يقابله ثعبانٌ وفيل، وفي المجنبتين حمامةٌ وشاهينٌ وطاووس، ودجاجة وديك وحِدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصّع بالجوهر النفيس، ويخرج الماءُ من أفوهِها.

قالوا: وفي يوم الخميس لسبع بقينَ من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمئة كَمَّلَ الناصُر بناءَ القناةِ الغريبة الصنعة، التي أجراها بالماء

العذب من جبلِ قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤُها بتدبير عجيبٍ، وصنعةٍ محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسدٌ عظيمٌ الصورةِ، بديعُ الصنعةِ، لم يشاهَدْ أبهى منه فيما صَوَّرَ الملوكُ في غابر الدهر، مطليٌّ بذهبٍ إبريز، وعيناه جوهرتان، لهما وبيصٌ[1] شديد، يجوزُ هذا الماء إلى عجز هذا الأسد، فيمجُّه في تلك البركة من فيه، فيبهر الناظرين بروعةِ منظره، ومجاجة صبّه، فتُسقى من مجاجهِ جِنانُ هذا القصر على سَعتها، ويستفيضُ على ساحاته وجنباته، ويمدُّ النهرَ الأعظم بما فضل منه.

قالوا: واستمرّ العملُ في هذه القناة إلى أن انتهت أربعة عشر شهراً، ولما انطلق فيها الماءُ إلى تلك البركة كان يوماً احتفل فيه الخليفةُ رحمه الله، وعمل دعوةً جفلى، وأفضلَ على عامة الخلق، ووصل المهندسين والقُوّام بصلاتٍ حسنةٍ جزيلةٍ.

عمران قرطبة العجيب في عهد الناصر

وكان عمران قرطبة في أيام الناصر عامًّا تامًّا، وليسَ من المعقول أن يتناهى هذا التناهي كلُّه في اتقان البنيان وتفخيمه في عاصمة لم يستبحِرْ عمرانُها، ولم تزخَرْ لجج الاجتماع فيها، فقد رووا أنّ عدد دور قرطبة كان لعهد الناصر وابنِه الحكم نحو (٢٠٠) ألف دار، وهذه دور الأهالي، فأما دور الوزراء والعمال والكُتّاب والأجناد وخاصّةِ الملكِ فكانت ستين ألفَ دار، هذا عدا الحمامات والخانات والفنادق، وقالوا: إنّه كان فيها ثمانونَ ألف حانوت، وكان لقرطبة (٢٨) ربَضاً[2] وقيل (٢١) ربَضاً، كلُّ واحدةٍ منها بلدةٌ فيها مِنبرٌ تقام فيه الجمعة.

---

(١) [لمعان].

(٢) [ضاحية].

وقيل: إنّ الطرقَ من قرطبة إلى جميع هذه الأرباض كانت تُنار ليلاً بالقناديل، وهي مسافات من (١٠) إلى (١٥) كيلو متراً.

فأما مساجدُ قرطبة لذلك العهد، فقد جاءت فيها روايات مختلفة، فقيل: ثلاثة آلاف وثمانئمة. وقال ابن حَيّان: بلغت المساجِدُ بقرطبة في مدة ابن أبي عامر (بعد الناصر بمدَّةٍ غير طويلة) ألفاً وستمئة مسجد، والحمامات تسعمئة حمام.

وأما مسجد قرطبة الأعظم، فإن القلم ليعجزَ عن وصفه، فمن شاء فليقرأ ذلك في «نفح الطيب» وغيره من تواريخ الأندلس، أو فليذهبْ إلى إسبانية، ويشاهده، فلا يزال أكثرُه قائماً، وإن كان قد تحوَّل إلى كنيسة، وقد ذهب كثيرٌ من النفائس التي كانت تزينّه، ولا أعلمُ هل أبقاه الإسبانيول على مساحته الأولى، أم اختصروا منه، فالذي في كُتبِ العرب أن تكسيرَهُ[1] كان نحو (٣٣) ألف ذراع، وأنه كان فيه (١٢٠٠) عمود و(٩٣) عموداً كلها رُخام، وقد كان لعهد الناصر وأهله باب مقصورةِ هذا الجامع من الذهب، وقد أجرى الذّهبَ في جدار المحراب وما يليه على الفسيفساء.

وكانت الصومعةُ[2] من بناء الناصر، تعلو ثلاثاً وسبعين ذراعاً، إلى أعلى القبة المتفَّحَةُ التي يستدبرها المؤذِّنُ، وفي رأس هذه القبة تفافيحُ ذهبٍ وفِضّةٍ، ودَوْرُ كلِّ تفاحة ثلاثة أشبار ونصف، فاثنتان من التفافيح ذهبُ إبريز، وواحدة فضة، وتحتَ كلِّ واحدةٍ منها وفوقَها سَوْسنةٌ، قد هُندِسَتْ بأبدعِ صنعة، ورُمانةُ ذهبٍ صغيرةٍ على رأس زجٍّ.

وكان في الجامع مئتان وثمانون ثريّا، وثمانمئة وخمس كؤوس، وكان يوقَدُ فيه في شهر رمضان فقط ثلاثة قناطير من الشمع، وكان له

(١) [مساحته].

(٢) [المئذنة].

كلَّ ليلةِ جمعة رطل عود، وربع رطل عنبر، وكان من فيه من الأئمة والمؤذنين والسدنة نحو (١٥٠) رجلاً، وروى بعضهم(٣٠٠) ويجوز أن يختلِفَ العددُ باختلاف الأوقات.

وقالوا: إنّ الحكم المستنصر بنى لهذا الجامع أربع ميضآت، منها ثنتان للرجال، وثنتان عند مقاصير النساء، وأجرى في جميعها الماءَ من سفح جبلِ قرطبة، وصبّها في أحواضِ رخام.

وأجرى فضلَ هذا الماء العذب إلى سقاياتٍ اتخذهنّ على أبواب الجامع، وهي جوابِ ثلاثٍ من حياض الرخام، اقتطعها من مقطع المنستير بسفح جبل قرطبة، واحتفر الرخاميون هناك أجوافها بمناقيرهم في المدة الطويلة، حتى استوت في صورها البديعة، فخفف ذلك من ثقلها، وأمكن من إهباطها إلى أماكن نصبها بأكنافِ المسجدِ الجامعِ، فتهيّأ حَمْلُ الواحدةِ منها فوقَ عَجَلَةٍ كبيرةٍ، اُتخِذَتْ من ضِخام خشب البلّوط، على قُللٍ موثّقةٍ بالحديد المثقف، محفوفةٍ بوثاق الحبال، قُرِنَ لجرّها سبعون دابة، ومُهدّت قدامها الطرقُ، وتيسّر نقلُها في مدة (١٢) يوماً، فنُصبتْ في الأقباء المعقودة لها.

وابتنى الحكم المستنصر غربي الجامع دار الصدقة، واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية، وابتنى للفقراء البيوتَ قبالة باب المسجد الكبير.

وربما يَنْسُبُ بعضُ القراء شيئاً من هذه الروايات إلى المبالغة، ويجوزُ أن يكون فيها زيادة في الوصف، لأجل نقل الحقيقة إلى ذهن السامع، إلا أنّ كثيراً من هذه الآثار محفوظٌ إلى اليوم، فجامع قرطبة لا يزال قائماً، وإن كانت الزهراءُ والزاهِرَةُ وغيرهما قد درستْ، وقصرُ إشبيلية لا يزال قائماً، وحمراءُ غرناطة لا تزالُ ماثلة، ومباني العرب في طُلَيْطِلَةَ أكثرُها لم يتهدّم، وكلُّ مَنْ رأى الباقي من تلك الآثار لا ينسِبُ مجملَ تلك الروايات إلى المبالغة.

ثم إنّ ابنَ خلدون شيخُ فلاسفة التاريخ برصانتِه وجلالةِ قَدْرِهِ وزيادَةِ نعيه على المبالغين في الأخبار يقول: ولما استفحل مُلْكُ الناصر، صرف نظَرَه إلى تشييد القصور والمباني، وكان جَدُّه الأمير محمد، وأبوه عبد الرحمن الأوسط، وجده الحكم، قد احتفلوا في ذلك، وبنوا قصورَهم على أكمل الاتقان والضخامة، وكان فيها المجلس الزاهر والبهور والكامل والمنيف، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصرَه العظيم، وسماه دارَ الروضة، وجلبَ الماء إلى قصورهم من الجبل، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المتنزهات، فاتخذ منية الناعورة خارجَ القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة.

ثم اختطَّ مدينةَ الزهراء (صدق ابن خلدون، لأنّ الزهراء في الحقيقة كانت مدينة لا قصراً) واتخذها لنزله، وكرسياً لملكه، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عفا على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظلّلة بالشِّباكِ، واتخذ فيها دورَ الصناعة لآلات السلاح للحرب، والحلي للزينة، وغير ذلك من المهن، وأمر بعمل الظُّلة على صحن الجامع بقرطبة وقايةً للناس من حَرّ الشّمْسِ اهـ.

وأما الزّاهرةُ فقد بناها المنصور بن أبي عامر الشهير، الذي يُعَدُّ من أعاظم رجال الإسلام[1]، جعلها على نهر قرطبة الأعظم، واحتفلَ جداً ببنائها، حتى صارت أشبهَ بمدينة أيضاً.

ومن أحلى ما قرأتُ من غرام عبد الرحمن الناصر الأموي بالعمران والاتقان والفراهة، والرفاهة، واستكمال أدواتِ الرفق على نسق العصر

---

(١) [انظر سيرته في كتاب «المنصور الأندلس» للأستاذ علي أدهم من سلسلة أعلام الإسلام].

الحاضر- ما جاء في «الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى»[1] أن أبا العيش أحمد بن قاسم كنون من ملوك الأدارسة بالمغرب، كان قطع دعوة العُبيديين خلفاء مصر وتونس، وبايع الخليفةَ عبد الرحمن الناصر صاحبَ الأندلس، وخضع المغربُ كله لأبي العيش بنفوذ الناصر وقوته، ولما كان الخليفة في جهادٍ دائمٍ مع الإفرنج، أراد أبو العيش أن يلحقَ بساحةِ القتال، واستأذنَ الخليفةَ في ذلك، فأذنَ له، وأمر بأن يُبنَى له في كل منزلٍ ينزِلَهُ قصراً، وذلك من الجزيرة الخضراء (بقرب جبل طارق) إلى الثغر (حدود بلاد الإفرنج، وكانوا يقولون لسرقسطة الثغر الأعلى) وأن يجري له فيها ألف دينار في كل يوم ضيافةً له، ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر، فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الثغر، فكانت منازِلُه من الجزيرة إلى الثغر ثلاثين منزلاً ا هـ.



(١) [للسلاوي].

٢ ـ مثال آخر من النظام عند المسلمين
من خبر عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين

ومن هذا النمط وأبلغ منه في ترتيب المنازل والمناهل ما عمله عبد المؤمن بن علي، صاحبُ دولة الموحدين في المغرب، فقد كانت أفريقية ـ بلاد تونس ـ في يد بني زيري بن مناد الصنهاجيين، عمالاً للعُبيدين خلفاء القاهرة، ولكن كانت دولة بني زيري قد أشرفتْ على الهرم، وزاحمها الثوار من العرب، فانتهز الإفرنج أصحابُ صقلية هذه الفرصة فيهم، وملكوا منهم عدةَ ثغور، مثل صفاقس وسوسة وغيرهما، ثم ملكوا المهدية، وهي دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي، فذهب هذا إلى عبد المؤمن بن علي القائم بدولة الموحدين، واستعداه على الإفرنج، وبينما هذا يهمُّ بذلك إذ أوقع الإفرنجُ بأهل زويلة، التي هي على مقربة من المهدية، وكان وقعةً شنيعةً، قتلوا فيها النساء والأطفال، ففرّ جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن علي يستنصرونه وهو بمراكش، وقالوا له: لم يبق في ملوك الإسلام من يكشِفُ هذا الكربَ غيرُك، فدمعتْ عيناه، وأطرق ساعةً، ثم رفع رأسه، وقال: أبشروا، لأنصرنّكم ولو بعد حين.

ثم أمر بعمل الروايا والقُرب، وما يحتاج إليه العسكر في السفر، وكتب إلى مَنْ بطريقِه من نوّابه، يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصّل من الغلات، وأن يترَكَ الزرعُ في سنبله، ويخزَّنُ في مواضعه، وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا جميعَ ما أمرهم به، وجمعوا غلات الحب

ثلاث سنين، ونقلوها إلى المنازل التي هي على الطريق، وطينوا عليها، فصارت كأنها تلال.

فلمّا كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمئة سار عبد المؤمن من مراكش يؤمُّ بلادَ أفريقية، واجتمع عليه من العساكر مئة ألف، ومن السوقة والأتباع أمثالهم، وكان هذا الجند يمتدّ أميالاً، وبلغ من حِفظِه وضَبْطِه أنّهم كانوا يمشون بين الزروع، فلا تتأذّى بهم سنبلة، وإذا نزلوا صلّوا بإمامٍ واحدٍ، بتكبيرةٍ واحدةٍ، لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ كائناً من كان، ولم يزل يسيرُ إلى أن وصل إلى مدينة تونس، وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينياً وطريدةً وشلنداً، ونازل البلدة، وأخذها، وسار إلى المهدية وأسطوله يحاذيه في البحر، وكان بالمهدية يومئذ خواص الإفرنج من أولاد ملوكها، وأبطالِ فرسانها، وأَخْلُوا مدينةَ زويلة، ودخلها عبد المؤمن بعساكره، والسوقة الذين معهم، فصارت مدينةً معمورة في ساعةٍ واحدةٍ، ونزل بظاهرها مَنْ لم يجد موضعاً فيها، وانضافَ إلى جيشِ عبد المؤمن من صنهاجة والعرب ما لا يدخل تحت إحصاءٍ، وأقبلوا يقاتِلون المهدية، فلا يؤثر فيها لحصانتها، وضيّقَ مجال القتالِ عليها، لأنّ البحر دائر بأكثرِها، فكأنّها كفٌّ في البحر، وزندها متصل بالبر، وركب عبد المؤمن شينياً، ومعه الحسن بن علي الصنهاجي، وتطوّفَ بها في البحر، فهاله ما رأى من حصانتها، وعلم أنّها لا تُفْتَحُ بقتالٍ براً ولا بحراً، وليس لها إلا المطاولة، وقال للحسن: كيف نزلتَ عن مثل هذا الحصن؟ فقال له: لقلة من يوثق به، وعدم القوت، وحكم القدر، فقال: صدقت، وعاد وأمر بجمع الغلات والأقوات، وترك القتال، فلم يمضِ غير القليل، حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير. فكان مَنْ يصل إلى المعسكر من بعيد يقول: متى حدثت هذه الجبال؟ فيقال: هي حنطة وشعير، فيقضي العجب ممايرى، وتمادى الحصار، وفي أثنائه استولى عبد المؤمن على

طرابلس، وصفاقس، وسوسة، وجبل[1] نفُّوسة، وفتح قابس بالسيف، وأطاعه أهل قَفْصة، وإذا بأسطول صقلية آت مدداً للإفرنج في المهدية، وكان عدده (١٥٠) شينياً غير الطرائد، وكان هذا الأسطول غزا جزيرة يابسة (بقرب ميورقة من جزر إسبانية) وسبى أهلها، فأراد الدخول إلى ميناء المهدية، فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب العسكر جميعُه إلى جانب البحر، فانهزمت شواني الإفرنج، وتبعهم المسلمون، وأخذوا منهم سبع شواني، وعاد أسطول المسلمين مظفَّراً منصوراً، ويئس إفرنج المهدية من النجاة، ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى، إلى أن نزل من فرسانهم عشرة، وسألوا عبد المؤمن الأمان على أن يخرجوا بأموالهم، وكان قد فني عندهم القوت، حتى أكلوا الخيل، فعرض عبد المؤمن عليهم الإسلام فقالوا: ما جئنا بهذا، وإنما جئنا نطلب فضلك، وتردّدوا إليه أياماً، وقالوا: إذا أنعمتَ علينا كنا لك أرقاء في أرضنا، فعفا عنهم، وكان الفضلُ شيمتَه، وأعطاهم سفناً، ركبوا فيها إلى بلادهم، وكان الفصل شتاءً، فغرق أكثرُهم قبل الوصول إلى صقلية، وكان صاحبُ صقلية قد قال: إنْ قَتَلَ عبدُ المؤمن أصحابَنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية، وأخذنا حرمهم وأموالهم، فأهلك اللهُ الإفرنج غرقاً، وكانت مدة استيلائهم على المهدية اثنتي عشر سنة، انتهى كلام صاحب «الاستقصا» ملخَّصاً.

وذكر ياقوت في «معجم البلدان» المهدية، ووصف حصانتها بأكثر مما وصف صاحب «الاستقصا» وقال: إنّها من بناء المهدي العُبيدي الفاطمي، وإن روجار صاحب صقلية أنفذَ إليها جرجي سنة (٥٤٣) واستولى عليها، وبقيت في يد الإفرنج اثنتي عشرة سنة، حتى قدم عبد المؤمن سنة (٥٥٥) فأخذها، ولم تغنِ حصانتها في جنب قضاء الله شيئاً. انتهى.

---

(١) [في الأصل: جبال].

فأمّا قول صاحب صقلية: إنّه لو قَتَلَ عبدُ المؤمن إفرنج المهدية لقتل هو مسلمي صقلية، فقد كان يصدرُ مثلُ هذا الفعل من الإفرنج . . . فأما المسلمون فكانوا يأنفون من ذلك، وصالح معاوية بن أبي سفيان الرومَ، وارتهن منهم رهناء، فوضعهم ببعلبك، ثم غدر الروم وقتلوا المسلمين، فلم يشأ معاوية والمسلمون قتلَ مَنْ في أيديهم من رهائن الروم، وخلّوا سبيلهم، وقالوا: وفاء بغدر، خير من غدر بغدر، وهو قول العلماء والإمام الأوزاعي رضي الله عنه، وهو من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقد كان شاهد هذا الحديث هو صنيع عبدِ المؤمن بن علي السلطان الكبير الذي قيل فيه:

ماهَزَّ عِطْفَيْهِ بيْنَ البيضِ والأَسِلِ مثلُ الخليفةِ عبدِ المؤمنِ بْنِ عَلِيْ

فقد ساق مئة ألفِ مقاتلٍ، ومعها مئة ألف من سوقة وأتباعٍ من مراكش إلى تونس، بدون أن تتأذّى بهم سنبلةُ قمحٍ، ولما أراد حصارَ المهدية جعل الحبوبَ جبالاً، فمثل هذا بين الملوك يقدَّرُ له النجاح، ويصحب دولته الفلاح.

ولعبد المؤمن بن علي آثار كثيرة، منها بمراكش بستان المسرّة، طولُه ثلاثة أميال، وعرضُه قريبٌ منها، ورَوَوْا أنّه كان مبيعُ زيتون هذا البستان وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية، على رخص الفاكهة بمراكش.

وقد درس هذا البستان كما درس غيره، حتى جدَّدَهُ المنصور السعدي بعد ذلك بأربعمئة وخمسين سنة.

* * *

٣ ـ مثال آخر عن حب العمران من سيرة المنصور السعدي فاتح تنبكتو النيَجْر والسودان

كان المنصور السعدي صاحب المغرب وفاتحُ تنبكتو والسودان وبلاد النَّيجر من أشهرِ الملوك الذين عمّروا وثمّروا فيِ الإسلام، ولو لم يكن كذلك ما تمكّنَ من إرسال تلك الجيوش الجرارة إلى تلك البلاد القاصية العاصية، ومن تدويخها، وإضافتها إلى مراكش، حيث بقيت مدةً طويلةً تابعة للمغرب، فتمَّ له ما يفتخِرُ الإفرنج اليومَ بمثله، مع تقدم وسائل النقل، وترقّي جميع أسباب العمران أضعاف ما كانت منذ ثلاثة قرون ونصف، وكانت جيوش المنصور السعدي لا تُحصى، وكان له في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره من فنون النظام ما يدهِشُ العقول، وقد نلمُّ بذلك في فرصة أخرى.

والمنصور السعدي هو باني القصر المسمّى بالبديع في حاضرة مراكش، مكث يبني فيه ست عشرة سنة، لم يتخلّلْ ذلك أدنى فترة، وحشد المنصورُ له الصنّاعَ حتى من بلاد الفرنجة، وجلب له الرُّخام من بلاد الروم، وكان المنصور قد اتخذ مَعاصِرَ السُّكَّرِ ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما، فكان عنده سُكَّرٌ كثير، فكان ـ حسبما قالوا ـ ربمااشترى الرخام بالسكر وزناً بوزنٍ.

وكان المنصور السعدي الملقب بالذهبيّ، يحتفل بالعمران إلى الغاية القصوى، ويُحْسِنُ إلى الأجراء، ويُجْزِلُ صلة العارفين بالبناء،

ويوسِّعُ عليهم في العطاء، ويقوم بمُؤَنِ أولادهم، حتى لا تتشوف إليهم نفوسهم، ولا تتشعب أفكارهم.

وأما قصره البديع فلا أجدُ هنا فسحةً لوصفِ محاسنه الباهرة، فمن أراده فليقرأ ذلك في «الاستقصا» أو غيره من تواريخ المغرب.

وأتذكّرُ أني قرأتُ لجيروم، وجان نارو، من أشهر كُتّاب الفرنسيس كتابين في وصف بلاد مراكش، ومن جملة ما ذكرا بافتتانٍ لا يوصَفُ قبةَ مدافن الملوك السعديين، وقد قالا: إنّ فيها من بديع الصنعة ما لا يخطر على بال أحد، وأنَّ مَنْ لم يشاهد هذه القبة وما هناك من المباني لا يعرف إلى أية درجة تناهت المدنية الإسلامية.

* * *



٤ ـ مثال آخر من سيرة مولاي إسماعيل سلطان المغرب في أواخر القرن الحادي عشر إلى منتصف القرن الثاني عشر

ومن أعظم ذوي الآثار بين ملوك المغرب بل بينَ ملوك الإسلام، بل بين ملوك العالم بأسره السلطان المولى إسماعيل، جد العائلة الشريفة المالكة إلى اليوم في المغرب، وكان ملكُه بعد الثمانين وألف للهجرة، وهو الذي قلع الإسبانيول والبرتغال من سواحل المغرب، وقلع الإنكليز من طنجة، وألف الجيشَ الدائم المسمى بالبخاري، وكان مركباً من مئة ألف من العبيد السود، واستمر حكمه أربعاً وستين سنة، منها سبع سنوات بالنيابة عن أخيه المولى الرشيد، وسبع وخمسون سنة بالأصالة، حتى كان جهلة الأعراب يعتقدون أنه لا يموت، وكان الذين يستبطئون موته يلقبونه بالحي الدائم، فهو والمستنصر العبيدي الفاطمي، ولويس الرابع عشر، وفرانسوا جوزيف من قبيلٍ واحد في طول مدة الحكم، وكان المغرب في طول مدة حكمه يتمتّعُ بالأمن الشامل.

قال صاحب «الاستقصا»: لم يبق لأهل الدعارة والفساد محل يأوون إليه، ويعتصمون به، ولم تقلّهم أرضٌ، ولا أظلتهم سماء سائر أيامه.

وعندي كتابُ تاريخٍ للسلطان المولى إسماعيل بالإفرنسية، نقلت عنه بعض جملٍ مرّةً في إحدى مقالاتي إلى «الشورى» وكان المولى إسماعيل مغرَماً أيضاً بالبناء، متذكراً قولَ القائل:

هـمُ الملـوكُ إذا أرادوا ذِكْـرَهـا مـنْ بَعْـدِهِـمْ فَبِـأَلْسُـنِ البنيـانِ
إنَّ البنـاءَ إذا تعـاظَـمَ شَـأْنُـهُ أضْحَى يَدُلُّ على عظيمِ الشَانِ

وكان يحبُّ مكناسة الزيتون، لعذوبةِ مائها، وطيبِ هوائها، وسلامةِ مختزنها من العفونة، فلما فرغَ من أمرِ فاس، جاء إلى مكناسة، واشترى دورَ الأهالي، وأمرهم بالبناء في غربيها، وأدارَ عليها السّورَ، وانفرد بالجانب الشرقي من المدينة، وجعله كله براحاً، وشرع يبني فيه، واستجادَ الصنّاعَ من جميع البلدان، وفرض على القبائل عدداً معلوماً من الرجال والبهائم يبعثون به كلّ شهر.

وفرض على المدن والحواضر عدداً معلوماً من البنائين، والنجارين، والحدادين، والنحاسين، إلى غير ذلك.

وكانت حاضرةُ ملكه لا تخلوا من عشرين ألف أسيرٍ من الإفرنج، فكان يشغّلُهم أيضاً في مبانيه.

وكان كلما انتهى من قصرٍ بنى غيرَه، وكانت الجنان تحيط بقصوره كلها، وبنى مسجداً عظيماً جداً في داخل القصبة التي أسسها، فضاق هذا المسجد بالنّاس فيما بعد، فبنى مسجداً أعظم منه اسمه الجامع الأخضر، وجعل له بابين: باباً إلى القصبة، وباباً إلى المدينة.

وجعل للقصبة (٢٠) باباً، كلُّها في غاية الارتفاع والسعة، مقبّوةً من أعلاها، وفوقَ كلِّ باب منها برجٌ عظيمٌ، عليه من المدافع النحاسية العظيمة ما يقضي بالعجب. وجعل في هذه القصبة بركةً عظيمةً تسير فيها الفلك والزوارق للنزهة والانبساط.

وجعل في القصبة هرياً[1] عظيماً جداً لاختزان الحبوب، يقال: إنه كان يسع حاصلات أهل المغرب، وجعل بجوارِه سواقي للماء في غاية

---

(١) [مخزن].

العمق مقبواً عليها، وبنَى أعلاها برجاً عظيماً مستديرَ الشكل، فيه مدافعُ موجهةٌ إلى كل جهةٍ.

وأما الإصطبل، فلا أظن أنّه وجد إصطبل مثله في العالم، لأنّ طوله فرسخ وعرضه فرسخ (ـ الفرسخ نحو كيلو مترين ـ مسقّفٌ على أساطين وأقواس عظيمة، في كلِّ قوسٍ مربط فرس، وبين الفرس والفرس عشرون شبراً، كان يربط بهذا الإصطبل (١٢) ألف فرس، مع كل فرس سائس من المغاربة، وخادم من أسرى الإفرنج (سقى الله تلك الأيام) وفي هذا الإصطبل ساقية للماء مقبّوةُ الظهرِ، يأتي منها الماء إلى كل مربط فرسٍ بثقب خاص. وفي وسط الإصطبل قباب معدّةٌ لوضع سروج الخيل، وفيه هُرْيٌ متناهٍ في العظمة، مربّعُ الشكل، معقودٌ أعلاه على أساطينَ وأقواسٍ هائلة، لوضع أسلحة الفرسان، وينفذ إليه الضوء من شبابيك من حديد من جهاته الأربع، وفوق هذا الهُرْيُ قصرٌ اسمه المنصور، ارتفاعه مئة ذراع، وفيه (٢٠) قبة، في كل قبة طاق عليه شباك من حديد، يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة الزيتون، ويجاوِرُ هذا الإصطبلَ بستانٌ على قدر طوله، فيه من شجر الزيتون وجميع الفواكهِ ما يُدْهشُ، ويتخلل هذه القصور التي في داخل القصبة شوراعُ مستطيلةٌ متسعةٌ، وأبوابٌ عظيمةٌ فاصلةٌ بين كل ناحية وغيرها، وساحاتٌ ورحابٌ فسيحة، إلى غير ذلك مما يتعذَّرُ استقصاؤه.

قال صاحب «البستان»: ولم تزل تلك البنايات على طول الدهر قائمةً كالجبال، لم تخلقها عواصف الرياح، ولا كثرة الأمطار والثلوج، ولا آفات الزلازل التي تخرّبُ المباني العظام، والهياكل الجسام، قال: ـ ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوكُ من بنيه وحفدته يخرّبون تلك القصور على قدر وسعهم، وبحسب طاقتهم، ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرميد ومعدن وغير ذلك إلى وقتنا هذا، وبنيت من أنقاضها مساجدُ ومدارسُ ورباطات بكل بلد من بلدان

المغرب، وما أتوا على نصفها من مئة سنة، وأما الجدارات فلا تزال ماثلة كالجبال الشوامخ. الخ.

قلت: وقد مضى على ذلك من عهد هذا الكاتب نحواً من مئة وستين سنة، ولا تزال آثارُ إسماعيل في مكناسة الزيتون تحيِّرُ العقول، وكان يمكن أن تبقى القرون وبعدها القرون، لو لم تعمل فيها المعاول والفؤوس.

فأما أنّ أولادَ السلطان المذكور وحفدته كانوا يهدمون منها، ويبنون بأنقاضها، فهذا لعمري شأنُ جميع ملوك الإسلام وأمرائه وأتباعه تقريباً، **فكلُّنا في هذا المعنى من أولاد وحفدة المولى إسماعيل، لا نعرف سوى هدم ما بناه لنا أسلافُنا من مادي ومعنوي على السواء، وإن بنينا شيئاً فإنما نبني بأنقاض الأبنية العتيقة، نحن هكذا في المشرق والمغرب، لأنّه لا يوجد أمة يشبه بعضها بعضاً مثل المسلمين.**

وبرغم كل ما هدمناه وعفّيناه من الآثار، لا يزالُ شيءٌ كثيرٌ أَفلتَ من تحت معاولنا الهادمة، ونجا من بين أيدينا الطولى في التدمير، ولا تزال الإفرنج تصوِّرُ من هذه الآثار، وتتحفُ بها العالم المتمدن.

وبين يديَّ مجاميعُ عدة من الصور الفوتوغرافية، منها ما يشتمل على المباني الإسلامية في المشرق، ومنها مجموعة خاصة بفلسطين، ومنها مجموعة خاصة بالأقطار المغربية، ومنها ما هو خاصّ بالأندلس، وثمن المجموعة من هذه جنيهان وثلاثة وأربعة جنيهات، تسمح النفس بها لتزيين قاعة الاستقبال بمثلها، لأنّها أولى بقاعات الاستقبال منها بخزائن الكتب.

وأمّا من جهة الكتب الخاصة بموضوع الفن المعماري الإسلامي فعدا ما كتب في هذا الباب في أوروبة، وما برز فيه الدكتور الفيلسوف غوستاف لوبون، ظهر كتابٌ حديث لمسيو غروسه، المتخصص في تواريخ الأمم الآسيوية، اسمه «مدنيات الشرق» والمؤلف إفرنسي اسمه

(Kene Croasset) سبقت له مؤلفات عن الشرق الأقصى: اليابان، والصين، ثم عن الهند ـ معدودة في الطبقة العليا من التحقيق والصحة، وفي هذه الأيام الأخيرة أخرجَ كتاباً عظيماً ظهر منه الجزء الأول، يبحث عن مدنيات آسية من أقرب وقت من العصر الحجري، ثم المدنية المصرية، ثم المدنية الكلدانية الآشورية، ثم المدنية الفارسية القديمة، ثم المدنية العربية، ثم المدنية الفارسية في الإسلام، وكل هذا بالرسوم والصور.

ولا بدّ من أنْ نجعلَ في البحث نصيباً لهذا الكتاب، لأنّه رفع فيه رايةً بيضاءَ للعرب، وفسح لهم مكاناً فسيحاً عالياً من تأليفه، يفقأ الحِصْرِمَ في أعينِ الشعوبيين المحدثين، الذين منهم نفر بمصر، يحاولون أَن يغمطوا من فضل العرب، وأن يغضُّوا من قدر حضارتهم، وأن ينطحوا صخرةَ مجدهم بقرون عتاد ليس أمامها إلا الوهي[1].

هذا ـ وقد يقول بعضُهم: ألا إنّ ما ترويه وتقولُه إنما كان في أعصُرٍ ماضية خالية، واليوم قد تحوَّل هذا كله، وحصل الراديو، والكهرباء، والبخار، وأنّى لنا أن نباري الإفرنج، وقد تصرفوا بالطيارات والدبابات، ووصلوا الدنيا بعضها ببعض باللاسلكي، والباخرة، والسيارة الكهربائية، وغير ذلك.

فإنْ كان باقياً مَنْ ينطق بهذا السخف من الشرقيين قلنا له: إنّك لفي ضلال مبين، فإنّ الرقيَّ الأوروبيَّ لم يكن مبدؤه البخار وتموجات الهواء، وإنما كان مبدؤه النهوض والإرادة، ومنهما وصل بهم اجتهادهم في البحث والتنقيب إلى استخدام قوة البخار، وقوة الزيت، والاستفادة من تموج الهواء.

فأصل الرقي هو إرادة الرقي، ومعدات الصعود حاضرة لمن شاء

---

(١) [هم دعاة الفرعونية وما أكثرهم اليوم].

الصعود، ولا ينبغي للمرء أن يكون عالماً بالفن حتى ينشره، ويحمل الناس عليه، فمحمد علي كان أمياً تقريباً، وقد كان رجلاً عظيماً، وأسس مدنية مصر الحديثة[1].

وابن سعود البدوي ـ على رأي أعدائه، الذين يقصدون غمزه بهذه الكلمة ـ لم تمنعه بداوته عن استعمال السيارات الكهربائية، والمواصلات اللاسلكية، وغيرهما من أسباب المدنية العصرية، وقد وُفِّقَ لذلك في وقت قصير، وقد بدأ به الانقلاب المادي المدني في جزيرة العرب، **ولو كان لمملكة ابن سعود دخل الحكومة المصرية أي (٤٢) مليون جنيه في السنة، لأجرى من المشروعات العمرانية في الحجاز ونجد ما لا يخطر على قلب بشر[2].**

* * *

نعودُ الآن إلى الحجاز، ونذكر ما كان فيه وما ابتدأ أن يكون فيه، وما نرجو أن يكونَ فيه في المستقبل:

---

(١) [انظر كتاب «محمد علي وبناء دولة» للدكتور فؤاد شكري].

(٢) [وهذا ما حدث فعلاً].

خبر المطوفين في مكة المكرمة
والمزوِّرين في المدينة المنورة

نعود إلى الموضوع المتعلّقِ بالحجاز خاصة، ونطوف على مقامٍ مقامٍ منه، فنبدأُ بالمطوِّفين والمزوّرين فنقول:

إنّ المطوِّفَ يكونُ لازماً ومتعدياً:

فاللازم هو بمعنى الطائف، لأنّ العرب تقول: طاف بالمكان، وطوَّفَ به، فالمطوف قد يتضمَّنُ معنى الطائف، وقد يصدُقُ على الحاجّ نفسه، لأنه يطوّفُ (بالتشديد) بالبيت العتيق.

وقد يكون متعدياً، وهو من طوّفه مثل أطافه، فالمطوِّف هو الذي يطوِّفُ بالحاج حول البيت، وفي المقامات المباركة، ومن الغريب أنّي لم أجد (المطوِّفَ) في كتب اللغة، ولكنّ القياسَ يقتضيه، فهو اسم فاعل، من طوّفه، أو اسم فاعل من طوّف به.

وأما المزوِّرُ فهو في اللغة مَنْ يُكْرِمُ الزائر، يقال: زرتهم فزوّروني، أي أكرموني، وأحسنوا إلي، ولا شكّ أنّ هذه اللفظة تُشْعِرُ عند سماعها شيئاً من الكراهية، لاشتراكها في معنى آخر، وهو الآتي من الزور، ولكنّ اللغةَ واسعةٌ، وكم من لفظٍ يدل على معاني كثيرة، وليس هذا منحصراً في العربية، بل هو في كل اللغات.

ولفظة المزوِّر بمعنى الذي يقوم بخدمة الزائر لم يوجد مع الأسف سواها لهذا المعنى، فلا بدّ من قبولها على علاتها، ويجوز أن تقول:

المزير بضم أوله ـ وهو اسم فاعل من أزاره، ولكنّ العاميَّ يستثقل لفظةَ مزير وأن يقول: جاء المزيرون، ورأيت المزيرين، ومررت بالمزيرين، فهو يفضل أن يقول: جاء المزوِّرون ورأيت المزوّرين الخ وعدا هذا الاستثقال في اللفظ لا تتضمن لفظة مزير ما تتضمنه لفظة مزور، لأن المزير اسم فاعل من أزار، أي جعله يزور، وأماالمزور، فهو الذي يَخْدِمُ الزائر ويكرمه، وهو أقربُ إلى المعنى المراد، برغم قبح اشتراكه في معنى آخر.

وبالاختصار نقول: إنّ في الحجاز الشريف حماه الله طائفتين لا بدّ لقاصدِ الحجاز أن يكونَ له علاقةٌ معهما، ولا يكاد يستغني أحدٌ عنهما، وهما المطوِّفون بمكة، والمزوِّرون بالمدينة.

فالحاج يأتي غريباً، لا يعرِف أحداً، والغريبُ أعمى، ولو كان بصيراً، فلا بدّ له من دليلٍ يدلُّه، ويسعَى بين يديه، ويقضي حوائجه، ويرتّبُ له قضيةَ سفرِه ومبيتِه، ويعلّمُه مناسكَ الحج، التي أكثرُ الحجّاجِ يجهلونَها، وإن كان منهم من يعلمُها جملةً، فليس يعلمها تفصيلاً، وإنْ كان منهم من يعلمها جملةً وتفصيلاً، فهو النادر الذي لا يبنَى عليه حكم.

وزِدْ على هذا أنّ الحجاج ليسوا جميعاً من أبناء العرب، فيمكنهم أن يسألوا عن الطرق، والمنازل، والمناسك، والمناهل، ويزيلوا عمى الغربةِ بطولِ السؤالِ، لإمكان تفاهمهم مع الحجازيين، بل حجّاجُ العربِ لا يزيدون على خُمُسِ حُجّاجِ المسلمين، والأخماسُ الأربعة الباقيةُ هي من أمم تجهَلُ اللسانَ العربيَ، فكيف يصنعُ حُجّاجُ هذه الأمم إذا لم يكن المطوِّفون؟ وكيف تصنع المزدارة (زوار المدينة المنورة) إذا لم يكن المزوِّرون؟

وإني لأعلم أنّ كثيراً من الناس يطعنون في المطوفين والمزوِّرين، بل يبالغون في ذمهم، أو في ذم العدد الكثير منهم، ويقولون: إنّهم

ينهبون الحاج، ويجورون عليهم، ويتقاضونهم من الأجرة أضعاف حقوقهم، وقد يخدعونهم ويغشونهم، ويرتكبون في أمورهم كلَّ محرَّم، ولقد كنتُ أسمعُ هذه القصص قبل أن حججتُ، وقبل أن عرفتُ مكّة والمطّوفين، وقبل أن زُرْتُ المدينة وعرفت المزوِّرين، والمثلُ السائرُ عندنا يقول: اللهُ يساعدُ مَنْ يتكلَّم فيه الناس بالمليح، فكيف بالقبيح؟ فالمطوِّفون والمزوِّرون ولا سيما الفريق الأول منهم، قد وقعوا في ألسنة الناس من قديمِ الزمان، ويجوزُ أن يكون بعضُهم غيرَ بريءٍ بالمرة من هذه التهم، أو من بعضها، ويجوزُ أن تكون حصلت وقائع في وقت من الأوقات، وغيرُ معقول أنّ طائفةً كهذه تُعَدُّ بالمئات، وتتجاوز المئات، تكون بأجمعها من الفرقة الناجية، ومن ذوي الأخلاق الفاضلة، وأنّه لا يجوزُ أن يصدرَ عنها عملٌ سيءٌ، ولا تلوث بطماعية أو خديعة، فالذين يطلبون الكمال عند المطوِّفين والمزوِّرين ينسون أنّهم بشر، وينسون أنّهم مرتزقون، وينسون أنّ أكثرَهم عوامٌ، وينسَوْنَ أنّ رزقهم إنما هو على حجّاج البيت الحرام.

ولو دقق الإنسانُ النظرَ في المطاعن التي تُوجَّهُ إلى هؤلاء، لوجد أنّ أكثرها مبنيٌّ على كون المطوّف أو المزوّر يتقاضى الحاج حقه، أو يطمع في أن يأخذَ منه بدلاً من الجنيه الواحد جنيهاً ونصفاً مثلاً، والحجاج أغنياؤهم عددهم قليل، لأنّ الغني في أكثر الأحيان يميل إلى الرفه والترف، وهذان لا ينتظمان مع الحج ومشاقّه، ولا سيما إذا كان الفصل صيفاً، وأكثرُ فصولِ الحجاز صيفٌ، والقسم الأعظم من الحجاج هم من طبقة المساتير، الذين ليسوا من ذوي الفضلة، والذين لا يقدرون أن يعيشوا إلا ببودجة[1] مالية، متوازِنٌ واردُها مع نافذِها، والنفقات غيرُ الملحوظةِ فيها زهيدةٌ جداً، فهؤلاء لا يقدرون أن ينفقوا كما شاؤوا، وهؤلاء أكثرُهم يبقى سنين من حياته وهو يوفرُ شيئاً من رزقه، ويقطعُ

---

(١) [كلمة فرنسية بمعنى الموازنة الفردية].

عن نفسه، حتى يجتمعَ في يده خمسون جنيهاً، يدّخرُها للحج، فهو يحسب مصروفه منها بالقرش الواحد، وبديهي أن مثل هذا المستور لا يمكنه أن يُغْدِقَ نعماً على المطوّف أو المزوِّر، وأنّ حالةَ هذا أشبه بِمَثَلٍ قد سمعته من عامي ظريف في أيام الدولة العثمانية: مثل طاقم العسكري لا ينشقُّ من محل إلا ظهر جلده.

ومما يؤسَفُ له أنّ ثلاثين في المئة من الحجاج ـ وربما أزيد ـ فقراء معدِمون، لا يستطيعون في الحقيقة إلى البيت سبيلاً، وليستْ عليهم فريضةُ حجٍّ، ولكنهم يحمّلون أنفسهم إصراً لا قِبَلَ لهم به، فيعيشون من أكياس رفاقهم، ومن أكياس أهل الحجاز، وقد يصيرون عالة على المطوِّفين أنفسهم.

فإذا صحَّ من هذه المقالة بحقّ المطوفين قيراطٌ أو قيراطان، فالاثنان والعشرون قيراطاً الباقية أقاويل تزييف على المطوفين، وتزوير على المزورين.

المطوِّفُ يكادُ يكونُ كالجمل في الحج، لا يُستطاع الحجُّ بدونه، يأتي إلى السفينة بمجرد أن تِلقي أنجرها في بحر جدة، فيأخذُ حاجَّه بيده، ويضع له حوائجه في الزورق، ويأتي به إلى الميناء، ويخرجه إلى البَرّ، ويخلّص له معاملة تذكرة المرور، ومعاملة المكس، وليستا بالشيء الهين، نظراً للزحام، ولما يجب على إدارة التذاكر وإدارة الجمرك من التدقيق.

ثم إذا أراد الحاج أن يستريحَ في جدة بيّتَهُ المطوِّفُ فيها، وأركبه ثاني يوم جملاً في شقدف، وسار به وبغيرِه من أمثاله، وقد حمل لهم زادَهم وماءَهم وكلَّ شيء يلزم لهم، وأوصلهم إلى مكة وافرين آمنين، وأنزلهم في منزله مكرّمين، وقبل أن صارت الأَمَنة على ما هي عليه الآن بحول الله، ثم بابن سعود (إخواننا النجديون لا يجيزون في مقامٍ كهذا

إلا استعمال ثم، وينكرن استعمال الواو فنحن لا نقول لهم إلا ثُم[1])
كان المطوف يشاطِرُ الحاجَّ أخطارَ الطريق.

وبمجرد وصول الحاج إلى البلد الحرام، يأخذُ المطوف بيده إلى الحرم، فيطوف به سبعاً حول البيت العتيق، ثم يسعى به سبعاً بين الصفا والمروة، يهرول فيه بين الميلَيْنِ الأخضرين وفاقاً للسنة، ويعلّمه جميعَ أصول الحج، ويلقنه جميعَ الكلمات والألفاظِ التي ينبغِي أن تُقال في ذلك المطاف الكريم، ويتلو أمامه الأدعيةَ التي يُبتَهَلُ بها عند مقام إبراهيم، وبين زمزمَ والحطيم.

ولما كان أربعة أخماس الحاج هم من الهنود، والجاويين، والترك، والأرناؤوط، والبشناق، والطاغستان، والفرس، والصينيين، والزنج ـ كان على المطوِّف في تلقين هؤلاء من أصناف الأمم الأعجمية صنوفَ الأدعية والابتهالات والجمل العربية الفصيحة التي تتشقق حلوقهم بقافاتها وحاآتها، وتتلبَّكُ ألسنتُهم بضاداتها وثاآتها، ما لا يقل عن تعب المعلمين للصبيان، وما لا ينبغي أن يُسْتَخَفَّ بشأنه ولا يُستهان، وكم مرة يضطر أن يعيدَ له الكلمةَ أو الجملةَ، وهو يقولها بعكسها، ويلفظها بِنَكْسِها، ويَقْلِبهُا عن معناها، ويجعلها عن المراد أبعدَ من الأرض عن سماها، وربما أعادها له المطوِّفُ ثلاثين مرة، وهو لا يقيمها، ولا يفتأ يغلط فيها[2].

---

(١) هذا الأدب مأثورٌ، والمرادُ منه الفرق في المرتبة بين ما يُسنَدُ إلى الربّ وما يسند إلى عبادهِ، وهو ما يدل عليه العطف بثم من التراخي، وأما العطف بالواو فهو لمجرد الجمع، فكأنَّ ما يُسْنَدُ إلى الربِّ وما يُسْنَدُ إلى العبدِ في مرتبةٍ واحدةٍ. مصححه

(٢) أكثر هذه الأدعية والأذكار التي يلقنونها للحاج غير واجب ولا مسنون، والذي ينبغي لهم هو أن يعلّموا الحاج الأذكار المأثورة، كالتلبية، وبعض الأدعية، وهي قليلة، وأن يدعو الله فيما عداها بلغته، سائلاً إياه ما يُشْعِرُ بحاجته إليه من=

ولولا أنّ الأعمال بالنيات، لكان كثيرٌ من أدعية هؤلاء غير مقبول، ولكنَ اللهَ سميعُ الدعاء، ناظرٌ إلى الضمائر، عالمٌ بالمقاصد، لا يحمل إصراً على الضعيف، وليس بصحيح قولُ بعضهم: إنّ الدعاءَ يجبُ أن يكون معرَباً، ليكون عند الله مقبولاً، إذاً لكان سيبويه أنجحَ النّاسِ دعاءً.

ولا يجب أن يظن أنّ المطوفَ ينحصِرُ تلقينُه هذه الأدعية وهذه الجملَ بالهندي والسندي والجاوي والتركي الخ، بل هو مضطر أنْ يلقنَهـا أكثـرَ الحجّـاج، حتـى مـن العـرب، لا سيمـا العـوام والنسـاء والأحداث، ولا فرق بينهم وبين الحجاج الأعاجم، إلا في كون العربي يعيد الكلمة من أول مرة على وجهها، ولا يُذِيْقُ المطوِّفَ عرق القربة في تعليمه إياها كما هو شأن الأعجمي.

وقد صارت للمطوفين وطوافيهم عادة، أنّهم بمجرد ما يرون طائفاً يتطوّفُ بالبيت العتيق جاءوا إلى جانبه، وجعلوا يلقنونه ما يَحْسُنُ أن يقوله، حتى لو كان الإمامَ الغزالي، أو السيدَ محمد رشيد رضا من أئمة زماننا، وذلك ناشئٌ عن أنّهم لا يعرفون الناس، ولا يفرقون بين العالم والجاهل.

وقد جاءني واحدٌ من هؤلاء وأنا أطوف، وجعل يقول لي: قل اللهم كذا، اللهم كذا، حتى أعيدَها من بعده، فقلت له: أنا غيرُ محتاجِ إلى مَنْ يعلّمني العربية، ولا كيفَ يجبُ أن أخاطبَ بها ربي.

هذا والمطوِّفُ هو الذي يكفل جميع حاجات الحاجّ وأغراضه، منذ يطأ رصيفَ جدة، إلى أن يطأ سُلَّم الباخرة قافلاً، فيحمله إلى مكةِ ثم

= خير دنياه وآخرته، وقد اقترحت على الملك أن يأمرَ بتعليم المرشّحين لهذه المهنة تعليماً خاصاً، بحث يكونون من المتفقهين في الدين، وقادرين على إتقان خدمتهم للحاج من كل وجهٍ، ولا بدّ أن يفعلَ إن شاء الله تعالى.

إلى عرفة، ثم إلى المزدلفة، ثم إلى مِنى، ثم يعود به إلى مكة، وإذا أراد الزيارة هيّأ له جميعَ أسبابِ السفر إلى المدينة، وهناك سلّمه إلى المزوِّر، الذي هو صاحب هذه المصلحة في المدينة، لا يتجاوزُ عليه غيرُه فيها.

وإذا سأل الحاج عن أي شيءٍ من الفَلَكِ إلى الذرّة، فلا بدّ من أن يجيبه المطوِّفُ عليه، وإذا احتاجَ إلى أيِّ شيءٍ من الجمل إلى البرغوث، فلا بدّ من أن يأتيه به، وإذا وقعتْ له واقعة مع إنسانٍ تقتضي مراجعة الحكومة، فعلى المطوف أن يرافق الحاج إلى صاحب الشرطة، ويترجم له عنده.

ومما يدهش العقل أن المطوّفين والمزوّرين يعرفون جميعَ لغات العالم، وأكثرُهم يعرفون التركي، ومطوفو العجم يعرفون الفارسي، ومطوفو الهند يجيدون لسان الأوردو، ومطوفو جاوة يعرفون لغة الملايو، وإن كان أكثر مطوفي جاوة من الجاويين المقيمين بمكة، ومطوفو البشناق يعرفون لغة الصرب، ومطوفو الأرناؤوط يعرفون لغة هؤلاء.

وقد بلغني أنّ بعض المطوفين يعرفون لغة الصين، ومنهم من يعرف لغة الفيلبين، واللسان التكروري شائعٌ بمكة كأنه العربي، والسودانيون ليسوا فيها بغرباء، زد على هذا اللغات الأوربية، التي يعرفها المطوفون، من روسي، وإنكليزي، وإفرنسي، وغيرها.

فالمطوفون في هذا أشبه بمستخدمي الفنادق في أوربة، يضطرون إلى معرفة لغات كثيرة لتنوع أجناس السياح، الذين ينزلون بفنادقهم، لكن دائرةَ علم المطوفين أوسعُ من جهة الكمية، فالعمال في فنادق أوربة يتعلّمون بخاصة الإنكليزي مثلاً لكثرة سياح الإنكليز والأمريكيين، وقد يتعلّمون الإسبانيولي لكثرة سياح أمريكة الجنوبية، ولا تجدهم يعرفون التركي والفارسي والأوردو والملايو، فما ظنك بالصيني

والفليبيني، فمكةُ أعظمُ معرِضٍ للأجناس واللغات.

ولو كان العربُ على نمط الأوربيين في إتقانِ كلِّ شيءٍ، والاستفادةِ من كلِّ شيءٍ، والتفننِّ في الاستثمار والاستغلال، لوسَّعُوا دائرةَ تعلُّمِ هذه اللغات على وجهِ الإتقان، وزادوا بها تسهيلات فريضة الحج، وكانت لهم من وراء ذلك أرباح مدهشة، وكانت العربية أيضاً تستفيدُ، لأنّ القادمين إلى مكة من تلك الأمم، إذا أطالوا بها المكث تعلّموا العربية واستعربوا، ولكننا نحنُ معاشر العرب برغم ذكائنا الفطري، الذي لا جدال فيه، نحبُّ البقاءَ على الفطرة، ولا نرغَبُ إلا فيما هو أقرب إلى الطبيعة، وهذا جيد في الشعريات، لا في الرياضيات، ولا في الاقتصاديات.

وإذا مرض الحاجّ فالمطوف هو الذي يعلله، ويأتي له بالطبيب وبالدواء، ويسهر عليه، وإذا مات فهو الذي يخبر بذلك الحكومة، ويأتي بأناسٍ من قبلها، ويضبُّ في حضورهم حوائجه، ولو سُمّي المطوف كافلاً للحاج لما كان في هذه التسمية أدنى مبالغة، ومع هذه الكفالة الشاملة الكاملة التي فيها من الركض، والعناء، وتعب الفكر، والمسؤولية ما فيها، يكون ـ آخرَ الأمرِ ـ جميع النحلان جنيهاً واحداً عن كل رقبة، هذا هو النحلان المقرر، فمن طابت نفسُه بأن يزيد، فذلك عائد إلى سماحة نفسه، ولا شكّ في أنّ الحاج الذي يجشّمُ المطوِّفَ جميعَ تكاليفه، ويريد أن يتخذ منه دليلاً، وحارساً، ومحامياً، ومفتياً، وطبيباً، وصيدلياً، وممرضاً، ودلالاً، وغير ذلك، في وقت واحد، يكون ظالماً إذا استكثر أن ينقد هذا المطوف في آخر السفرة جنيهاً واحداً.

ولا شبهة في أنّ من الحجاج من يؤدّي بدلاً من الجنيه الواحد الجنيهات الكثيرة، **والمسلمون يغلبُ عليهم الخير، وقد يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.**

ولكن لا ينكر أيضاً أنّ كثيراً من الحجاج قد يتعذّرُ عليه دفع الجنيه الواحد، أو لا يبقى في يده شيءٌ عند الأوبة إلا ما يكفيه لأجل الوصول إلى وطنه، أو يقع العجز في بودجته[1] الضئيلة من أصلها، فتجدُ المطوِّفَ قد حُرِمَ مع حاجٍ كهذا نتيجة تعبه، ورضي بنصف جنيه بدلاً من جنيه، وقد يضطر إلى أن لا يأخذَ من حاجّه شيئاً.

وقد وقع لمطوفين أنْ أدّوا إلى حُجّاج معدِمين من صلب مالهم، وكثير من أهل مكة مَنْ يضطرون إلى سدّ عِوَزِ بعض الحجاج، ويؤدون إلى هذا ما كانوا استفادوه من ذلك، وكان ينبغي للحكومات أن تمنعَ الفقراء من الحج[2]، وتأخذَ من كلِّ حاجّ رهائن كما يفعل بعضُهم، وذلك لأنّ غيرَ المستطيع ليس عليه حجٌّ، ولأنّ غيرَ المستطيع يصيرُ وقراً على غيره في الحج، فيعجِزُ الآخرين الذين رتبوا زادهم على قدر احتياجهم، ولم يجعلوا فيه فسحة للطوارىء غير المنتظرة، وكذلك لأنّ أهلَ مكة والمدينةَ أنفسهم يضطرون إلى غوث هؤلاء الفقراء، ولا يقدرون أن يشاهدوهم يتضوّرون جوعاً[3].

---

(١) [موازنته].

(٢) [انظر تعليق السيد محمد رشيد رضا على هذا الاقتراح ص (١٦)، وتعقيب الأمير عليه ص (٢١ ـ ٢٢)].

(٣) حيا الله الأميرَ، وجزاه خيراً بما انفرد به من بيان حال المطوفين، وجليلِ خدمتهم للحاج، وقلّةِ ما يأخذون من الأجرة على هذه الخدمة، واستغرابه ذمَّ بعض الناس لهم، ونبزهم بالطمع، ومن بيان حال أهل الحرمين عامة في معايشهم، وقد ذكر الفقهاء أنّ من آداب الحاج وعلامة قبول حجته أن لا يعدَّ ما ينفقه في الحجاز مغرماً، كما وصف الله المنافقين، وأن لا يتبجّح به؛ وألا يؤذي جيرانَ اللهِ ورسولهِ بقولٍ ولا فعلٍ، ولا يشكو مما يقاسي في الحرمين من تعب ومشقة، وليعتبر المنافقون الذين لا يكتفون ببسط ألسنتهم البذيئة بهذه الشكاوى والمذامّ، بل ينشرونها في الجرائد، فيكون لها أسوأ الأثر في تثبيطِ الناس عن أداء هذه الفريضة، فياليتهم لم يحجوا. مصححه

ولا حاجة إلى بيان أنّ وجودَ مثل هؤلاء في محشرٍ كمحشرِ الحج هو خطر على الصحة العمومية، لأنّهم لا يقدرون أن يعتنوا بنظافة أبدانهم، ولا أن يغسلوا بالصابون، ولا يملكون أسبابَ النظافة.

وقد فقد الحجاز بعد الحرب الكبرى مواردَ رزقٍ عظيمة، كانت تنصبُّ إليه، منها الصرة العثمانية، ومنها الحج التركي، الذي منعته [حكومة] أنقرة، ومنها الصرة المصرية، وصدقات الحبوب التي كانت ترسَلُ من مصر، فهذه كان يرتَفِقُ بها أهلُ الحجاز، ويعيشُ بها فقراءُ الحجاج، وأين هي الآن؟ فلا جَرَمَ أنّ الحجازَ أصبحَ لا يتحمَّلُ من الفقراء ما كان يتحمله في الأول.

اقتسام المطوِّفين والمزوّرين لحُجّاجِ الأقطار

لقد قسم المطوِّفون والمزوِّرون العالمَ الإسلامي فيما بينهم مقاطعات، أشبه بما كانت عليه الممالك في الماضي، فبلادُ العرب لها مطوفون، وبلاد الترك لها مطوفون، وبلاد الفرس لها مطوفون، وبلاد الأفغان لها مطوفون، وبلاد الهند لها مطوفون، وبلاد جاوة لها مطوفون. وهلم جرا، وكذلك لكلٍّ من هذه مزوّرون.

وكلٌّ من هذه البلدان الكبار تنقسم أيضاً بين المطوفين والمزورين إلى دوائر أشبه بالولايات، التي تنقسم إلى متصرفيات، وهذه تنقسِمُ إلى أقضية كعهد الدولة العثمانية.

فمصر مثلاً يتقاسمها مطوفون متعددون: أناس لهم القاهرة، وأناس لهم الإسكندرية، وأناس لهم دمياط والشرقية، وأناس لهم المنيا وبني سويف والفيوم وهمل جرا.

والمغرب أيضاً دوائر، فمصراطة لها مطوفون، وبني غازي لها مطوفون، والقيروان لها مطوفون، ووادي ميزاب له مطوفون، ولكلٍّ من

الريف وفاس مطوفون، ولكل من مراكش والسوس الأقصى، وتنبكتو مطوفون وهم جرا.

ودمشق، وحمص، وحماه، وحلب، وطرابلس، وبيروت، وصفد، ونابلس، والقدس، والخليل الخ لكلٍّ بلدةٍ، أو بلدتين، أو ثلاث منها مطوفون معلومون.

لا يتجاوز مطوِّف على مطوِّف، ولا مزوِّر على مزوِّر، إلا برضى الحاج نفسه، فإذا اختار حاج أزمير أن ينزِلَ عند مطوف حاج أماسية، أو مطوف كوتاهية مثلاً فله ذلك. وإذا راجع حاج شيراز مطوّف تبريز بدلاً من مطوف شيراز، فلا حرج عليه في ذلك، وإذا وقع بين المطوِّفين في مكة، أو بين المزوِّرين في المدينة خلافٌ، فالمرجع هو شيخ المطوفين، وشيخ المزورين، والحكومة تراقِبُ كلاً منهم.

ولليمانيين أيضاً مطوفون، ولكن فائدة هؤلاء منهم لا تذكر، وليس للحجازيين ولا للنجديين مطوِّفون، لأنّهم يعرفون المناسك كلها، ولا يحتاجون إلى أدلاء. ولا يلزمُ لهم من يستأجِرُ لهم الجمال، لأنَّ الجمال كلّها لهم، وقلّما يستفيدُ منهم الحرمان الشريفان إلا بأكلهم وشربهم من السوق.

ومن مزايا المطوفين أنّهم يجوبون الأقطار، ولا يستبعدون منها بعيداً، وتجدُهم حتى في الصّين، وكاشغر، وسيام، وسومطرة، وجزائر الفيلبين، وكل بلدٍ فيه مسلمون، يرغّبونهم في الحج، ويسهلونه عليهم، ويصفون لهم اللذات الروحية، التي يشعر بها المتطوفون بالبيت الحرام، والقاصدون إلى عرفات والمشاعر العظام، والزائرون لروضةِ الرّسول عليه الصلاة والسلام، ولا يزالون بهم حثّاً وترغيباً، واستحثاثاً للنفوس، واستحلاباً للعبرات، إلى أن يأتوا بنفرٍ منهم إلى الحج.

والمطوّفون أينما ذهبوا يكرِمُهم المسلمون، ويقومون بضيافتهم تبركاً بالبقاع التي صدروا عنها، والبيتِ الذي يخدمون فيه، وهم

يستفيدون بهذه الأسفار الطويلة معرفة واطلاعاً، ويتعلمون اللغات الأجنبية.

ولو كانت أمورنا على النسق الأوروبي الذي قاعدته استغلال كلّ شيء، لكنّا أسسنا مدرسةً خاصّةً بالمطوِّفين والمزوِّدين، يتعلّمون فيها إتقانَ التطواف، وكيفية ترفيه الحُجّاج والمزدارة، وتوفير أسبابِ راحتهم، وتلقينهم الأدعيةَ والأذكارَ المأثورة بأيسر الطرق، وبثّ الدعاية اللازمة بالأوصاف والصور، حتى يزدادَ عددُ الحجاج القادمين كلَّ سنة، وهكذا تزدادُ مكة وطيبةَ عمراناً، ويزداد أهلوهما يساراً.

والحقيقة أنّ الحجّ لا يزدادُ، ولا تزدادُ أرزاقُه وخيراتُه إلا بأمرين: أحدهما: **أمان الطرق**: والثاني: **أسباب الراحة**.

أما الأمان، فقد توافر في أيام ابن سعود، إلى حدٍّ لا يتطلّع فيه متطلِّعٌ إلى مزيد، وإنمايرجو دوامَ هذه النعمة.

وأما أسباب الراحة، فقد كانت تُعَدُّ أسبابُ راحة بالنسبة إلى الماضي، ولا تعدُّ كذلك بالنسبة إلى الحاضر، بعد أن انتشرت الأساليبُ العصرية في النزول والركوب والمبيت، وتوسيع الشوارع، وتنظيفها، وترصيفها، وإنارتها بالمصابيح الكهربائية ليلاً، ونسق الحدائق في أوساط المدائن وحواشيها، وبناء المقاهي الرائعة المزخرفة، وسائر ما يلذُّ الأعين، ويشرح الصدور، ولا يقدر أن يعيش بدونه المترفون، ولا يتهيأ لهم سرورٌ، فالحجّاج في الغابر، كانوا يأتون من بلدانٍ لا تفوقُ مكةَ والمدينةَ في درجة الرفاهية والانتظام، أو تتفوّق قليلاً، فكان الحاجُّ لا يشعر بالفرق بين المكانين، ولا تتغيَّرُ عليه البيئة.

وأما اليوم، فقد صار أكثرُالعالم الإسلامي تحتَ حكم الإفرنج، فشاهد الحجاج مدنيةَ الإنكليز في الهند وزنجبار، ومدنية هولاندة في جاوة، ومدنية فرنسة في شمالي أفريقية، ومدنية الروس في موسكو

وبتروغراد[1] وهلم جرا، فتعوَّدَ المترفون منهم رفاهةً ورفاغةً لا يطمعون أن يحصلوا على مثلهما في الحجاز إلا في قضية الطعام، فإنّ طهاةَ مكة والمدينة لا يفوقهم طهاةُ تلك البلدان، وربما لا يساوونهم في تطييب الطعام وتأنيقه، ولكنْ ليس المأكل هو كلُّ شيءٍ، فلا بدّ للمسلم المترَفِ من أهل تلك البلدان ـ حتى من أهلِ مصرَ والشام والعراق ـ أن يؤمَّنَ جهة راحته بحذافيرها، حتى يقومَ بفريضةِ الحجّ.

ومن المعلوم أنّ حجَ مُتْرَفٍ واحدٍ يعودُ على الحجاز بفائدةٍ ماديةٍ أكثر من حجّ خمسين شخصاً من المساتير أو المتوسطين.

أما الفوائد الروحية فلسنا في هذه الجملة بصددها، وقد نتكلّم عنها في موضع آخر، ونشرَحُ ما يكفل الحج من جلائلها، ولكن مع الأسف **قد غلبت النزعة المادية الأوروبية على الناس، وصار البدن هو معبودُ الإنسان العصري، فأصبحتَ لا تقدِرُ أن تقتصرَ في الدعاية إلى الحج على ذكر ما فيه من اللذة الوجدانية، والراحة الروحية، وأنّى لعبدةِ الأبدان أن يشعروا بمواجيد النفوس، ولذائذ نعيم العرفان!!**

وكلُّ المدنية العصرية مبنيةٌ على مدنية أوربة، وكل مدنية أوربة تقريباً هي مستغرقة في خدمة الحواس، ولسانُ حالها ينادي: المادة المادة!!

ولاينكَرُ أنّ السيارة الكهربائية والتليفون واللاسلكي قد كفلت في الحجاز في السنوات الأخيرة راحاتٍ واختصاراتٍ لم يكن يعرفها من قبل، وأنّ مكانها من الأهمية لا يخفى، ولكنْ على الدولة السعودية أن تطرد مشروعاتها العمرانية في الحرمين الشريفين، وجدة، وينبع، والطائف، الذي هو مصيف الحجاز، حتى يعرفَ أغنياءُ العالم الإسلامي أنّهم إذا قصدوا الحجاز، لا يرهقون عسراً، ولا يصادِفون في شيءٍ من اللذات التي يبيحُها الشرعُ حرماناً.

---

(١) [بطرسبورغ].

فأما اللذائذ التي لا يبيحها الشرع، فإنّ من فضائل الدولة العربية السعودية حظرها، وسد الأبواب عليها، والتصلّب في هذا الشأن.

ولقد حُرِمَ الحجازُ منذ سنتين أو ثلاث حاجّ الأناضول، لأنّ مصطفى كمال يأبى أَن ينفِقَ التركي شيئاً من ماله في بلاد عربية، فهو قد أراد هذا لأجل التوفير على الأتراك بزعمه، وياليته احتاط للتوفير على أمته في الطرق التي ذهبت فيها الملايين من أموالهم إلى جيوب الإفرنج كالخمر والميسر، والألبسة الإفرنجية، وما أشبه ذلك، مما كان السببَ في هوي تركية الاقتصادي إلى ما هوت إليه، ومما لم يعد سراً مخفياً. فمسألة نفقات الحج كانت نقطةً من غديرٍ بالنسبة إلى هذه!!.

وكذلك كان من أسباب الثورة النجدية التي استأصل الملك ابن سعود جرثومتَها أنّ موقدي تلك الثورة زعموا أنّ الحُجّاج الذين يأتون من طريق البحر مشركون ـ هكذا سمعنا عنهم والعهدة على الرواة ـ وطلبوا من ابن سعود أن يسدَّ طريقَ الحج عليهم، فجادلهم كثيراً في هذه المسألة، فاصرّوا على غيهم، فقال لهم أخيراً: وكيف يعيشُ أهلُ الحجاز إذاسددنا هذه الطريق عليهم؟ فقالوا له: يرزقنا الله وإياهم ـ وقد غاب عنهم أنّ الرزق له أسباب، وأنّ الله جعل لكلّ شيءٍ سبباً، وأنّ أعظمَ أسبابِ ارتزاقِ الحرمين هوالحجُّ، وأنّ الله تعالى أنزلَ في هذه الحقيقة قرآناً غيرَ ذي عوجٍ.

❊ ❊ ❊

وجوب اعتناء حكومات الدنيا بأسرها بأمر الحج

ينبغي لحكومة الحجاز ولسائر الحكومات الإسلامية، والحكومات غير الإسلامية، التي غَلَبَتْ على ديار المسلمين، أن تعتني بقضية الحج إلى بيت مكة أشدَّ الاعتناء.

أما الحكومات الإسلامية فتعتني به من جهة أنّه فرضٌ ديني، معدود من أركان الإسلام، يقوم به كل سنة مئاتُ ألوفٍ من المؤمنين.

وأماالحكومات الأخرى، فتعتني به من جهة ارتباط العالم بعضه ببعض، وكونه - لا سيما في العصر الحاضر - أصبحَ جسماً واحداً، لا يشعر منه عضو بالتياثٍ إلا التاث به سائر الأعضاء، فورودُ مئتي ألف شخص، أو ثلاثمئة ألف شخص من أقطار الكرة الأرضية كلَّ سنةٍ براً وبحراً، مشاةً وركباناً، إلى بقعة من جزيرة العرب لزيارةِ بيتٍ عتيقٍ، أُسسَ على التقوى - ليس بحادثٍ بسيط لا يستوجب الاعتناء، وسيأتي يومٌ يَنتَقِلُ فيه أكثرُ هذا الحاج إلى بيتِ مكة بالطيارات، فتزداد السهولة، وتتضاعف السرعة، وقد يزدادُ بذلك عددُ الحجيج زيادةً هائلةً[1] لا سيّما إذا جدَّ في مكة من تسهيلات الحج ما هو غيرُ متيسّر إلى حدِّ اليوم.

ولا يزداد عدد الحجاج بالكمية فقط، بل يزداد شأنُهم من جهة

---

(١) [وهذا ما حصل، حتى اضطرت حكومة المملكة العربية السعودية لتحديد عدد الحجاج من كل قطر إسلامي بنسبة ثابتة من عدد سكانه].

الكيفية، فيقصد مكةَ ذوو الترف و اليسار، وأناس كانوا يتوقفون عن أداء هذه الفريضة بسبب ما كانوا يخشونه من الأمراض، أو من فقد أسباب الراحة التي ألفوها.

ولا ينبغي أن يُظَنَّ أنّ تقدُّمَ المسلمين في المعارف، ورقيهم في سلّم المدنية في المستقبل قد ينتهيان بتناقص عدد حجاج البيت الحرام، فقد ترقت الأمم الأوربية كثيراً في المدنية، وغلبت على قسمٍ كبير منها الفلسفةُ واللادينيةُ، ولا يزال زوار القدس من المسيحيين كلَّ سنةٍ عدداً كبيراً، ولا يزال قُصّاد رومة كلّ سنة من الكاثوليك عدداً أكبر، وما يَقْدِرُ العلمُ أن يصنعَ شيئاً مع الدين، ما دام سِرُّ الكون النهائي لا يبرح مغلقاً، وما دام الإنسان عاجزاً عن مكافحة الموت، لا بدّ للخَلْقِ من الدين، وما ثوراتُ الإلحاد إلا غمرات ثم ينجلين.

فالنزعات اللادينية والنزعات الإلحادية التي تُعْرَض على المجتمع الإنساني في [هذه] الأحايين، إنْ هي إلا عوارض مؤقتة، لا يمكنُ أنْ تكسبَ شكلاً عاماً، ولا أنْ تقومَ مقامَ العقائد الدينية الضرورية للبشر، وقد سبقت لها أماثيلُ متعددة في تاريخ أكثر الأمم، وعصفت ريحُ الإلحاد في بعض الحقب، ثم لم تلبث أنْ هدأتْ واستقرّتْ، وعاد الأمر كما بدأ.

وفي الثورة الفرنسوية الكبرى أقفلوا الكنائس، وقتلوا القسيسين، وشرّدوا جميعَ خدمة الدين، واغتصبوا الأوقافَ، وأزالوا عنها صِفةَ الوقف، وجعلوا العبادة للعقل، وظَنَّ النّاسُ أنّ الكنيسة الكاثوليكية في فرنسة دخلت في ذمة التاريخ، وصارتْ أثراً بعد عين، ولكنْ لم تمضِ بضعُ سنواتٍ على هذا العمل حتى ركدت تلك الزوبعة، وعادت العقيدة الدينية إلى نصابها[1].

---

(١) [وهذا ما حدث أيضاً في الاتحاد السوفيتي سابقاً].

ورأى نابليون أنّ عقلية الفرنسيس قد تراجعت إلى أصلها، ففتَح الكنائس، وأعاد إلى العبادة كرامتَها، ورفع منارَ الدين الكاثوليكي، وتتوّجَ إمبراطوراً في كنيسة نوتردام في باريس، ودعا البابا إلى حضور حفلة التتويج، فجاء البابا بنفسه، وكان يطوفُ بعربته في شوارع باريس، والناس تخرّ أمامه جثيّاً، وهم هم الساجدون له الآن، كانوا قبلَ ذلك بسنوات معدودات القوم الذين اتخذوا هواهم إلههم، وأقفلوا الكنائس، وأتوا بفتاة حسناء رُعبوبة[1]، فجلّوها على منصة رفيعة، وخروا لها ساجدين.

فأنتَ ترى أنّ زعازعَ الإلحاد مصيرُها غالباً إلى الركود، وأنّ الدّينَ لن يبرحَ صاحبَ الكلمة العليا في الأرضِ، ما دامت المادّةُ لا تقدِرُ أن تَبِيْنَ عن ذات نفسها، ولا أن تحدّثَ الإنسانَ بتاريخها، وما دام الإنسانُ متشوّقاً إلى جوابٍ عن هذا الوجود، لا يجدُهُ إلا في الإيمان بالغيب.

ولذلك أقول: إنّه مهما ترقّى الناس في العلوم والفنون لا يبرحون محتاجين إلى الديانة، فازعين إلى الغيب، وإنه لن تبرحَ أماكنُ العبادة، وخصوصاً مراكزُ انبعاثِ الأنبياء والرسل مثاباً لأتباعهم، يقصدونها من كلِّ فجٍّ سحيقٍ.

ومكة والمدينة وبيت المقدس ستبقى مقصداً للمؤمنين بمؤسسي الشرائع التي تأسست فيها، ولو فرضنا أنّه اختلفتْ فيها مفاهيمُ السلائل البشرية الآتية عن السلائل الحاضرة.

وأقول: إنّ اختلافَ هذه المفاهيم مهما تناهى فلا يتجاوزُ جوهرَ العقيدة الأصلي، لأنّ جوهرَ العقيدة مبني على العقل البشري، ولأنّه ليس للمرء مذهبٌ وراءَ العقل البشري، فهو أول الشرائع وآخرها، وأقدمها وأحدثها.

---

(١) [بيضاء].

فتأويلُ الشرع ـ بعيداً ما بعدُ عن المفهوم الحالي ـ لابدَّ أن يبقى مربوطاً بالعقل البشري، وآيلاً إليه، وذلك لسببٍ بسيطٍ، هو أنَّ الشرع والعقل متحدان، وأنّ حدَّهما يصحُّ أن يكونَ مرادِفاً للآخر، وأنه لا يمكن للشرائع أنْ تأتيَ بما يستحيلُ في العقول، إذ لو كان ذلك لهدمتْ نفسَها بنفسِها، ولعطّلت الأداةَ الوحيدةَ التي يمكِنُ فهمُها بها.

وقد روي عن سيدنا علي رضي الله عنه ـ وسمعتُ روايتَه من أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله ـ ما معناه: أنّ الشرائع السماوية لم تأتِ بشيءٍ جديدٍ، وإنما جاءت إثارةً لدفائن القلوب، فالعقلُ مضمونٌ في صلب الشرع، كما أنَّ الشرعَ مضمونٌ في صلب العقل، وبناء على هذا المبدأ، قرَّرَ الإسلامُ أنّه خاتمة الشرائع، وأنّه لا بدّ من أن يظهرَ على الدين كلِّه، كأنّه يقول: إنّ آخرَ ما يصلُ إليه الإنسانُ من الهدى هو دليلُ العقل، وهذا الدليلُ هو الشرع بعينه، لأنّ كلَّ ما ناقضَ العقل هو مردود، فلا عجبَ أن يكونَ الشرعُ المعقولُ هو الشرعُ الأخير[1].

فما دام العقل الإنساني هو هذا الذي نعرفه، فالشرع قائم مؤيد ثابت في العقول، سائغٌ في الأذهان، لا يتجافى عنه إلا مَنْ حُرِمَ سلامةَ الحس الباطني، وسلب أداةَ الإدراك.

وما دام الشرع قائماً مؤيداً، لا تزعزعه عواصفُ الأهواء، ولا تميد به زعازع الشبهات، حتى يعودَ أمتنَ مما كان، ويعتصم به الجمهور، فمناسك الدين وشعائرُهُ لا تبرحُ قائمة، وأحكام الشرع لا تبرحُ جاريةً، ومكة تبقى مكة، وطيبة تبقى طيبة، والمسجد الأقصى يبقى المسجد الأقصى.

* * *

(١) هذه العبارة فيها إجمال وغموض، وهي مروية بالمعنى، وموضوعها أنّ الإسلام دين الفطرة، المبني على دلائل العقل، والمسألة مفصّلةٌ مبيّنة في «رسالة التوحيد» ص (٧) للأستاذ الإمام، بما لاغموض فيه ولا إبهام. مصححه

اعتداء الحكومات الإسلامية
على أوقاف الحرمين الشريفين

من حيث قد قررنا أنّ الأماكنَ المقدسةَ في الحجاز لن تبرحَ مقصداً للمؤمنين من جميع الفجاج، ومركزاً يجذبهم إليه بجاذبيته المعنوية من بين مطلع الشمس ومغربها، فقد تحتَّمَ على الحكومات والجماعات الإسلامية ـ أحمرِها وأسودِها ـ أن توجِّهَ العنايةَ إلى إصلاح أحوال هذه البقاع المباركة، وإجراء المقاصد التي تتحقق بها المناسبة بين طهارتها المادية وقدسيتها المعنوية.

وبديهي أنّ هذه الأمكنة، وإن كان جيرانُها وأصحابُ الحَلّ والعقدِ فيها هم من العرب وحدهم، من جهة أنّها جزءٌ من البلاد العربية، فليس عمّارها وقُصّادها وزوراها من العرب وحدهم، بل هم من أمم لا يقل عددُها عن ثلاثمئة وخمسين مليون نسمة[1]، فليسَ من العدل أن تنحصرَ مهمة تنظيمها وتنظيفها وتوفير وسائل الرفاهة والفراهة فيها بأهاليها الأصليين، الذين لا يزيدُ عددهم على مليون نسمة، والذين لا يتكون منهم إلا جزء من ثلاثمئة وخمسين جزءاً.

بل هذه المهمة يجبُ أنْ تتوزعَ على المسلمين جميعاً، حتى يقوموا بها متضافرين، ولا ينقصُهم شيءٌ من شروط الكمال الصوري والمعنوي في هذا الوطن العام الذي يخصُّهم جميعاً من وجهة العقيدة.

---

(١) [هذا عام (١٩٢٩) أما اليوم فقد زاد على المليار].

ولا يَقْدِرُ أحدٌ أن يحتجَّ على ارتفاع هذ الواجب عنهم بأنّ الحُجّاج يؤدون ما عليهم للمطوّفين، ويؤدّون رسوماً أخرى لإدارة الصحة وغيرها، وأنّ هذا جائز لأجلِ إصلاح أحوالِ الحجاز، كافٍ لشفاءِ النفس من هذه الأمنية، فإنّ الأجورَ التي يؤديها الحجاج للمطوّفين لا تكادُ تقوم بِأَوَدِ هؤلاء، وأنّ الرسومَ الأخرى التي يذكرونها إنْ هي إلا سداد مِنْ عوَزٍ، وأنَّ على الحكومة الحجازية من الواجبات الضرورية ما لا يتيسّر معه التوفّر على الأمور الكمالية[1]. ولا بدّ لمن ضاقت ذاتُ يده من تقديم الأهم على المهم، وماذا يتطلب المسلمون من حكومة الحجاز، ودخل هذه الحكومة لا يزيدُ على جزء واحد من أربعين من دخلِ الحكومة المصرية مثلاً.

فالمسلمون يقدرون أن يقوموا بهذا الواجب، بدون أن يضطروا إلى جمع إعاناتٍ، واستتدارِ أكفّ، مما لو كانوا فعلوه لكان بهم قميناً، وذلك بأن يسلّموا ما في ديارِهم من مال الحرمين للحرمين، فكلُّ أحدٍ يعلم أنّه لا تكادُ توجَدُ بلدةٌ من بلاد المسلمين كبيرة أو صغيرة إلا وفيها أوقافٌ للحرمين الشريفين.

ولا نبالِغُ إذا قلنا: إنه لو اجتمع رَيْعُ العقارات الموقوفة على الحرمين الشريفين، بعد رَدّ جميع هذه العقارات إلى أصلها، واستغلالها على حقها، لكانت تضاهي دخَلَ مملكة عصريةَ من الدرجة الثالثة، وكانت تكفي لإزاحةِ جميع علل الحجاز وأصارِته[2] من الجهة العمرانية إلى درجةٍ لا يقل فيها عن أيِّ قطرٍ من الأقطارِ المجهزة بجميع أسباب المدنية.

---

(١) [قد قامت الحكومة في الحجاز بما يتمناه كل حاج من وسائل الراحة بفضل الله سبحانه].

(٢) [أعبائه].

فبدلاً من أن يوفِّرَ المسلمون هذه الحقوق لأهلها، وأن يجنوا حاصلات هذه الأوقاف الدّارّةِ، ويقدموها إلى محلها، بحسب شروط واقفيها ومرصديها، لا نجدهم عنوا في شيء من الأشياء عنايتهم في محو هذه الحبوس[1]، التي منذ ثلاثة عشر قرناً يجودُ بها الآباء، ويخيسُ بها الأبناء، إنّ شرط الواقف كنص الشارع هي جملة كادَتْ تذهَب من أذهانِ المسلمين قاطبةً، إلا من رحم ربك.

فبعض هذه الأوقاف درست تماماً بأيدي النظّار الخائنين، وبإغضاء القضاة المواطئين، على مشهد من العلماء المدلّسين، وبعضُها تحوَّلَ عن أصله، وأُجْرِيَ في غير مصالح الحرمين، وخُولِفَ به شرطُ الواقف، بدون عذر ولا مسوِّغٍ شرعيٍّ، وجميعُ هؤلاء ساكتون، وبعضها بقي باسم الحرمين الشريفين، ولكنّه يرفع منه إلى الحرمين من الجمل أذنه ـ كما يقال.

ويا ليت شعري مَنْ يفعل هذا، أو مَنْ يُقِرُّ على هذا، فلا أدري كيف يصلّي! وكيف يصوم! وكيف يحجّ! وكيف يظن أنّه قام بفرائض الإسلام؟ ولا أقول: كيف يزكّي؟ فقد قلَّ اليومُ من يفكّر بفرض الزكاة؟ فالزكاةُ وتأدية حقوق الأوقاف هما من الأمور التي كادت ألا توجد إلا في الكتب الفقهية، يتعلّمها النّاسُ من قبيلِ العلم بالشيءِ، لا مِنْ أجلِ العمل بهذا العلم.

وإذا جرَى شيءٌ من العمل بشروطِ الحابسين، فلا يكونُ إلا في نفس البلاد التي فيها الحبوس، وهذا من خوف النظّار والقضاة أن تنتقض عليهم العامة ويسقطوهم، فأما إذا أمنوا خوفَ ثورة العامة فالوقف إلى الدثور أسرعُ من الماء إلى الحدور، وعلى كلِّ حالٍ شرطُ الواقفِ كادَ يَفْقِدُ كلَّ حرمةٍ.

---

(١) [الأوقاف].

وأغربُ من هذا أنّه لم يكفِ تلاعبُ النظّار بالأوقاف ـ ولا سيما بأوقاف الحرمين ـ وإغضاءُ القضاة والعلماء على هذه العظيمة، حتى صارت الحكومات الإسلامية هي أنفسها تستبدُّ بأوقاف الحرمين، وتمنعُ إيصالَ ريعها إلى الحرمين، غير مراقبةٍ شرطَ واقفٍ، ولا نصَّ شارعٍ، ولا رضَى خالقٍ، ولا لسانَ مخلوقٍ.

هذه هي الحكومات الإسلامية، التي هي أجيرات المسلمين في مهامهم العامة، وليس في أيديها شيءٌ إلا من فضلهم، وليست هي بأجمعها شيئاً لولاهم، وإنما كان وجودُها لأجلِ صيانة مصالحهم الدينية والدنيوية معاً، لا مصالحهم الدنيوية فحسب.

فهذه الحكومات بلعت جانباً من هذه الأوقاف، ومحتْ رسومَه، وجعلتْ شروطَ واقفيه كأمس الدابر، وأكلت رَيْعَ الجانب الآخر، وحولته إلى مهالك معلومة، ليس لها تعلق بالحرمين الشريفين، ولم تبالِ ما عملتْ، وكانت إذا رفعت إلى الحرمين صُرّةَ دراهم، أو شحنت سفينةَ حبوبٍ ظنَّتْ أنّها تتصدَّقُ على أهلِ الحجاز من مال أبيها[1] :

وقد فشت هذه العادة الذميمة في الحكومات الإسلامية بفشو الاستخفاف بالدين، وبحمل الواجبات الدينية على المبادىء القومية، والحال أنّ الدينَ لا علاقة له بالقومية، وكلٌّ منهما له حدود غير موقوفة على حدود الأخر، ونحن نجدُ أنّ الفاتيكان مرجعٌ ديني لأربعمئة مليون كاثوليكي، وهم من أجناسٍ لا يحصَى عديدُها، ونجد أنّ خزانة البابا كخزانة دولة من الدول، ولم يمنع كاثوليك الدنيا أن يرفعوا إليه إعاناتهم وصدقاتهم ـ كونه طليانياً، وكون الفاتيكان في إيطالية.

❁ ❁ ❁

---

(١) [انظر ما قاله المؤلف ص (٩٧)].

طمسُ الدول المستعمرة أوقاف المسلمين

اقتداءً بحكوماتهم في الاعتداء عليها

ولما غلبتْ الدولُ المستعمرة على القسم الأكبر من العالم الإسلامي، ووجدتْ مِنْ صنيع الحكومات الإسلامية التي ورثَتْها ماوجدَتْهُ في الأوقاف عموماً، وأوقاف الحرمين خصوصاً، حمدت غِبَّ هذه المفسدة، واتخذتْ منا حجةً تستظهِرُ بها في طمسِ الأوقافِ الإسلامية، وإخفاءِ معالمها، فإنّها تقولُ للمسلمين: إنّي لم أفعل شيئاً إلا ما كانتْ حكوماتُكم تفعله. وأجدر بما كان يفعله المسلم بوقفه أن يفعله المسيحي، وهو لا يعتقد مِنْ حرمةِ مَسّ هذا الوقف ما يعتقدُه المسلمُ.

إذاً، فالتلاعبُ بالأوقافِ والحبوسِ كان مبدؤه من المسلمين أنفسِهم، فلما غلبَ على بلادهم الإفرنجُ قلّدوهم فيه، ولم يكن فرقٌ بين الفريقين إلا في أنّ المسلمين كانوا يتملّكون الأوقافَ بمرور الزمن، أو يحولونها عما حُبِسَتْ عليه، أو يبقونها على اسم الحرمين، أو أسماء الجهات الخيرية الأخرى، ويأكلون أكثرَ ارتفاقاتها، وأنّ الإفرنج عند **ما غلبوا على بلاد الإسلام استولوا على كثيرٍ من هذه الأوقاف، ووهبوها إلى الكنائس، وإلى جمعيات المبشّرين، وإلى الرّهبان، ورأوا بذلك الجمعَ بين غرضين مهمين:**

أما الغرض الأول: فهو طمسُ هذه الأوقاف من أصلِها، لأنّ الإفرنج

لا يكرهون في الدنيا شيئاً كرههم للأوقاف الإسلامية، ولا يخافون في مستعمراتهم من شيءٍ كمخافتهم منها، لأنّهم يعتقدون أنّ المسلمين إذا أحسنوا إدارتها وضبطَ حاصلاتها، كان لهم منها منبعَ إمدادٍ عظيمٍ في أمورهم السياسية، فلذلك تراهم يسعَوْنَ بقدر طاقتهم في محو رسومها.

وأما الغرض الثاني: فهو إمدادُ المبشرين والرهبان، وتوطيدُ أقدامهم في بلاد الإسلام، ليتمكّنوا من بثّ دعايتهم بين المسلمين، مما لم يبق خافياً على أحد، ومما لم يبقَ أدنى سبيل للمكابرة فيه، فبدلاً من أنّ هذه الحكومات المستعمِرة تشتري لهؤلاء المبشرين والدعاة عقارات وأراضٍ من مالها، تجدُ الأقصدَ والأوفقَ أن تصرِّفهم في أوقاف المسلمين، فتكونَ أغنتهم من كيس غيرها، وتكونَ جمعتْ بين دفع ما تعتقده ضرراً، وجرّ ما تعتقده منفعة.

والمجلّية في هذه الحلبة ـ والحق يقال ـ من بين جميع الحكومات المستعمرة هي الحكومة الإفرنسية، فلم نعهد حكومةً استطابت طعمَ أوقافِ المسلمين مثلَها، ولا استحلّت طعمتها للرهبان والمبشرين بدرجة استحلالها، ولقد تمكنت منها عادةُ التسلُّطِ على أوقافِ المسلمين في المغرب إلى حد أنّها حاولت مثل ذلك في المشرق، فهي تأبى إلا أن تسيطرَ على أوقاف المسلمين في سورية، برغم أنّ النصارى واليهود فيها متصرّفون في أوقافهم بتمام حريتهم.

وقد راجعنا في هذا الأمر جمعيةَ [عصبة] الأمم، وأوضحنا لها كيف أنّ الدولةَ المنتدَبة في سورية تترك النصارى واليهود أحراراً في أوقافهم، وتتعرّضُ لأوقافِ المسلمين خاصة؟ وكيف أنّها وهبتْ الرهبان وقفاً عظيماً من أوقاف المسلمين في اللاذقية وغير ذلك، ووجدنا لجنة الانتدابات الدائمة تؤيّدُ رأينا في هذه المسألة، وتقترحُ على فرنسة ترك مسلمي سورية أحراراً في أوقافهم، كما هم مسلمو فلسطين، التي هي تحت انتداب إنكلترة، ولكنّ الحكومةَ الإفرنسيةَ لا تبرحُ تماطِلُ وتتعلل

في هذا الأمر، برغم ميل لجنة الانتدابات إلى إنصافِ المسلمين فيه.

وإذا رجعنا إلى أصل البلية وجدناها من المسلمين أنفسهم، لأنّ حكوماتهم لما كانت مستقلة، ولأنّ حكوماتهم المستقلة الباقية إلى اليوم - تصرّفتْ بالأوقاف تصرفاً سيئاً مخالِفاً للشريعة، منافياً للأمانة، فمهّدت للدول المستعمرة العُذْرَ في طمسها لهذه الأوقاف أصلاً، وفي هبتها منها للرهبان، وسيطرتها التامة على ما أرادت إبقاءه منها للإنفاق من ريعه على المساجد.

ولا يزالُ حتى اليوم في بلاد الإسلام أوقاف لا تحصى محبوسة على الحرمين الشريفين، كان يجب على حكومات هذه البلدان من إسلامية أو أجنبية أن تُحْسِنَ إدارتها، ولا تحتجنَ شيئاً من حاصلاتها لإنفاقها في حاجات أخر، بل ترفعها كلها إلى الحرمين بحسب شروط الواقفين.

وإذا قدّرنا أنّها لا تثِقُ بحكومة الحجاز أو بأعيان أهالي الحجاز في قضية توزيع هذه الصدقات، أو إنفاق هذه الأموال في وجوه الخير، فليس عليها أكثر من الإشراف أو الاشتراك مع حكومة الحجاز في التوزيع أو الإنفاق على المشروعات الخيرية التي بإحيائها يَعْمُرُ الحجاز.

ولعمري إنّ الأولى بهذه الحاصلات الورادة من الآفاق إلى الحجاز إذا وردتْ أن يُنفَقَ جلُّها - إن لم يُنفَقْ كلُّها - على تأسيس ملاجىء للفقراء وللأيتام، حتى لا يبقوا عالة على الناس، وَوَفْراً على الحكومة، وفي بناء مستشفيات ومصاحّ للمرضى والضعفاء، الذين يكثر عددهم في الحجاز بكثرة الغرباء، ولو كان هواء الحجاز بحدّ ذاته نقياً - وكذلك في تشييد مدارس صناعية، ومشاغل يحشد إليها العاطلون من العمل، والعائشون من التسول، وعلى مشروعات أخرى خيرية عامة، لا ينحرِفُ فيها البِرُّ عن أصلِه، ولا يخرجُ الوقف عما ربط عليه، مع التباعد فيه عما يغرِي الأهالي بالكسل، ويعوّدهم البطالة، ويوجِدُ عندهم عقيدةً

معناها أنّ أهلَ الحجاز أو أهل الحرمين الشريفين لا يجبُ عليهم الكَسْبُ من عرق جبينهم، ولا الاشتغال بصناعة أو تجارة أو زراعة، وإنما وُجدوا ليعيشوا من مجرّد الصدقات والمبرات وهدايا العالم الإسلامي، مما لا يليق بهم، ولا ينفعهم، ولا يكفيهم، مهما كثر، لأنّ الإنسان الذي لا يعيشُ من كسبِ يده يجدُ نفسَه دائماً في ضيق، وقد شاهدنا ذوي الثروة والحاصلين على الكفاية من أهل مكة والمدينة إنما هم من أصحاب الأشغال والمتاجر، لا من أصحاب الرواتب والمعاشات، التي لا يبرح عائلاً من اعتمد عليها.

* * *



مرضي في مكة المكرمة وأسبابه
وتأثيره فيَّ أثناء أداء فريضة الحج

إذا كان الأجرُ على قدر المشقة، فقد كتب الله لهذا العبد أجراً عظيماً، فإنه لم تمضِ على مقامي بقرب المقام أكثر من تسعة أيام، حتى انحلّت قوايَ، والتاث مزاجي، وأصبحتُ مريضاً، تتصاعد بي الحُمَّى إلى أن بلغت درجةَ الأربعين، وذلك أنّي من أبناء جبلِ لبنان، ولم تألف أجسامُنا الحرَّ الشديدَ الذي ألفته أجسامُ إخواننا أهالي جزيرة العرب، لا سيما سكان التهائم منهم، كنتُ من أصلِ فطرتي أكره الحرَّ وأَفِرُّ منه، ولم أكن أيامَ القيظ أفارِقُ الصرود، وهذا كان سبب اصطيافي في عين صوفر مدةً تزيدُ على عشرين سنة، وقد نشأ عن شدة رغبتي في ذلك المكان أنّي اقتنيت فيه الكروم والعقارات، وتأثّلتُ ما يقارب ثلثمئة ألف ذراع مربع من الأرض، ولم تكن درجة الحرارة في صوفر تزداد بميزان سنتيغراد على (٢٣) إلا نادراً، وكذلك كنت أقيم أحياناً بعاليه، وحرارتها لا تعلو فوق (٢٦) أو (٢٧) إلا نادراً.

ومنذ اثنتي عشرة سنة أنا في أوروبة، وليست هذه القارة بالتي يشكو فيها الإنسان شِدَّةَ الحر، وما أذكر أنّي لقيتُ في أوروبة شيئاً يستحِقُّ اسمَ الحَرّ، إلا في رومة، إذ صادف وجودي فيها إحدى المرار في شهر يوليو ـ تموز، ومن المعلوم أنّي أقمتُ سنواتٍ بألمانية، وهي لا تعرِفُ الحرَّ إلا عابر سبيل.

وإنيّ منذ سنوات في سويسرة، وهي لا تدري شيئاً من حُمّارة

القيظ، وعدا ذلك تراني في سويسرة نفسها أقضي الصيف من قُنةِ جبلٍ إلى قُنةِ جبلٍ، فتارة في القنة السمّاة روشة دونيه فوق مونترو وهي تعلو عن سطح البحر ألفين وخمسين متراً، وطوراً في شتانسر هورن فوق بحيرة لوسرن، وهي قُنة بيضية الشكل، تعلو عن سطح البحر (١٩٥٠) متراً، وأحياناً في القمم الشامخة التي تقابلها مثل بيلاتوس المشرفة على لوسرن إشرافَ المنارة على الجامع، ومثل ريغي التي يطل منها الرائي على ثماني بحيرات في لمحة واحدة من شفير شاهق.

ومن شدة غرامي بهذه القنن، التي قد كنتُ أصادِفُ فيها الثلج أحياناً في شهر أغسطس ـ آب، أتذكر أنّي تركت قنة غورتن كولم في برن، وذهبتُ فانتجعتُ قُنّةَ شتانسر هورن في لوسرن، لأنّها أعلى من الأولى، وأقمتُ هناك شهراً، إلى أن جاءني كتاب من سعادة الأخ الشهم الهمام عبد الحميد بك سعيد ـ رئيس جمعية الشبان المسلمين الآن في مصر ـ امتعَ اللهُ الإسلامَ بطول حياته، وكان يسكن في غورتن كولم في الفندق الذي أنا فيه، فكان يؤنبني في هذا الكتاب على تلك العزلة برأس جبل شتانسر هورن، ويقول: لا يحلُّ لك هذا.

والخلاصة أنّ برودةَ جو سويسرة كلّها لم تكن تقنعني، وكنتُ أنتجِعُ منها الشناخيب، التي أستيقظُ فيها صباحاً، فأرى الأرض التي حولنا بيضاء من الثلج، وذلك في إبّان فصل القيظ، وقبلَ ذلك لما كنت في جبلنا لبنان، لم تكن عين صوفر ـ وهي في ارتفاع (١٣٥٠) متراً ـ تقنعني وتكفيني، فطالما قصدت أبهل الباروك[1]، وتوأمات نيحا، وهي تعلو (١٨٠٠) متر[2] وغير ذلك. فكيف بي الآن، وقد صرت في إقليم

---

(١) الأبهل بفتح فسكون شجرُ الأرز، وفي جنوبيّ لبنان يقولون أبهل، وفي شماليه يقولون: أزز، وكلاهما صحيح، وهو على ارتفاع ألفي متر ا هـ من الأصل.
(٢) سميت توأمات لأنها عبارة عن قنتين متناوحتين متجاورتين ا هـ من الأصل.

حرارته تقابل من (٤٠) درجة بميزان سنتيغراد إلى (٥٠)، وذلك لأوّل مرة في حياتي.

لا جرمَ أنّي لم أتحمَّلْ هذا الفرق الشاسع، ورأيتُ نفسي هبطت هبطةً واحدةً كما يقع الزق عن الظهر لامتدرجاً ولا متدحرجاً.

وكان قد سبق أنّي لما مررت بمدينة السويس منتظِراً باخرةَ البوسطة المصرية للركوب بها إلى جدة، **لم يشاؤوا أن يمهلوني يومين، ريثما يأتي ميعاد سفر الباخرة، بل صدر الأمرُ بتسفيري على باخرةٍ هنديةٍ سيئةِ الحال، مسلوبةٍ جميعَ أسباب الراحة: في المنام، والغذاء، والجلوس، وكل شيء، وناهيك أنّه كان فيها نحو (١٥٠٠) حاج، وأنّها كانت من البواخر الصغيرة، فبعد هذا لا ينبغي لي أن أطيلَ الشرح، وأنْ أقولَ: كيف مرضت؟ وإنما أقول: إني وَطِئْتُ أرض جدة ملتاثاً.**

ثم إني لما وصلتُ إلى مكة، نزلتُ في منزل سعادة ولدنا فؤاد بك حمزة، وكيل الشؤون الخارجية، فهيأ لي سريراً على السطح، كما هي عادة أهل البلد الحرام في أيام الصيف، ولكنّ هذا السطحَ لم يكن مفتوحاً من جوانبه الأربعة، كما هي بعض السطوح، لأنّ الباني الأصلي لذلك البيت(١) كان قد حوّطه بجدران عالية فوق قامة الإنسان غَيْرةً على الحُرم أن ينظرَ أحدٌ لهن شبحاً ولو مِنْ بعيد، فأصبحَ السطحُ مسدوداً من كل جهاته إلا من الأعلى، فلم يكنْ الإنسانُ ينظر منه إلا القبة الزرقاء.

ومن عادة الناس أن يفتحوا في الحيطان نوافذَ لأجلِ الهواء، أو للنظرِ عند اللزوم، فأما هذا السطح فلم تكن في جدرانه العالية إلا قُمريتان أو ثلاث، مشبّكات بحجارة مستديرة، بينها ثقوب ضيقة،

---

(١) ليس هذا من عمل باني ذلك البيت وحدَه، بل عامةُ البيوت هنالك مثله، تترك فيها حجرة بغير سقف ولا نوافذ، لأجل السهر والنوم فيها، مع عدم كشف الجيران ونظرهم.

لا تكاد المِسَلَّةُ تدخلُ في الواحد منها، فكانت في حكم كأن لم يكن من جهة نفوذ الهواء، هذا على فرض وجوده[1].

ولما جئتُ لأضطجعَ في السرير الوثير، قيل لي: إنّه لا بدّ من الدخول تحت الكِلَّةِ بلباقة عظيمة، حتى لا يتسنّى للبعوض أن يدخل ورائي، فإنّ البعوضَ هناك تجبُ الوقاية منه، فكنتُ أدخل تحت الكِلَّةِ وأنا أسترق السمع، حتى إذا سمعتُ طنينَ بعوضة اجتهدت في محوها أو طردها، وكنتُ طول الليل كأنّي تحت الحصار، أحاذِرُ أن تقع مني حركة يرتفع بها شيءٌ من سجوف الكلة، فيهجم من خلال ذلك البعوض، وتسوء العاقبة. على أنّ قولي (طول الليل) صورةٌ من صور التعبير، فإني ما قَدِرْتُ ولا ليلة أن أبقى تحت ذلك الحصار أكثر من ساعة، لأنّ السرير، كان مسدوداً بالسجوف السابغة، والسطح كان مسدوداً بالجدران الإسكندرية العالية، فلم يبق من سطحيته إلا الاسم، والحر كان شديداً، وبالاختصار كِدْتُ أختنق، وصبرتُ إلى أن غرق مضيفي الشاب في لجة الكرى، ونزلتُ إلى سطح آخر مفتوح من كلّ الجوانب، يرقد عليه الخدم بدون أغطية، ولا سجوفَ مسدولةٍ، ولا خشية بعوض، ولا اتقاءَ جراثيم، وقلتُ في نفسي: ليفعل البعوض ما شاء، فإنّي تحت تلك الكلة لا أستطيع الغمض ولا دقيقة، والنوم سلطان لا يغالَبُ، فلا بدّ من طاعته، ورحم الله القائل:

إذا لم يَكُنْ إلا الأسنةُ مركباً ... فما حِيْلَةُ المُضْطَرِّ إلا رُكوبُها

فوجدتُ على ذلك السطح خشبة عارية عن الفرش اضطجعت عليها، وكنتُ أمشي على رؤوس أصابعي حتى لا يستيقظ أحد، لا فؤاد حمزة ولا خدمه، فإنّي لا أحبُ أن أزعجَ أحداً، ولا أنْ أسلبَ راحةَ النّاسِ لأجل راحة نفسي، على أنّي لو أيقظتهم وأزعجتهم وسلبت

---

(١) كذا في الأصل المطبوع في جريدة «الشورى» وهو كما ترى، ولعلّه قد سقط منه شيءٌ، وذهل الأميرُ عنه عند قراءته. [قلت: المعنى تامّ ولا سقط فيه]. =

راحتهم، فلا أعلم ماذا كانوا يقـدرون أن يصنعوا لي، وجميع تلك العلل التي وقفت في طريق رقادي لم يكن مصدرُها إعواز أسباب الرفاهة، وإنما كان مصدرها الجو، وما حيلتي وما حيلتهم هم في الفَلَكِ؟

فارتميتُ على تلك الخشبة بدون وطاء سواها، ولا غطاء سوى القميص، وهكذا أمكنني قُبيل الفجر أن أهوِّمَ تهويماً أشبه باليقظة منه بالمنام، ولكن لم يصبح الصباح حتى قامت القيامة، إذ استيقظ الجميع، فرأوني على تلك الحالة، فأخذوا يدوكون في الطريقة التي تلزم لأجل تمكيني من الرقاد، وبهذه المذاكرات أطاروا ما كان بدأ من تهويمي، ولأجلِ توفير راحتي سلبوا تلك البقية الباقية من راحتي، وفي هذه الأثناء طلعت الشمس، ليس من دونها حجاب، لأنّي كنتُ على السطح كما قلنا، وأنا لم أكن أقدر أن أنامَ في الظلّ، ولا في العتمة، فما ظنك في الشمس، فنهضتُ برغم أنفي، وأنا أقول: يا من يأتيني بخبرٍ عن الكرى.

وأخذ فؤاد بك يفكّر في الاستعدادات لمعركة الليلة الآتية، وصاروا ينظرون في وجوه الوسائل، وفنونِ الذرائع، حتى أتمكّنَ من الرُّقادِ ثاني ليلة، ولكن لم يكن في الحقيقة من وسيلة تنفع، ولا مِنْ ذريعةٍ تنجع، لأنّ العلة هي شدة الحر، وعدم اعتيادي مثلَ هذا الجو، وقد يقال: إنّ فؤاد بك حمزة هو لبناني مثلي، وبلدته مصيف شهير وهي عُبية، ولم يتعوّدْ جسمُه الحرارة، ولكن بيني وبين فؤاد بك حمزة فرق ثلاثين سنة، فقوةُ المقاومة التي عنده ليست عندي، ولذلك لم يتمكّنوا في الليلة التالية برغم جميع الوسائل من أن يجعلوني أنام، وخسر فؤاد بك المعركة، والحقيقة أنّ الدائرة إنما كانت تدور عليَّ وحدي، لأنّي أنا الذي لم يكن ينام.

ولما وصل الخبر عما أعانيه إلى جلالة الملك [عبد العزيز]ـ بمكان ذلك الأسد من الجمع بين الأضداد، من الصلابة والشمم، والحنو

والتواضع ـ أشار بأن انتقِلَ إلى محلة الشهداء بظاهرِ مكة، رعياً لخفة حرارتها عن حرارة مكة، فإنّ لجلالته هناك مقصفاً بديعاً أنيقاً في وسطه صهريج ماء عظيم، وأمامه بستان حديثُ الغراس، فسيحُ الرقعة، سيكون يوماً من الجنان المشهورة، فكان يدري أيّدَه الله أنّ بين الشهداء والبلدة فرقاً كبيراً في الجو، وأنّي لو بِتُّ في ذلك المقصف الذي لجلالته لما كنتُ أُحْرَمُ طيبَ الرُّقاد، إلا أنّ مضيفي فؤاد بك لم يكن يرغب في أن أتحول إلى الشهداء، خشيةَ أن ينقصني شيءٌ من أسباب الراحة، التي لا يأمن على استكمالها إلا إذا كان هو قريباً مني، والحال أنّ الشهداء هي ربضٌ من أرباض مكة، ومن هذه إليها مسافة، أنا لم أكن أريدُ أن آتي مالا يروق لفؤاد بك، وكنتُ أقول في نفسي: هنّ ليال قلائل، أقضي مناسك الحج، ثم أصعد إلى الطائف، فعلى فرض أنّي لم أنم هذه المديدة، فلن تنفد بها قوة مقاومتي للطبيعة؛ لذلك عصيتُ أمرَ الملك في هذه، وندمتُ ولا ندامة العصاة الذين شاقّوه في السنة الماضية[1].

الكلام على الزاهر

الشهداء هو المكان الذي يقال له في التواريخ: الزاهر، وهو اسم طابق مسمَّاه، بسيطٌ أفيحُ، تلعب فيه الرياح بدون معارض، إلا مِنْ بعضِ آكام على جوانبه تزيدُه بهجة، وأهاضيبَ وتلعات. إذا أقبل الربيع تكلَّلَتْ بالأزاهر، فسمي من أجلها الزاهر، وهو في إبان القيظ أخفُّ حرارةً من البلدة، لا سيما بعد غروب الشمس، وأنقى هواءً وأنشطَ صقْعاً، وفيه مياهُ تجري في قُني تحتَ الأرض من قديم الدهر، وبقايا قصورِ لأشرافِ البلدِ وسُراتِهِ، وفيه مقاهٍ على الطريق للسابلين، ومقاهٍ

(١) [انظر تفصيل ذلك ص (٢٠٩)].

على نجوةٍ من الطريق ينتابُها الناس من مكة عند الغروب، فيبيتون فيها، ويغدُون عند الصباح إلى أشغالهم بمكة، ويكونُ مبيتُهم على مقاعد مستطيلة في الخلاء، فلا يضع الواحد منهم رأسه على مخدته إلا ثقلت أجفانُه من لطفِ الهواء، فينامُ إلى الفجر مستريحاً، ويقوم إلى صلاة الصبح أشدَّ من الحديد.

وفي الزاهر مكانٌ صغيرٌ لصديقنا الشيخ الشيبي الكبير، سادِنِ البيت المعظم، الذي بسلامة ذوقه له في كلِّ وادٍ من الحجاز منتجَعٌ، وفي كلِّ جبلٍ مَصِيْفٌ أو مُرْتَبَعٌ.

ولما ودعت الحجاز بعد إيابي من الطائف، تلطّفَ الشهم الكريم الشيخ عبد الله سليمان ناظر المالية، فأدب لي في الزاهر مأدبةً، ودعا الجمّ الغفير من كل ما في البلد الأمين من سيادةٍ تجرر أذيالها، ومجادة تضرِبُ بعروضها أطوالها، وبلاغةٍ تضرب أمثالها، وفصاحة إذا نطقتْ يقال من ذا قالها، فكانت ليلةً ندر أن يعرف مثالها، وقال فيها أحدُ الإخوان: إنها ليلةٌ من قبيلِ قِصصِ ألف ليلة وليلة، لكثرةِ ما كان فيها من نمارق مصفوفةٍ، وزرابيّ مبثوثةٍ، ومصابيح منوَّرةٍ، وأعلام منشَّرة، ومقاعد مجلَّلة، وجفان من الشيزى[1] مكلَّلة، وناهيك بالعربي القح، الذي لا يعرِفُ ـ إلا من القاموس ـ معنى الشح، وبمن جمع بين الحجاز ونجد، إذا ما ارتفعتْ رايةُ المجد.

ومن بعد ذلك بقيتُ في أواخر مقامي بمكة أتردَّدُ إلى الزاهر عصرَ النهار، وأتندّمُ على فوتي إياه قبل الحج، وكان ينشرح صدري في كل مرة أفيضُ فيها من وراء تلك الآكام إلى بسيط الزاهر.

وإذا وصلتُ إلى المقصِفِ الملوكي، جلست طويلاً على حرف ذلك الصهريج الذي يخرّ مزرابه، ويكاد يتلاطم عبابه، وقد يشتدّ الحرّ، فلا

(١) [الشِّيزى: خشب الجوز تتخذ منه الجفان والقصاع، ويسود من الدسم].

نأنف من النزول إلى الصهريج، والخوض فيه، لأجل التبرد، ويكون معنا من الإخوان في هذا النزول من جَلَّ قدرُه، وعلتْ منزلتُه، وقد أمسكنا بادىء ذي بدء عن النزول إلى الماء، تفادياً من أن يُنْسَبَ إلينا اطراحُ الحشمة، وتغلب الحرارة على الهمة، إلا أني تذكرتُ أنّ قاضي الجماعة بقرطبة المنذر بن سعيد البلوطي بمكانه من العلم والورع وجلالة القدر، ومشيخةِ الإسلام في ذلك القطر، قد أشتدّ به الحر في أحد الأيام إلى حدٍ أنْ أمره الخليفةُ الحكم المستنصر ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر أن ينزِل إلى صهريج كانا جالسين بجانبه في زهراء قرطبة ـ التي زرت أطلالها هذه المرة[1] ـ فنزل مولانا الأستاذ ولم يبالِ، والحشمةُ والحرارةُ قلّما يجتمعان على الشروط المرعية في البلاد الباردة.

فلما كنتُ بقرطبة في شهر يوليو ـ تموز الفائت، ولقيتُ فيها ما لقيتُه من شدة الحر، عذرتُ قاضي الجماعة في خوضه صهريجَ الزهراء، ولكنّ حَرَّ مكة المكرمة يزيد بعشر درجات على حر قرطبة، فخوض صهريج الزاهر أقرب إلى العذر من خوض صهريج الزهراء، وأنا أبعدُ عن المشيخة من القاضي منذر بن سعيد.

الصعود إلى عرفة في شدة المرض

ثم نعود إلى قضية التياثنا فنقول: إننا بعد قضاء بضع ليال على هذا المنوال بلغ منا النهك مبلغه، ثم كان لا بدّ من أن نصعدَ إلى عرفة قبلَ الوقفة، فأغميَ علينا في الطريق، وسار بنا اللذان كانا معنا في العربة فؤاد بك حمزة والسيد حسين العويني إلى مِنى، فاسترحنا هناك إلى الصباح، ولكنّه لم يكن بدٌّ من الذهاب تلك الساعة على عرفات، فذهبنا إليها، وأنا على ما أنا عليه من الإعياء، ثم أفضنا مع الحجاج الكرام عائدين إلى مِنى، حيث بتنا ليلتين لقضاء المناسك، فما رجعتُ إلى

---

(١) كانت كتابتي لهذه السطور بعد سياحتي إلى الأندلس ا هـ من الأصل.

مكة، وقضيت المناسك، إلا وكنتُ مريضاً جِدُّ مريض، **ولم يثقلْ عليّ ذلك، لأنّ الحج الشريف تطهيرٌ وتمحيصٌ، فرجوتُ أنْ يكون المولى سبحانه قد غفر لي ذنوبي الكثيرة، التي يستحق تمحيصُها أكثرَ من هذه الأوصاب،** والله غفور رحيم ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

الالتجـاء إلـى الطـائف

ولما اشتدّ بي الضعف، قلت لإخواني: لا ينقذُني مما أنا فيه إلا الطائف، فأنا أدَرى بنفسي، ومتى نشقتُ هواءَ الجبال لم يبقَ علي خوفٌ، فتردّدَ فؤاد بك قليلاً، خشيةَ أنْ لا يكون قريباً منيْ، وأنا على هذه الحال، فقلت له: إن كنتَ تحبُّني فدعني أصعدُ إلى الطائف بدون تأخير.

وقد كان هذا رأي سليمان شفيق باشا، ناظر الحربية في تركية سابقاً، المقيم الآن بخدمة الملك ابن سعود، فإنّه نهَى عن أنْ أتريّثَ ساعةً واحدةً، ولو لأجلِ إعطاءِ التواصي اللازمة لأمير الطائف بترفيه مقامي، وتوثير مسكني، ولمّا جِيْءَ بالسيارات لأصعدَ بها إلى الطائف، شعرت من الفرح بنشاط غريب ممن هو على تلك الحالة، ونهضتُ مسرعاً أستقبلُ الحياة من بعد أن كنتُ على ثنية الهلاك، فسرنا إلى محطة اسمها الشرائع، على مسافة ساعتين بالسيارة من مكة.

ومن هناك رجع إلى مكة الإخوان السَّراة الأفاضل، الذين تلطّفوا بوداعنا: الدكتور محمود بك حمدي مدير الصحية، وفؤاد بك حمزة وكيل الخارجية، والسيد عبد الوهاب نائب الحرم عضو مجلس الشورى، وبقي معي الأخ البطل المجاهد الشهير فوزي بك القاوقجي، والأخ الفاضل الدكتور خيري القباني، الذي صدرت الإرادةُ الملوكية بأنْ يلازمني إلى أنْ أنالَ الشفاء، ونعم الأخ هو، ونعم الطبيب الفاضل.

وليسَ فيه من عيبٍ سوى قلة الثرثرة والجعجعة، وعدم إيهام العلم

الأوسع، والشفاء الأسرع، فإذا استطبّ العليلُ لديه، ورأى صمتَه وقلقلة شفتيه، قال: يظهر أنّ المسألة مقضية، وزاده الخوفُ مرضاً، وقد فات الأخ القباني أنّ الجعجعةَ هي نِصْفُ الطب، وأنّ المريضَ كلّما سمع ألفاظاً لا يفهمها، وكلمات فنية لم يسمعْها، ازدادتْ ثقتُه بالطبيب، وقد يحصلُ على الشفاء بدونِ دواء، لا سيّما إذا كان الطبيب يعرف أنْ يرصفَ تلك الألفاظ، ويسير بها بسرعة كلية، فلا يبقَى شبهة عند عليله بأنّه أحذقُ الأطباء.

ثم إننا بعد أن رقدنا هزيعاً من الليل قلنا للسائق: تقدّمْ بنا نحو الزيمة، فسرنا إليها، ولم يمض نصف ساعة حتى بلغناها، وإذا بالزيمةِ عينُ ماءٍ ثَرَّةٍ، لها خريرٌ يُسْمَعُ من بعيد، فلما سمعتُ خريرَ الماء أخذ مني الطربُ أن نفضتُ الضعفَ عني، ونزلتُ من السيارة، وذهبتُ إلى العين أتمتّعُ برؤية الماء، بعد أنْ سمعتُ صوتَه الطرِب، ثم جاءنا شيخُ قرية الزيمة يدعونا إلى فَكِّ الريق ـ لقمة الصباح ـ في بيته، فذهب الإخوان، ولم أستطع المشيَ لما كان النهك قد بلغ مني، فجاءوا إلي بالشاي إلى السيارة، ولم أنشط إلى الطعام كما نشطتُ إلى منظر الماء.

ومن ثَم صعدنا بالسيارة في وادٍ فيه كثيرٌ من شجر الطلح، وسرنا ساعةً من الزمن، فبلغنا أعلى الوادي، وهو المسمى بالسّيل، وعنده مقهى بسيط جداً، يقوم عليه بدويٌّ من عُتيبة، إلا أنّه ذو قيمة في تلك البرية، والوادي هناك قريبُ الماءِ، لا يحفر فيه الإنسانُ ثلاثةَ أشبارٍ إلا أنبطَ، ولذلك تجد فيه عِدةَ مناقعَ عذبةٍ.

وهذا هو المحلّ الذي كان في الجاهلية يسمّى بذاتِ عِرْقٍ، وفيه يقولُ الشاعر:

ألا يا نخلةٌ مِنْ ذاتِ عِرْقٍ   عليكِ ورحمةُ اللهِ السلامُ

وأحسست في ذات عرق بنشاط سريع، ومنها إلى الطائف مسافة ساعتين، يمرُّ فيها الإنسان على المكان الذي كانتْ فيه سوقُ عكاظِ

بالجاهلية، وكنتُ كلّما تقدمتُ صوبَ الطائف أشعرُ كأنّي آكلُ العافية أكلاً، فلم يخطىءْ ظنّي أني لما كنتُ من أبناء الجبال، لم يكن يشفيني إلا هواء الجبال، ولم تزل أهوية الصرودِ[1] ترمِّمُ ما هدمتْه أهوية الجروم[2].

الكـلام علـى ذات عـرق

جاء في «تاج العروس» عن ذات عرق ما يأتي: «وذات عِرْقٍ موضعٌ بالبادية كان يقال له قبل الإسلام عرق، وهو ميقات العراقيين، وهو الحدّ بين نجد وتهامة، ومنه الحديث «إنّه وَقّتَ لأهلِ العراق ذاتَ عرق» وهو منزلٌ من منازل الحاج، يُحْرِمُ أهلُ العراق بالحج منه، سُمّيَ به لأنّ فيه عِرْقاً، وهو الجبل الصغير، وعَلِمَ النبي ﷺ أنّهم يُسْلِمون ويحجُّون فبيّنَ ميقاتهم» انتهى.

وجاء في «معجمِ البلدان»: وذاتُ عرق مهلٌّ (بتشديد اللامِ) أهل العراق، وهو الحدّ بين نجد وتهامة، وقيل: عرق جبلٌ بطريق مكة، ومنه ذات عرق.

وقال الأصمعي: ما ارتفع من بطنِ الرمة فهو نجدٌ إلى ثنايا ذاتِ عرق، وعِرْقٌ هو الجبل المشرف على ذات عرقٌ، إلى أن يقول ـ وقال ابن عُيينة: إني سألتُ أهلَ ذاتِ عرق أَمُتْهِمُون أنتم أم مُنْجِدُون؟ فقالوا: ما نحن بمتهمين ولا منجدين.

وقال ابن شبيب: ذاتُ عرقٍ من الغور، والغور من ذات عرق إلى أوطاس، وَأَوْطاس على نفس الطريق، ونَجْدٌ من أوطاس إلى القريتين.

وقال قوم: أوّلُ تهامة مِنْ قِبلِ نَجْدِ مدارِجُ ذاتِ عرق ا هـ.

---

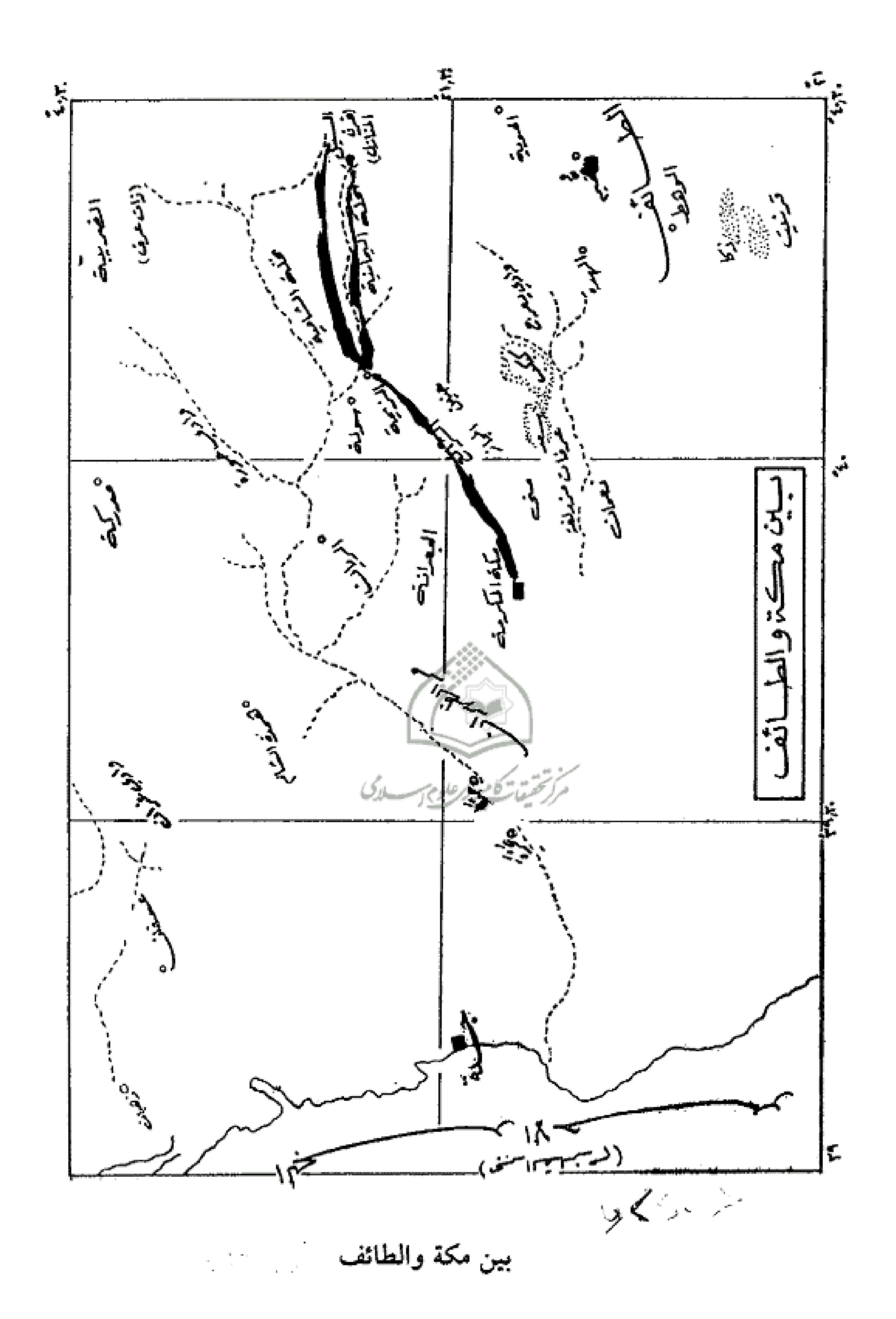
(١) [الأماكن الباردة].

(٢) [جمع جَرْم: الحر].

وبالفعل تجد نفسك إذا بلغتَ ذاتَ عرق، وأنتَ ذاهبٌ من مكة إلى الطائف، ـ قد ارتفعت، ونشقتَ هواءَ نَجْدٍ، ثم إنّ الطريقَ من السَّيلِ ـ الذي هو من ذات عرق ـ كلُّه صعودٌ إلى المكان الذي يقال له اليوم القهاوي، والذي يقولون: إنّه كانتْ عنده سوقُ عكاظ، حسبما سمعتُ من أهلِ مكة، ومن أعرقِهم وأعتقِهم الشيخ عبد القادر الشيبي، كبيرِ بني شيبة، وسادنِ البيت الحرام، ومن ذات عرق إلى الطائف بالسيارة مسيرة ساعتين.

وبعد أن تفوت ذات عرق بنحوِ نصف ساعة بالسيارة تجد على يسارك مفرقاً للطريق المؤدية إلى بلاد العارضِ من نَجْدٍ، ومن هذه الطريق يسير **الملك عبد العزيز بن سعود** عند ما يقصِدُ الرياضِ، وعليها تَدْرُجُ سياراته التي تبلغ أحياناً مئة وسبعين سيارة، فتصل إلى الرياضِ من مكة في أربعة أيام، وهي على الجمل مسافة عشرين يوماً، ولو كانتْ الطريقُ معبدةً كما يجب من مكة إلى ذات عرق، ومن ذات عرق إلى الرياض، لكان من الممكن الوصول في أقلّ من يومين، إلا أنّ تعبيد طريقٍ كهذه على مقتضى أصولِ هندسةِ الطرقِ ينبغي له أموال لا تطيقها حكومةُ الحجاز ونجدٍ في الزمن الحاضر، وهي التي لا يساعد واردها على مثل هذه الإنشاءات كلّها، فإنّ الداخل قليلٌ، والحِمْلُ ثقيلٌ، والآمال متوجهةٌ إلى تمهيد هذه الطرق تدريجاً، وأمّا الآن، فإنّ درجة إصلاح هذه الطرق هي الدرجة التي يقال لها: على قدر الإمكان، وتعبُدها السيارات بدواليبها، والخيلُ بحوافرها، والأباعُر بأخفافها، وهلم جرا.

* * *



بين مكة والطائف

الكلام على سوق عُكاظ

وأما سوقُ عُكاظٍ التي لم يسمعْ أحدُ بشيءٍ اسمه اللغة العربية إلا سمع بها، فليسَ لها من أثرٍ سوى الخبر، وهو أنّها في هاتيك المظنة.

وأصلُ لفظةِ عُكاظٍ، هو من فعل: عَكَظَ الشيءَ، يعكظه، أي: عركه.

وقال ابن دريد: عكظه: قهره، وردّ عليه فخره، وبه ـ كغراب ـ سوقٌ بصحراء بين نخلةَ والطائف، يريدُ أنّ عكاظ على وزن غُراب.

وقال الأصمعي: عُكاظٌ نخلٌ في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانتْ تقام سوقُ العرب.

وقال الزمخشري: عكاظ ماءُ بين نخلةَ والطائف، إلى بلد يقال له: الفتق، كانت موسماً من مواسم الجاهلية، تقوم هلالَ ذي القعدة، وتستمرّ عشرين يوماً.

قال ابن دريد: وكانت تجتمِعُ فيها قبائلُ العرب، فيتعاكظون، أي يتفاخرون ويتناشدون.

قال في «تاج العروس»: زاد الزمخشريُّ: كانتْ فيها وقائعُ وحروبُ، وفي «الصحاح»: فيقيمون شهراً يتبايعون ويتفاخرون، ويتناشدون، شعراً، فلما جاءَ الإسلام هدمَ ذلك.

وأنشد الجوهري لأبي ذؤيب:

إذا بُنـيَ القِبـابُ علـى عُكـاظٍ وقـامَ البَيْـعُ واجتمـعَ الألـوفُ

وقال أمية بن خلف الخزاعي يهجو حسان بن ثابت الأنصاري:

ألا مَـنْ مُبْلِـغٌ حَسّـانَ عنّـي ... مغلْغَلَـةً تَـدُبُّ إلـى عُكَـاظِ

أَلَيْسَ أبـوُكَ فينـا كـانَ قَيْنـاً ... لدى القَيْناتِ فَسْلاً في الحِفاظِ

يمـانيّـاً يَظَـلُّ يَشُـدُّ كِيْـراً ... ويَنْفُـخُ دائمـاً لَهَـبَ الشّـوَاظِ

فأجابه حسان رضي الله عنه[1] ـ ولو لم يكن بالذي إذا سوجل لا يملأ الدلو إلى عقد الكرب ـ:

أتـانـي عـن أُميَّـةَ ثَنـا كـلام ... وماهُوَ في المَغْيبِ بِذِي حِفَاظِ

سَـأَنْشُـرُ إنْ بقِيْـتُ لَـهُ كـلامـاً ... يَسِيرُ في المجامِعِ مِـنْ عُكـاظِ

قـوافٍ كـالسَّـلامِ إذا استمـرّتْ ... مـن الصُّـمِ المُعَجْـرَفَـةِ الغِـلاظِ

تـزورُكَ إنْ شَتَـوْتَ بكـلِّ أرضٍ ... وتَـرْضَـخُ فـي مَحَلِّـكَ بـالمقَـاظِ

بنيـتُ لَهُـنَّ أبيـاتـاً صـلابـاً ... كـأسرِالـوَسْـقِ قُعِّـصَ بـالشِّظـاظِ

مُجَلِّلَـةً تُعمِّمُكـم شَنـاراً ... مضـرَّمـةً تَـأَجَّـحُ كـالشُّـواظِ

كهمـزةِ ضَيْغَـمٍ يحمـي عـريناً ... شديـدِ مغارزِ الأضلاعِ خَاظي

تغـضُّ الطـرفَ أنْ ألقـاكَ دونـي ... وتَـرْمـي حيـنَ أُدْبـرُ بـاللِّحـاظِ

(كأمر الوسق) أي كأمر حمل البعير، و(قعص) مبنياً للمجهول معناه عطف، و(الشظاظ) خشبه عقفاء محدَّدة الطرف، تُجْعَلُ في عروتي الجواليق إذا عكما على البعير، والأسدُ الخاظي المكتنز اللحم.

وقال طريف بن تميم:

أو كلّمـا وردتْ عكـاظ قبيلـةٌ ... بعثـوا إلـيَّ عـريفَهـم يتـوسَّـمُ

وجاء في «معجم البلدان»: عُكاظ بضم أوله، وآخرهُ ظاء معجمة. قال الليث: سُمي عكاظٌ عكاظاً، لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكِظُ بعضُهم بعضاً بالفخار، أي يدعك، وعكظ فلانٌ خصمَهُ باللدد والحُجَجَ عكظاً.

---

(١) [ديوانه: (١: ١٥٣)].

وقال غيره: عكظ الرجل دابَّته يعكظُها عكظاً إذا حَبَسها، وتعكَّظَ القومُ تعكُّظاً إذا تحبَّسُوا ينظرون في أمورهم، قال: وبه سميت عكاظ.

وحكى السهيلي: كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا، ويقال: عاكظَ الرجلُ صاحبَه إذا فاخره، وغلبه بالمفاخرة.

وقال الأصمعي: عكاظ نخل في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تُقام سوقُ العرب، بموضع منه يقال له: الأُثَيْداء، وبه كانتْ أيامُ الفِجار[1]، وكان هناك صخورٌ يطوّفون بها، ويحجون إليها.

قال الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف، وذو المجاز خلف عرفة، ومجنّة بمر الظهران، وهذه أسواقُ قريشٍ والعرب، ولم يكنْ فيه أعظمُ من عُكاظ، قالوا، كانتْ العربُ تقيمُ بسوقِ عكاظ شهرَ شوال، ثم تنتقلُ إلى سوق مَجَنَّة، فتقيم فيه عشرين يوماً، من ذي القعدة، ثم تنتقلُ إلى سوق ذي المجاز، فتقيم فيه إلى أيامِ الحج انتهى.

وقال في «المصباح المنير»: عكاظ وِزَانُ غراب، سوقٌ من أعظمِ أسواق الجاهلية، وراءَ قَرْنِ المنازل، بمرحلةٍ من عمل الطائف على طريق اليمن.

وقال أبو عبيد: هي صحراءُ مستويةٌ لا جبلَ بهاولا عَلَم، وهي بين نجد والطائف، وكان يقام فيها السوقُ في ذي القعدة نحواً من نصف شهر، ثم يأتون موضعاً دونه إلى مكة، يقال له: سوق مَجَنَّة، فيقام فيه السوق إلى آخر الشهر، ثم يأتونَ موضعاً قريباً منه يقال له: ذو المجاز، فيقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يَصْدُرون إلى مِنى.

والتأنيثُ لغة الحجاز، والتذكيرُ لغة تميم انتهى.

---

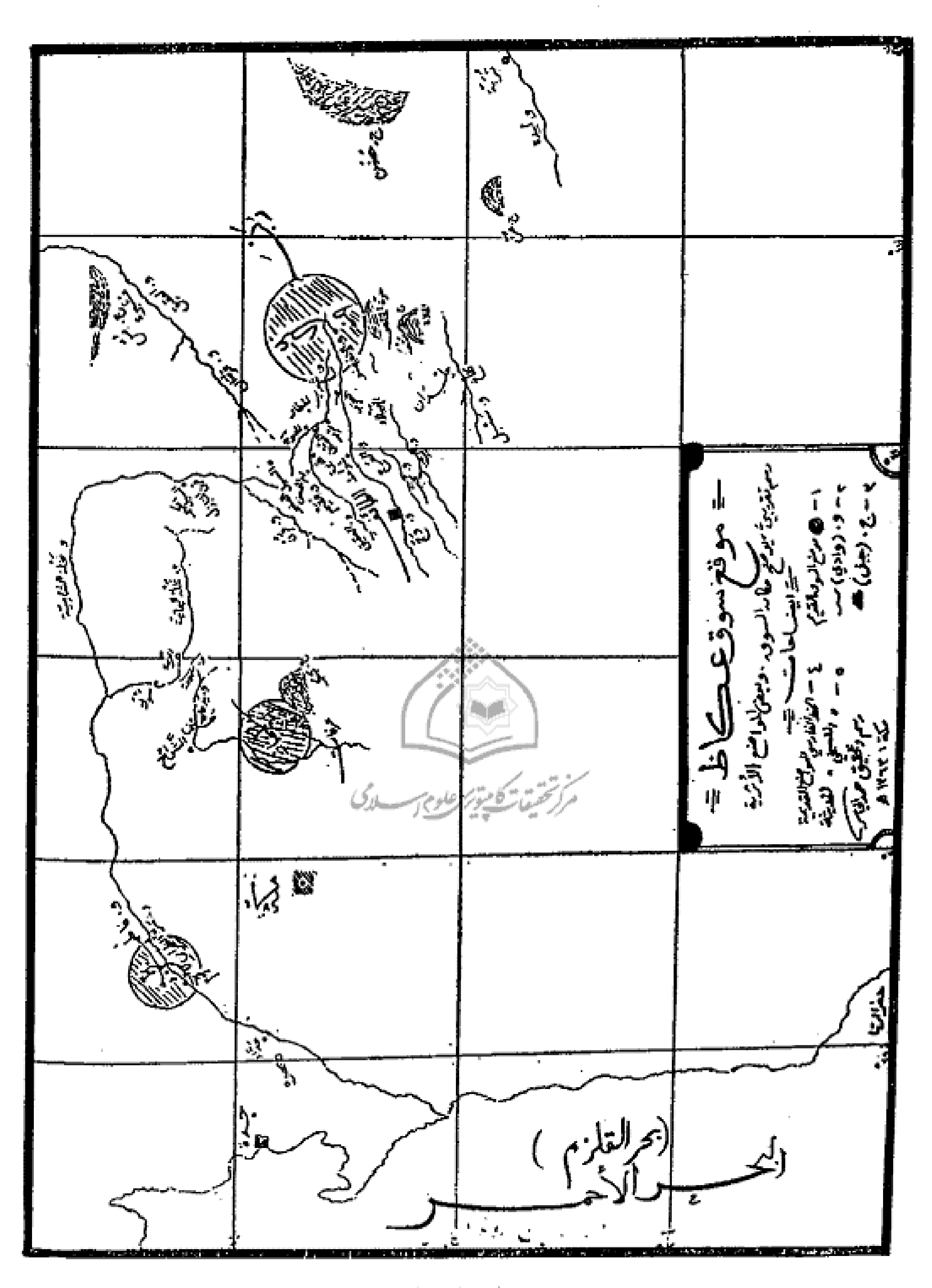
(١) [حرب في الجاهلية بين قريش وكنانة من جهة قيس عيلان من جهة أخرى انظر «أنساب الأشراف» للبلاذري ١: ١١٥].

قلت: وقوله (وراء قَرْن المنازل بمرحلة) أي وراء الوادي الذي يقال له اليوم وادي مَحْرم ـ بفتح فسكون ـ وسيأتي الكلام عليه، وهو مِنْ أَنْزَهِ أوديةِ الحجاز، وهو يمتدُّ إلى ذاتِ عِرْقٍ.

وأما أنّ عكاظ صحراء مستوية لا جبلَ بها ولا علَم فهو صحيحٌ، وإنما رأيتُ في ذلك الموضع صخوراً كباراً، ورأيتُ أيضاً مسايل ماءٍ شتوية، وكثيراً من شجر السدر والطرفاء، هذا إذا كانتْ عكاظ في المكان المسمى بالقهاوي.







موقع سوق عكاظ والمجاز ومجنة

ذكر أسواق العرب

لا ينبغي أن يُظَنَّ أنّ أسواقَ العرب هي عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، فحسب، بل كانتْ لهم أسواقٌ عديدةٌ غيرها. وقد جاءت في «صبح الأعشى» خلاصةُ هذه الأسواق، قال: كانوا ينزلون دومة الجندل - هذه في الشمال على حدود الشام، وتسمى الآن الجوف، وهي من مملكة ابن سعود - أولَ يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذِ والعطاءِ، وكان يعشوهم فيها أُكيدر دومة - وهو ملكُها - وربما غلبت على السوق كلب[١]، فيعشوهم[٢] بعضُ رؤساء كلب. فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر.

ثم ينتقِلُون إلى سوق هَجَرَ من البحرين، في شهر ربيع الآخر، فتكون أسواقُهم بها، وكان يعشوهم في هذا السوق المنذر بن سَاوَى، أحدُ بني عبد الله بن دارم، وهو مَلِكُ البحرين.

ثم يرتحِلُونَ نحو عُمان من البحرين، فتقومُ سوقهم بها.

ثم يرتحلون، فينزلون إرم وقرى الشَّحْرِ من اليمن، فتقوم أسواقهم بها أياماً.

---

(١) يقال: إن كلباً هم الذين يقال لهم اليوم الشرارات.

(٢) يعشوهم معناه يقصدهم، أصله مخصوص بالقصد ليلاً ثم عمَّ، قال في «المصباح» وعشّيته بالتثقيل وعشّوته أطعمته العَشاء - يعني طعام العَشاء بالفتح - وهو الذي يُتعشى به وقت العشاء بالكسر.

ثم يرتحلونَ، فينزلون عدن من اليمن أيضاً، فيشترونَ منه اللطائم[1] وأنواع الطيب.

ثم يرتحلونَ، فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم مَنْ يَجُوْزُها، فَيرِدُ صنعاء، فتقوم أسواقهم بها، ويجلبون منها الخرز، والأدَم والبرود، وكانت تُجلَبُ إليها من معافر، (مخلافٌ من مخاليفِ اليمن، تُنْسَبُ إليه الثياب المعافرية).

ثم يرتحلـون إلى عكـاظ في الأشهـر الحرم، فتقـوم أسواقهـم، ويتناشدون الأشعار، ويتحاجون، ومن له أسيرٌ سعَى في فدائه، ومن له حكومةٌ ارتفع إلى مَنْ له الحكومة، وكان الذي يقومُ بأمر الحكومة فيها من بني تميم، وكان آخِرَ من قام بها منهم الأقرعُ بن حابس التميمي، ثم يقفون بعرفة، ويقضون مناسك الحج. ا هـ.

فيظهر للقارىء من هنا أنّ العربَ كانوا يقصدون جعل نصيبٍ من هذه الأسواقِ لكلٍّ الجزيرة العربية، مما يدلُّ على الوحدة والاتصال، فإنهم بدأوا بالشمال، وهو دومة، ثم انثنوا نحو الشرق، وهو البحرين وعُمان، ثم انعطفوا إلى الجنوب، وهو اليمن، ثم جاءوا إلى الغرب، وهو الحجاز. والمساوف[2] لم تكن تطول عليهم مهما تراخت وتناءت، ولو لم تكن يومئذ سيارات كهربائية، فإنّه لا يوجدُ في البشر أقدر على طي المراحل وإنضاء الرواحل من العربي، وهو بطبيعته يحتقِرُ طولَ المسافات، ولا يراها بالنسبة إلى همته شيئاً.

على أنّي أرى صاحبَ «صبح الأعشى» أهملَ المِرْبَدَ من أسواقِ العرب، وهو سوقٌ عظيم في البصرة ـ أو عظيمةٌ (لأنّ السوق تذكَّرُ

---

(١) [جمع لطيمة: وعاء المسك].

(٢) [المسافات].

وتؤنّثُ مثل الطريق[1]. ولعلّ إهمالَه ذكرها هنا هو من أجل أنّها سوقٌ محدَثةٌ في صدر الإسلام، ولم تكن في الجاهلية، وأصلُه سوقٌ للإبل، ثم صار محلة عظيمةً يسكنُها الناس.

قال ياقوت: وبه كانت مفاخرات الشعراء، ومجالس الخطباء، وهو الآن بائنٌ عن البصرة، بينهما نحو ثلاثة أميال، وكان ما بين ذلك كله عامراً، وهو الآن خراب.

وعلى كلّ حالٍ أشهرُ أسواق العرب عكاظ، ومن محفوظي هذا الشعرُ للفرزدق[2]:

نُبِئْتُ زرعةُ والسفاهةُ كاسمِها يُهْدِي إلَيَّ غرائبَ الأشعارِ
فحلفتُ يا زرعُ بن عمرو إنني رجلٌ يشقُّ على العدو خباري
أرأيتَ يومَ عُكاظ حين لقيتَني تحتَ العجاجِ فما شَقَقْتَ غُبارِي
أنّا اقتسمنا خُطّتينا بيننا فحملتُ برّةَ واحتملتَ فَجارِ

وللأخ الفاضل المؤرخ، والشاعر المبدع، السيد خير الدين الزركلي رأيٌ آخر في مكان عكاظ، وإليك ما قاله في كتيبه «ما رأيتُ وما سمعتُ» الذي ألفه عن رحلته إلى الحجاز: وعلى ذكر طريق السيل أو اليمانية لا أرى أن تفوتني الإشارةُ إلى أشهرِ سوقٍ من أسواقِ العرب، أعني سوقَ عكاظ، لوقوعها في تلك الطريق على مرحلتين من مكة للذاهب إلى الطائف في طريق السيل، يميلُ قاصدُ عكاظٍ نحو اليمين،

---

(١) في الصفحة التي قبل هذه التذكير والتأنيث في عبارة «صبح الأعشى»، ولعلّها محرّفة، وتذكير السوق لغةٌ ضعيفة، وقيل خطأ.

وأما الطريق فتذكيره لغة أهل نجد، والتأنيث لغةُ الحجاز، وكلاهما فصيحٌ، وقوله تعالى ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] يوافِقُ اللغتين، لأنّه وَصْفٌ بالمصدرِ يستوي فيه المذكر والمؤنث، وذُهِلَ عن هذا من قال: إنه جاء بلغة نجد.

(٢) [لم أجد الأبيات في «ديوان الفرزدق» طبعة الصاوي].

فيسير نحوَ نصف الساعة، فإذا هو أمام نهرٍ في باحةٍ واسعةِ الجوانب، يسمّونها القانس، ـ بالكاف المعقودة ـ وهي موضعُ سوقِ عكاظ، الذي لا تكادُ تقرأُ كتاباً من كتب الأدب، أو التاريخ العربي، إلا وجدتَ له ذكراً فيه.

وهذه الباحة التي يسمونها القانس، هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعةٌ، تشرِفُ على جبال اليمن، وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة.

كلُّ ذلك يدلك على ما دعا العربَ في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها، لتكون مجمعَهم الأكبر، ومعرضَهم الأشهر، ولم أجدْ فيما بين يديَّ من مصنفات التاريخ تعليلاً لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ما عرفتُه الآن.

والواقف في القانس ـ أو عكاظ ـ يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين، أحدهما يسمى الدمة ـ بكسر ففتح ـ والآخر البُهيتة ـ بصيغة التصغير ـ وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمرُّ بها سالكو درب السيل اليمانية، ثم نقل قول ياقوت عن عكاظ ـ وختم بقوله ـ: وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون: إنّ عكاظاً كان في مكانٍ يُعْرَفُ اليوم باسم القهاوي، في وادي لِيّة من الطائف، غيرَ أنّ الشيوعَ يؤيد ما قلناه آنفاً من أنّه هو القانس نفسه، وعليه أكثرُ العارفين من أهل هذه الديار[1] ا هـ.

أفلا يحتمل أن يكونوا أقاموا السوق مرّةً في القانس، ومرة في المكان المسمى اليوم بالقهاوي؟ على أنّ قولَ الأخ الزركليّ (إنّ القهاوي هي في وادي لِية) فيه نظر، لأنّ القهاوي ليست في وادي ليّة، ولا وادي لية قريب من هناك، فقد عرفتُ وادي لية، وسأتكلّمُ

---

(١) [«ما رأيت وما سمعت»: (١٢٢)].

عليه[1]، وهو الذي فيه الروض النضير، والماء الغزير، والدوح الكبير، والكروم التي ليس لها نظير، والرمان الذي حَبُّه كحَبِّ اليواقيت، والذي ذكرُه في البلاد يسيرُ.

فأما مكان القهاوي الذي نعرِفه جميعاً، فهو صحراء مستوية يابسة، ليس فيها إلا سِدْرٌ وطلح، وما أشبه ذلك، فلا إمكانَ للتأليف بين هذا القول الذي سمعه، وهذ الذي أذكرُه أنا إلا على شرطٍ واحدٍ، وهو أن يكونَ اسمُ وادي لية يطلَقُ على كلّ هاتيك الأراضي.

ولقد رحم الله الحجازَ بعدَمِ دخول الإفرنج إليه، وبعدم جوسِهِم خلالَه، وبعدم استطاعتِهم الكتابةَ في جغرافيته وتاريخه، إذ لو كان ذلك لرأينا العجائب والغرائب، ولشهدنا النجوم طالعةً في النهار، والشمسَ طالعة في الليل، ولكانتْ التعليلاتُ على مظنة سوق عكاظ، مما تضيقُ عن وصفِه الألفاظ، ولذهبوا فيها من المذاهب، وأوردوا من الفكر، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

فواحِدٌ يقول مثلاً: إنّ اختلاف هذه الروايات بين القانس والقهاوي قد يجعل ريبة في صحة كلٍّ منها، ولو قدر أن بين المكانين مسافة نصف ساعة.

وآخرُ يقول: إنّ مكانَ سوق عكاظ الحقيقي محاطٌ بالغموض، بحيث لا يقدِرُ أن يجزِمَ أحدٌ بشيءٍ.

وآخرُ يذكر أنه توجدُ أسبابٌ تدعو إلى الظَنّ بأنّ قصة سوق عكاظ مخترعَةٌ، لأجل أن تُتَّخَذَ دليلاً على فصاحة العرب.

وآخرُ يقدَحُ زناد الفكرِ فيقول: إنّ كونَ الأقرع بن حابس التميمي حكماً في السوق دليلٌ على أنّها لم تكن في الحجاز، بل في نجد، لأنّ بني تميم يسكنون في العارِض لا في الطائف.

---

(١) [ص (٢٥٧)].

وإفرنجيٌ أعرقُ في مذهب الشك من غيرِه يقول: من المعلوم أنَ محمداً كان دعا أصحابَه إلى إلغاء عادات الجاهليةَ كلِّها، فأئمةُ الإسلام لأجلِ أن يؤكّدوا صحةَ إبطالِ هذه العادات اخترعوا من عقولهم قصةً معناها أنّه كانت تُقام بقرب الطائف في الجاهلية سوقٌ يقال لها: سوقُ عكاظ، تجري فيها المنافرات والمفاخرات والمساجلات بالشعر. وأنَ محمداً ألغاها! وأنّه يوجد أمارات كثيرة تدل على أن تلفيق قصةِ عُكاظ هذه، قد تقرّرَ بين الخليفة والأئمة في زمن المستنصر العباسي أبي جعفر مثلاً، أو في سنة (٦٢٢) للهجرة في أواخر خلافة أبيه الظاهر أبي نصر مثلاً، لأنّه كان قد ظهر في ذلك العهد فقهاء مَنعوا الحريةَ الفكريةَ، وكانوا بمكانٍ من التعصب الديني! فلا يبعد أن يكون هذا الوضعُ وقعَ في ذلك العصر!

وأخيراً تنتهي مسألةُ عكاظ هذه بأنّه لا وجودَ لعكاظ أصلاً، وأنّها موضوعةٌ بعد الإسلام بكثير، وأنَ روايات مؤرّخي العرب عنها هي خيالية، وأنّ التواطؤَ بين فقهاءِ الإسلام على اختراع قصصٍ لأجلِ تأييد محّمدٍ قد كان أكثرَ مما يُظَنُّ، وأنّ ثمةَ أسبابٍ تدعونا أن نشتبه في كون الاشتباه الذي يتظاهر به مؤلفو الإسلام أحياناً هو من الاشتباه الذي يدعو إلى الشبهة.

ـ وما ماثلَ ذلك من التحقيقات أو التحليلات!! التي قراءتُها تغني مَنْ أصابه تسممٌ في المعدة عن اتخاذ مقيّءٍ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: أهكذا تحقيقاتُ الإفرنج، وهم الذين بلغوا من العلم والعرفان ما بلغوا؟

فأقول: حاشا أن يؤخَذَ كلامي هذا على إطلاقه، فمن الإفرنج العلماء المحققون[1]، الذين يتنزّهون عن مثل هذه الأقاويل المقيّئة،

---

(١) [مثل مورتيز الذي سيذكره المؤلف ص (٢٧٥)].

ومن يعرفون أنّ شعرَ الجاهلية هو الشعر المعروف المنسوب إلى الجاهلية، وأنّ سوقَ عكاظٍ هي التي كانت تُقام في أرض الطائف المذكورة، وأنّ الاشتباه في مثل هذه الأمور خُطةٌ جائرةٌ، وصفقةٌ خاسرةٌ، ليستْ من العلم في قبيلٍ ولا دَبيرٍ.

ولكنّ من الإفرنج أيضاً فئةٌ متحذلقةٌ، متفلسفة في كلّ شيء، مولعة بالنقض وهدم النظريات المقررةِ بدون داعٍ إلى ذلك، سوى الميل إلى الإطراف والإتيان بشيء جديد[1].

وفي الشرقِ أيضاً متنطعون لا يعجبُهم إلا تقليدُ هذه الفئة من الإفرنج[2].

وإذا جاز أن يكونَ شعرُ الجاهلية غيرَ صحيح، لزم أن تُلْحَقَ به سوقُ عكاظ في عدم الصحة، لأنّها السوقُ التي كان العرب يتناشدون فيها ذلك الشعَر، الذي زعم بعضُهم[3] أنّه مختَرع بعد الإسلام! وعلى هذا تكون سوقُ المختَرع مخترعةٌ أيضاً، لأنّه إن لم يكنْ المظروفُ صحيحاً، لم يكن الظرفُ صحيحاً.

---

(١) [وعلى رأس هؤلاء مرغليوث، وغولدزيهر، وشاخت، ورينان، وماسينيون، ومن هم على شاكتهم].

(٢) ذُهِلَ الأمير أو نسيَ هنا أنّ هؤلاء المتنطعين من الإفرنج ومقلّدتهم [كطه حسين ومدرسته]. يبنونَ جُلَّ فلسفتهم على الشك والتشكيك، فيجعلون هذا الجهل والتجهيلَ أقوى وسائلِ العلم والتعليم، وقد رد عليهم [الأمير] أحسنَ الردّ في مقدمته التي وضعها لكتاب «النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي» تأليف صديقِه وصديقنا الأستاذ محمد أحمد الغمراوي. مصححه

(٣) [هو د. طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» وقد رد عليه غير واحدٍ من أعلام العصر، ومن أجمع هذه الردود كتاب «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» للدكتور ناصر الدين الأسد].

الكلام على صخور تلك البلاد

مما اقتضى عجبي في الطائف شكلُ الصخور[1] ـ فإنّه غريبٌ جداً من وجوهٍ:

أولها: أن الصخورَ والجنادلَ هي بكثرةٍ زائدةٍ في كل هاتيك الجبال، وفي السهوب التي تتخللها.

ثانياً: أنها قد توجد مجموعةً في أمكنةٍ معلومةٍ، متراصفةً بعضُها إلى بعضٍ، كأنما هي مجتمعةٌ على ميعاد.

ثالثُها: أنه تَغْلُبُ عليها الملاسة بخلاف صخور جبالنا الشامية، التي تغلُب عليها الحرشة[2]، إلا ما كان منها في الأوديةِ السائلة.

رابعها: أنّ أشكالَ بعضِها غريبةٌ جداً، منها ما يشبه الشجر، ومنها ما يشبه البشر، ومنها ما تخالُ أنه ينظرُ بعيونٍ، ومنها ما تخاله مُطْرِقاً برأسٍ، ومنها ما هو مجوَّفُ تجويفاً يظنُّه الرائي مِنْ صُنْعِ البشر، أو مثقوبُ من مكان إلى آخر، وإنّ كثيراً من هذه الجنادل تَراه منضوداً بعضُه فوق بعض، وفي أعلى الجميعِ صخرةٌ رئيسةٌ، تشبهُ رأسَ المنارة.

والبدو يرون في هذا جميعه يدُ الباري تعالى، التي جعلتْ هذه الأشكالَ لأجلِ العبرةِ في قدرته تعالى.

---

(١) [عامة الطائف تجمَعُ صخراً على أصخار، والحال أن فَعْلاً بفتح أوله لا يُجْمَعُ على أفعال، إلا في ألفاظٍ معلومة].

(٢) [الخشونة].

ولا شكَّ في يد الله تعالى في هذا وفي كلِّ شيء، ولكنَّ الفرقَ بين العالِم والجاهِلِ هو في معرفة الأسباب المتوسطة، فالعالِمُ يرى ثمَّةَ الأسباب، وكلّما ازداد علماً طالت معه السلسلة، فلا يزالُ يرتقي من سبب إلى سبب، ومن معلول إلى علة، حتى يقف حمارُه في العقبة، فيقول: لا أدري، أو يقول: هكذا خلق الله.

وأما الجاهلُ فإنّه يصِلُ إلى الله رأساً، ويحذف السلسلة المتوسطة[1].

على أنّ العالِمَ والجاهِلَ مستويان في العجز عن معرفة الكنه.

فهذه الصخور التي في الحجاز لا بدّ مِنْ أن تكونَ لأوضاعها وأشكالها هذه أسبابٌ طبيعيةٌ متولّدةٌ عن أسبابٍ سابقةٍ، والذي يراها أولَ وهلةٍ يحكم أنّ هذه التجاويفُ والتقاعيرُ، وهذه الملوسة، وهذا التدوُّر، وهذا الترأس، وغير ذلك ـ إنما هي من عمل الريح والماءِ في ملايين من السنين. وأنّ هذه الصخور العالية المشرفة المنتصبة على رؤوس أكوام أشبه بالأنصاب، كأنها التماثيل التي ينحتهاالبشر بأيديهم، وينصبونها فوقَ مكانٍ مرتفع ـ إن هي إلا بقايا صخور كانت كثيرةً متلاصقة، فلم تزل سُحُبُ الأمطارِ الغزيرةِ تجرِفُ مِنْ حولها الأتربة اللازقةَ بها، وتخِلُّ بموازنة بعضها، فتهوي به مِنْ محله، وتجرُّهُ إلى الوادي، وتعرّي القائمَ الباقي منها، وتجرِّدُه من التراب، فيصيرُ أملسَ مع شدة صلابته.

ولقد وجبَ الآن أن نذكرَ شيئاً عن نظريات العلماء في شأن الصخور فنقول:

---

(١) أجدر بِمَنْ يعلم سلاسلَ الأسباب والنظام فيها أن يكونَ أعلمَ بكمالِ خالِقِها في علمِه وحكمتِه ومشيئتِه وقدرتِه.

كيفية تشكل الصخور
أو سنة الله في تكوين الأرض وطبقاتِها

كانت الأرضُ من قبلِ اليوم بمئات ملايين من السنين عُرضةً لهزاهز بركانية عنيفة، وكانت يومئذٍ غير مولدة ولا منبتة، وكانت سيولُ الأمطار تغسِلُ الأرضَ بدون انقطاع، والأنهارُ تجري فيّاضةً إلى البحار، وكانت تجرِفُ كتلاً عظيمةً من الطين، فتصير بعدُ صِلصالاً، ويصيرُ المرمل منها من نوع حجر المِسَنّ.

ولقد عرف علماء الجيولوجية هذه الكتل المتجمدة، وما فيها من مواد، وحكموا عليها بحسب طبقاتها، لأنها ذات طبقاتٍ، وعندَهم أنّ أقدمَ الصخور هي التي تكوّنَتْ قبلَ تكوُّنِ الأبحر المعروفة اليوم، فإنّ الأرضَ يومئذٍ كانت أسخن مِنْ أنْ تتحمَّل بحراً منفصلاً عن برٍّ، وإنما كانت الكرةُ [الأرضية] في أولِ الأمرِ كلُّها مائعة، ومياه البحار الموجودة اليوم كانتْ بخاراً مختلِطاً بالهواء، وكانت الطبقات العليا من الهواء ملأى بالسحُب المتكاثفة، التي تمطِرُ مياهً حارّةً فوق الصخور، ثم تعودُ فتتبخر ثانيةً.

وبهذه الكيفية أخذتْ الأرضُ تجمُدُ تدريجاً، وظهرت الكتلُ التي يقال لها صخورٌ، وكانت هذه ذاتَ قشرةٍ تحتوي مادةً سائلةً شبيهةً بمقذوفات الأطمات النارية، عندما تأخذُ بالبرودة، وهذه القشرةُ كانتْ على شكل رغوةٍ، وصارتْ تذوبُ، ثم تجمُدُ، ثم تذوبُ، ثم تجمُدُ، بدون أنْ يتسنّى لها صلابة مستمرة.

ثم مضت ألوفٌ من القرون كان مِنْ عملها أنّ بخارَ الفضاء ازدادَ تكاثفاً، وصار يتساقَطُ ماؤه على الأرض سيولاً حارّةً، فيصيب الصخوَر، ويملأ المنخفضاتِ والأغواطِ، فتكوّنتْ من امتلاء هذه الغيطان الأبحرُ والبحيراتُ والمستنقعاتُ، وكانت المياه تأتي إلى هذه

الصخور بالرواسب التي تكوّنتْ منها الأراضي، ومن هذه الرواسب ما كان يتراكَمُ في المنخفِض من الأرضِ، ولكنَّ الهزاهز البركانية كانت لا تدعُ شيئاً منها يطمئِنُّ، وكانت المياه تعجُّ، ولا تزال تكنِسُ القشرةَ الأرضية، فهذه الصخور مضى عليها من صنوف الاضطراب ما لا يعلمه إلا صانعُ الجميع من العَدَم، وبعضُها جاء طَبَقاً فوق طَبَقٍ، وبعضُها قد قشّرتُه الاضطرابات، وقد برز لا يحجبه حاجبٌ، ومنها ما انفلق، ومنها ما انحطم بعوامل جديدة من حرارة صاهرة، أو برودة مؤدية إلى الجمود.

ولم تكن هذه الصخور طبقات منتظمة لشدة ما مرتْ به من أدوارِ الاضطرابِ المختلفةِ، فتعذَّرَ على العلماء فهم تاريخها بسبب التبعثر، وعدم الاطراد، وفقد النسق، وغاية ما عرفوا عنها وجودَ المواد المستحجرة، مما كان نباتاً أو حيواناً، فهذا كان قد بدأ اليونانيون يعرفونه قبل المسيح بأربعة قرون، فقد جرى البحث فيه بين فلاسفة الإسكندرية.

ويقول الكاتب الفيلسوف الإنكليزي ولز: إنّ العربَ عرفوا أيضاً هذه المباحث في القرن العاشر بعدَ المسيح[1] إلا أنّه لم يبدأ العلمُ الحقيقيُّ بهذه المواد المستحجِرةِ إلا من مئة وخمسين سنة فقط، فصار الإنسان يحلُّ شيئاً فشيئاً من سطورِها التي كانت مستعجِمة، ولمّا يتفقُ الجيولوجيون على عمر هذه الصخور، فإنّ أقدمَها يقدَّرُ له مليار وستمئة مليون سنة، وأحدثُها عشرات ملايينِ من السنين.

---

(١) قال الإمامُ الرازي: الأشبهُ أنّ هذه المعمورة كانت في سالفِ الزمانِ مغمورةً في البحار، فحصل فيها طينٌ لزِجٌ كثيرٌ، فتحجَّر بعد الانكشاف، وحصل الشهوق بحفر السيول والرياح، ولذلك كثرتْ فيها الجبال.

ومما يؤكد هذا الظن أنّا نجد في كثيرٍ من الأحجار إذا كسرناها أجزاءَ الحيواناتِ المائيةِ، كالاصدافِ والحيتان ا هـ من «شرح المواقف».

وقد كانت الأرض في آماد ـ لايمكِنُ أن يتصوَّرَ العقلُ عددَها ولا مُدَدَها ـ كتلةً مشتعلةً بدون حياة، ثم مضى عليها آماد بقدر الأولى، وهي جامدة غاية ما فيها من الحياة جراثيم في غاية الصغر، تحتوي عليها أصغرُ نقطةٍ من الماء، ولكن بعدَ ذلك دبتْ الحياةُ في الأرض، ووُجِدَتْ المخلوقاتُ الدابة، بدليل أنّهم عثروا في هذه الصخور الأصلية الرسوبية على مواد رصاصية، وعلى أكسيد الحديد الأحمر والأسود، مما استنتجوا منه سبق خلائق حية، إذْ لا يمكنُ أن تكونَ هذه المواد إلا بقايا خلائق كهذه.

ونقول باختصار: إنّ تاريخ دبيب الحياةِ على الأرض مقترِنٌ بتاريخ تجمُّد الصخور، فالكرةُ [الأرضية] كانتْ سديماً، فصارتْ ماءً، إلى أنْ صارتْ جماداً، إلى أنْ خرجَ من الجماد النباتُ فالحيوانُ، وقد كان هذا التحوُّلُ فيها يُميلها من الحرارة إلى البرودة بتوالي الدهور.

والجيولوجيون يرَوْنَ أنّ هذه البرودة ستزداد إلى حد أنّه ـ بعد ملايين وملايين من السنين ـ يموتُ كلُّ ما على وجه الأرضِ من الخلائق الحيّةِ(1).

---

(1) هذا التقديرُ الذي يقدّرونه لحياة الأحياء على هذه الأرض هو من قبيلِ تقدير العمر الطبيعي لكلِّ حي بحسب استعداده للحياة، بمقتضى النظام الذي عُرِف بالاختبار في استكمال نمو جنسِه، وأطوارِ طفولتِه وشبابِه وكهولتِهِ وشيخوختِهِ. ولكنّ العمرَ الطبيعي المقدَّرَ في ذلك غيرُ العمر الحقيقي، الذي تحولُ دونَ وصوله إلى العمر الطبيعي بعضُ الأقدار الإلهية من قتلٍ أو وباءٍ أو مرضٍ لا يوفَّقُ لمعالجته، بما يكونُ سببَ الشفاء، كما وُفِّقَ الأميرُ أطال الله حياته بالصحة والعافية.
كذلك الأرض، يظهرُ من نصوص كتاب الله خالقِها أنّ لها عمراً ينتهي بقيام الساعة التي قال فيها: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] ووردتْ آياتٌ متعددة ناطقةٌ بأنّ ذلك يكونُ بقارعةٍ تقرَعُها، وصاخّةٍ تصخُّها، فتكون هباءً =

فلما كانت الحرارةُ زائدةً على الأرض، لم تحمل الأرضُ الحياةَ، لأنّ الحياة لا تتحملُ الحرارةَ الزائدة، وعندما تنقُصُ الحرارةُ نقصاناً زائداً لا تحمِلُ الأرض الحياة، لأنّ الحياة لا تتحملُ البرودةَ الزائدةَ، كلُّ ذلك يدلُّ على ضرورةِ التوازن لأجلِ الحياة.

ولعلّ بعضَ القراء يشمئزون من هذه المباحث الكُفرية، ويرون هذه التعليلات مما لا يأتلِفُ مع العقيدة، وهذا خطأ محض، لأنّ هذه الأدوار التي لا تُحصى إلا بالملايين والمليارات من السنين، هي أدلُّ على قدرةِ الخّلاق الحكيم تعالى، وهي ولو طالت أضعافَ ما هي [عليه]، لما أمكنَ أنْ يعلّلَ لها وجودُ إلا بواجب الوجود.

وأما أنّ الأرض وغيرَها من الأجرام الفلكية كانت كلها كتلةً واحدةً من البخار، ثم تفصّلت كراتٍ شتى، وأخذتْ كلٌّ منها تتجمَّدُ شيئاً فشيئاً، أو أنّ مبدأ الحياة كان في الماء، فليس إلا وفقاً للوحي النازل على محمد ﷺ، وهو ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ولكنّ قصورَ مفسرينا في العلوم الطبيعية وقفَ بهم عن فهم المراد من قوله تعالى في أكثر الآي الكريمة التي من هذا الضرب، وكانوا إذا قرأوا ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]. أشكلَ عليهم فهمُ الدخان هنا، فقالوا: إنّ مرادَه تعالى يومَ تأتي السماء بجدبٍ أو قحطٍ، لأنّ الجائعَ يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع، أو أنّ الجوعَ يقال له: الدخان، لما في الأرض من اليبس في الجدب، بحيثُ يرتفعُ منها الغبارُ الذي هو كالدخان، وما أشبه ذلك من التفاسير، التي هي

= سديمياً، كما كانت قبلَ تكوينها ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾] [الواقعة: ٤/٦] وقد فصّلنا ذلك في «المنار» و«تفسيره» مصححه.

أبعدُ من السماء عن الأرض[1] والكتابُ في محكم آياته قد تأيّدَ بظهورِ النظريات العلمية العصرية، التي أجمعتْ على الرأي السديمي في مبدأ التكوين، وأثبتتْ أنّ هناك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّه أشارَ بكلماتٍ موجزاتٍ تلخِّصَ فيها الرأيُ السديمي الذي أجمعوا عليه في هذا العصر، على حين أنّه في زمن نزولِ القرآن لم يكن رأيٌ سديميٌ ولا شيءَ من هذه النظريات، وكان الذي أُنزلت عليه هذه الآيات أميّاً لا يقرأُ ولا يكتبُ.

ومن أراد أن يعلمَ معجزات القرآن من جهة سبقه إلى ذكر النواميس الطبيعية التي عوّلَ عليها العلماءُ اليوم في أمر التكوين، فليقرأ كتاب «سرائر القرآن» للغازي الفلكي الرياضي أحمد مختار باشا رحمه الله[2].

* * *



(١) لقد كان للأمير مندوحةٌ عن تخطئة هذا التفسير للآية بالاستدلال على الرأي السديمي في التكوين بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] فهي نصٌّ في التكوين من الدخان، الذي يطلق على بخار الماء، وفسر به في الآية وعلى ما يشبهه.
[أما] الآية التي ذكرها [الدخان: ١٠] فموضوع الدخان أمرٌ يُرْتَقَبُ حصولُه في المستقبل، وفيه قولان مشهوران مرويان لا رأيان للمفسرين.
الأول: ما ذكره الكاتب مجملاً، وهو مرويٌّ على أنّه سبَبٌ لنزول الآية في «الصحيحين» [خ (٤٥٤٨) م (٢٧٩٨)] عن ابن مسعود رضي الله عنه.
والثاني: أنّه دخان يكونُ من أشراطِ الساعة، وفيه عدة أحاديث، مصححه.
(٢) قد سبقْنا أحمدَ مختار باشا إلى بيان كثيرٍ من هذ المسائل في «المنار» وفي «تفسيره»، مصححه.

قرية لقيم وكرومها ومياهها

إنّ المسافةَ من المكان الذي كانت فيه سوق عكاظ إلى مدينة الطائف هي نحو من ساعة بسير الكهرباء، وجميعُ المسافة من البلد الحرام إلى الطائف بالكهرباء نحو من خمس ساعات.

وأول ما يستقبِلُ الإنسانَ في مسيره إلى الطائف هي قرية لُقيم ـ بضم ففتح فسكون ـ وهي قريةٌ لطيفة فسيحة الأرجاء، لا يظنّها من رآها قريةً واحدةً، وذلك لتفرُّق بيوتها، وتراخي ما بين حاراتها، والسبب في هذا التفرّق أنّ أكثرها خاص بالأشراف، وأكثرهم يسكنون في بيوت منفردة مسوّرة، تحيط بها بساتينهم ومزارعهم، فكلُّ واحدٍ منهم يريدُ أن يعيش مستقلاً بنفسه في منزله وزرعه وضرعه وجميع مرافقه، ومعظم هؤلاء الأشراف هناك من ذوي ناصر، وأشهرُهم لهذا العهد الشريف فطن، فهو أطولُهم يداً، وأوسعُهم كرماً، وأكثرُهم كروم عنب، ومما لا ينبغي أن ينسى أنّ عنب لُقَيْم هو رأسُ عنب الطائف في اللذة والحلاوة، وأنّ عنب وادي محرم ـ أي قرن المنازل ـ هو رأس عنب الطائف في كبر الحجم مع الحلاوة، وتحسبه جوزاً إذا رأيتَه، وقد كنّا نضعُ منه الحبة في دورق الماء، فتقِفُ في عنقه وتسدُّهُ.

وفي لُقَيْم عددٌ غيرُ قليلٍ من السواني، تحركها البقر، لا بالدوران حول البئِر، كما هو الشأن في سورية مثلاً، بل بالنزول في منحدر من الأرض إلى جانب البئِر، ثم الصعود ثانيةً، فإذا نزلتْ الدابةُ في ذلك المنحدر، صعدت الظروف المعلقة بالأشطان من قعر البئر، وقد

امتلأتْ ماءً، ولم تزل تصعَدُ إلى أن تصيرَ على فم القناة التي ينصبُّ فيها الماء جارياً إلى البركة، فأَفرغتْ الظروفُ ماءَها، ورجعت الدابّةُ من آخر المنحدر صاعدةً نحو البئر، فنزلت بتلك الظروف ثانيةً إلى قعرها، لتمتلىء ماءً وهلم جرا.

وإلى اليوم لم يعتمد أهلُ الطائف والقرى التي حولها على الآلات البخارية الرافعة، ولا يزالون على عاداتهم القديمة في رفع المياه، وقد رغّبتهم كثيراً في استعمال المحركات البخارية، لما فيها من التوفير، ومن زيادة الريّ، وذكرتُ لهم كيف أنّ أهلَ المدينة المنورة قد عوّلوا عليها في السنين الأخيرة، فوجدوا فرقاً عظيماً في كمية الماء الذي يستفيضونه، واستخلصوا دوابّهم التي كانت تهلك في هذا الصعود وهذا النزول، فاعتذروا بأنّ مياه المدينة [المنورة] أغزرُ من مياه الطائف، وأنّه مهما رفعت الآلات منها فلا تنزحها، بخلاف مياه الطائف وجوارها، فإنّ الآلةَ البخارية إذا اشتغلت بضعَ ساعاتٍ فوقَ فم قليبٍ نزحتْ كلَّ ما فيه، واضطر صاحبُ البئر أن يعطل الآلة مدةَ ساعاتٍ أخرى، حتى تجتمع فيها كميةٌ من الماء.

والحقيقة أنّ البداية ـ كما يقال ـ صعبة في كل عمل، وإلا فإن آبارَ الطائف وقُراها ـ وقد تحصى بالألوف ـ ليستْ جميعُها سواءً في النزارة، ومنها آبارٌ فائضةٌ، لا تنزحها الدلاء، ولو تحركت آلاتها الرافعة ليلاً ونهاراً.

وقد اقتنع بهذه الحقيقة في أثناء وجودي في الطائف صيفَ سنة (١٣٤٨) صاحبُ السموّ الأميرِ فيصل، نجل ذي الجلالةِ الملك عبد العزيز بن سعود ـ ونائبهُ في الحجاز عندما يكون الملكُ في نجدٍ ـ فأرادَ أن يشرعَ هو بالعمل، ليقتدي به أصحاب السواني، وبعث إلى جدة، فاستحضر آلةً تدارُ بزيت الكاز، وأمر بتركيبها على إحدى آبار شبرا في أول الطائف، وما أظنُّ أصحابَ البساتين إلا مقتدين بعمله،

لأنّه إنما عملُه لأجل أن يكون قدوةً لا غير.

هذا وفي لُقَيم سدودٌ كثيرةٌ للمياه، إذا شاهدها الغريب، ولم يكن يعلم طبيعة الإقليم، ظنَّ أنّها أسوارٌ للحصار، وحقيقةُ الحالِ أنّ الماءَ في هذه البلاد عزيزٌ، فإذا جاءت سحابة ملأت السهل والوعر، وأسالت الأودية، وقد تكون السحابة لم تستمر أكثر من ساعة، ثم تعود الأرض فتنشفُ كأنْ لم تُصِبْها نقطةُ مطر. فأهالي جزيرة العرب من قديم الدهر احتاطوا للأمطار بالسدود والحواجز، لتحويل المياه إلى أشجارهم وزروعهم، ولعدم ذهاب الماء سدى، ومن هذه السدود ما كان يُضْرَبُ به المثل، وما كانت تحيا به بلدانٌ وقبائل، مثل سد مأرب مثلاً، وكيفما تقلّبَ السائحُ في جزيرة العرب وجد السدودَ والحواجزَ والقُنْيَ بين كبيرٍ وصغيرٍ ناطقةً بلسان حالها أنّه يجب إحرازُ المياه بقدر الإمكان، لأنّه لا يتيسّر هنا في كل وقتٍ.

ولقد صادفنا في جوار الطائف كثيراً من السدود القديمة الخربة، ولحظنا آثار عمران دارسة، كانت في أصولها جناناً ناضرةً، ومما لا مِرْية فيه أنّ جزيرة العرب ملأى بهذه الآثار، ولكنْ ليسَ لها كتب تفي بالتعريف بها إلا ما كان من كتب الهمداني[1].

ولُقَيم موصوفةٌ بجودة الحنطة والحبوب، ولذلك جاء في «تاج العروس». الحنطة اللقيمية الكبار السّروية، التي يؤتى [بها] من السراة، أو نسبة إلى لُقَيم ـ كزُبير ـ بلدةٌ بالطائف موصوفةٌ بجودة البُرِ والشعيرِ.

وفي «لسان العرب»: لقيم اسم رجلٍ، ولا أدري أسميتْ هذه القرية باسم رجل اسمه لُقَيم، أم هي تصغير لَقْم بمعنى طريق؟

وقد جاء ذُكْرُ لُقَيمٍ في تواريخ الطائف، نقل ابنُ فهدٍ الهاشمي المكي المتوفى سنة (٩٢٢) في كتابه «تحفة اللطائف، في فضائلِ الحَبْرِ ابن

---

(١) [الحسن بن أحمد صاحب «الإكليل» و«صفة جزيرة العرب»].

عباس ووَجّ والطائفِ» عن كتاب «زيارة الطائف» لابن أبي الصيف مفتي الحرمين: أنّ النبيّ ﷺ كان قد كتب إلى ثقيف كتاباً يحرِّمُ فيه صَيْدَ وجٍّ، وكانت ثقيفُ تتوارثُ هذا الكتاب، وتتبرَّكُ به.

قال الشيخ أبو العباس الميورقي الأندلسيّ في كتابه «بهجةُ المهُجَ» مايلي: قال لي تميم بن حمران الثقفي العوفي: قُتِلَ أبي رحمه الله تعالى في نوبة قتلِ الشريفِ قتادةَ الحسنيّ لمشايخ ثقيفٍ أهلِ بني يسار، من قرى الطائف، وانتهاب الجيش البلادَ، ففُقِدَ الكتابُ في جملةِ ما فقدناه، وهو كان عند أبي، لكونه شيخَ قبيلتِهِ.

ثم قال الميورقي بعد ذلك: قال قاضي الطائف يحيى بن عيسى رحمه الله: قُتِلَ عيسى أبي في هذه النوبة في قرية لُقَيم لثلاث عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وستمئة، وكان موتُ الميورقي رحمه الله تعالى بعد موت ابن أبي الصيف رحمه الله تعالى بقليل.

قال ابن فهد المذكور: وقد زرتُ هذه الآثار المباركة مع والدي رحمه الله، وذلك في سنة خمس عشرة وتسعمئة خلا البئر والموقف اللذين بناحية ليّة، فلم يتيسّرْ لي زيارتهما، ورأيتُ المسجدَ الكبير الذي فيه قبرُ سيدنا عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما خرباً، بل سقطت بعض أروقته وجدرانه، وعُمّرَ بعضُها عمارةً ضعيفة، وكذلك بناء الآثار النبوية التي في وسطه، وأحدثت به قبور لجماعة صاحبِ مكة السيد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسني رحمه الله تعالى، منهم أمُّ ولدِه الفارس الشجاع السيد هزّاع، وقاصده إلى الديار المصرية الشريف عنقا ووبير الحسني، وليس بالمسجد جمعةٌ ولا جماعةٌ، والظاهر أنّهما كانا فيه قديماً لوجود المنبر فيه، وكذلك جميعُ القرى المتصلة بالطائف، فإني لما زرتُها في المرة الأولى لم أر بها جمعةً. ثم إنّ الجناب العالي القاضي نور الدين علي بن خالص المغربي المالكي النائب بجدة بعد المقر الحسامي الأمير حسين الكردي

الأشرفي لما توجه إلى جهات الهند لقتال الإفرنج المخذولين أمرَ أهلَ الطائف بصلاة الجمعة، وذلك بإشارةِ سيدناالعلامة المفيد رئيس الحكماء نور الدين أحمد بن محمد بن خضر القرشي الكازروني الشافعي، فجمعوها في سنة خمس عشرة وتسعمئة، واستمرتْ إلى أن زرتُ الزيارةَ الثانية في السنة التي بعدها، وهي موجودة بعد ذلك في غير المسجد الكبير، الذي فيه قبر سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فإنّه مُنْفَرِدٌ عن القرى وسط التربة، يصعب على أهل البلد التوجُّهُ إليه لبعده عن بعضهم، وكونهم لا يسمعون النداء منه، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ا هـ.

قلت: هذا قد كان يوماً من الأيام، فأما الآن فالجماعة تقام في مسجد ابن عباس المعمور، ويصلّي فيه أهلُ الطائف وقراها، وفي أيام الصيف عندما يكون أهلُ مكة في الطائف يجتمع فيه نهار الجمعة ألوفٌ مؤلّفةٌ.

ثم جاء في كتاب «إهداء اللطائف من أخبار الطائف» للعُجيمي المكي أنّ في لُقَيم قبورُ بعضِ الصحابة. والله أعلم.

وممّنْ ذكر لُقَيم الأخ الفاضل المؤرخ السيد خير الدين الزركلي الشاعر الشهير، فقد أتى على ذكر قرى الطائف بأجمَعِها مما لم يَرِدْ **مجموعاً ولا في كتاب.**

ويكفيه أنّ أبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني ـ صاحبَ «صفة جزيرة العرب» الذي لم يؤلِّفْ أحدٌ في بابه مثلَه، وصاحب كتاب «الإكليل» الشهير ـ قد ذكر طرفاً من قرى الطائف، لكنّه لم يوفَّقْ إلى الاستقصاء الذي استقصاه الخير الزركلي، فهو يقول عن لقيم مايلي: لُقَيم واد طويل خصيب، يُجتاز في أقل من ساعتين، أوله مزارع الشدايين بعد المليساء، وآخرُه قرية الصافة على ما يزعمون، وعندي أن

آخره جبل رغاف، وهو كثير القرى والمزارع، وقد أتيتُ على أسمائها في مواضعها.

وفي كتاب العجيمي: أنّ لُقَيماً قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار ـ ثم قال ـ وهي مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم: الحمدة، وقد قَتَل صناديدَهم الشريفُ زيد بن محسن في حدود سنة (١٠٤٠) لخروجهم عن طاعته ا هـ.

والذي صحَّ عندي أنّ جماعة ثقيف يسكنون قرية المليساء، وقد تدعى باسم الحمدة، الذين ذكرهم العُجيمي لسكناهم بها إلى الآن.

أما لُقيم ففيه من ثقيف وغيرِها من قبائل العرب عددٌ غيرُ قليلٍ منتشرون في مزارع هذا الوادي وقراه، وأما اطلاقُ اسمِ القريةِ عليه فلا أعلم له وجهاً، إلا إن كانت فيه قريةٌ تدعى لقيماً، تغيّر اسمُها بعد زمن العُجيمي، وأطلق الاسم على الوادي كله» ا هـ[1].

قلت: المعروف الآن أنّ لُقيماً هي هذه البيوت التي تمر بها، تارة تراها عن يمينك، وتارة عن شمالك، قبل دخولك إلى الطائف. فأما الحدود الأصلية لِلُقَيم فلم أستعلم عنها، ولعلها كما قال الفاضل الزركلي.

وقرأتُ مرّةً في أحدِ كتب الأدب أبياتاً لرجل اسمه اللُقَيمي نظمَها لتنقشَ على قبره، وضمّنَها بحساب الجمّل تاريخاً يوافق سنة (١١٧٨) وآخر هذه الأبيات هو هذا:

فـاذا ثـوى قبـرُ اللُّقيمـي أرّخـوا　　مستمنِـحٌ للعَفْـوِ أسعـدُ مصطفـى

هذا ما حضرني من أمر لُقيم، ولا بدّ لي من أن أردفه بهذه النادرة لوقوعها فيها:

---

(١) [ما رأيت وما سمعت ص (٩٥)].

الأمن الشامل في بلاد الملك العادل
الإمام عبد العزيز آل سعود

كنتُ صاعداً مرّةً من مكة إلى الطائف، وكانت معي عباءة إحسائية سوداء، جعلتُها وراءَ ظهري في السيارة، فيظهر أنّها سقطتْ من السيارة في أرض لُقَيم، ولم ننتبه لها، فأخذ النّاسُ يمرّونَ، فيرون هذه العباءة ملقاةً على قارعة الطريق، فلا يجرؤ أحدٌ أن يمسَّها، بل شرعتْ القوافلُ تتنكَّبُ عن طريق لقيم عمداً، حتى لا تمرَّ على العباءة، خشية أنّه إذا أصاب هذه حادثٌ يكون مَنْ مَرَّ من هناك مسؤولاً، فكانت هذه العباءة على الطريق أشبهَ بأفعى يفِرُّ النّاسُ منها، بل لو كانت ثَمَّةَ أفعى ما تجنّبوها هذا التجنب كلَّه؟ وأخيراً وصلَ خبرُها إلى أمير الطائف محمد بن عبد العزيز، من سلالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فأرسل سيارةً كهربائيةً من الطائف أتت بها، وأخذ بالتحقيق عن صاحبها، فقيل له: إنّنا نحن مررنا من هناك، وإنّ الأرجحَ كونُها سقطت من سيارتنا، فجاء الأمير ثاني يومٍ يزورنا، وسألنا: هل فُقِدَ لكم شيءٌ من حوائجكم في أثناء مجيئكم من مكة؟ فأهبتُ برفاقي ليتفقّدوا الحوائج، فافتقدوها فإذا بالعباءة السوداء مفقودةٌ، وكنّا لم ننتبه لفقدانها، فقلنا له: عباءةٌ سوداءُ إحسائية قال: هي عندنا، وقصّ علينا خبرَها.

وقد أتيتُ على هذه النادرة هنا مثلاً من أمثالٍ لا تعدُّ ولا تحصى من الأمن الشامل للقليل والكثير في أيام ابن سعود، مما لم تحدِّثْ عن مثله التورايخُ حتى اليوم، فالمكان الذي سقطت في العباءة كان في الماضي كثيراً ما تقعُ فيه وقائعُ السلب والقتل، ولا يمر الناس فيه إلا مسلّحين، فأصبح إذا وجدت لقطة هناك على قارعة الطريق تجنّبَ النّاسُ الطريق لئلا يتهموا بها إذا فُقِدَتْ، وكل يوم يأتي الشرطة والخفراء والعسس بلقط وحاجات ضائعة مما فقده السفار، أو سقط بدون انتباه عن

الأكوار، وذلك إلى دائرة الأمن العام، فتبحثُ عن أصحابِ هذه اللقطات، وتردّها لهم بتمامها مما يقضي بالعجب.

وإنك لتجدُ هذا الأمن ممدودَ الرواق على جميع البلدان التي ارتفعت فيها رايةُ ابن سعود من مُنْجِدٍ ومُتْهِمٍ ومُعْرِقٍ ومُشْئِمٍ بدون استثناء، وقد علّل بعضُهم هذا التأمين البليغ للسوابل بأنَّه من أركان عقيدة الوهابيين الذين يقولون:

وما الـدّيـنُ إلا أن تقـامَ شعـائِرٌ   وتـأمَـنَ سُبْـلٌ بيننـا وشِعَـابُ

قلت: أياً كان السببُ في هذا الأمان فإنّه نعم العمل، **ولا يوجَدُ معنى للحكومة إنْ لم تكنْ أولَ ثمراتها الأمنُ والعدلُ، ولو لم يكن من مآثر الحكم السعودي سوى هذه الأَمَنَةِ الشاملة الوارفة الظلال، على الأرواح والأموال، التي جعلتْ صحارَى الحجاز، وفيافي نجد آمَنُ من شوارع الحواضر الأوربية ـ لكان ذلك كافياً في استجلاب القول إليه، واستنطاقِ الألسُنِ في الثناء عليه.**

فاليوم نجد التاجر، والفلاح، والحادي، والملاح، والحاج القاصد على الضوامر، أو على الجواري المنشآت بالدسر والألواح، يتحدّثون بنعمة هذا الأمن، الذي أنام الأنام بملء الأجفان، وجعل الخلق يذهبون ويجيؤون في هاتيك الصحارى، وقد يكون معهم الذهب الرنّان، وهم بلا سلاح ولا سنان، فلا نريد من هذه الجهة مزيداً، وإنما نرجو لهذه النعمة الدوامَ، فلا عمران للبلاد إلا بالأمان والاطمئنان.

ذكـرُ أميـر الطـائف المـلقّب بـالصحـابـي

ليسَ أميرُ الطائف المشار إليه هو المنفرد بمزيّة الضبط والربط في الإمارة التي عُهِدَ بها إليه، بل هذه الحلية عامة للإمارات والولايات، التي يظلُّها لواء ابن سعود كلها، إلا أنّ أميرَ الطائف محمد بن عبد العزيز. . . بن عبد بالوهاب، وهم يقولون ابن الشيخ ـ هو نسيجُ

وحدِه في أخلاقِه وتقواه وورعِه، ونقاءِ سريرتِه، وزكاءِ سيرته، فقد ندر أن ينعقدَ الإجماعُ على حُبِّ والٍ انعقادُه على حُبِّ أميرِ الطائف، الذي لم أسمعْ من أحدٍ من أهالي هذه البلاد ـ حضرِها ووبرِها ـ إلا نغمةً واحدةً بحقه، وهي الثناءُ الجميل، ولحسن أخلاقِه واستقامةِ طباعه يلقبونه بالصحابي، وقد أقمتُ بالطائف زُهاء أربعة أشهر، وهي مدينة صغيرة، لا يخفى فيها شيءٌ، فما عرفتُ عن هذا الملقب بالصحابي إلا ما يثبت لهذا الرجل مثل أخلاقِ الصحابة، أكثرَ اللهُ من أمثالِه.

* * *



الكلام على الطائف

أول ما يدخل الإنسان إلى الطائف، بل أول ما يطل على لُقَيم يشعر بالسرور، وينشرح صدره انشراحاً لا يعهده إلاَّ في النادر من البلدان.

نُقِلَ عن الأصمعيِّ أنه قال: دخلناالطائف، فكأنّي كنت أُبَشَّرُ، وكأنّ قلبي يَنْضَحُ بالسرور، ولا أجد لذلك سبباً إلا انفساح حَدِّها، وطيب نسمتِها.

قلت: أما انفساحُ حدِّها فإنها في بسيط من الأرض أفيحُ، يسرح فيه النظر ما شاء أن يسرح، وحولها بعضُ جبال عالية تُرى من بعيد، وأهاضيبُ ترى من قريب، وجميعُها لا تغمُّ الطائفَ في شيءٍ، وهي مع هذا الانفساح والانفراج والاستواء في الأرض تعلو نحوَ ألف وستمئة متر عن سطح البحر.

وأما طيب النسمة، فإنّك تحِسُّ فيها من الانتعاش وسَعَةِ التنفس ما لا تشعر به في مكان.

وقد كان أصابني في سويسرة زُكامٌ في شُعَبِ الرئة، لعلّ أصلَه من البرد، فكان يضيق به نَفَسِي كثيراً، لا سيما إذا استطال الشغل، فما مضى عليَّ في الطائف إلا قليل حتى ذهب هذا الزكام بتمامه، وصار الهواء يجري في رئتيَّ كأنّه في صحراء، ولما رجعتُ إلى أوربة قال لي الأطباء بعد المعاينة: إنه لم يبق هناك أثرٌ لشيءٍ يقال له زكامٌ في شعب الرئة، ولم يكن هذا بأوّلِ فضلٍ للطائف علي، بل هواء الطائف هو الذي

شفاني بإذن الله ـ بل الله هو الذي شفاني به ـ من الضعف الذي كنتُ منه على شفا، فلا عجب فيما رواه ابن عرّاق من أنّهم كانوا يغبطون من يصيّفُ بالطائف.

وفيما يُروَى عن معاوية بن أبي سفيان من قوله: أنعمُ النّاسِ عيشاً من يقيّظُ بالطائف، ويشتو بمكةٍ ويربع بجدة.

وقال الفاكهي في «تاريخ مكة»: كان للطائف خطرٌ عند الخلفاء فيما مضى، وكان الخليفة يوليها رجلاً من عنده، ولا يجعلُ ولايتهَا إلى صاحب مكة.

ووجُدِ بخط الشيخ أحمد العبدري الميورقي المتوفّى سنة (٦٧٨) أنّه وقع الكلام في ترجيح سكنى الحجاز على سائر الآفاق، ثم وقع الترجيح بين نواحي الحجاز ومكة والمدينة، فوقع الاتفاق على أنّ الطائف أقربُ للسلامة والسنة، لعدم مصاحبة أهل الأهواء، ورؤية من يقسّي القلب من ذوي الأطماع.

ولم تزل الطائفُ مصيفاً لمكـةَ جاهليـةً وإسلاماً إلى يومنـا هذا، وهي في نظري حارَةٌ من مكة، خاصةً بأيامِ الصّيفِ، ولا غنى لمكة عنها.

أول ما يستقبل الإنسان من الطائف هو قصر شبرا، الذي يخصّ الأشراف ذوي عون، وهو قصرٌ شاهِقٌ، حوله بستان طويل عريض، هو أكبر بستان في الطائف، وجميعُ الأراضي التي هناك على مسافة بعيدة هي من مضامّ القصر، وقد بنى إلى جانبه الشريفُ علي باشا أميرُ مكة سابقاً (وهو مقيم الآن بمصر، وعهدي به يسكن بجوار قصر القبة بضاحية الزيتون من ضواحي القاهرة) قصراً بديعاً ملوكياً، أنفقَ عليه عشرات الألوف من الجنيهات، فجاء أفخم بنية في الطائف، بل في جميع الحجاز، وفي هذا القصر نزل السلطان وحيد الدين محمد السادس، آخرُ سلاطين بني عثمان عندما جاء إلى الحجاز بعد خَلْعِه، وذلك بدعوة الملك حسين بن علي، الذي كان صاحبَ الحجاز وقتئذٍ.

وعندما يصيف في الطائف الملك عبد العزيز بن سعود صاحبُ الحجاز ونجد وملحقاتهما يكون نزولُ جلالته بهذا القصر.

ولقد سمّى الأشرافُ ذوو عون هذا القصر بشبرا على اسم شبرا الشهيرة بمصر[1] وذلك والله أعلم لأنّ أمراءَ مكة المشارَ إليهم أصدقاء من قديم الزمان لأسرةِ محمد علي الجالسين على سرير الكنانة.

وسبب هذه العلاقة القديمة هي أنه لما هاجم الوهابيون الحجازَ في القرن الماضي، واستولَوْا عليه، كان يلي الأمر فيه الأشراف ذوو زيد، وجميع هؤلاء الأشراف سواء من ذوي زيد، أو من ذوي عون، أو من ذوي ناصر، أو من فروع أخرى عديدة يجتمعون في الحسن بن أبي نمي، من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما[2] وقيل لي: إنّ عَدَدَهم في الحجاز يزيدُ على عشرة آلاف، إلا أنّ فرعاً منهم انفردَ بالإمارة في خبرٍ لو أردنا شرحَهُ يطول جداً، هو فرع ذي زيد، نسبة للشريف زيد بن محسن أميرِ مكة في حدود سنة (١٠٤٠) وهؤلاء الذين منهم الأمير عبد المطلب، الذي ولي إمارة مكة ثلاث مرات، والذي حفيدُه الأمير علي حيدر باشا، وقد ولّتْه الدولة الإمارةَ في أيام الحرب، بعد أنْ ثار عليها الشريف حسين بن علي وتلقّبَ ملكاً، فصار هذا الفرعُ

---

(١) شِبْرَى مصر تكتب بالألف [المضطجعة] قال في «القاموس»: وشِبْرَى ككسرى ثلاثة وخمسون موضعاً، كلُّها في مصر، وقد بين شارحُه الزبيدي مواضعها، ولكنه كتبها الألف العمودية شبرا، كما يكتبونها في مصر إلى اليوم.

(٢) هو الحسن بن أبي نمي محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رُميثة بن أبي نمي محمد بن أبي سعيد الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وكانت وفاةُ الحسن بن أبي نمي سنة عشرٍ بعدَ الألف ا هـ من الأصل.

الذي يقال له ذوو زيد أشبه بالبوربون ملوك فرنسة، يجمعهم وآل أورليان نسبُ آل كابيت، إلا أنّ المُلْكَ منحصِرٌ في آل بوربون، وبقي الأمرُ كذلك في فرنسة إلى أنْ سقط شارل العاشر سنة (١٨٣٠) فتولى المُلك بعدُ لويس فيليب من آل أورليان.

وهكذا كانت إمارةُ الحجاز منحصِرةً في ذوي زيد، إلى أنْ استولى الوهابيون على الحجاز، وعجزتْ الدولةُ عن إخراجهم منه، فرمتهم بمحمد علي والي مصر، الذي جرّدَ عليهم الجيوش، ولبث يقاتلهم نحو عشر سنوات، إلى أنْ أخرجَهُم من الحجاز، فكان اقتراحُه على الدولة إخراجَ إمارة الحجاز من ذوي زيد، وتولية أميرٍ من غيرهم من الأشراف، فتلكّأَتْ الدولة باديءَ ذي بدءٍ عن إجابة طلبه، إلا أنّه مازال يلحُّ بذلك ويبرم إلى أنْ تمكَّنَ من تولية الشريف محمد بن عون أميراً على مكة، ومِنْ ذلك الوقت صارتْ الإمارةُ مداولةً بين الفرعين ذوي زيد وذوي عون، بعد أن كانت منحصرةً في الفرع الأول.

وقد كان يحدثني في الآستانة بهذه الأمور التاريخية الشريفُ عبد الإله باشا، أخو الشريف عون الرفيق باشا، الذي كان تولّى إمارةَ مكة أكثر من (٢٠) سنة في أيام السلطان عبد الحميد، وهو عم الملك حسين، وقد تولاها الشريف عبد الإله نفسُه أيضاً عند وفاة أخيه، لكنّه توفي إلى رحمة ربه قبل أنْ يبرحَ الآستانة، وكان الشريف عبد الإله رحمه الله ذا مقام سام في عاصمة آل عثمان، وكان على خلق عظيم، لا يعرفه أحدٌ إلا بالغ في إجلاله، وقد كنتُ كثيراً أسمرُ عنده، وكان له إليّ ميلٌ أكيد، وبي ثقة شديدة، فقلّما كان يسترسِلُ في الكلام لسياسيٍّ في مجالسه إلا أمامي، وكان يحدِّثُني إذا خلا المجلسُ بقصصٍ كثيرةٍ، ومن جملتها هذه القصة، وهو أنّ محمد علي باشا جدَّ الأسرة المالكة بمصر هو الذي نصّبَ والدَه محمد بن عون أميراً على الحجاز، وهو الذي وهبه الأراضي التي لهم في مصر، وهو الذي أولاهم تلك النعم الجسام.

ومنذ أصبحت إمارةُ الحجاز بين هذين الفرعين اشتدِّ الخلافُ بينهما، كما هو بديهي، وقد اختلفا في كلِّ شيءٍ إلا في شيءٍ واحدٍ، وهو أنهم جميعاً اتفقوا على الاستئثار بأحسنِ الأراضي، وأجملِ المواقع في ذلك القطر، ولا سيّما الطائف ونواحيها، وقد يكون ذلك خيراً للبلاد، لأنَّهم بمكانهم من الإمارة أقدرُ على العمارة، والتأثيل من غيرهم.

ففي الطائف المياهُ كـلُّها ترفَعُ بالسواني، وليس في البساتيـن إلا آبار مركبةٍ على أفواهها الدواليب، والماء الجاري من نفسه هناك إنما هو عينان غزيرتان لا غير، إحداهما عينُ سلامـة، والأخرى عين المثناةِ.

فأما **عينُ سلامة**، فهي تخرج في قرية بهذا الاسم، هي الآن حارة من حارات الطائف، واقعة على جانب الوادي، الذي يقال له: وَجّ، قال الهمدانيُّ في «صفة جزيرة العرب»: وفي قبلة الطائف حائط أمِّ المقتدر، الذي يدعى سلامة. ا هـ. فيظهر أنّه كان لأمّ الخليفة المقتدر هناك بستان يُسقَى بهذه العين.

وقال ياقوت في «معجمه»: السلامة ـ بلفظ السلامة ضد العطب ـ قريةٌ من قرى الطائف، بها مسجد للنبي ﷺ، وفي جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعةٍ من أولاده، ومشهد للصحابة رضي الله عنهم.

وقال الشيخ حسن العجيمي المكي في كتابه «إهداء اللطائف»: ومنها قرية السلامة، وهي كثيرة البيوت والبساتين، وبها عينٌ، ولا أعلم متى كان ابتداءُ عمارتها، إلا أنّها كانت معمورةً في أوائل القرن التاسع، وبها كان ينزِلُ أعيانُ مكة وفضلاؤها، بل غالب أهلها، ثم خربت في حدود الثمانين، وتحوّلَ أهلُها عنها، ولم يبق منهم إلا القليل إلخ.

وقال الخير الزركلي حفظه الله في «ما رأيت وما سمعت»[1]: سلامة قرية محاذية للطائف من جهة باب ابن عباس، كثيرة البيوت، بعضُها عامر، وبعضها خرب، سكانها قليلون، من قريش وغيرها، ثم قال: هي الآن في ظاهر البلدة، يفصل السورُ بينها وبين قبة ابن عباس، ثم قال: إنّ الشريف سروراً نزل بها سنة (١١٩٣)، وهذا دليل على أنّها كانت عامرةً لعهدِه. انتهى.

والشريف سرور هو جد الشريف عبد المطلب، جد ذي السمو الأمير علي حيدر نزيل بيروت اليوم.

فعين سلامة هذه جرّها الأمراء ذوو عون إلى شبرا، على مسافة نصف ساعة، وتركوا منها مشارعَ لورود الأهالي، وأحدثوا عليها هذا البستان البديع الذي حول ذلك القصر.

وأما **المثناة**، فهي على مسافة ثلاثة أرباع الساعة من الطائف نحو الغرب، وتعدُّ أجملُ مزرعةٍ في الطائف: وادي وجّ الشهير على جانبيه البساتين والجنان الغناء مشتبكة اشتباك الغاب الأشبى، وعين ماء مجرورة بقُني تحتَ الأرض من مسافة ساعة ونصف من ناحية جبل بَـرَد ـ (بالتحريك) ـ أعلى جبلٍ في أرض الطائف.

وهذه العينُ هي أغزرُ عيون تلك البلاد، تصبُّ في الثانية (٤٤) ليبرة، ويسقى منها نحو (٤٠) بستاناً في المثناة، ثم تنحدِرُ فضلة المياه صوب الطائف.

وجميعُ هذه البساتين وما فيها من قصورٍ وأبراجٍ تخصُّ الأشرافَ ذوي زيد، ومنها شيءٌ لأشرافٍ آخرين، يقال لهم: الشّنابرة.

وفي هذه المثناة من الفواكه من العنب والسّفَرْجَل والخوخ ـ الذي

---

(١) [ما رأيتُ وما سمعت: (٩٠)].

يقال له في الشام: الدراقن، ويقال له في اليمن والحجاز: (الفرسيق) ـ ما هو من الطبقة العليا في نوعه.

ويلفظون المثناة بالثاء المثلثة، وكنت ظننتها من غلط العوام، وأنّ أصلَها المُسنَّاة بالسين المهملة، وذلك أنه يقال: إنّ القومَ يسنون لأنفسهم إذا استقوا، ويقال السحابة تسنو الأرضَ أي تسقيها، فقد تكون بمعنى مكان السقيا.

وأقرب من هذا أنْ تكونَ مخففةً من المُسنَّاة، وهي السد الذي يعترِضُ الوادي حتى لا تطغَى مياهُه على الأرض، وفي «لسان العرب»: المُسنَّاةُ ضفيرةٌ تُبنَى للسيل لتردَّ الماءَ، سميت مُسنّاةً، لأنّ فيها مفاتيح للماء بقدر ما تحتاج إليه، مما لا يغلب، مأخوذ من قولك سنَّيت الشيءَ والأمرَ إذا فتحتَ وجهه.

وفي «فتوح البلدان» للبلاذري المتوفى سنة (٢٧٩) مايلي: فلما كان زمن قُباذ بن فيروز، انبثق في أسافل كَسْكَر بثق عظيم، فأُغفلَ حتى غلبَ ماؤه، وغرَّق كثيراً من أرضين عامرة، وكان قباذ واهناً قليلَ التفقُّدِ لأمرِه، فلما وَلِيَ أنو شروان ابنُه، أمرَ بذلك الماء فَرُدِمَ بالمسنّيات (جمع مُسنّاة) حتى عادَ بعضُ تلك الأرضين إلى عمارته. انتهى.

وفي أول المثناة من جهة جبل بَـرَد سدودٌ على وَجّ، هي على هذه الصفة، مما جعلني أفكِّرُ في أنّ المُسنّاة هي بالسين لا بالثاء. إلا أن أهل الحجاز بأجمعِهم يقولون: المثناة، وتورايخُ الطائف كلُّها تذكر المثناة بالثاء، وإذا رجعنا إلى كتب اللغة لا نجدُ مناسبة بين معنى لفظة المثناة وهذا المكان، فقد قالوا: المثناة الحبل من الصوف أو من الشعر مطلقاً، ونقلوا عن عبد الله بن عمر: من أشراط الساعة أن توضعَ الأخيارُ، وترفَعَ الأشرارُ، وأن يُقرَأَ فيهم بالمثناة على رؤوسِ النّاس، ليس أحدٌ

يغيِّرُها. قيل: وما المثناة؟ قال: ما استُكْتِبَ مِنْ غيرِ كتاب الله[1] كأنّهم جعلوا كتابَ الله مبدأً، وهذا مثني: فأنتَ ترى أنّه لا هذا ولا هذا فيه شيءٌ من ملابسة معنى بستانٍ أو جنةٍ، أو وادٍ ذي زرع.

وأما قولهم مثاني الوادي، بمعنى معاطفه وأحنائه، فهو جمع ثني ـ بكسر فسكون ـ لا جمع مثناة.

قال في «لسان العرب»: وفي «الصحاح» في تفسير المثناة قال: هي التي تسمى بالفارسية دوبيتي، وهو الغناء[2] وهذا أبعد عن ذلك المعنى أيضاً.

وقد جاءت معانٍ كثيرةٌ للمثنى بالتذكير، وكلُّها أيضاً بعيدةٌ عن هذا المعنى.

وعلى كلِّ حال، فلسنا هنا في المثنى بفتح فسكون، وإنما نحن في المثناة، ولم يبق إلا أن نردَّها إلى اسم مكان من فعل ثنى بمعنى عطف أو حنا، كأنْ تكون بمعنى منحنى الوادي.

أو أن نردَّها إلى اسم مكان من ثنَّى بمعنى صيره ثانياً، لأنّ النهر شق المزرعة نصفين اثنين.

---

(١) التحقيق أنّ المثناة هذه تعريبُ المشنا أو المشنة بالعبرية، وهي الشريعة التي وضعها اليهودُ بعد السبي باجتهادهم أو ابتعادهم، ويليها الجمارة، وهي الشريعة الشفوية لهم، والتقاليد العملية، وهما أصل «التلمود» وفسرّها في «القاموس»: بقوله: كتابٌ فيه أخبارُ بني إسرائيل أحلّوا فيه وحرّموا ماشاؤوا.

(٢) دوبيتي في الفارسية معناه بيتان، لا الغناء، فإنّ (دو) اسم لعدد الإثنين، قال شارح «القاموس» بعد ما تقدّم آنفاً: وقوله: دوبيت بالفارسية ترجمةُ الإثنين، والياء في بيتي للوحدة، أو للنسبة، وهو الذي يعرف في العجم بالمثنوي، كأنّه نسبة إلى المثناة هذه.

أو أن يكون أصلُها من الثناية بمعنى الفلاحة والزراعة، ولكن الثناية بمعنى الفلاحة والزراعة لم يَرِدْ منها اسمُ مكان، ثم إنها لم تَرِدْ بهذا المعنى إلا عند ابن الأثير في تفسير حديثَ قتادة: كان حُميد بن هلال من العلماء، فأضَرَّتْ به التناوة أو التناية.

والعامة عندنا في جبل لبنان تستعمل التناية بمعنى الفلاحة أيضاً، لكن لا مطلقاً، بل يقولون: تناية للوجه الثاني من حَرْث الأرض، والأظهر أنّ أصل المثناة بالثاء لا بالتاء.

بقي علينا وجه تأويلٍ آخر، وهو أن تكونَ من (تنأ) أقام، وقد سهّلوا الهمزة فصارت (تنا)، وجاء منها اسم مكان (المتناة) أي محل الإقامة ـ ولعمري لَنِعْم محلُّ الإقامة هي ـ ثم إنّ العامة حرفتها من التاء إلى الثاء، فهاذا كلُّ ما يخطر لي من جهة هذه اللفظة.

ثم إني لما عزمتُ على الكتابة عن الطائف ـ وكان بلغني أنّ في المكتبة التيمورية بمصر بعضَ تآليف عن الطائف ووجّ ـ كتبتُ إلى ذلك العالم الفاضل الكبير، الذي من أيّ الجهات اعتبرته فهو أمير، أحمد باشا تيمور، قدس الله روحه، ونوّر ضريحه، أرجو منه إذا كانتْ عندَه كتبٌ في هذا الموضوع أن يأمرَ لي باستنساخها على نفقتي، فكان منه أنّه لم يمضِ على رجائي هذا خمسة عشر يوماً حتى جاءني منه (٤) تآليف في هذا البحث، مصورةً بالفوتوغرافية بالمطبعة السلفية الشهيرة، ومجلة تجليداً مذهباً، وهذه الكتب هي:

١ ـ «إهداءُ اللطائف، من أخبار الطائف» تأليف الشيخ حسن بن الشيخ علي العجيمي المكي الحنفي، من علماء أواخر القرن الحادي عشر.

٢ ـ و«تحفة اللطائف، في فضائل الحَبْر ابن عباس ووجّ والطائف» للشيخ محمد جار الله بن عبد العزيز بن عمر بن محمد، الشهير بابن فهد، المتوفى سنة (٩٢٢).

٣ ـ و«نشر اللطائف، في قطر الطائف» لابن عرّاق من المتأخرين، وهو الشيخ نور الدين علي بن محمد بن عرّاق الشامي.

٤ ـ و«رسالة في فضائل سيدنا ابن عباس والطائف» للشيخ محمد بن عبد الكريم القنوي، الذي كان في أواسط القرن الثاني عشر.

وتكرّم رحمه الله بإرسال بطاقة أنيسة، مع هذه الهدية النفيسة، قابلته عليها بكتابِ شكرٍ طائلٍ أودعتُه ما خطر ببالي من جهة لفظة (المثناة) أو (المسناة) فأجابني مستحسناً ما رأيتُه إلا أنّه قال: إنّ رواياتِ الكتب المؤلّفةِ عن الطائف متفقةٌ على كونها بالثاء، فضلاً عن تلفُّظِ أهالي الحجاز بها بالثاء أيضاً، وقد كان كتابُ تيمور باشا هذا من آخر ما خطّه قلمُه، لأنّ المصاب بوفاته رحمه الله وقعَ بعد تاريخ المكتوب بخمسة عشر يوماً.

ويمتد وقفُ الأشراف ذوي زيد من المثناة إلى نفس الطائف بجنان وبساتين منتظمة بلبة وجّ، متابِعةً له إذا استوى أو إذا اعوجّ، وهي من أنْزَهِ ضواحي تلك البلدة وألطفِها، وإن أشهرها سانيةُ حوايا ذاتُ الصهريج الكبير، والروض النضير.

وبالاختصار كيفما توجه الإنسان في الطائف، بل في الحجاز كله، بين تهائمه ونجوده، وبواديه وحواضره، يجدُ الأماكنَ الشريفة للأشراف.

ففي لُقَيم أشرف الأماكنِ للأشراف، وفي واديِ ليّةَ أشرفُها للأشراف، وفي وادي وَجٍّ أشرفُها للأشراف، وفي وادي فاطمة الذي بقرب مكة تمتد بساتينه (١٥) ساعة أحسن البقاع للأشراف. وهلم جرا.

أما أنّ الطائف هو قطعة من الشام جعلها الله في الحجاز، وما ورد في ذلك من الآثار والأحاديث المنقولة في التورايخ التي اطّلعنا عليها، وفي غيرِها مما لم نطّلع عليه، واطّلع عليه الأخ الزركلي، ككتاب «عقود اللطائف في محاسن الطائف» للشيخ عبد القادر الفاكهي المكي،

المتوفى في أواخرالقرن العاشر، وكتاريخ الشيخ أحمد بن علي العبدري الميورقي الأندلسي، ثم الطائفي الوجّي مسكناً المتوفى سنة (٦٧٨) بعد ذهابِ وطنه ميورقة بخمسين سنة ـ فكلُّ هذا نحن نحمله على المجاز، وذلك أننا إذا قلنا: زيد أسد، فلا يكون المراد أنّه هو هذا الحيوان المفترس، بل إنه في شجاعته كالأسد، وإذا قلنا: زيد بحر، فلا يكون المعنى أنّه هو هذا الماء الكثير المتلاطمة أمواجُه، وإنما هو كناية به عن الكرم، أو العلم، أو الحلم، وإذا قلنا: زيدٌ جبلٌ، فما يراد بذلك إلا المتانة، والرصانة، والثبات، وإذ نظرنا إلى الحديث الشريف: «إنّ من البيان لسحراً وإنّ من الشعر حكمةً»[1] لم يمكننا تأويلُ «إنّ من البيان لسحراً» إلا بالمعنى المجازي كما لا يخفى، وذلك بأنّ من البيانِ ما يستولي على العقول، ويأخذ بالألباب، لا أنّه هو من السحر المحرم.

وهكذا حديثُ «إنّ الطائفَ قطعةٌ من الشام جعلها الله في الحجاز» أو ما هو بمعناه، لا أفهمُه إلا على هذا الوجه، وهو أنّ الطائف وأراضيها شامية في فواكهها، وثمراتها، وعذوبة مائها، وبرودة هوائها.

ومن هنا لم يبقَ حاجة لإرخاء بعض المفسرين العنان لتخيُّلاتهم في كيفية اقتلاع بلاد الطائف من أرض الشام ووضعها في الحجاز؟!

هذا زائداً إلى أنّ **أكثرَ هذه الأقوال هي آثار وأخبار ليست من الأحاديث المقطوع بها.**

ونحن نعلمُ أنّ الأحاديث المتواترة، التي لا يتطرق الشكُّ إلى صحةِ تلفُّظِ النبيِّ ﷺ بها، هي أحاديث معدودة، وأنّ الأحاديثَ مهما جاءت على شروط الصحة والثبوت المعروفة عند المحدثين، فلا يزال مجالُ للقول في أسانيدها واسعٌ. لأنّ الكلام إذا نقله واحدٌ فلا بدّ أن يتغيرَّ فيه

---

(١) [حديثان صحيحان انظر «صحيح الجامع» رقم (٢٢١٦) و(٢٢١٩)].

شيءٌ بالزيادة أو بالنقصان، أو بتغير لفظة بلفظة، مهما كان الناقل قويَّ الذاكرة، ولقد ثبت أنّ أكثر الأحاديث مرويٌّ بالمعنى.

ولقد ثبت أيضاً أنّ سيدنا عمر رضي الله عنه كره كتابة الأحاديث[1] خوفاً من الزيادات عليها، واكتفاء بكتاب الله المنزل، الذي حفظه الألوف من الصحابة واتفقوا عليه.

وقد ثبتَ أيضاً أن جماعة من أكابر الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يحدّثون عن رسول الله ﷺ مع طولِ صحبتهم له، جاءت في «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد روايةٌ عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال (أي عبد الله بن الزبير): قلت للزبير: ما لي لا أسمعُك تحدِّثُ عن رسول الله ﷺ كما يحدّثُ فلانٌ وفلانٌ؟

قال: أما إنّي لم أفارقْه منذ أسلمت، ولكنني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ كذب عليَّ فليتبوأْ مقعداً مِنَ النّار».

قال وهب بن جرير في حديثه عن الزبير، والله ما قال «متعمداً» وأنتم تقولون: «متعمداً» أي أنّ بعضَ المحدثين زادوا لفظة «متعمداً» فانظر إلى هذا الحديث الشريف على قصره لم يخلُ من زيادةِ لفظةٍ[2].

---

(١) [جاء النهي عن النبي ﷺ عن كتاب الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة خوفَ الالتباس، أما كتابة كل منهما مفرداً فلا كراهة، وهذا ما فعله الصحابة، فقد كتب كثير منهم الأحاديث، وكذلك التابعين، ثم دونوا ذلك في مجموعات، إلى أن جاء التدوين الرسمي في أواخر القرن الأول الهجري بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه].

(٢) [الحديث] متواترٌ تواتراً لفظاً بهذه الزيادة [ودونها]، وممن رواها عن الزبير نفسِه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه، فلا عبرة بإنكار وهب بن جرير لها عنه، **فالقاعدة أنّ مَنْ حفِظَ حجةٌ على مَنْ لم يحفظ.**

ووهب هذا قد تكلَّم فيه بعضُ رجالِ الجرح والتعديل، فقال ابن حبان: كان يخطىء، وأنكرَ عبدُ الرحمن بن مهدي والإمام أحمد ما رواه عن شعبة الخ. =

وجاء في «الطبقات» عن السائب بن يزيد أنّه صحب سعدَ بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة قال: فما سمعتُه يحدِّثُ عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع.

ثم جاء عن يحيى بن عباد، عن شعبة أنّهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص، فسُئِل عن شيءٍ فاستعجم، فقال: إنّي أخافُ أنْ أحدِّثكم واحداً فتزيدوا عليه المئة.

وجاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد عن عمرو بن ميمون قال: اختلفتُ إلى عبد الله بن مسعود سنةً، ما سمعتُه يحدِّثُ فيها عن رسول الله ﷺ، ولا يقول فيها: قال رسول الله ﷺ: إلا أنّه حدّثَ ذاتَ يومٍ بحديث، فجرى على لسانه: قال رسول الله ﷺ، فعلاه الكَرْبُ، حتّى رأيتُ العَرَقَ ينحدِرُ عن جبهته، ثم قال: إنْ شاء الله، إما فوق ذاك، وإما قريبٌ من ذاك، وإما دونَ ذاك.

فهذا شأن عبد الله بن مسعود في الحديث، وهو أحد العبادلة الأربعة، ومِنْ أورع الصحابة، وأشدِّهم ملازمة لرسول الله ﷺ كما لا يخفى، وذاك كانَ شأنُ سعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام - في هذا الأمر، وهما من العشرة المبشرين بالجنة، وذلك كان مشرب الإمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي قيل: إنّ رسول الله قال فيه: «لو كانَ نبيٌّ بعدي لكان عمر»[1] فكيفَ ينبغي

= [قلت: كما لا يعقل أن يزيد المحدثون شيئاً من عند أنفسهم وهم من هم ورعاً وخشية وتقوى لأنهم يقعون تحت طائلة هذا الحديث].

(1) [أخرجه الترمذي في المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه رقم (٣٦٨٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهو كما قال، ورواه أحمد في «المسند» وابن حبان والطبراني في «الأوسط» والحاكم (٣: ٨٥) وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥١٦٠) وقال: حديث حسن].

للناس بعد ذلك أن يستكثروا من الأحاديث، وهم يعلمون ما قد يتطرّقُ إليها من زيادات الرواة، وما قد نقل منها بالمعنى[1].

قال صاحب «تحفة اللطائف» قال الزهري: إنّ الله عز وجل نقلَ قريةً من قرى الشام، فوضعها بالطائف، لدعوة خليلهِ إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] والله تعالى يَقْدِرُ أن ينقلَ إلى الطائف قريةً من الشام، كما أنّه يَقْدِرُ أن يجعلَ الطائف في خواصها قريةً من قرى الشام، ويرزق أهلَ ذلك الوادي المقدس ـ مكة ـ من ثمراتها.

فأما كون الرّسول ﷺ قد ألحق الطائفَ بمكة والمدينة وحرَّم لها حرماً، وقال «لا يختلي خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها» وأنه قدّس وادي وَجّ، فإنّ الأحاديث كثيرة في هذا المعنى، والدليل على صحتها كون الفقهاء أجمعوا على كراهية الصيد في وجّ، ومنهم من قطع بتحريمه، وربما كان الأكثرون على التحريم الباتّ، وقيل في كلام الشافعي: (أكرهُ صيدَ وجّ) أنها كراهة تحريم.

وعلى كل حال متفق على النهي عن الصيد في وجّ، ومختلف في مجرد الكراهة أو التحريم، كما أنّه مختلَفٌ في أمر الضمان وعدمه، مما

---

(١) قد كتب إلينا الأمير سؤالاً في هذه المسألة ـ رواية الحديث ـ فأجبنا عن سؤاله في «المنار» بما علم به قصور ما في «طبقات» ابن سعد، وما هو الحق في المسألة، فليراجِعْ ذلك من شاء في صفحة (٥٠٧ ـ ٥١٦) من المجلد التاسع والعشرين مصححه.

[وانظر كتاب «السنة قبل التدوين» للدكتور محمد عجاج الخطيب، وكتاب «الحديث النبوي» للدكتور محمد مصطفى الأعظمي و«تحقيق معنى السنة» لسليمان الندوي (ط. دار الفجر بدمشق بتحقيقي). لترى ما في كلام الأمير شكيب رحمه الله من نظر، وكيف أن الحفاظ محّصوا وبينوا المقبول من المردود].

أفاض في موضوعه أصحابُ التواريخ المارِّ ذكرُها.

ومع كلٍّ هذه الأحاديث بقيَ أناسٌ لا يطمئنون إلى روايات النهي عن صيد وجّ، فقد نقل صاحب «تحفة اللطائف» عن الميورقي أنّه سأل الشيخ محمد بن عمر القسطلاني إمام المالكية في وقته: هل رأيتَ في مذهب مالك مسألةً في صيد وجّ في الطائف؟

فقال: لا أعرفها، ولا يسعني أن أفتيَ بتحريم صيدها إلا بالحديث، ليس فيها من الأحاديثِ التي يبتني عليها التحريم والتحليل(١).

موقع الطائف وهواؤها وماؤها

وأما فضل الطائف في صقعها وجودة مائها وهوائها، فهو مما تواطأ عليه المحسوس والمأثور، ولستُ بمستغربٍ قولَ بعض المفسرين لقوله تعالى ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. إن المراد بالقريتين مكة والطائف.

وكذلك أنا استحلي ما رواه صاحب «تحفة اللطائف» من قول بعضهم: إنّ الطائف من تعاليق مكة، أي من مُضافاتها، وعندنا في بَرِّ الشام إذا بُنيتْ قريةٌ في طرف قرية نسبت إليها، وقيل: إنها معلقة لها، فيقال مثلاً: معلقة زحلة، ومعلقة الدامور وهلم جرا، فما أجدر الطائف بأن يقالَ لها: معلقة مكة، ولعمري لَنعم المعلقة هي، ولا نزاع أنّهما في الأمصار كالمعلقات السبع في الأشعار.

---

(١) قال النووي في «شرح المهذب»: وأمّا حديث صيد وجّ، فرواه البيهقي بإسناده عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: ألا إنّ صيدَ وَجّ وعضاهِهِ ـ يعني شجره ـ حرامٌ» وذلك قبل نزوله الطائفَ وحصارِه ثقيفاً، لكنّ إسنادَهُ ضعيفٌ. قال البخاريُّ في «تاريخه»: لا يصح، ثم ذكر الخلافَ في وجّ، هل هو وادٍ بالطائف أو بلدٍ.

ومن الحديث النبوي المأثور «الطائف من مكة، ومكة من الطائف» كرّرها ﷺ ثلاث مرات.

ولقد جاء في بعض الأحاديث التي نقلها الميورقي ورواها العُجيمي صاحب «إهداء اللطائف» أنّ الطائف من مكة، ومكة من الطائف.

ونقل الميورقي عن سُطيح: أنّه ستكونُ فتنٌ في آخر الزمان، خيرُ النّاسِ في ذلك الزمان مَنْ كان بجدارات الطائف إلى عرقوب بَجيْلَة. قال الميورقي: **إنّه حديث ضعيف**، وقال العجيمي: إلا أنّه يشهدُ له حديثُ الترمذي عن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ «إنّ الدين لَيَأْرِزُ إلى الحِجَازِ كما تَأْرِزُ الحيَّةُ إلى جُحرِها»[1] قال في «القاموس»: والحجازُ مكة والمدينة والطائفُ ومخاليفها، كأنّها حجزت بين نجد وتهامة. انتهى.

قلت: وزادَ صاحبُ «تاج العروس» اليمامة، فقال: إنّها من الحجاز، وقال في شرح قوله: (إنّها حجزت بين نجد وتهامة، أو بين الغور والشام والبادية، أو بين الغور ونجد، ثم قال صاحب «القاموس»: أو بين نجد والسراة، أو لأنّها احتجزت بالحِرَارِ الخمس) فقال صاحب «التاج» في شرحها: حَرَّةَ بني سُليم، وحَرَّةُ واقِمِ، وحَرَّةُ ليلى، وحَرَّةُ شوران، وحَرَّةُ النار، وهذا قول الأصمعي.

وقال الأزهري: سُمّي حجازاً لأنّ الحِرارَ حجزتْ بينه وبين عالية نجد.

قال: وقال ابنُ السكّيت: ما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد، إلى ثنايا ذات عِرْقٍ، وما احتزمت به الحِرار حرة شوران، وعامة منازل بني سُليم إلى المدينة، فما احتاز في ذلك كلّه حجازٌ، وطرف تِهامة من قبل الحجاز مدارجُ العَرْجِ، وأولُها من قِبَلِ نجدِ مدارجُ ذاتِ عِرْقٍ، وقال

---

(١) [تقدم تخريجه ص (١٨)].

الأصمعيُّ: إذا عرضتْ لك الحِرَارُ بنجدٍ، فذلك الحجاز. وأنشد:

* وفروا بالحجازِ ليُعْجِزُوني *

أراد بالحجاز الحِرَار انتهى.

قال العجيمي في تفسير (عرقوب بَجيلة) العرقوب ما انحنى من الوادي وطريقٌ في الجبل، والعراقيبُ خياشيم الجبال، والطريق الضيقة في متونها. وتَعَرْقَبَ؛ أي مسلكها، كذا في «القاموس» انتهى.

قلت: وزاد صاحب «التاج» أنّ العرقوب هو الجبل المكلَّلُ بالسَّحابِ.

هذا وقد جرت التسمية بالعرقوب كثيراً في بلادنا الشامية، ففي جبل لبنان داخل قضاء الشّوف ثلاث نواحٍ باسم العرقوب، وهي العرقوب الجنوبي، والعرقوب الشمالي، والعرقوب الأعلى، وهي أوديةٌ يخرج من أحدها نبعُ الباروك، ومن الآخر نبعُ الصفا، ونبعُ القاعة، وهي من أشهر ينابيع الأرض في العذوبة لا ينابيع لبنان وحده، وفي جبل الشيخ ناحية يقال لها أيضاً العرقوب تابعة لقضاء حاصبيا.

وأما عرقوب بَجيلة في الحجاز فهو منسوب إلى بَجيلة ـ كسفينة ـ وهي قبيلة اختُلِفَ في نسبها، فقال ابن الكلبي: إنّها حيٌّ من اليمن، وروي عن مصعب بن الزبير أنّها من نزار.

وقال صاحب «القاموس»: إنّها حي في اليمن من معدّ، قال الزَّبيدي في «التاج»: إنّ صاحبَ «القاموس» أراد أن يجمع بين القولين.

وقال الإمامُ مالك رضي الله عنه: بلغني أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لبيت بركبة أحبُّ إليَّ من عشرةِ أبياتٍ بالشّام، نقل ذلك ابنُ فهدٍ محمد جار الله بن عبد العزيز صاحب «تحفة اللطائف».

وقال ابن وضّاح: ركبة موضع بين الطائف ومكة في طريق العراق.

قال ابن فهد نقلاً عن ابن وضاح: يريد ـ أي عمر ـ والله أعلم لطول الأعمار بها، وشدة الوباء بالشام، ثم أخذَ بعضُهم يعترِضُ على هذا

التأويل قائلاً: إنّ مرادَ عمر بهذا التفضيل قرب هذا المكانِ ـ أي ركبة ـ من مكة والمدينة.

قلت: لا وجهَ لهذا القول، لأنّه إن كان مرادُ سيدنا عمر رضي الله عنه هو قضية القرب من مكة والمدينة، فهذه مزية لم تختص بركبة، بل اشتركت بها بقاعٌ لا تعدُّ ولا تُحصى، وكم مِنْ مكانٍ أقربُ إلى مكة أو إلى المدينة من ركبة هذه، التي هي على مسافة يومٍ ونصفِ يوم من مكة، وما أرى عمرَ قصدَ إلا طيب الهواء، والبعد عنِ الوباء، كما قال ابن وضاح، فالشام هي مضرب الأمثالِ في جودة الماء والهواء، ومع هذا فإنّ عمر يرى بقعةً مثل ركبة من بقاع الطائف أفضلُ منه للسكنى، إنه لم يُقْسَمْ لي الذهابُ إلى ركبة، وإنما سمعتُ من أهلِ الطائف الشيءَ الكثيرَ عن طيب نجعتها، وبهجة روضها، لا سيما في أيّام الربيع.

وقول ابن وضاح لا يخلو من صحة، فالشام مع كونه مضربَ الأمثال في طيب الماء والهواء، ومع كونها جنة الله في أرضه، موصوفة بالوباء من قديم الزمان، حتى إنّ أحدَ إخواننا المصريين أخذتُه فيما يظهر الغَيرة مما رأى من محاسن دمشق، فنبزها بسرعة الوباء إليها من كثرة المياه المتدفقة في كل أنحائها فقال ذلك البيت الشهير[1]:

قيلَ لي صِفْ بردَىَ كَوْثَرَها قلتُ: غالِ بَرَدَاها بِرَدَاها

---

(١) قائله [لا] أشهرَ منه، وهو ابن الفارض، وهو من أبياتٍ له في تفضيلِ مصرَ على الشام، نسيها الأمير فظنّ أنّ البيتَ لبعضِ المعاصرين [قلت: الأمير لم ينكر نسبها لابن الفارض بدليل قوله (الشهير) وإنما قصده أنّ قائله تمثّل به، والأبيات بتمامها هي:

جِلَّقٌ جَنَّةُ مَنْ تاهَ وباهى ورُباها مُنْيَتي لولا وَباها
قِيلَ لي: صِفْ بَردى كوثرها قلت: غال بَرَداها بِرَداها
وطَني مِصْرُ وفيها وطري ولعيني مشتهاها مَشتهاها
ولنفسي غيرُها إنْ سكنت يا خليليَّ سلاها ما سلاها].

وقد أبى الله إلا أنْ يجعلَ بإزاء كلّ سهلٍ حَزَناً، ومع كلِّ سرورٍ حُزْناً، وأن لا يدَعَ الكمالَ نصيبَ شيءٍ من هذه الدنيا، فكثرةُ المياهِ في القطر الشامي التي هي مصدرُ رخائه، ومرجِعُ نضارته وبهائه، هي أيضاً سببُ وبائه، وشِدّةُ بلائه، فقد تقرّر أنَّ الأوبئةَ تتفشّى بالبلاد التي تشربُ من الأنهار، أكثرَ مما تتفشّى بالبلاد التي تشرب من الآبار، وذلك لأنّ المكروب إنما ينمو في الماء، وإذ كان الماءُ مما يشترِكُ الخَلْقُ في وروده، كانتْ العدوى به أكثر، كما لا يخفى.

وأكثرُ حواضرِ الشام مبنية على الأنهار، فدمشق على بَرَدى، وحمص وحماه على العاصي، وحلب على قويق، وبعلبك على رأس العين، وزحلة على البرَدوني، وطرابلس على أبي علي، وصيدا على الأولي، وهلم جرا.

وقبل أنْ جُرَّ إلى بيروت ماءُ نهرِ الكلب كانتْ أقلَّ تعرضاً للأمراض الوافدة.

فلهذا كانتْ بلادُ الطائف منزّهةً عن الوباء بسببين:

الأول: وفرةُ الأكسجين في هواء تلك الجبال العالية.

والثاني: قلة المياه الجارية فيها، على الضد من جبال الشام، والمياه هي التي تنتقل الجراثيم بواسطتها، فمن أين تتفشى الأوبئة في ركبة ونواحيها، ومن أين تتكون المستنقعات، التي تنشأ عنها الحميات؟ فهذا ما أراده سيدنا عمر بن الخطاب بقوله: لبيتٌ بركبة أحبُ إلى من عشرةِ أبياتٍ بالشام.

وسبق أن روينا عن الأصمعي ـ ولم يكن الأصمعيُ بليداً ـ قوله: دخلنا الطائف، فكأنني كنتُ أُبشَّرُ، وكأنّ قلبي ينضَحُ بالسرور، وما أجِدُ لذلك سبباً إلا انفساح حدها، وطيبَ نسمتها.

ولا أظن أحداً دخل الطائف إلا وشعر بهذا الانشراح في صدره، والانفساح في رئته، ولو كانت الطائف مربوطةً بسكة حديد بجدة لقصدها المصطافون من مصر والشام والهند وسواحلِ جزيرةِ العربِ.

عمـران الطـائف وتقـلّصه بعـد الحربيـن

وقد كانت الطائف في أيام الدولة العثمانية معمورةً حافلةً، قيل لي: إنّه كان فيها ما يقرب من خمسة عشر ألف نسمة، فقد كانتْ إمارةُ مكة والولاية وقيادة الجيش والأجناد كلُّها، والدوائر الرسمية ـ تنتقل إلى الطائف، وتقيم بها مدة (٦) أشهرٍ، وكان بسبب ذلك يزداد تواردُ الخلق عليها من مكة وغيرها، وتعمرُ أسواقُها، ويكثر الأخذُ والعطاء فيها، وقيل لي: إنّه كانت فيها (١٥) طبيباً بين ملكي وعسكري، وكان كلُّ ما يوجد بمكة يوجد فيها.

فبعد الحرب العامة تقلّصَ عمرانُها، وخفَّ قَطِيْنُها، حتى عادت كالعرجون القديم، فلم يبقَ فيها إلا نحو ألفين إلى ثلاثة آلاف ساكن، وصارتْ أكثرُ البيوتِ خاويةً على عروشها، فتداعتْ من نفسها، ومن البيوت ما عملت فيه القنابر[1] في أثناء حصار العرب للأتراك فيها، فهذه كانت **المرحلة الأولى** من مراحل بوارها.

وأما المرحلة الثانية: فقد كانتْ في حرب الوهابيين مع الملك حسين، فقد زحف إليها سلطان بن بجاد شيخ عُتيبة، والشريف خالد بن لؤي، وحاصراها بجمع كان يعجز عنها لو صادف فيها حاميةً مستبسِلةً، موطِّنةً نفسها على الكفاح، لأنّها مسورة من كل جهاتها، وقد كانت فيها مدافع وأعتاد كافية للمقاومة، فأوقعَ اللهُ الوهنَ في قلوب أمراءِ الحامية، التي كانتْ من قِبَلِ الملك حسين، فانهزموا لا يلوُوْنَ على شيءٍ، ودخلت عتيبةُ وأولئك الأعرابُ الغِلاظُ الشِدادُ، ففتكوا بأهلها فتكة شنيعة، ملأت شناعتها الخافقَيْن، وقتلوا بضعَ مئاتٍ من الأهالي الوادعين، وانتهبوا البلدة، وخربّوا ما قَدِرُوا على تخريبه.

---

(١) [القنابل].

وكان بين القتلى جماعةٌ من العلماء والخواص، ومنهم ويا للأسف المرحوم السيد حسن الشيبي مبعوث الحجاز، ونجل الشيخ عبد القادر الشيبي كبيرِ سدنة بيت الله الحرام، وقد كان رحمه الله زميلي في مجلس المبعوثين في الآستانة، وكان من ذوي الشهامة والأخلاق الزكية، وكانت بيننا مودة أكيدة.

فانتهزَ أعداءُ الملك ابن سعود [عند] هذه الوقعة الفرصةَ للطّعنِ فيه، وحاولوا إيهامَ الناس أنّه كان راضياً عن هذه الفِعْلَةِ، وحاشى له من ذلك، فإنّها وقعتْ بدون أن يعلَم بها، وقبل أنْ يكونَ جاء إلى الحجاز، ولما نمَى إليه خبرُها بمكانه من نجد، ارتمض جدّاً، وأصدر الأمرَ تلوَ الأمرِ تحت الإنذار بالقتل بعدم التعرّض لأحدٍ منِ الأهالي، وبالدخول إلى البلد الأمين بدون سلاح، فدخل الوهابيون مكةَ بدون سلاح، وطافوا واعتمروا، ولم يمسّوا أحداً بسوء، مما يشهد به كل أهل مكة.

فأما فاجعة الطائف فقد سبق فيها السيفُ العَذَلَ، وبقيت في قلب الملك عبد العزيز منها حزازات على سلطان بن بجاد، لم يثبطه عن عقابه على ما فعله في الطائف سوى حداثةُ عهدِه بالاستيلاء على الحجاز، والتربص ريثما تستتبُ الأحوال، فاكتفى الملك باديء ذي بدء بتضميد جراحات أهل الطائف ومواساتهم، والتعويض عليهم، ولم يتعرّضْ لسلطان بن بجاد بسوء، رعياً لسابق عهده، حتى فتح هذا على نفسه البابَ، وخرج هو وفيصل الدويش عن طاعة الملك، وجاذباه الحبل، وظنا أنّهما بقوة عشائرهما ـ عُتيبة ومُطير ـ ينالان منه وطراً، فحاجزهما الملك مدة شهرين، حتى أعيتْه فيهما الحيلة، فلما لم يبقَ من الدواء إلا الكي، نهد إلى الثوار، فمزّقَ شملهم في أقل من ساعتين، وطرحَ منهم بالعراء أكثرَ من ألفي صريع، وأخذ مقدّميهم أسرى، وبينهم ابن بجاد والدويش، فكان الذين فتكوا بأهالي الطائف الوادعين هم الذين لقوا هذا النكال الشديد، فنالوا الجزاءَ الذي يستحقونه على

عملهم بالطائف، وسُقوا الكأسَ التي سَقَوْا بمثلها، ولكنهم سقوا ببغي وعدوانٍ، وشربوا بتأديب سلطانٍ وحُكْمِ فرقانٍ، وقِيْدَ ابنُ بجادٍ بالأصفادِ، وكفى الله شرَّهُ.

ولكنّ الدويش بعد أن عالج طبيبُ الملك جراحَهُ فرَّ من الأسر ونكث، وجمع جموعه وجموعاً ممن مالؤوه على بغيه، واستأنفوا الثورة، واضطروا الملك أيده الله أن يزحفَ إليهم مرّةً ثانية، ويصدعَ شملَهم عوداً على بدء، وما زال يضّيقُ عليهم، حتى تفرّقوا تحت كلِّ نجمٍ، وجاء الدويش إلى العراق ظانّاً أنّه ينجو، وأنّه لا يدركه ليلُ عملِه، الذي هو مدركه - إلا أنّ الملك فيصل بن الحسين كانَ أعقلَ وأبصرَ بمصلحةِ مملكتهِ العراق وبمصلحةِ العرب مِنْ أن يظاهِرَ الخارجين عن طاعة ابن سعود، لا سيّما أنّهم هم الذين كانوا يوالون على العراق تلك الغارات التي لا نهاية لها، فانتهى الأمرُ بتسليم الإنكليز فيصلاً الدويش إلى الملك ابن سعود، عملاً بمعاهدة سابقة في تسليم المجرمين - وصار إلى جانب رفيقه ابن بجاد بحيث لا يَقْدِرُ أحدٌ منهما بعد الآن أن يقلِقَ راحةَ العرب، ولا أن يهرج البلاد ويمرجها، وكانت هذه الواقعة سبباً في ائتلاف الملكين العاقلين الحكيمين، اللذين أقرَّ اجتماعُهما عيونَ جميع العرب المخلصين للعروبة، وفتَّ في أعضادِ الذين يريدونها دائمة حامية، ولو أفضى ذلك إلى سقوط العرب.

والذي أدّى بنا إلى هذا البحث الذي بَعُدَ كثيراً عن أصل الموضوع خبرُ واقعة الطائف هذه، التي كانت الضربةَ الثانيةَ التي قضت على عمرانها، والتي لو أغفلنا ذكرها وأسبابَها لم يكن ذلك منا نصحاً بالتاريخ، ولَكُنّا مسؤولين عن هذا الإغفال.

ومَنْ شاءَ معرفةَ خططِ الطائف، وما فيها من حارات وقصورٍ ومساجدَ وآثارٍ وأنصابٍ، وما حولها من قرى ودساكر، وما أشبه ذلك

ـ فعليه بكتاب «ما رأيتُ وما سمعتُ» للخير الزركلي، فإنّه قد وعاها بحذافيرها بأحسنِ أسلوبٍ.

وأنا لست متعرِّضاً من ذلك إلا لما شاهدتُه بعيني، وارتسمَ في مخيلّتي، وحلّ في صدري، فإنّي قد سميتُ كتابي هذا «الارتسامات اللطاف» وحصرتُ الكلامَ فيما رأيتُه، وما تجاوزتُه إلا إلى الضروريّ مما رويتُه.

* * *



مسجد ابن عباس بالطائف وقبره وبعضُ ترجمته رضي الله عنهما

أهم أثرٍ في الطائف هو مسجدُ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو على طرف البلدة إلى جِهةِ وَجّ، وليس مِنْ بعدِه إلى وَجٍّ عمارة.

وقد أنزلتني إمارةُ الطائف في دارٍ شاهقةٍ، كانت تخصُّ أحدَ أمراءِ الأكراد، ممن نُفِيَ إلى الطائف في أيام السلطان عبد الحميد الثاني العثماني، وهي لا تبعدُ عن المسجدِ العباسيِّ أكثرَ من مئة وخمسين ذراعاً، وأمام هذه الدار باحةٌ كبيرةٌ عموميةٌ، تصل إلى مدخل المسجد العباسي، وإلى باب السور الذي بجانبه.

وتكثُرُ طبقات الدور بالطائف كما بمكة، وكما بالمدينة، وكما بجدة، فقد كنتُ أسكُنُ في الطبقة الرابعة من الدار، وكثيراً ما كُنّا نَسْمُرُ على السطح الأعلى لها، أنا وإخواني فوزي بك القاوقجي، والدكتور خيري القباني، وغيرهما، لكننا كثيراً ما كنّا نشتَمِلُ بالأكسية الثقيلة على ذلك السطح خشيةَ البرد، وكنّا نضعُ كِيزانَ الماءِ على السطح، فلا يمضي على ذلك ساعة حتى ينقلب الماء كأنه ثلجٌ مذابٌ.

والمسجد العباسيُّ كبيرٌ، رحب الفناء، قيل لي: إنّه وُسِّعَ في زمن السلطان عبد المجيد العثماني، فهو يسع (١٥) ألف مصلٍّ فيما قدرتُ، ولمّا أقبل الصيفُ صرتُ أرى الناس فيه تزدحم، لكثرة الخلق الذين يصعدون إلى الطائف من مكة، وفي بعض الجُمَع كانَ يَغُصُّ بالناس، وقد كان يؤم فيه قاضي الطائف، وهو رجل حضرمي من أهل الفضل،

وبجانب المسجد قبةٌ فيها قبر حَبْرِ الأمّةِ عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، إلا أن الوهابيين أزالوا القبةَ، وأبقوا القبرَ، وذلك بحسب عادتهم في هدم القباب، وكراهية زيارتها على الوجه الذي اعتاده كثيرٌ من العوام وبعضُ الخواص من الاستغاثة والتوسل وتقبيلِ الحجارة وما شاكلَ ذلك، مما هو خِلافُ الشرع، ولا يسمعون فيه لومةَ لائمٍ[1].

ولما كنتُ هناك زارَ الطائفَ قاضي القضاة بمكة الشيخ عبد الله بن حسن، وهو من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فرأى بجانب الضريح العباسي خلف الجدار شجرةَ سِدْرٍ صغيرةٍ، فأمر بقطعها، خشيةَ أن يتبرّكَ العوامُ بها. ولا إنكارَ أنّ الوهابيين يبالغون في الهدم والقطع والنقض والقلع كلّما مرّوا بقبة، أو مزارٍ، أو شجرةٍ تعلّقُ عليها خِرَقٌ، وتقشعرُ جلودُهم من هذه المناظر، **ولكنّي مع اعترافي بغلّوهم في هذا الأمر، لا أراهم حائدين فيه عن سُنَنِ الشرع القويم.**

وإني لأروي للقرّاء قصةً جرت معي في تلك الأرض، وهي أنّي كنتُ وجماعة من إخواني نتنزّهُ في الوهط، قرية عمرو بن العاص المشهورة، وهي على نحوِ ساعة ونصف من الطائف، إلى جهة جبل

---

(١) قد صحّتْ الأحاديث النبوية بالنهي عن الصلاة إلى القبور، وعن تشييدها وتشريفها، وَبِلَعْنِ الذين يتّخِذُون قبورَ الأنبياء والصالحينَ مساجدَ، والذين يضعون عليها السُّرُجَ.
وصرّحَ الفقهاء بتحريمِ ذلك، وبوجوبِ هدم ما يُبنى عليها، وتسوية القبور المبنية بالأرض، كما تراه في «الزواجر» لابن حجر [الهيتمي] الشافعي.
وفقهاءُ الحنابلة أشدُّ من غيرهم في هذا، والوهابيون حنابلة.
وذكروا أنّ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمرَ بقلع الشجرة التي بايع النبيّ ﷺ أصحابُه تحتها بيعةَ الرضوان، وإعفاء أثرِها، لأنّه علم أنّ بعضَ حديثي العهد بالإسلام يتبرّكون بها، فهل يُعَدُّ الوهابيون غلاةً في العمل بما ذكر، وقد فشت في الناس عبادة قبور الصالحين، كما سيأتي في كلام الأمير، وهو قليلٌ من كثير؟ مصححه.

بَرَد، فرأينا في طريقنا على مقربة من الوهط آثار قرية دارسة، يعرف أنها كانت ذاتَ شأنٍ من اتساع جبانتها، وشاهدنا في الجبانة قبةً مهدوماً أعلاها، قائمةً جدرانُها، قيل لنا: إنّها قبة سيدنا عُكاشة من الصحابة رضوان الله عليهم[١].

فقصدنا إلى ذلك المكان، فوجدنا مسجداً فيه قبورٌ مشيدةٌ، منها ما هو قديم من صدر الإسلام، عليه كتاباتٌ بالخطّ الكوفي، ومنها ما هو من القرن الخامس أو السادس للهجرة، وشاهدنا من هذا الخط كتابات لم تر عيني أجملَ منها في البداعة والاتقان، وتمنيتُ أن تُنْقَلَ تلك الخطوط إما بالليتوغرافية[٢] وإما بالفوتوغرافية، ولا أزالُ أحدّثُ

---

(١) الذي رأيتُه في «تاج العروس» عكّاشة الغنوي، أورده ابن شاهين في «فضائل الصحابة» من طريق حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم، عنه وحديثُه في «سنن النسائي».
وعكاشة بن ثور بن أصغر كان عاملَ النبي ﷺ على السكاسك فيما قيل، وقال الحافظ: هو الغوثي بالغين والمثلثة.
وعكّاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة الأسدي، أحدُ السابقين، كان من أجمل العرب وأشجع الصحابة رضي الله عنهم اهـ وفي «لسان العرب» عكّاشة (بتشديد الكاف ويخفف) بن محصن الأسدي من الصحابة.
وجاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد: عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مُرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، ويكنى أبا محصن، شهد بدراً وأحداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه رسولُ الله إلى الغمر، سريةً في أربعين رجلاً، فانصرفوا ولم يلقَوْا كيداً.
قال أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدّثني عمر بن عثمان الجحشي عن آبائه، عن أم قيس بنت محصن، قالت: توفي رسولُ الله ﷺ وعكّاشة ابن أربع وأربعين سنة. وقتل بعد ذلك بسنة ببزّاخة، في خلافة أبي بكر الصديق سنة اثنتي عشرة، وكان عكّاشة من أجملِ الرجال، ثم ذكر ابنُ سعد كيفية مقتل عكّاشة في قتال خالد بن الوليد لأهلِ الردّة اهـ المؤلف.
(٢) (Lithography) وهي المسّماة الزنكوغراف].

نفسي بذلك فيما لو زرتُ الطائف مرّةً أخرى.

وبينما نحن نتأمّلُ في تلك الآثار، إذ أقبل علينا هنديان كانا سائرين على الطريق السلطاني، فحادا عنه قاصدين هذا المزار، وسألانا هل يجوزُ أن يصليا في ذلك المكان؟ فقلنا لهما: ليس لنا أنْ نعترضهما في صلاتهما، إلا أننا لا نعلم لماذا يفضّلان الصلاة في الداخل تحت القبة المهدومة بجانب هذه القبور ـ مع كراهية الصلاة بجانبها ـ على الصلاة في الخارج، والصلاة هي هي ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] فقالا: لأنّهما رأيا في الداخل محراباً، فقلنا لهما: نعم إلا أننا لا نعلمُ وجهاً شرعياً يجعلُ للصلاة عند ذلك المحراب فضيلةً ليست للصلاة في الصحراء، فانصرفا، ولم يصليا، ولعلّهما رجعا بعد انصرافنا، وصليا في داخلِ المزار، لا نعلم[1].

وكيفَ كانَ الأمرُ، فإنّ كثيراً من العوام أو من الخواص أشباه العوام يحبّونَ الصّلاة بجانب القبور، وهذا مما ينفر منه السلفيون أشدَّ النفور، وليسوا في هذا بغالطين.

❊ ❊ ❊

---

(١) يُعْلَمُ مِنْ هذا أنّ الصلاة لأجلِ المزار، لا خالصةً لله، فهي شرك بالله، وقد صرّحَ بعضُ فقهاءِ الحنابلة ببطلانِ الصّلاةِ في كلِّ مسجدٍ فيه قبرٌ، وإنْ لم تكن الصلاةُ إلى القبرِ أو لأجلهِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن بناءِ هذه المساجدَ، ولَعَنَ فاعليها، وهو يقتضي بطلانَ الصّلاةِ فيها، واقتضاءُ النهي للفسادِ مسألةٌ أصوليةٌ معروفةٌ غيرُ خاصّةٍ بالحنابلة مصححه.

[ترجمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما]

هذا وقد توفّي عبدُ الله بن عباس بالطائف سنة ثمان وستين، وقيل: سنة سبعين، وسنُّه إحدى وسبعون سنة، وقيل: اثنتان وسبعون، وقيل أكثر. وصلّى عليه محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ودُفِنَ ابنُ عباس في الطائف بالمكان الذي فيه المسجدُ اليوم، ودُفِنَ ابن الحنفية في الطائف أيضاً على أصحِّ الأقوالِ، وكانتْ وفاتُه بعدَ ابن عباس باثنتي عشرة سنة، وكانت أمُّ عبدِ الله بن عباس أمُّ الفضل لبابة بنت الحارث، بن حزن، بن بجير، بن الهُزَمِ، بن رويبة، بن عبد الله، بن هلال، بن عامر، بن صعصعة[1]، وهي التي قيل فيها[2]:

ما ولدتْ نجيبةٌ مِنْ فحلِ   بجبلٍ نعلمُه أو سهلِ
كستةٍ مِنْ بطنِ أُمِّ الفضلِ   أكْرِمْ بها مِنْ كَهْلَةٍ وكَهْلِ

فإنّ أولادَها كانوا بأجمعهم أبطالاً مجاهدين، وقيل: إنه ما رؤيت قبورُ أخوةٍ أشدُّ تباعداً بعضُها من بعضٍ من قبورِ ستةٍ من بني العباس، مع كونهم وُلدوا في دارٍ واحدة، وذلك أنّ الفضلَ استُشْهِدَ في وقعة أجنادين بفلسطين، وقيل بطاعون عمواس، ومعبد وعبد الرحمن استشهدا بأفريقية، وقيل: إنّ معبداً مات شهيداً بأفريقية، وعبد الرحمن

---

(١) [انظر نسبها في «أنساب الأشراف» للبلاذري [٣ : ٥]].

(٢) [القائل هو عبد الله بن بُرَيد الهلالي: انظر «الاستيعاب»(٤ : ٢٩٩)].

مات بالشام، وقُثمُ بسمرقند مجاهداً، ومات عُبيد اللهِ باليمن، وقيل بالمدينة، وعبد الله مات بالطائف.

وكانت فضائلُ عبد الله بن عباس أكثرَ من أن تُحصى، وقد أُلِّفَتْ فيها التآليف، وأكثر الكتب المؤلّفة عن الطائف ملأى بأخبارِ عبد الله بن عباس حَبْرِ الأمةِ وترجمانِ القرآن، ووالد الخلفاءِ العظام، وهو الذي قال فيه أميرُ المؤمنين عليٌّ كرّم الله وجهه: إنّه لينظرُ إلى الغيب مِنْ سَتْرٍ رقيقٍ.

وقد روى بعضُهم أنّ النبيَّ ﷺ قال فيه: «لو كانَ بعدي نبيٌّ مرسلٌ لكان عبد الله بن عباس، اللهم فقههُ في الدّين، وانشر منه، وعلّمه التأويلَ، وبارِكْ فيه، إنّه سيدْفَنُ في الطائف، فمن زارَه فكأنّما زارَ قبري بطيبة» روَى هذا الحديثَ الشيخُ عبدُالرحمن الميورقي عن أحمد بن حاتم المَوْصلي، **والأشبه به أن يكون موضوعاً**[1].

وأما أن يكونَ النبيُّ ﷺ دعا له بأن يفقهه الله في الدين، وأن يبارِك فيه، وأن يعلّمه الكتاب والحكمة، فهذا معقولٌ.

وقد جاء في «الصّحيح» أنّه ﷺ ضمّه إليه، وقال«اللّهم علمه الحكمة»[2] وكان عمر ابن عباس لما قُبِضَ ابنُ عمه الرّسول ﷺ ثلاث عشرة سنة.

وروى السخاوي أنّه ﷺ دعا بالحكمة لابن عباس مرّتين. وكلُّ ما روَى ابنُ عباس عن رسول الله ﷺ (١٠) أحاديث، أو أكثر. ومثلُ

---

(١) [صح في ذلك «لوكان بعدي نبيٌ لكان عمر» انظر الحاشية رقم (١) ص (٢٠١)].

(٢) وصحّ أيضاً أنّه قال «اللهم علّمه الكتابَ» وأيضاً «اللّهم فَقِّهه في الدين» كلُّ ذلك في «صحيح البخاري»مصححه.

ذلك مما شَهِدَ فعلَه[1]، وباقي أحاديثِه إما مرسَلٌ محكوم باتصاله، أو غير مرسل[2] عن أبويه، وأخيه الفضل، وخالته ميمونة، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وخلقٍ من الصحابةِ.

وروى [أبو] الحسن المديني، عن سحيم عن حفص، عن أبي بكرة قال: قدم علينا ابن عباس البصرة، وما في العرب مثله جسماً وعلماً وديناً وجمالاً وكمالاً.

وروى الطبرانيُّ وغيرُه حديثاً معناه أنّ أُمَّ الفضل ابنةَ الحارث زوجةَ العباس لما وضعتْ عبدَ الله بن عباس أتت به النبيَّ ﷺ، فأذَّنَ في أذنُه اليمنى، وأقامَ في اليسرى، وسمّاه عبدَ الله، ثم قال: «اذهبي بأبي الخلفاء» ويجوزُ أن يكون هذا الحديث «اذهبي بأبي الخلفاء» صحيحاً، وأن يكون الرسول ﷺ كُوشِفَ بذلك، كما أنّه يجوزُ أن يكونَ مما وُضِعَ في زمن خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم.

ومثلُه ما رواه ابن فهد نقلاً عن «تاريخ دمشق» وهو حديث مرفوعٌ صرَّحَ ابنُ فهدٍ نفسُه أنّه ركيكُ اللفظ واه، وهو: «هبط عليَّ جبريل عليه السلام، وعليه قباء أسود، وعمامة سوداء، فقلت: ما هذه الصورة التي

---

(١) في ترجمته من «تهذيب الهذيب»: (فائدة) رِويَ عن غُنْدَر أنّ ابن عباس لم يسمعُ من النبي ﷺ إلا تسعةَ أحاديث، وعن يحيى القطان: عشرة. وقال الغزاليُّ في «المستصفى»: أربعة. وفيه نظر، ففي «الصحيحين» عن ابن عباس مما صرّحَ فيه بسماعه من النبي ﷺ أكثر من عشرة، وفيهما مما شَهِدَ فعلَه نحو ذلك، وفيهما مما له حكم الصريح نحو ذلك، فضلاً عمّا ليسَ في «الصحيحين» ا هـ مصححه.

(٢) كذا ـ والحديث المرسل مَنْ سقط من آخرِ سندِهِ مَنْ بعد التابعي، وهو الصحابي الذي سمع من النبي ﷺ أو حضر أو شاهد ما يرفعه إليه، كقول التابعي: قال رسول الله ﷺ كذا، ويطلَق على ما رواه الصحابيُّ مما لم يسمعه ولم يحضره. اهـ. مصححه.

لم أرك هبطتَ عليَّ فيها قط»؟ قال: هذه صورةُ الملوك من وَلَدِ العباس عمِّك رضي الله تعالى عنه. قلت: «وهم على حق»؟ قال جبريل: نعم. فقال النبي ﷺ: «اللهم اغفر للعباس وولدِه حيثُ كانوا وأينَ كانوا» قال جبريل: ليأتينَّ على أمتكِ زمانٌ يُعِزُّ اللهُ عزَّ وجل الإسلام بهذا السواد. فقلت: «رئاستُهم ممن»؟ قال: من ولدِ العباس. قلت: «ومن أتباعهم»؟ قال: من أهل خراسان، قلت: «وأي شيءٍ يَملِكُون»؟ قال: الأصفر والأخضر، والحجر والمدر، والسرير والمنبر، والدنيا إلى المحشر، والملك إلى المنتشر» اهـ **والوضع ظاهر كالشمس في هذا الحديث**.

ومن عادة بعضِ النّاس التزلفُ إلى الملوك والخلفاء بأقاويلَ كهذه وهي داخلة في حكم قوله ﷺ «من كذبَ عليَّ فليتبوَّأ مقعدَه من النّارِ» **وقد يكونُ بعضُهم ممن يستضعِفُ الحديثَ، ولايثِقُ بإسناده، لكنّه يرويه عملاً بِحُسْنِ الظنّ بزعمه، أو اعتقاداً للمصلحة فيه، وهذا من أكبر الخطأ، ولا سيما إنْ كان من هذا الباب، والحق غيرُ محتاجٍ إلى دعامةٍ من الباطلِ**. ولقد انتهى ملك بني العباس ولم يبق إلى المحشر، كما انتهى ملك بني عثمان في أيامنا هذه، وذهب معها كلُّ ما قيل في خلود ملكهم سدى، ومن جملة ذلك رسالة للسيد محمود الحمزاوي مفتي الشام رحمه الله اسمها «البرهان على بقاءِ مُلكِ بني عثمان إلى آخر الزمان» لم أعجْب إلا مِنْ صدورِها عن رجلٍ مثله في سعة علمه وعقله[1].

وقد روى الحافظ ابن الأبّار القضاعي البلنسي في «التكملة لكتاب الصلة» أنّ حَيْوَة بن ملامس الحضرمي من أشراف إشبيلية كانت له منزلةٌ لطيفةٌ من عبد الرحمن بن معاوية (الداخل إلى الأندلس) وروى عن حنش الصنعاني يرفعه أنّ ملك بني أمية لا يزالُ إلى خروج الدجال، ولما

---

(١) [انظر ترجمته في كتاب «علماء الشام كما عرفتهم» للعلامة محمد سعيد الباني، ص (٢١٥ ـ ٢٢٧) وهو من منشورات دار القادري بدمشق بتحقيقي].

رواه لعبد الرحمن بن معاوية أقطعه قطيعة معروفة. انتهى وهذا أيضاً من الباب المتقدم.

وكان ابن عباس أبيض طويلاً وسيماً جسيماً، مشرباً بصفرة، صبيحَ الوجه، له وفرة، يَخْضِبُ بالحناء، وكان يعتمُّ بعمامة سوداء، يرخيها شبراً، ولعلّ الخلفاء العباسيين اتخذوا السواد شعاراً من أجل عمامة جدهم هذه.

وقد روى ابن فهد في «تحفة اللطائف» أنّهم كانوا باقين على لبس السواد إلى عهده، وقد كانت وفاته سنة (٩٢٢) وكذلك الخطباء في الحرمين الشريفين وغيرهما من بعض البلدان المعظّمة.

قال ابن فهد: وإنّ معتمدهم في ذلك كونه ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وعلى رأسِه عمامة سوداء، قد أرخى طرفها بين كتفيه، وخطب بها الخلفاء كذلك، لكونه ﷺ كان في ذلك اليوم منصوراً على الكفار، فاتخذوه شعاراً، لِيكونوا دائماً منصورين على أعدائهم.

وسأل الرشيدُ الأوزاعيَّ رحمهما الله تعالى عن لبس السواد فقال: إني لا أحرّمه، ولكن أكرهه، قال: ولم؟ قال: لأنّه لا تُجلى فيه عروس، ولا يلبّي به مُحْرِم، ولا يكفّنُ فيه ميت. فالتفت الرشيدُ إلى أبي نواس فقال: فما تقول أنت في السواد؟ فقال: النور في السواد يا أمير المؤمنين. ثم قال: وفضيلةٌ أخرى يا أمير المؤمنين لا يُكْتَبُ كلٌّ من كتابِ اللهِ عزّ وجل وحديثِ النبي ﷺ وأقوالِ العلماء رحمهم الله تعالى إلّا به، وهو مضافٌ إلى الخلافة، فلما سمعَ الرشيدُ هذا الوصفَ في السواد اهتزّ طرباً، وأمرَ له بجائزةٍ سنية انتهى.

قلتُ: نسبةُ هذه الرواية للرشيد خطأٌ محضٌ، وكنّا نقول: إنّها سهوُ ناسخٍ، تبدّلَ لفظةَ الرشيد بالمنصور، لولا مجيءُ قصةِ أبي نواس من بعدها، ووجهُ الخطأ أنّ الإمامَ الأوزاعيَّ رضي الله عنه توفي يوم الأحد، أول النهار، لليلتين من صفر سنة سبع وخمسين ومئة، هذا الذي عليه

الجمهور، رواه العباس بن الوليد العذري قاضي بيروت المتوفى سنة (٢٧٠) قال عنه ياقوت في «معجم البلدان»: إنّه كان من خيارِ عباد الله.

وقد نقل هذه الرواية عن وفاةِ الأوزاعيّ زينُ الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب في كتابه «محاسِنُ المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي» وهو مخطوط اطلعتُ عليه أخيراً في المكتبة الملوكية في برلين[1]، وعلمتُ منه أنّ ناسخه أكمله سنة (١٠٤٨) وهو لا يقول «في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي» بل «في مناقب الإمام أبا عمرو الأوزاعي» لا أعلم أهو من خطأ الناسخ، أم من نفس المؤلف عملاً بلغة:

إنّ أباها وأبا أباها

وقال ابن خِلّكان عن وفاة الأوزاعي: وتوفي سنة سبع وخمسن ومئة، لليلتين بقيتا من صفر، وقيل: في شهر ربيع الأول بمدينة بيروت.

أما الرشيد فقد كانت ولادته سنة (١٤٨) أي إنه يوم وفاة الأوزاعي كان قاصراً، واستُخِلفَ الرشيد سنة (١٧٠) فالخليفة الذي سألَ الإمامَ الأوزاعيَّ عن السواد هو المنصور لا الرشيد، لأنّ الأوزاعيَّ جرى بينه وبين المنصور حديثٌ طويل، ولما قدم أبو جعفر المنصور الشام زاره الأوزاعي ووعظه، فعظّمه الخليفةُ وأحبَّه، ولما أرادَ الانصراف من بين يديه استأذنه أنْ لا يلبِسَ السوادَ، فأذِنَ له، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب: الحقه فاسأله، لم كَرِه لبس السواد، ولا تُعْلِمْه أني قلت لك. فسأله الربيع، فقال: لأني لم أر محرماً أحرم فيه، ولا ميتاً كُفِّن فيه، ولا عروساً جُلّيت فيه، فلهذا أكرهه.

---

(١) [وقد حققه الأمير ونشره في مصر بمطبعة عيسى البابي الحلبي].

أما أبو نواس فيجوز أن يكون قال للرشيد هذا وأكثر منه، لكن بدون أن يكون الأوزاعيُّ حاضراً.

وكيف كان الأمر، فكان السواد شعار العباسيين، وكان يقال لهم المسوِّدة، وكان الخلفاء العباسيون يخلعون حلل السواد على من ينتسبُ إليهم، أو ينالَ الحظوةَ عندهم، جاء في «تاريخ الأعيان في جبل لبنان» للشيخ طنوس الشدياق والمعلم بطرس البستاني أنّه لما وقع القتال على نهر بيروت بين المرَدَة والأمير النعمان بن الأمير عامر بن الأمير هاني بن أرسلان، وهزم الأميرُ النعمان المردةَ، وقتل بعضاً، وأسرَ بعضاً، وكتب إلى موسى بن بغا في بغداد يخبرِهُ، وأرسلَ الرؤوس والأسرى إلى بغداد، عرض موسى ذلك على الخليفة المتوكل، فكتب إليه المتوكّلُ كتاباً يمدح شجاعته، ويحرِّضه على القتال، وأقرَّهُ على ولايته تقريراً له ولذريته، وأرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسودَ، وكتب إليه ابنه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها، وأعاد رسلَه مكرّمين، فتقلّد الأمير السيف، وشد المنطقة، ولفّ الشاش، ودعا لأميرِ المؤمنين، وزينت البلاد. الخ وهذه الرواية محّررة، لكنْ باختصارٍ في سِجِلٍّ نسبنا الأرسلاني.

والخلاصة أنّ بني العباس أرادوا أن يتميزوا بشعارٍ فجعلوه السواد، اقتداءً بجدهم عبد الله بن عباس، الذي اقتدى بابن عمه ﷺ في اعتمامه بالسواد يوم فتح مكة.

ومناقبُ عبد الله بن عباس كثيرة، وأقوالُه مأثورةٌ، ومما ينسب إليه: مذاكرةُ العلم ساعةً خيرٌ من إحياءِ ليلةٍ.

ويروى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: ما رأيتُ أحداً أحضرَ فهماً، ولا ألبَّ لباً، ولا أكثرَ علماً، ولا أوسعَ حلماً من ابن عباس، ولقد رأيتُ عمرَ يدعوه للمعضلات، فيقول: قد جاءتك معضلة، ثم لا يجاوِزُ قولَه، وإنّ حوله لأهل بدر.

وقيل: إنّ بعضَهم وجدوا على عمر في إدنائه ابن عباس دونهم فقال

لهم: إنّه يعظمه لعلمه مع صغر سنه.

وكان عمر يستشيره إذا أهمته الأمور، ويقول: غَواصٌ.

وأوصاه أبوه العباس أن يحسن صحبة عمر، فقال له: يا بنيَّ إنّ أميرَ المؤمنين يدعوك ويقربك ويستشيرك، فاحفظ عني ثلاثاً: لايجرِبنَّ عليك كذباً، ولاتفشينَّ له سراً، ولا تغتابنَّ عندَهُ أحداً.

وقالوا: إنه أوردَ رجلٌ ذكرَ القرّاء أمامَ عمر، فقال ابنُ عبّاس: ما أحبُّ أنْ يتنازعوا[1] في القرآن. فساء قولُه عمر، قال ابن عباس: فانطلقتُ إلى منزلي فقلت: ما أراني إلا سقطتُ مِنْ نفسِه، فبينا أنا كذلك، جاءني رجلٌ فقال: أجبْ أميرَ المؤمنين. فذهبتُ، فأخذَ بيدي، ثم خلا بي، فقال: ما كرهتَ مما قال الرجل؟

فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين! إنْ كنتُ أسأتُ فأستغفِرُ الله.

قال: لتحدثني.

قلت: إنّهم متى تنازعوا[2] اختلفوا، ومتى اختلفوا اقتتلوا، فقال: لله أبوك، لقد كنتُ أكتمُها للنّاس.

وعن ابن مسعود أنّه قال: إنّ هذا الغلام ـ يعني عبدَ الله بن عباس ـ لو أدركَ ما أدركناه ما تعلقنا معه بشيء.

وسأل أحدهم ابنَ عمر عن شيءٍ فقال: سل ابنَ عباسَ فإنّه أعلمُ مَنْ بقي بما أُنزلَ على محمد ﷺ.

وعن معاوية: أنّ ابن عباس أفقهُ من مات ومن عاش.

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: ما رأيتُ أحداً أعلمَ من ابنِ عباس بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ وبقضاءِ أبي بكر،

---

(١) وفي رواية: أن يتسارعوا.

(٢) وفي الرواية الأخرى: سارعوا.

وعمر، وعثمان، ولا أفقهَ ولا أعلمَ بتفسيرِ القرآن، العربيةِ، والشعرِ، والحساب، والفرائض. وكان يجلسُ يوماً للتأويل، ويوماً للفقه، ويوماً للمغازي، ويوماً لأيّام العرب، وما رأيتُ قط عالماً جلسَ إليه إلا خضعَ له، ولا سائلاً يسألُه إلا أخذَ عنه علماً.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيتُ مجلساً أجمعَ لكلّ خيرٍ من مجلس ابن عباس: الحلال، والحرام، والعربية، والأنساب.

وعن عطاء: ما رأيتُ قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهاً وأعظم خشية، إنّ أصحابَ الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلَّهم من وادٍ واسع.

وعن طاوس: أدركتُ خمسين أو سبعينَ من الصحابة إذا سُئِلوا عن شيءٍ فخالفوا ابنَ عباس لا يقومون حتى يقولوا: هو كما قلتَ.

وسمع أحدُهم ابنَ عباس يخطُبُ ويفسِّرُ فقال: لو سمعَتْهُ الرومُ وفارسُ لأسلمتْ.

ولو شئنا استقصاءَ مناقبه لطالَ المقال جداً، لا سيما أنّ كتابنا هو **رحلة إلى الحجاز، لا ترجمة لابن عباس رضي الله عنهما، وإنما أوردنا ما أوردنا منها، لأنّ التراجم الزكية هي خير ما يُطرِفُ به الكاتِبُ القراءَ، ولا سيما القراء الناشئين، الذين قد يقتدون بما فيها من الفضائلِ، ويتعلّمون مكارمَ الأخلاق ومعاليَ الأمورِ، ونعم التاريخُ الذي يزكّي النفوسَ، ويشحذُ الألباب.**

وكان ابنُ عباس عاملاً لعلي رضي الله عنهما على البصرة، وشهد معه صفّين، فلما استُشْهِدَ أميرُ المؤمنين علي كرم الله وجهه، استخلفَ ابنُ عباس على البصرة عبدَ الله بن الحارث النوفلي، ولحق بالحجاز.

ولما دعا عبدُ الله بن الزبير الناسَ إلى مبايعته بالخلافة أبى عبدُ الله

ابن عباس أَن يبايعه، فصعد إلى الطائف، ولم تزل الطائفُ لأهلِ الحجاز متنفَّساً، ومات فيها.

وقال محمد ابن الحنفية عند موته: مات اليومَ ربانيُّ هذه الأمة[1].

وقد دُفِنَ محمّدُ ابن الحنفية في المكان الذي دُفن فيه ابنُ عمٍّ أبيه، أي ابن عباس.

* * *



(١) [انظر ترجمته في «أنساب الأشراف» للبلاذري (٣: ٣٣ ـ ٦٠)].

من نزل من الصحابة في الطائف
ومن كان فيها من الفقهاء والمحدثين،
وأشهر المولودين فيها

ونزل بالطائف رهطٌ من أصحاب رسول الله ﷺ منهم[1]:

١ ـ عروة بن مسعود بن مُعتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد ابن عوف بن ثقيف، كان حين حاصرهم الرسول ﷺ ـ على ماسيأتي خبرُه ـ غائباً بجُرَش، يتعلّم عمل الدبابات والمنجنيق، فلما قَدِمَ الطائفَ بعد انصراف الرسول ﷺ عنها، قذف الله في قلبه الإسلام، فقدِمَ على الرسول ﷺ بالمدينة، فأسلم، واستأذنه في الرجوع إلى قومه، ليدعوهم إلى الإسلام، فقال ﷺ له: «إنّهم إذاً قاتلوك» فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فلما رجع إلى الطائف أتته ثقيفُ تسلّم عليه بتحية الجاهلية، فأنكرها عليهم، وقال لهم: عليكم بتحية أهلِ الجنة، فنالوا منه، فحلم عنهم، وخرجوا من عنده، وجعلوا يأتمِرُون به، وطلع الفجرُ، فأذّنَ بالصلاة، فخرجت إليه ثقيف من كل ناحية، فرماه أوس بن عوف من بني مالك، فأصاب أكْحُلَهُ، فقام غيلان بن سلمة، وكنانة بن عبد ياليل، والحكم بن عمرو، وغيرِهم وقالوا: نموتُ عن آخرنا أو نثأر به عشرة من بني مالك، فلما رأى عروةُ ما يصنعون، قال: لا تقتلوا فيَّ، قد تصدَّقتُ بدمي على صاحبه، لأصلح بذلك بينكم،

---

(١) [كان هذا الفصل متداخلاً فأعدت ترتيبه].

فهي كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، وأشهدُ أنّ محمداً رسول الله، لقد أخبرني أنكم تقتلوني، ثم دعا رهطه، فقال، إذا مِتُّ ادفنوني مع الشهداء الذين قُتِلوا في حصار الرسول ﷺ للطائف، فدفنوه معهم، وبلغ الرّسولُ ﷺ خبرَ قتله، فقال: «مثلُ عروةَ مثلُ صاحبِ ﴿يّس﴾، دعا قومَه إلى الله فقتلوه».

٢ ـ ومنهم **أبو مليح بن عروة بن مسعود، وقارب بن الأسود بن مسعود**، أسلما، ولحقا برسول الله ﷺ بالمدينة، ولما وفدتْ ثقيفُ على الرسول ﷺ وأسلمتْ عادا إلى الطائف، وقال أبو مليح للرسول ﷺ: إنّ أبي مات وعليه دين مئتا مثقال ذهباً، فإنْ رأيتَ أن تقضيه مِنْ حلي الربة، أي اللات، فعلتُ، فقال الرسول ﷺ: «نعم».

فقال قارب بن الأسود: وعن الأسود بن مسعود أبي، فإنّه ترك ديناً مثل دين عروة، فاقضه عنه من مال الطاغية.

فقال الرسول ﷺ: «إنّ الأسودَ ماتَ كافراً» فقال قارب: تصل به قرابة، إنّما الدين عليَّ، وأنا مطلوب به، فقضى الرسول ﷺ عنه دينه مِنْ مال الطاغية.

٣ ـ ومنهم **الحكم بن عمرو**، أسلم في وفد ثقيف على الرسول ﷺ.

٤ ـ ومنهم **غيلان بن سلمة**، وكان شاعراً، وفد على كسرى، فسأله أن يبني له حصناً بالطائف، فبنى له، ولما جاء الإسلام أسلم، وكان عنده عشر نسوة، فقال له الرسول ﷺ: «اختر منهن أربعاً» فاختار أربعاً، وطلّق الباقيات.

٥ ـ ومنهم **شُرَحْبِيل بن غيلان**، وكان في وفد ثقيف على رسول الله ﷺ.

٦ ـ ومنهم **عبد ياليل بن عمرو**، وكان رئيسَ الوفد.

٧ ـ ومنهم **كنانة بن عبد ياليل**، وأسلم يومئذ.

٨ ـ ومنهم **الحارث بن كَلَدَة** طبيب العرب، وكان الرسول ﷺ يأمر مَنْ به علة أن يأتيه.

٩ ـ ومنهم **نافع بن الحارث بن كَلدة**، وهو أبو عبد الله، الذي انتقل إلى البصرة.

١٠ ـ ومنهم **العلاءبن جارية** بن عبد الله بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف.

١١ ـ ومنهم **عثمان بن أبي العاص** بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله بن همام بن أبان بن يسار بن مالك بن حطيط بن جشم بن ثقيف.

قدم مع وفد ثقيف على رسول الله بالمدينة، وكان أصغرَهم سناً، فكانوا يخلفونه على رحالهم، يتعاهدها لهم، فإذا رجعوا من عند رسول الله ﷺ وناموا، ـ وكانت الهاجرةُ ـ أتى عثمانُ رسولَ الله ﷺ فأسلم قبلهم سِرّاً منهم، وكتمهم ذلك، وكان يسألُ رسولَ الله ﷺ عن الدين، ويستقرئه القرآن، وكان إذا وجدَ رسولَ الله نائماً عمد إلى أبي بكر فسأله، واستقرأه فأُعجِبَ به رسولُ الله ﷺ وأحبّه.

فلما أسلم الوفدُ، وكتبَ لهم الرسول ﷺ الكتابَ الذي قاضاهم عليه، وأرادواالرجوعَ إلى بلادهم قالوا: يا رسول الله أمّرْ علينا رجلاً منا، فأمّرَ عليهم عثمانَ بن أبي العاص، وهو أصغرُهم، لما رأى من حِرْصِهِ على الإسلام.

قال عثمان بن أبي العاص: استعملني رسولُ الله ﷺ على الطائف، فكان آخر ما عَهِدَ إليّ رسولُ الله ﷺ أنْ قالَ: «خفف عن النّاس الصلاةَ».

ولما قُبِضَ رسول الله ﷺ كانَ عاملُه على الطائف عثمانَ بن أبي العاص، فبقي عليها إلى خلافة عمر، فاحتاج عمرُ إلى عاملٍ يستعمله على البحرين، فسمُّوا له عثمانَ بن أبي العاص، فقال: ذاكَ أميرٌ أمّرَهُ رسولُ الله ﷺ على الطائف، فلا أعزله، قالوا له: يا أميرَ

المؤمنين تُأَمّرُه، ويستخلِفُ على عمله مَنْ أحبَّ، وتستعينُ به، فكأنك لم تعزله. فقال: أما هذا فنعم. فكتب إليه أن خلِّف على عملك مَنْ أحببتَ، وأقدم علي، فخلف أخاه الحكم بن أبي العاص على الطائف، وقدم على عمر، فولاه البحرين.

قال محمد بن سعد في «الطبقات»: فلما عُزِلَ عن البحرين نزل البصرة هو وأهل بيته، وشرفوا بها، والموضع الذي بالبصرة يقال له شط عثمان إليه يُنسب.

١٢ ـ وكان **الحكم بن عثمان** ممَّنْ صَحِبَ النبيَّ ﷺ أيضاً.

١٣ـ وممن أسلم مع وفد ثقيف **أوس بن عوف**، أحد بني مالك، الذي رمى عروة بن مسعود حسبما تقدم القول، وكان خائفاً من أبي مليح بن عروة، وقارب بن الأسود، فشكا ذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه، فنهاهما أبو بكر عنه، وقال لهما: ألستما مسلمين؟ قالا: بلى، قال فتأخذان بذحول الشرك[1]، وهذا رجلُ قَدِمَ يريدُ الإسلام، وله ذمة وأمان، وأما وقد أسلم صار دمه عليكما حراماً، ثم قارب بينهم حتى تصافحوا، وكفّوا عنه.

١٤ ـ ومنهم **أوس بن حذيفة الثقفي**، وكان ممن أسلم في وفد ثقيف، قال: خرجنا من الطائف سبعين رجلاً من الأحلاف وبني مالك، فنزل الأحلافيون على المغيرة بن شعبة، وأنزلنا رسولُ الله ﷺ في قبةٍ له بين مسكنه وبين المسجد.

١٥ ـ ومنهم **أوس بن أوس الثقفي**، ومما روى عنه حفيدٌ له أنّه أومأ إليه وهو في الصلاة أنْ ناولني نعليَّ، فناولته نعليه، فصلّى فيهما، وقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصلي في نعليه.

١٦ ـ ومنهم **الحارث بن عبد الله بن أوس الثقفي**، ويروى عنه أنّه

---

(١) الذحول بالذال المعجمة والحاء المهملة جمع ذحل وهو الثأر.

قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ حَجَّ أو اعتمرَ فليكن آخرُ عهده بالبيتِ».

١٧ ـ ومنهم **الحارث بن أويس الثقفي**، وقد صحب وروى.

١٨ ـ ومنهم **الشريد بن سويد**، ومما حدث به أنّ النبي قال: «جارُ الدار أحقُّ بالدار من غيره». وقد استنشدَه الرسولُ ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت، وجعل يقول: «إنْ كادَ لَيُسْلِم». مات الشريد في خلافة يزيد بن معاوية.

١٩ ـ ومنهم **نمير بن خرشة الثقفي**، كان في وفد ثقيف إلى المدينة.

٢٠ ـ ومنهم **سفيان بن عبد الله**، وكان فيهم أيضاً، وولى سفيان الطائف.

٢١ـ ومنهم **الحكم بن سفيان**.

٢٢ ـ ومنهم **أبو زهير معاذ الثقفي**.

٢٣ ـ ومنهم **كردم بن سفيان**، جاء إلى الرسول ﷺ فقال له: إني نذرتُ أن أنحرَ عشرةَ أبعرةٍ لي ببُوانة[1]، فقال رسول الله ﷺ «نذرتَ ذلك وفي نفسكِ شيءٌ مِنْ أمرِ الجاهلية؟» قال: لا والله، قال «فانطلق فانحرهم».

٢٤ ـ ومنهم **وهب بن خُويلد الثقفي**، أسلم، وصحب، ومات على عهد الرسول ﷺ.

---

(١) حاشية للمؤلف: بوانة، بضم أوله كثمامة ـ هضبة وراء ينبع ـ ويفتح. وأيضاً ماء لبني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، بالقرب من مكة، وأيضاً ماء لبني عقيل، وأنشد الجوهري:

لقد لَقِيتْ شَوْلٌ بِجَنْبَيْ بُوانَةٍ ... نَصِيّاً كأعْرَافِ الكَوادِنِ أسْحَمَا

وقال وضّاح اليمن:

أيا نخلتَيْ وادِي بُوانةَ حَبّذا ... إذا نامَ حُرّاسُ النخيلِ جناكُما

٢٥ ـ ومنهم **وهب بن أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر**، وأسلم وهبٌ وصَحِبَ.

٢٦ ـ ومنهم **أبو محجن بن عمرو بن عمير الثقفي**، وكان شاعراً.

٢٧ ـ ومنهم **الحكم بن حزن الكلفي** من بني كلفة بن عوف بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، روى عنه محمد بن سعد في «الطبقات» أنّه وفد على رسول الله ﷺ سابعَ سبعةٍ، أو تاسعَ تسعةٍ، وشهد معه الجمعة، فقام الرسول ﷺ متوكئاً على قوس، أو على عصا، فحمد الله، وأثنى عليه كلماتٍ خفيفاتٍ طيباتٍ مباركاتٍ، ثم قال: «أيها الناس إنكم لن تطيقوا، ولن تفعلوا كلَّ ما أمرتُكم، فسدِّدوا وأبشروا».

٢٨ ـ ومنهم **زفر بن حرثان بن الحارث** من هوازن أيضاً، وفد وأسلم.

٢٩ ـ ومنهم **مضرس بن خفاجة بن النابغة**، من هوازن أيضاً، وفد وأسلم، وشهد حنيناً، وذكره العباس بن مرداس في شعره.

٣٠ ـ ومنهم **يزيد بن الأسود**، من بني سواءة، روى أنّه صلى مع النبي ﷺ الفجرَ في مسجدِ منى في حجة الوداع، فلما قضى الصلاة التفت، فإذا هو برجلين لم يصليا، فقال: «أئتوني بهما»، فأُتيَ بهما ترعد فرائصُهما، فقال: «ما منعكما أنْ تصليا معنا؟» قالا: يا رسول الله صلينا في رحالنا، قال «فإذا جئتم والإمامُ يصلي فصلّوا معه، فإنها لكم نافلة» وكان يزيد شَهِدَ حنيناً مع المشركين، ثم أسلم وصحب.

٣١ ـ ومنهم **عبيد الله بن معية** من بني سواءة.

٣٢ ـ ومنهم **أبو رَزِين العقيلي**، واسمه لقيط بنْ عامر بن المُنْتَفِق، قيل: إنه أتى الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله! إن أبي شيخ كبير، لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، فقال: «حج عن أبيك واعتمر».

وأما شهداء الصحابة في الطائف عام ثمانية للهجرة فهم:

١ ـ سعيد بن سعيد بن العاص الأموي.

٢ ـ وعبد الله بن أبي أمية المخزومي.

٣ ـ والسائب بن الحارث بن قيس السهمي القرشي، أحد المهاجرين إلى الحبشة.

٤ ـ وعبد الله بن الحارث بن قيس، أخو السائب، ومثله في المهاجر إلى الحبشة.

٥ ـ والحارث بن سهل بن أبي صعصعة الأنصاري.

٦ ـ وثابت بن الجذَع الخزرجي من الأنصار.

٧ ـ والمنذر بن عبد الله الخزرجي الأنصاري.

٨ ـ ورقيم بن ثابت الأنصاري.

٩ ـ وعبد الله بن عامر بن ربيعة.

١٠ ـ عرفطة بن حباب الأزدي حليف بني أمية.

١١ ـ ورجل من بني الليث. وهو جليحة بن عبد الله بن محارب الليثي.

١٢ ـ وألحقَ بعضُهم بهم عبدَ الله بن أبي بكر الصديق، لأنه كان جُرِحَ في غزاة الطائف، واندمل جرحه مدّةً، ثم انتكس، ومات.

[من كان في الطائف من الفقهاء والمحدثين]

وروى ابن سعد في «الطبقات» أنه **كان بالطائف** بعد هؤلاء من **الفقهاء والمحدثين**:

١ ـ عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي.

٢ ـ وعاصم بن سفيان الثقفي.

٣ ـ وأبو هندية، الذي روى عنه سعيد بن المسيب.

٤ ـ وعمروبن أوس الثقفي.

٥ ـ وعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن عبد الله من ثقيف، وأمه أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية، وخاله معاوية. وكان جده عثمان بن عبد الله حامل لواء المشركين يوم حنين، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال رسول الله ﷺ: «أبعدَه الله، إنّه كان يبغض قريشاً».

وقد ولي عبد الرحمن بن عبد الله الكوفة ومصر، قال محمد بن سعد: وولده اليوم يسكنون دمشق (محمد بن سعد كان في القرن الثالث).

٦ ـ ومنهم وكيع بن عدس (بضمتين).

٧ ـ ويعلى بن عطاء، أقام بواسط في آخر سلطنة بني أمية.

٨ ـ وعبد الله بن يزيد.

٩ ـ وبشر بن عاصم الثقفي.

١٠ ـ وإبراهيم بن ميسرة.

١١ ـ وعطيف بن أبي سفيان.

١٢ ـ وعبيد بن سعد.

١٣ ـ ومحمد بن أبي سويد.

١٤ ـ وسعيد بن السائب.

١٥ ـ وعبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى بن كعب الثقفي.

١٦ ـ ويونس بن الحارث الطائفي.

١٧ ـ ومحمد بن عبد الله بن أفلح الطائفي.

١٨ ـ ومحمد بن أبي سعيد الثقفي.

١٩ ـ ومحمد بن مسلم بن سوسن الطائفي.

٢٠ ـ ويحيى بن سليم الطائفي، وكان قد نزل مكة.

[من أشهر المولدين في الطائف]

زياد بن عبيد

ومن أشهر المولودين في الطائف: **زياد بن عبيد**، المعروف بزياد بن أبيه، لاختلاف المؤرّخين في نسبه، وهو الذي استلحقَه معاويةُ بن أبي سفيان، وأمه سُمية جارية الحارث بن كَلَدة، كان كاتباً لأبي موسى الأشعري، وكانت ولادتُه سنةَ الهجرةِ، وقال في «الطبقات الكبرى»:

عام الفتح، ولي البصرة لمعاوية حين ادعاه، وضم إليه الكوفة، فكان يشتو بالبصرة، ويصيِّفُ بالكوفة، ويولي على الكوفة إذا خرج منها عمرو بن حريث، ويولي على البصرة إذا خرج منها سَمُرة بن جندب، ولم يكن زياد من القرّاء ولا الفقهاء إلا أنه كان معروفاً.

ثم ذكر صاحب «الطبقات» أنّ عائشة أم المؤمنين كتبت إليه كتاباً خاطبته فيه بزياد بن أبي سفيان، ومات بالكوفة وهو عامل عليها لمعاوية.

وكان زياد بلا مِراء من أعاظم الرجال، قال الشعبي: ما رأيتُ أحداً أخصب نادياً، ولا أكرمَ مجلساً، ولا أشبهَ سراً بعلانية من زياد.

وقال الأصمعي: أول من ضرب الدنانير والدراهم، ونقش عليها اسمَ الله، ومحا عنها اسمَ الروم ونقوشَهم زياد.

وقال العُتبي: إنّ زياداً أول من ابتدعَ ترك السلام على القادم بحضرة السلطان، وقالوا: إنّه أولُ من عرّف العرفاء، ورتّب النقباء، ومشى الأعوانُ بين يديه، ووضع الكرسي، وربّع الرباع، وخمّس الأخماس في الكوفة والبصرة.

ونقل الخيرُ الزركليُّ[1] عن ابن حزم مايلي: امتنع زياد وهو قُفعة القاع[2]، لا عشيرةَ له، ولا نسب، ولا سابقةَ، ولا قدم، فما أطاقه معاوية إلا بالمدرة حتى أرضاه وولاه.

وقال الأصمعي: الدهاة أربعةُ، معاوية للروية، وعمرُو بنُ العاص للبديهة، والمغيرَةُ بن شعبة للمعضلة، وزيادٌ لكلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ.

---

(١) [ما رأيت وما سمعت ص(٦٦)].

(٢) القفعة بفتح أوله، القفة من خوص، وقد يكونُ أعلاها ضيقاً، وأسفلُها واسعاً، وفي لبنان يصغرونها، ويقولون: قَفُّوعة، وأما القاع فالأرضُ المطمئنة، والمقصود بذلك أنّه ليس بشيءٍ في نسبه وحسبه.

قلت: فضل زياد في المكانة التي حازها أعظم من فضل جميعهم، لأنّ معاوية أموي، وعمرو بن العاص سهمي، والمغيرة ثقفي، فأما زياد فهو ابن سمية... وإنما:

نفسُ عصامٍ سوّدت عصاماً

[الحجاج بن يوسف الثقفي]

ومن **أشهر المولودين بديار الطائف الحجّاج بن يوسف الثقفي**، الذي صار اسمه رمزاً للظلم وسفك الدماء، فإذا قيل: سفّاكُ دماءٍ، قيل: حجاج، قيل: إنه قتل أكثرَ من مئة ألف صبراً، وسمعوه يقول عند الموت: ربِّ اغفرْ لي، فإنّ النّاسَ يزعمونَ أنّك لا تغفرُ لي.

قال الذهبي في كتاب «دول الإسلام»: إنّه كان شجاعاً مهيباً جباراً عنيداً، ومخازيه كثيرةٌ، إلا أنّه كان عالماً، فصيحاً، مفوّهاً، مجوِّداً للقرآن[1].

وقال: إنّه قتَلَ الإمامَ المفسِّرَ سعيدَ بن جبير ظلماً، فما أمهله الله بعدَه، فهلك في رمضان سنة خمس وتسعين، وله ثلاث وخمسون سنة.

وقرأتُ في محلّ آخر أنّه عاش خمساً وخمسين سنة.

وقال ابن خِلّكان: إنّه كان عمره ثلاثاً وخمسين، وقيل: أربعاً وخمسين، وهو الأصح، وروى ابن خلكان أنه كان ينشِدُ في مرضِ موتِه هذين البيتين لعبيد بن سفيان العُكْلي[2]:

يارَبِّ قَدْ حَلَفَ الأعداءُ واجْتَهَدُوا ... أَيْمانَهُمْ أَنَّنِي مِنْ سَاكِنِي النَّارِ
أَيَحْلِفُونَ على عَمْيَاءَ وَيْحَهُمُ ... مَا ظَنُّهُمْ بِعَظِيْمِ العَفْوِ غَفَّارِ

---

(١) [انظر أخباره في كتاب «الحجاج بن يوسف الثقفي» للدكتور إحسان صدقي العمد].

(٢) [«وفيات الأعيان» (٢: ٥٣)].

قلت: إنّ النّاسُ غير مخطئين فيما يذهبون إليه من أمر الحجاج، فكما أنّ الله عظيمُ العفو، **فهو عظيمُ العدل أيضاً سبحانه وتعالى، إن لم يعاقبْ مثلَ الحجاج على ما سفكَ من دماءِ الأبرياءِ، فمن يستحقُ العقوبةَ إذاً؟!!**

وقال ابن خلكان[1] عن مرضه: إنّ الله سلط عليه الزمهرير، فكانت الكوانين تجعَلُ تحته مملوءةً ناراً، وتدنى منه حتى تحرِقَ جلده، وهو لا يحسٌّ بها.

وشكا ما يجده إلى الحسن البصري رضي الله عنه فقال له: قد كنتُ نهيتُك أن تتعرّضَ للصالحين فلججتَ.

فقال له: يا حسن لا أسألك أن تسألَ الله أنْ يفرِّجَ عني، ولكن أسألُكَ أن تسألَهُ [أن] يُعَجِّلَ قبضَ رُوْحِي، وألا يطيلَ عذابي.

ولما جاء موتُ الحجاج إلى الحسن البصري سجدَ للهِ تعالى شكراً، وقال: **اللهم إنّك قد أمتَّه فأمِتْ عنّا سُنّتَهُ.**

وكانت وفاتُه بمدينة واسط، ودفن بها، وعُفّيَ قبرُه، وأجري عليه الماء.

قلت: ليس الحجاج مسؤولاً فيما أتاه من الموبقات وقتل من قتل من عبادِ أكثرَ من عبد الملك بن مروان، الذي استعمله وأملى له، وكان ولّاه العراق وخراسان، وولّاه قبلَ ذلك الحجاز، وكانت له إمرةٌ بدمشق، ولا يزال فيها بناء اسمه قصر حجاج أظنُّه منسوباً له[2]، ولما توفي عبد الملك، وتولّى الوليدُ أبقاه في عمله، فكأنه أعجبَ بني أمية.

---

(١) [«وفيات الأعيان» (٢: ٥٣)].

(٢) [قال محمد كرد علي في «غوطة دمشق» (١٨٦): القصر منسوب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان، وكان قبله أيضاً معروفاً بالحجاجية، وكان ملكاً للحجاج بن يوسف الثقفي].
=

وقال ابن خلكان[1]: وكانَ للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائبَ لم يُسْمَعْ بمثلها.

ويقال: إنّ زياد بن أبيه ـ أو ابن سمية أو ابن أبي سفيان ـ أراد أن يتشبّه بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ضبط الأمور، والحزم والصرامة، وإقامة السياسات، إلا أنّه أسرف وتجاوزَ الحد، وأرادَ الحجاجُ أن يتشبّهَ بزيادٍ فأهلكَ ودمَّرَ.

وكان الحجاجُ يخبِرُ عن نفسه أنّ أكبرَ لذَّاتِهِ سفكُ الدماءِ، وارتكابُ أمورٍ لا يقدِمُ عليها غيره، ومَنْ كان كذلك فكيفَ يوليّه الخلفاء الولايات الكبرى، ويطلِقُون فيها يده!!.

نعم إنّ الضبطَ والربطَ والحزامةَ من الأمور التي تصلُحُ للولّاة، بل من الأمور التي لا يصلُحُ الولاة إلا بها، لكن على شرط أن لا يخرُجَ ذلك بالولاة إلى الإسراف والإعتداء، وتجاوز حدود الله، **فإنّ العدلَ هو الحد الوحيد الذي لا يجوز التأخر عنه، ولا التقدم عليه، ومن تجاوزَ حَدّ العدل فقد أفرطَ، ومن تأخّرَ عنه فقد فرّطَ، وما يَسعُ الجميعَ إلا العدلُ.**

ومن أشدِّ الأمورِ ضرراً أنْ يتعمَّد الوالي أو القائد إتيان الأمور التي تجعل له هيبة في قلوب الناس بزعمه، أو أن يتلذَّذ بسمعة البطش وإرهاف الحد، كما كان يفعل جمال باشا التركي قائد الجيش العثماني في سورية أيامَ الحرب الكبرى، فقد كان يتعمَّدُ البطشَ وإظهارَ الاستخفاف بدماء البشرِ، آملاً بأنْ ينالَ المهابة في الصدور، وأن تسيرَ عنه الأخبار، فأضرَّ عملُه بدولتِه وأمتِه، وزاد في شقاق الترك مع العرب، وما نفعت سياسته إلا الإفرنج الطامحين إلى البلاد، وما نفعت إلا الرائدين لهم، الساعين بين أيديهم من أبناء البلاد[2].

---

(١) [«وفيات الأعيان» (٢: ٣١)].

(٢) [انظر «تاريخ الدولة العثمانية» للأمير شكيب أرسلان ص (٤١٧ ـ ٤٥٨) وهو من منشورات دار ابن كثير بدمشق بتحقيقي]. =

فأما الحزامة والضبط فقد روي فيهما عن الحجاج مالو وقف عند ذلك الحد، لما انتقده أحد.

قالوا: كان الحجاج وأبوه يعلّمان الصبيان بالطائف، ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع الجذامي وزيرَ عبد الملك بن مروان، فكان في عداد شرطته، إلى أنْ رأى عبد الملك انحلالَ عسكره، وأنّ الناس لا يرحلون برحيله، ولا ينزلون بنزوله، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع، قال له: إنّ في شرطتي رجلاً لو قلّده أميرُ المؤمنين أمر عسكره لأرحلَ النّاسَ برحيله، وأنزلَهم بنزوله، يقال له: الحجاج بن يوسف، قال: فإنّا قد قلدناه ذلك، فكان لا يقدرُ أحدٌ أن يتخلّفَ عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع، فوقفَ عليهم يوماً ـ وقد أَرْحَلَ النّاسَ ـ على الطعام يأكلون، فقال لهم: ما منعكم أن ترحلوا برحيلِ أميرِ المؤمنين؟ فقالوا له: انزل يا ابن اللخناء فكُلْ معنا، فقال لهم: هيهات ذهب ذلك، ثم أمر بهم فَجُلِدُوا بالسياط، وطوّف بهم في العسكر، وأمر بفساطيط رَوْحٍ فأحرقتْ بالنّار، فدخل روح على عبد الملك شاكياً وقال: يا أمير المؤمنين! إنّ الحجاجَ الذي كانَ في شرطتي ضرب غلماني، وأحرقَ فساطيطي، قال: عليَّ به، فلما دخلَ عليه، قال: ما حملكَ على ما فعلتَ؟ قال: أنا ما فعلتُ، قال: ومن فعل؟ قال: أنت فعلتَ، إنما يدي يدُك، وسوطي سوطُك، وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين، وعوضَ الغلام غلامين، ولا يكسرني فيما قدّمني له، فمن ذلك الوقت تقدّمَ الحجاجُ في منزلته، ولكن كان ينبغي لهم أنْ يلزِموه من الحزامة والصرامة هذا الحد، ولا يسمحوا له أن يتجاوزه.

قال الإمام السيوطي في «تاريخ الخلفاء»[1]: لو لم يكن من مساوىء

---

(١) [تاريخ الخلفاء: (٢٦٠)].

عبد الملك إلا الحجاج وتوليتُه إياه على المسلمين وعلى الصحابة والتابعين رضي الله عنهم يهينُهم ويُذِلُّهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً ، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يُحصى فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق أنس وغيرِه من الصحابة ختماً، يريد بذلك ذلَّهم ـ فلا رحمهُ اللهُ ولا عفا عنه.

قلت: وأغربُ من تولية عبد الملك الحجاجَ بن يوسف ـ توصيتُه ولدَه الوليد به عندَ موته، فقد قال له وهو يجود بروحه: وانظرْ إلى الحجاج فأكرمْهُ، فإنّه هو الذي وطّأَ لكم المنابرَ، وهو سيفك يا وليد، ويدك على مَنْ ناوأك، فلا تسمعنَّ فيه قولَ أحدٍ، وأنتَ إليه أحوجُ منه إليك. فكأنّ عبدَ الملك تحمَّلَ تبعة أعمالِ الحجاج حياً وميتاً.

ومن أغرب الغرائب أنّ بعضَ الناس يلتمِسُ العذر لعبد الملك بقوله: إنّ الحجاجَ هو الذي أنقذَ مُلْكَ بني أمية، وأنّه لولاه لانتقلت الخلافة إلى آل الزبير، فإنّ النّاسَ بعدَ موت يزيد بن معاوية بايعوا عبد الله بن الزبير، وكان فحلَ قريشٍ الصائلَ في وقتِه، لا يدركُهُ أحدٌ في شجاعةٍ ولا عبادةٍ ولا بلاغةٍ، وأطاعه الحجازُ واليمنُ والعراقُ وخراسانُ، ولم يمتنع عن مبايعته إلا أهلُ الشام ومصرَ، فإنّهم بايعوا معاوية بن يزيد، إلى أن مات، فبايعوا ابن الزبير، إلى أنْ خرجَ مروانُ بن الحكم، فغلب على الشام ومصر.

والحافظ الذهبي لا يعدُّه من أمراءِ المؤمنين، بل يعدُّه باغياً خارجاً على ابن الزبير، ويعدُّ عهدَه لابنه عبد الملك بن مروان غيرَ صحيح، وقد صحَّحَ السيوطيُّ هذا القولَ.

وهذا يدل على أنّ أصلَ الولايةَ في الإسلام هو ولاية الأمةِ، وأنْ لا ملك ولا خلافة إلا من الأمة[1]، وأنّ الاختيار هو الشرط الأول

---

(١) والدليل على ذلك أنها لا تعقد إلا بمبايعة الأمة الاختيارية. =

لا الإرث، خلافاً لظنِّ مَنْ لم يقرأ شيئاً عن أصول الحكم في الإسلام، ظنوا أن استمدادَ الحكم من الأمة، هو منزَعٌ أوربيٌّ جديدٌ. قاتلهم الله ما أجهلَهُمْ بالتاريخ، هذا إن لم يكونوا يتجاهلونه عمداً للمرض الذي في قلوبهم.

ولما استوسق الأمرُ لعبدِ الملك أرسلَ الحجاجَ في أربعين ألفاً لقتال ابن الزبير، فحاصره بمكة أشهراً، ورمى الكعبةَ بالمنجنيق، وخذل ابنَ الزبير أصحابُه، وتسلَّلُوا إلى الحجاج، فظفر به وقتله، وكان ابنُ الزبير أخبرَ أمَّه أسماءَ بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما عن خُذلان الناس إيّاه، واستشارها فيما يصنعُ، فأشارتْ عليه بأنْ يخرجَ ويقاتِلَ إلى أنْ يُقْتَل، في خبرٍ يعرِفُ منه الإنسانُ درجةَ الأنفة، وعزَّةَ النفسِ، اللتين عندَ العرب، حتى عندَ النّساء اللائي كن يفضِّلْنَ قتلَ أولادِهنَّ على المهانة والذل.

* * *

ونعود إلى المشهورين من ثقيف ومن سكان ديار الطائف، فمنهم:

السائب بن الأقرع الثقفي

روى عن عمر بن الخطاب، وكان قليلَ الحديث، وولاه عمر ولاياتٍ في فارس بعد أن شَهِدَ فتح نهاوند العظيم، ومات بإصبهان.

ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، ابن أخي الحجاج، وهو مِمَّنْ وليَ مكة، تولاها في زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

العَـرْجـي الشـاعر

ومنهم العَـرْجِـيُّ ـ الشـاعر المشهـور ـ وهو عبـد الله بـن عمر بـن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس، قال

في كتاب «الأغاني»[1] سُمِّي العَرْجِيَّ لأنّه كان يسكنُ عَرْجَ الطائف، وقيل: سُمِّيَ كذلك لمالٍ كان له بالعَرْجِ، وكان من شعراء قريش، وممن اشتهر بالغزل منهم، ونحا نحو عمر بن أبي ربيعة في ذلك، وتشبّه به فأجاد، وكان مشغوفاً باللهو والصيد، حريصاً عليهما، قليلَ المحاشاة لأحد فيهما.

نقل السيد خير الدين الزركلي في كتابه «ما رأيتُ وما سمعتُ»[2] عن كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» للمؤرّخ الإمام الحافظ أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي المكي، المتوفَّى في منتصف القرن التاسع، أنّ محمد بن هشام بن إسماعيل كان والياً على مكة لهشام بن عبد الملك، فسجَنَ العَرْجِيَّ في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن إلى أن مات.

ولكنّ رواية «الأغاني» تخالِفُ ذلك، فهو يقول: إنّه كان يشبِّبُ بجيداء أم محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي، ليفضح ابنَها، لا لمحبةٍ كانت بينهما، فكان ذلك سبب حبسِ محمد إياه، وضربه له حتى مات في السجن.

وذكر صاحبُ «الأغاني» أنّه كان صاحبَ غزل وفتوة، وقال: إنّه كان من الفرسان المعدودين مع مَسْلَمة بن عبد الملك بأرضِ الروم، وكان له معه بلاء حسن، ونفقة كثيرة.

وذكر أنّ العرجي باع أموالاً عظاماً كانت له، وأطعمَ ثمنها في سبيل الله، حتى نفد ذلك كله، وكان قد اتخذ غلامين، فإذا كان الليل نصب قِدْرَهُ، وقام الغلامان يوقِدان، فإذا نام الواحد قام الآخر، فلا يزالان كذلك حتى يصبحا، يقول: لعلّ طارقاً يطرق.

---

(١) [«الأغاني» (١ : ٢٥٠)].

(٢) [«ما رأيت وما سمعت» ص (٦٩)].

وأخبارُ العَرْجِيِّ كثيرةٌ، ونكاته مشهورة، والظاهر أنّه كان على كرمٍ عريضٍ، وفتوة أكيدةٍ، إلا أنّ الله ابتلاه بالتشبيب بنساء قريش في شعره، مما كان يعرِّضُ من يتشبَّبُ بهنَّ للظِّنةِ، وسوءِ القالة.

ومن ظريف ما يُحكَى أنّ جاريةً [حبشية]من مولَّدات مكة[ظريفة] صارت إلى المدينة، فلما أتاهم موتُ عمر بن أبي ربيعة اشتدَّ جزعُها، وجعلت تبكي وتقول: مَنْ لمكةَ وشعابِها وبِطِحائها ونزهِها، ووصف نسائِها وحسنهِنَّ [وجمالهن، ووصف ما فيها]؟

فقيلَ لها: خفِّضي عليكِ، فقد نشأَ فتًى من وَلَدِ عثمان رضي الله عنه، يأخذُ مأخذَهُ، ويسلكُ مسلكَه.

فقالت: أنشدوني مِنْ شعرِه، فأنشدوها، فقالتْ: الحمد لله الذي لم يضيِّعْ حرمَه، ومسحت عينها.

أميـة بـن أبـي الصـلت

وممن اشتهر بالنسبة إلى الطائف أمية بن أبي الصلت: عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عنزة بن قَسِيٍّ ـ وهو ثقيف ـ بن منبه بن بكر بن هوازن، قال صاحب «الأغاني»: هكذا يقولُ من نسبهم إلى قَسِيٍّ.

وأُمّ أمية بن أبي الصلت قرشية، وهي رُقَيَّةُ بنت عبد شمس بن عبد مناف.

وكان أمية من أشعر العرب، وإليه ينسب هذا البيتان:

قومٌ إذا نَزَلَ الغريبُ بأرْضِهِمْ ... ردُّوْهُ رَبَّ صَـوَاهِـلٍ وَقِيَـانِ

لا يَـنْـكُـتُوْنَ الأرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ ... لتَلَمُّـسِ العِـلاَتِ بـالعِيْـدَانِ

وهما من قصيدة أوّلُها:

قومي ثقيفٌ إنْ سألتَ وأُسْرَتي ... وَبِهِـمْ أُدَافِـعُ ركـنَ مَـنْ عَـادَانـي

قال أبو عبيدة: اتفقت العربُ على أنّ أشعرَ أهلِ المدن أهلُ يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف، وأنّ أشعرَ ثقيفٍ أميةُ بن أبي الصلت.

قالوا: وطمع أمية في النبوة، وكان قد نظر في الكتب، وقرأها، ولبس المسوحَ تعبُّداً، وحرَّمَ الخمر، وشكَّ في الأوثان، وكان مما قرأ أنّ نبيّاً يُبْعَثُ من العرب، فكان يرجو أن يكونَ هو، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ قيل له: هذا الذي كنتَ تنتظره، فحسده، وقال: إنما كنتُ أرجو أن أكونَهُ.

وكان يرثي قتلى قريشٍ في وقعةِ بدرٍ ،ومما استُحْسِنَ من شعره، قوله معاتباً ابناً له أغضبه:

غَذَوْتُكَ مَوْلُوْداً وَمِنْتُكَ يافعاً ... تعُلُّ بما أجْنِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ

إذا ليلةٌ نابَتْكَ بالشكو لم أَبِتْ ... لشَكْوَاكَ إلا ساهِراً أتَمَلْمَلُ

كأنيَ أنا المَطْرُوْقُ دُوْنَكَ بالذِيْ ... طُرِقْتَ بهِ دَوْنِي فَعَيْنِي تَهْمُلُ

تخافُ الرَّدَى نَفْسِي عليكَ وإنّني ... لأعْلَمُ أنَّ الموتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ

فلمّا بَلَغْتُ السِّنَّ والغايةَ التي ... إليها مَدَى ما كُنْتُ فيكَ أُؤَمِّلُ

جَعَلْتَ جَزَائي غِلْظَةً وفظاظَةً ... كأنَّك أَنْتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ

ومات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، لكنّه كان يقول: إنّ الحنيفيةَ حقٌّ، لذلك كان الرسول ﷺ يقول: «إنْ كادَ أميةُ ليسلم».

طريح بن إسماعيل الثقفي الشاعر

ومنهم طريح بن إسماعيل بن عقبة الثقفي.

وساق صاحبُ «الأغاني»[1] نسبه هكذا: طريح بن إسماعيل بن عبيد بن أسِيد بن عِلاج بن أبي سَلَمة بن عبد العُزّى بن عَنَزَة بن عَوْف بن قَسِيّ ـ وهو ثقيف ـ بن منبّه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر.

قال ابن الكلبي: ومن النسابين من يذكر أنّ ثقيفاً هو قَسِيّ بن منبّه بن النَّبيت بن منصور بن يَقْدُم بن أفصَى بن دُعْميّ بن إياد بن نزار.

---

(١) [«الأغاني» (٤: ٢١٢)].

وروى الكلبي أنّ أبا رغال هو أبو ثقيفٍ كلِّها، وأنّه من بقية ثمود، وكان مَلِكاً بالطائف.

وقيل: بل ذُكِرَتْ القبائلُ عندَ النبيِّ ﷺ فقال: «قبائل تنمى إلى العرب، وليسوا من العرب، حِمْيَرُ من تُبّعٍ، وجُرْهُمُ من عاد، وثَقِيْفُ من ثمود».

وكان طُريح شاعراً فحلاً، انقطع إلى الخليفة الوليد بن [يزيد بن]عبد الملك، الذي كان يمت إليه بالقرابة، لأنّ أم الوليد ثقفية، واستفرغ شعرَهُ في الوليد، وأدركَ دولةَ بني العباس، ومات في زمان المهدي العباسي، وقيل: في زمان الهادي.

وكان الوليد مكرِماً لطريح، عظيمَ البرِّ به، وكان طريح يغلو في مديحه ما شاء، قيل: إنّ الوليدَ جلس يوماً في مجلسٍ له عامٍّ، ودخل إليه أهلُ بيته ومواليه والشعراء وأصحاب الحوائج، فقضاها، وكان أشرفَ يوم رُؤي له، فأنشدَهُ طريحٌ ما يأتي:

أنتَ ابنُ مَسْلَنْطِحِ البِطاحِ، وَلَمْ ... تُطْرِقْ عليكَ الحُنْيُ والوُلُجُ

طُوْبَى لِفَرْعَيْكَ مِنْ هُنا وَهُنا ... طُوْبَى لأَعْرُقِكَ الّتي تَشِجُ

لَوْ قُلْتَ للسَّيْلِ دَعْ طَرِيْقَكَ وَالـ ... ـموجُ عليه كالهَضْبِ يَعْتَلِجُ

لساخَ وَارْتَدَّ، أو لَكانَ لَهُ ... في سائِرِ الأَرْضِ عَنْكَ مُنْعَرَجُ

(مسلنطح البطاح): ما اتسع منها. و(الحني): ما انخفض من الأرض. و(الولج): كل متّسعٍ في الوادي.

أي لم تكن بين الحني والولج ليخفى مكانك.

و(طوبى لفرعيك من هنا وهنا) أي أنّه كريمُ الأب والأم من قريش وثقيف، وأنّه يطيعُه من هيبته كلُّ شيءٍ، حتى إنّه لو أمر السيلَ بانصراف لأطاعه.

قيل: إنّه لما انقضتْ دولةُ بني أميّة، وأديلَ منهم لبني العباس، دخل طريح على المنصور في جملة الشعراء، فقال له المنصور: لا حيّاك اللهُ

ولا بيّاك، أما اتقيت الله ويلك حيثُ تقولُ للوليد بن يزيد:

لو قلتَ للسّيْل دَعْ طريقَكَ وَالـ ... مـوْجَ عليـه كـالهَضْـبِ يعتلـجِ

فقال طريح: قد علم الله عزَّوجلّ أنيّ قلتُ ذاك، ويدي ممدودة إليه تبارك وتعالى، وإيّاه تعالى عنيتُ.

فقال المنصور: يا ربيعُ! أما ترى هذا التخلص؟

ويعجبني جداً مِنْ شعر طُرَيْح هذه القصيدة في الوليد:

لـم أنـسَ سَلْمَـى ولا لَيَـالِيْنَـا ... بِـالحَـزنِ، إذ عَيْشُنَـا بهـا رَغَـدُ

إذْ نحنُ في مَيْعَةِ الشّبابِ، وإذ ... أيـامُنَـا تلـكَ غَضَـةٌ جُـدُدُ

في عِيشةٍ كالفِرِنْدِ عازِبَةِ الشقـ ... ـوَةِ، خضـراءَ غُصْنُهـا خَضِـدُ

نُحْسَـدُ فيهـا علـى النَّعيـم، ومـا ... يُـوْلَـعُ إلا بـالنَّعْمَـةِ الحَسَـدُ

أيّـامَ سَلْمَـى غَـرِيْـرَةٌ أُنُـفٌ ... كـأنّهـا خُـوْطُ بـانَـةٍ رُؤُدُ

وَيْحي غداً إنْ غَـدا علـيَّ بمـا ... أكـرَهُ مـن لـوعـةِ الفِراقِ غَـدُ

قَدْ كنتُ أبكي مِنَ الفِراقِ وحيِّـ ... ـانـا جميعـاً، ودارُنـا صَـدَدُ

فكيفَ صبري؟ وقد تجاوبَ بالـ ... ـفـرقـة منهـا الغُـرَابُ والصُّـرَدُ

ومنها في المديح:

دَعْ عنـكَ سَلْمَـى لَغَيْـرُ مقليـةٍ ... وعـدَّ مـدحـاً بيـوتُـه شُـرُدُ

لـلأفْضَـلِ الأفْضَلِ الخليفـةِ عبـ ... ـدِ اللهِ مَـنْ دُوْنَ شَـأْوِهِ صُعُـدُ

فـي وجهـهِ النّـورُ يُستبـانُ، كمـا ... لاحَ سِـرَاجُ النّهـارِ إذْ يَقِـدُ

يَمْضِي على خيرِ ما يقولُ، ولا ... يُخْلِـفُ ميعـادَه إذا يَعِـدُ

مِـنْ مَعْشَـرٍ لا يشم مَـنْ خـذَلُـوْا ... عِـزًّا، ولا يُسْتَـذَلُّ مَـنْ رَفَـدُوْا

بيـضٌ عِظـامُ الحلـومِ، حَـدُّهُـمُ ... مـاضٍ حُسـامٍ، وخيرُهـم عتـدُ

أنتَ إمامُ الهُدَى الذي أصلحَ الـ ... ـلـهُ بـهِ النّـاسَ بَعْـد مـا فَسَـدُوْا

لمـا أتـى النّـاسَ أنّ مُلْكَهُـمُ ... إليـك قَـدْ صـارَ أمـرُهُ سَجَـدُوْا

وَاسْتَبْشَـرُوْا بـالـرِّضَـا تباشـرهـم ... بـالخُلـد لـو قِيْـلَ إنكـم خلـدُ

رُزِقْـتَ مِـنْ وِدِّهِـمْ وَطَـاعَتِهِـمْ ... مَـالَـمْ يَجِـدْهُ مِـنْ وَالِـدٍ وَلَـدُ

أَثْلَجهُمْ مِنْكَ أَنّهُمْ عَلِمُوا أَنّكَ فيما وُلِّيتَ مُجْتَهِدُ

أَلِفَتْ أهواءَهُمْ، فأَصبحتِ الأضغانُ سلماً، وماتتُ الحِقَدُ

كنتُ أرى أنّ وما وجدتُ من الفرحةِ لم يلقَ مِثْلَهُ أَحَدُ

حتّى رأيتُ العِبَادَ كلَّهُمُ قد وَجَدُوْا مِنْ هواكَ ما أَجِدُ

قد طلبَ النّاسُ ما بلغتَ فما نالوا، ولا قاربُوْا، وقد جَهِدُوْا

يرفعُكَ اللهُ بالتكرُّمِ والتقوَى فتعلو، وأنتَ مُقْتَصِدُ

حَسْبُ امرئٍ مِنْ غنًى تقرُّبُهُ مِنْكَ، وإنْ لم يكنْ لَهُ سَنَدُ

فأنتَ أَمْنٌ لمن يخافُ وللمخذولِ أَوْدى نصيرُه عَضِدُ

غيلان الشاعر

وممن ينسب إلى الطائف من الشعراء غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قَسِيّ وهو ثقيف.

وأمه: سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، أخت أمية بن عبد شمس، أدركَ الإسلامَ فأسلمَ بعدَ فتح الطائف، ولم يهاجر، وأسلم ابنه عامر قبلَه وهاجر، ومات عامر بطاعون عمواس بالشام سنة (١٨) وكان مع خالد بن الوليد، وكانَ فارسَ ثقيفٍ في زمانه، فرثاه غيلانَ بقوله:

عينـي تجـودُ بـدمعِهـا الهتّـانِ سحّا وتبكـي فـارسَ الفُرسـانِ

ياعامُ مَنْ للخَيْلِ لمّا أَحْجَمَتْ عِنْ شِدَّةٍ مَرْهُوبةٍ وطِعانِ

لو أستطيعُ جعلتُ منيّ عامراً بينَ الضلوعِ، وكلُّ حيٍّ فانِ

وكان له من الولد غير عامر ثلاثةٌ: عمّار ونافع وبادية، وقيل: إن خثعم جمعت جموعاً من اليمن، وغزت ثقيفاً بالطائف، فخرج إليهم غيلان بن سلمة في ثقيف، فقاتلهم قتالاً شديداً، فهزمهم وقتل وأسر، ثم منَّ على الأسرى فقال:

ألا يـا أختَ خَثْعَمَ خبّرينا بأيِّ بلاءِ قومٍ تَفْخَرِيْنَا

جلبنا الخيلَ مِنْ أكنافِ وَجٍّ ولِيَّةَ نحوَكم بالدّارِعِيْنَا

تـركـنَ نسـاءَكـم البـدّار نـوحـاً يبكـون البعــولَــةَ والبَنِيْنـا
جمعتـمْ جَمْعَكُـمْ فطلبتمـونـا فهـلْ أُنْبِئْـتِ حـال الطـالبينـا

واستشهد نافع بن غيلان مع خالد بن الوليد بدَوْمة الجندل، فجزع عليه غيلانُ وقال:

مـا بـالُ عيني لا تُغَمِّضُ سـاعـةً إلا اعْتَـرَتْنِـي عبـرةٌ تغشـانـي
أَرْعَـى نجـومَ اللّيْـلِ عِنْـدَ طلـوعهـا وهناً، وهن من الغروب دواني
يا نافعاً من للفوارِسِ أحْجَمَتْ عـن فـارِسٍ يعلـو ذُرَى الأقـرانِ
فلو استطعتُ جعلتُ منّي نافِعاً بيـن اللّهـاةِ وبيـنَ عَكْـدِ لسَـانِـي

وكثر بكاء غيلان على نافع، فعوتب في ذلك فقال: واللهِ لا تسمحُ عيني بمائها فأضنُّ به على نافع، ثم تطاول العهدُ ففتر ما به، فقيل له في ذلك فقال: بلي نافع وبلي الجزع، وفني وفنيت الدموع، واللحاق به قريب.

ووفد غيلان على كسرى في خبر استوفاه صاحبُ «الأغاني» فعهد إليه كسرى بأن يبنيَ له قصراً بالطائف ففعل.

[المختار الثقفي]

وممن يُنْسَبُ إلى الطائف، واشتهر جداً، المختار الثقفي بن أبي عبيد، ولد عام الهجرة، ورحل من الطائف مع أبيه في أيام عمر رضي الله عنه حين نَدَبَ الناس إلى العراق، وكان منقطعاً إلى بني هاشم، وصحب علياً رضي الله عنه، وسكن البصرة بعد علي، ولما تولّى بنو أمية نفوه إلى الطائف بلده، فأقام بها إلى أنْ بُويعَ عبدُ الله بن الزبير بمكة، فأتاه، واستعمله ابنُ الزبير على الكوفة، فجرى بينه وبين مصعب بن الزبير خلافٌ أدى إلى القتال، فقتله مصعب في سنة (٦٧) وقيل: ادعى النبوة، فقتله ابن الزبير!!

[من دفـن في الطـائف مـن أمـراء الأشراف]

ودفن [في الطائف] آخرون من الأعيان والصلحاء والأمراء ومن هؤلاء الأمير **جعفر بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن**، تولى إمارة مكة سنة (١١٧٢) ثم نزل عنها لأخيه مساعد، ومات بالطائف سنة (١١٧٨).

ثم الأمير **عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون**، ولي إمارةمكة بعد وفاة أبيه محمد بن عون، أول أمير عليها من ذوي عون، وبقي فيها نحو (٢٠) سنة، وكانت وفاته بالطائف سنة (١٢٩٤).

ثم الأمير **عون الرفيق** بن محمد بن عبد المعين بن عون، أخو الأمير عبد الله، ولي الامارة سنة (١٢٩٩) وبقي فيها إلى أن توفي بالطائف سنة (١٣٢٣) وله قصر بديع،أتمّ الطابق الأول منه وبقي بدون نجارة، ولا يزال قائماً من شدة متانته، وهومشرف على السهل الأفيح الممتدِ منه إلىالثكنة العسكرية.

* * *

تخطيط الطائف
وسبب نزول ثقيف

ولنذكر الآن ما قيل عن تخطيطِ الطائف، وسبب نزول ثقيف بها، فنقول: قال الهمداني صاحبُ «صفة جزيرة العرب» ـ الذي لم يؤلَّف في بابه مثلَه ـ مايلي: الطائفُ مدينةٌ قديمةٌ جاهليةٌ، وهي بلد الدِّباغ، تُدبَغُ بها الأُهُبُ الطائفية المعروفة[1]، وتسمّى المدينة أيضاً الطائف، والمعنى مدينة الطائف، وساكنوا الطائف ثقيفٌ.

ويسكن شرقيَّ الطائف قومٌ من ولد عمرو بن العاص، وواد قريب من الطائف يقال له بَـرَد، فيه حائطان لزُبيدة عظيمان، يقال لموضعهما: وجّ، وبشرقي الطائف وادٍ قال له: لِيَّة، يسكنه بنو نصر من هوازن.

ومن يماني الطائف واد يقال له: جفن لثقيف، وهو بين الطائف وبين معدن البرام، ويسكن معدن البرم قريش وثقيف.

ومن قبلة الطائف أيضاً وادٍ يقال له: مِشْرِيق لبني أمية من قريش، ووادي جلذان منقلب إلى نجد في شرقيِّ الطائف، يسكنه بنو هلال.

وفي قبلة الطائف حائطُ أم المقتدر، الذي يدعى سلامة.

وبين الطائف وبين عرفة وادي نَعمان، وفيه طريقُ الطائف المختصرة إلى مكة، وأما المحجة فعلى قَرْن المحرم. انتهى[2].

---

(١) [في صفة جزيرة العرب: المعروكة].

(٢) [صفة جزيرة العرب: (٢٦٠)].

قلت: أما أنّ الطائف قديمةٌ جاهليةٌ فمما لا شكّ فيه، وقال في «صبح الأعشى»: إنّها كانت قديماً للعمالقة، ثم نزلتها ثمود، قبل وادي القُرى، ويقال: إنّه نزلها عدوان بعد العماليق، وغلبتهم عليها ثقيف، فهي الآن دارهم.

وأما الدباغ فليس له أثر اليوم فيما رأيت.

وأما بَـرَد (بالتحريك) فالذي سمعتُه من أهل الطائف أنّه اسم الجبل الذي في غربي الطائف، بعيدٌ عنها نحو ثلاث إلى أربع ساعات، وهو أعلى جبلٍ هناك، ومن أسفله يأتي ماء المثناة، ومنه يسيلُ وادي وَجّ، ولا ينافيه قول الهمداني: إنّه وادٍ، فإنّ الجبلَ لا يكون بلا وادٍ، والوادي لا يُتصوَّرُ وجودُه بلا جبل، فقد يكون اسم بَـرَد للجبل والوادي معاً، وهذاالجبل شديدُ البرد، ومنه اسمه بَرَد الدال على برده، إلا أنّه لا ينزِلُ عليه الثلج في الشتاء مثلَ جبال الشام، وإنما ينزل البَرَدُ ـ محركة ـ هو حَبُّ الغمام، ويتجمَّدُ فيه الماء.

والجبال في جزيرة العرب وإن أنافت على جبال الشام في الارتفاع، فإنّها لوقوعها في المنطقة الحارة، لا ينزِلُ عليها الثلجُ مثل جبالنا، فلهذا لا تجد في الجزيرة الأنهارَ الكبار التي تجدها في الأراضي الضاربة في الشمال[1].

إنّ الهمداني يستعمل الخِبّة بالكسر بمعنى المنطقة، ولعله أخذَها من قولهم الخبة ـ مثلثة ـ طريقة من رمل أو سحاب، والخِبة من الثوب شبه الطرة، وقيل شبه طية من الثوب مستطيلة.

وقد ورد في كتب اللغة اسم «بَـرَد» و«بردى» و«برديا» لأماكن كثيرة من أنهار وغدران وجبال وغيرها، وقيل إنّ بَرِد ـ وضبطها البكري بكسر

---

(١) يقول بعض علماء الإفرنج: إنّه كان فيها أنهار عظيمة وعمرانٌ عظيمٌ قبل عصر التاريخ، ويدلُّ على ذلك وجود الأودية العميقة.

الراء ـ جبل في أرض غطفان، ولا أظنُّ أنّه هو هذا الجبل الذي بقرب الطائف، لأنّ هذا مفتوح الراء، ثم لأنّ غطفان وهم بطن من قيس عيلان كانوا ينزِلون بوادي القُرى شماليِّ الحجاز، وبجبلي أجأ وسَلمى، فليست منازلهم بالطائف وجبالها.

وقد ذكر ياقوت في «معجم البلدان» بَـرَد ـ محركة بفتح الراء ـ وقال: إنّه موضعٌ في قول بدر بن هزّان الفزاري:

ما اضطرك الحِرْزُ من ليلَى إلى بَرَدٍ   يختـارُه معقِـلاً عَـنْ جش أعيـارِ

ولم يعين هذا الموضع.

أما جش أعيار الذي ذكره بدر الفزاري فهو موضع أيضاً لم يذكر ياقوت أي موضع هو؟

وجاء في «تاج العروس» هذا البيت منسوباً إلى بدر المازني لا بدر الفزاري. ولم يفسّر (جش أعيار) إلا بقوله: موضع.

وأغربُ منه أنّ البيتَ نفسه وارد في «لسان العرب» منسوباً إلى النابغة (وجش أعيار) غير مفسَّرٍ فيه، إلا بقوله: موضع.

وأوردَ ياقوتُ بيتاً آخر عن بَـرَدٍ ـ مفتوح الراء ـ للفضل بن العباس اللهبي:

إنّي إذا حَلَّ أهلي مِنْ دِيارِهِمُ   بَطْنَ العقيقِ وَأَمْسَتْ دارَها بَـرَدُ

وبعده:

تَجْمَعُنَـا نيـةٌ لا الخِـلَّ واصلـةٌ   سُعْدَى، ولا دارُنا مِنْ دَارِهم صَدَدُ

ولا نقدر أن نعرف منه هل برد المقصود في هذا الشعر هو هذا الجبل الذي نحن بصدده أم غيره؟

وقد ورد اسم «بردى» بالألف المقصورة لجبلٍ في الحجاز، فهل

يا ترى هو هذا الذي يقولون له بَـرَد، وقد أوردُوا شاهداً عليه قولَ النعمان بن بشير كما في «تاج العروس»:

يا عَمْرَ لو كُنْتُ أَرْقَى الهُضْبَ مِنْ بَرَدَى ... أو العُلا مِنْ ذُرَى نَعمان أوجَرَدا
لمّـا رقيتُـك لاستهـونْـتُ مـانِعَهـا ... فهـل تكـونيـنَ إلا صخـرةً صلـدا

فالأشبه أن يكونَ هو المرادُ، وذلك نظراً لذكره نَعمان، وهو الوادي الذي بين مكة والطائف ومنه إلى الهدا، العقبة الكبرى التي يقال لها: كرى الكبير، وأما جرد ـ محركة ـ فهو جبل في بني سُليم.

وأمّا قولُ الهمداني: إنّ في بَـرَد حائطين كبيرين لزبيدة عظيمين يقال لموضعهما وَجٌّ، فأظنُّه يعني بهما الوَهْط والوَهَيْط، الأول بفتح فسكون، والثاني بالتصغير، وذلك أنّه لا يوجَدُ في سفوح بَـرَد مياهٌ تسقي بساتين إلا في الوهط والوُهَيط، الأول جارٍ الآن في وقفِ الأشراف ذوي زيد، والثاني يخصُّ ذرية الشريف عون الرفيق من ذوي عون.

لقد ورد ذكر **الوهط** في «معجم البلدان» قال ياقوت: والوهط المكان المطمئن المستوي، يُنْبتُ العضاةَ والسمرَ والطلحَ، به سمي الوهط. . وهو مالٌ كان لعُمْرِو بن العاص بالطائف، وهو كَرْمٌ كان على ألف ألف ـ (أي مليون) ـ خشبة، اشترى كل خشبة بدرهم قال ابن الأعرابي: عرّش عمرو بن العاص بالوهط ألف ألف عودِ كرمٍ، على ألـف ألـف خشبـة، ابتـاع كـلَّ خشبـة بـدرهـم، فحـج سليمـانُ بـن عبد الملك[1] فمرّ بالوهط فقال: أُحِبُّ أن أنظرَ إليه، فلما رآه قال: هذا أكرمُ مالٍ وأحسنُه، ما رأيتُ لأحدٍ مثلَه، لولا أنّ هذه الحَرّة في وسطه.

فقيل له: ليست بحرة، ولكنّها مِسْطاحُ الزبيب، وكان زبيبُه جُمِعَ في وسطه، فلما رآه من البعد ظنّه حَرَّةً سوداء.

---

(١) [الذي في المجاز ص (٢٥٥): معاوية بن أبي سفيان، وقد أراد معاوية أن يهب له عمرو الوهط، فاحتال عمرو لحفظ ماله بحلية لطيفة].

وقال ابن موسى: الوهطُ قريةٌ بالطائف، هي على ثلاثة أميال من وَجٍّ، كانت لعمرو بن العاص.

قلت: لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر، ثم غزا منها طرابلس، مَرّ بالجبل الأخضر، الذي يندُرُ نظيرُه في الخصب والإمراع وخضرة البقاع، فقال: لولا أموالي بالحجاز ما اخترتُ على هذه الأرض، فكنتُ إذا قرأتُ هذا الكلام ولم أكن عرفتُ جبالَ الطائف أتعجَّبُ منه، قائلاً: ماذا عسى أن يكون لسيدنا عمرو من الأموالِ في قُطْرٍ ناشف كالحجاز؟

ولما ذهبتُ في جهاد طرابلس الغرب إلى الجبل الأخضر[1]، وأقمتُ به أشهراً، وعرفت عينَ منصور، وعين ماره، والقيقب، وشحات - محل سيرنا القديمة - والمرج وغيرها، وسِرْتُ بين فينان الدوح ومشتبك الشجر، الذي لا يتخلّله نورُ الشمس في كثير من المواضع مسافة عشرة أيام، ورأيتُ تلك المناظر المشرفة من شاهق على البحر، لا يحاكي فُسْحَةَ منظرِها إلا عاليه، وعُبَيّة، وبيت مِرّي، وبرمانة، وما في خطها من جبل لبنان - قلت لنفسي لما عرفتُ ما الجبل الأخضر، وما هو مِنْ طيبِ النُّجْعَةِ: علمتُ معنى افتتان عمرو بن العاص بالجبل الأخضر، لكنني لم أعلم وجه مقايسته له بالحجاز، وعدم رغبته عن أمواله في الحجاز إلى ذلك الجبل المنقطع النظير في الخضرة والنضرة، إلا أنّي لما شاهدتُ جبال الطائف، وأقمتُ بها أيضاً عِدَةَ أشهرٍ - علمتُ أن لعمرو بن العاص وجهاً للقول، وحقاً في التيه بأمواله في الحجاز، فإنّ في جبال الطائف جناناً مَدَّتْ عليها الخضرةُ رواقَها، ورياضاً شدت بها النضرةُ نطاقها.

فأما الوهط فقد انحط كثيراً عن درجته السابقة، ورتبته السامقة،

---

(١) عام (١٣١٠ - ١٩١٢).

ولا تجد فيه لا ألفَ ألف عودِ كرم، ولا ألف عودِ كرمٍ، ولامِسْطاحاً واحداً للزبيب[1].

ومن أغرب الأمور أنّي حدَّقت كثيراً في أرضِ الوهط على ما هي عليه الآن، فلم أجدها تسعُ هذه النعمة التي وصفوها، ولم أجد الماءَ كافياً لشيء منها، بل رأينا عَيْنَ الوهطِ، وكان ذلك في شهر أغسطس - آب لا تجري إلا إلى مسافة قصيرة جداً، وقال لنا أهلُ القرية: إنّها في بعضِ السنين التي يكونُ المطرُ فيها نزراً تنقطعُ تماماً، ويضطرون إلى الاستقاء من المثناة، أي من مسافة ساعة، فكيف كانَ الوهط بتلك النعمة التي حدثوا عنها، وهو الآن لا يكادُ ماؤه يسقي بعضَ حيطانٍ، وقد ينقطع بعضَ السنين، إنّ في ذلك لسرًا، والذي أظنّه أنّه قد كان الشجرُ في جبال الطائف لذلك العهد أكثرُ جداً، فكان المطر أغزرَ، وكانت العيونُ أجرى، وكانت الجنانُ أعظمَ، وإنّ الذي أصابَ هذه الجبال من قِلَّةِ المطر التي لا تسمع أهلَ تلك الديار إلا شاكين منها، إنما هو من أثر قطع الأشجار، وزوال الحراج الملتفة.

وهناك سبب آخر للخصب والعمران قد زال أيضاً بتطاول الأعصر، وهو السدود التي كانوا يجعلونها على الأودية، ومجاري المياه الشتوية، فكانت تخزن المياه إلى مدة طويلة، وتسقى الأرضات العطاش، وتمسك بأرماق الخضرة في سني القحط، وأينما ذهبتَ في جزيرة العرب تجدُ سدوداً دارسة وقُنياً خربة[2].

---

(١) الذي في «لسان العرب» وفي «القاموس» هو المسطح لا المسطاح، قال في «اللسان»: والمسطح تفتح ميمه وتكسر، مكانٌ مستوٍ يبسَطُ عليه التمر ويجفف، ويسمى الجرين يمانية، وقد استدرَكَ صاحبُ «تاج العروس» على «القاموس» بقوله: والمسطاح لغة في المسطح، ومنه قول ياقوت الحموي أو قول الذي نقل عنهم، ونحن أيضاً في جبل لبنان نقول: مسطاح تين، ومسطاح زبيب.

(٢) قرأتُ في أرجوزة أحمد بن عيسى الرداعي في الحج قوله: =

ولما كان العرب منحصرين في الجزيرة لا يتجاوزُ ملكُهم شطوطَها البحرية، وباديةَ الشام من الشمال، كانت الجزيرة عامرة، والمدن كثيرة، والقرى متصلة، والمزارع ناضرة، والقصور والجواسق وأماكِن النزهة لا يأخذها العد، فإنّ أراضيها المنبتة كانت تضِيْقُ بأهلها، فكانوا يعملون فيها بكدٍّ عظيم، ليستغلوا منها كل ما يقدرون أن يستغلوه، ويتذرعون للخصب بأصنافِ الحيل.

فلما ظهر الإسلام وهَبَّ العرب للفتوحات، ونشر عقيدة التوحيد من جبال الهندكوش إلى جبال الألب، وكان خلفاؤهم يندبونهم للغزوات،

= لضيعـــة الطلحـــي مستقيمـــه ... صـــادرة عنهـــا تـــؤم الـــزيمـــه
ثـــم علـــى سبـــوحـــة القـــديمـــه ... حيـــثُ بـــريـــدُ الصخـــرةَ القـــديمـــه
مطنبـــة فـــي السيـــر ذي العـــزيمـــه ... إلـــى أريـــك تعتلـــي صميمـــه
حميـــدة فـــي الـــركـــب لا مليمـــه ... بـــاقيـــة أعـــراقهـــا كـــريمـــه
إنـــي لأرجـــو أن تـــرى سليمـــه ... محمـــودة فـــي الـــركـــب لا مـــذيمـــه

قال الهمداني في تفسير هذه الأبيات (٣٨٨): (ضَيعةُ الطلحي) من قريش نخل قديمات. (الزيمة) موضع فيه بستان عبد الله بن عبيد الله الهاشمي، وكان في أيام المقتدر على غاية العمارة، وكان يغلُّ خمسةَ آلاف دينار مثقال، وفيه حصن للمقاتلة مبنيٌّ بالصخر، ويحميه بنو سعد من ساكنة غزوان، وعدد جذوعه ألوفٌ، وفيه غيل مستخرج من وادي نخلة غزير يُفْضِي إلى فوّارةٍ في وسط الحائط تحت حنية، ثم إلى ماجلٍ كبير، وفيه المرز والحنا. وأنواع من البقول.

و(سبوحة) موضع و(أريك) عقبة تضاف إلى المكان، فيقال: عقبة أريك بضم الألف وأريك بفتحها اهـ.

قلت: مررت بالزيمة مراراً، ولم أجد شيئاً من تلك العمارة التي كانت في أيام المقتدر، ولا حصناً هذا وصفُه، وإنما هناك عين فوّارة من الصخر، يُسْمَعُ خريرُها من بعيد، وليس فوقها حنية، ويسقي بها العرب بعض زرائع وأشجار في الوادي ا هـ المؤلف. =

ويستجيشونهم بدون انقطاع، وكانوا هم مادَّةَ الإسلام وحملة الدين الجديد إلى الأمم، كانت القواصي تأكلُهم، والحروب تفني منهم مئات الألوف، وكانتْ قبائلهم أصبحتْ منتشرةً من الصين، إلى الهند، إلى فارس، إلى الروم، إلى مصر، إلى أفريقية، إلى الأندلس، إلى فرنسة، إلى جزائر البحر، فلم يبق منهم في الجزيرة العدد الذي يقومُ بعمرانها.

وكانوا في هذا أشبه بإسبانية التي بعد فتحها للمكسيك ولأمريكة الجنوبية قد تقهقرت إلى الوراء، بما هاجر من أهلها إلى تلك الديار، التي فاق فيها الإسبانيول في العدد مَنْ بقيَ منهم في وطنهم الأصلي.

فهذا هو السبب الحقيقي في تقلُّصِ عمران الجزيرة بعد الإسلام، حتى عاد الوهط مثلاً دسكرة حقيرة، بعد أنْ كانَ مسطاحُ الزبيب فيه يُظَنُّ حرَّةً لسواده واتساعه.

ومما لا ريبَ فيه أنّ كرومَ الطائف كانت لعهدِ البعثةِ أكثرَ مما هي الآن مراراً، وكانت الخيرات فوق التصور، فقد روى البلاذُري في «فتوح البلدان»[1] أنّ سفيان بن عبد الله الثقفي كتب إلى عمر رضي الله عنه، وكان عاملاً له على الطائف، يذكر أنّ قِبَلَهُ حيطاناً فيها كروم، وفيها من الفرسك[2] والرُّمان ما هو أكثر غلة من الكروم أضعافاً، واستأمره في العُشْرِ، فكتب إليه عمر: ليس فيها عُشْرٌ.

---

(١) [فتوح البلدان (٦٩)].

(٢) المؤلف: الفرسك هو ما نسميه نحن في الشام بالدرّاقن بالتشديد، وقد يخفف. قال:

وتضربني الحبيبة بالدراقن وتحسبني الحبيبة لا أراها

ويقولون له في مصر والمغرب: الخوخ، وأما في اليمن فيقولون له: فرسك، كما في الحجاز، وهي لفظةٌ فارسية، فإنّ اسم هذه الفاكهة فرسك في بلاد العجم، ويظهر أنّ الألمان أخذوها من فارس، فهم يقولون لها أيضاً: فرسك (Pfirich).

ويظهر من كلام البلاذري أنّه كانتْ تصدَّرُ من الطائف غلات عظيمة من الزبيب، ومن سائر المحصولات، ومن العسل، ولقد بقي من هذا شيءٌ، لكنّه لا يُقاس في قليلٍ ولا كثيرٍ إلى ما كان في الجاهلية وصدر الإسلام، وإنما غاضتْ هذه الغلاّت بِغيْضِ العمران، الذي يتوقّفُ على الرجال، وكان أكثر الرجال خرجوا إلى الفتوحات، واعتمروا أطرافَ الأرض.

والأصلح الآن لاستئناف العمران طريقتان:

إحداهما: **زرع الحراج، والإكثار من غرس الأشجار**، حتى تكثر الأمطار، فإن الله خلق لكل شيء سبباً، فهذه من أسباب الأمطار.

والثانية: **الرجوع إلى السدود والخزانات التي تحفظ المياه**، وتروي الأرضين عند عطشها، وعند الوهط مكانٌ ضيّقٌ على وَجّ، ولو أنّ إدارةَ الزراعة في الحجاز بنت فيه سداً، لما كانتْ كلفتُه كثيرةً، ولاستأنف به الوهط عمرانه القديم.

وأما **وادي لِيَّة**، الذي يسكنه بنو نصر من هوازن، فقد زرتُه، وبِتُّ فيه ليلةً، وهو وادٍ ضيّقٍ مستطيلٍ، يمتدُّ مسافة أربع ساعات، مبدؤُه من بلاد السفاينة من ثقيف، وهو ينحدِرُ نحوَ الجنوب الشرقيِّ، وعليه من الجانبين البساتين والجنان والزروع، وكلُّها تُسْقَى بالسواني، لأنّ مياه الوادي تشحُّ كثيراً في الصيف، وقد ينقطِعُ بعضُها عن بعض، فلا يبقى منها إلا غُدْران تَرِدُها المواشي، أشهرُها الذي يقال له: غديرُ البنات.

وبيوتُ سكان الوادي مرتفعةٌ عن النهر، احتياطاً من السيل، لأنه كثيراً ما تطغى المياه على الجانبين. والبيوت مبنيةٌ بالحجر، تَظُنُّ بعضها أبراجاً منيعة.

وللوادي تربةٌ هي الحد الأقصى في الخصب، فتجدُ من نماء الشجر ما يَحَارُ فيه العقل.

وجميعُ ما في هذه الجنان أشجارُ مثمرة، منها، الكرمة، والسفرجل،

والرمان، والفرسك، والحماط، والكمثرى، وغيرها، وكلُّها عدا الحماط ـ أي التين ـ هي في الطبقة العليا بين الفواكه.

أماالرمان فهو كحب الياقوت، ليس له نظيرٌ منظراً وطعماً، وقد اشتهر وادي لِيَّةَ به، ومما يجب على إدارة الزراعة في الحجاز أن تبني في أعلى المعمور من هذا الوادي سداً، يتكون منه خزان يكفل جميعَ حاجة الوادي في أيام القيظ، عندما تشحُّ آبار السواني.

وقيل لي: إنّ خزاناً كهذا لا تزيد كلفتُه على خمسة أو ستة آلاف جنيه، على حين ما يرده من ريع البساتين يعدِلُ هذه القيمة من أول سنة، فإنّ أثمانَ الفواكه في مكة لا يعادِلُها شيءٌ، ويمكن الحكومة أن تبني لأهلِ وادي لِيَّة هذا الخزان، ثم تستردُّ منهم كلفتَه تقسيطاً.

هذا وقد ذكر ياقوت هذا الوادي في «المعجم» فقال: لِيَّة بتشديد الياء وكسر اللام لها معنيان: اللية قرابة الرجل وخاصته، واللية العود الذي يستجَمُر به، وهو الألوة، ولِيَّة من نواحي الطائف، مرَّ به رسول الله ﷺ حين انصرافه من حُنين، يريدُ الطائف، وأمر وهو في لِيّة بهدم حصن مالك بن عوف، قائد غطفان، وقال خفاف بن ندبة:

سَرَتْ كلَّ وادٍ دونَ رَهْوَةَ دافعٌ وجِلْـذان أو كـرمٍ بلِيّـةَ مُحْـدِقِ

في أبياتٍ ذُكِرَتْ في جلذان.

وقال مالك بن خالد الهذلي

أمالِ ابنِ عوفٍ إنما الغزوُ بينَنا ثـلاثُ ليـالٍ غيـر مغـزاة أشهـرِ
متى تَنْزِعُوا مِنْ بَطْنِ لِيَّةَ تُصْبِحوا بِقَرْنٍ، ولم يَضْمُرْ لكم بَطْنُ محمرِ

ا هـ. واستشهد بأبيات أخرَ على ذكر لِيَّةَ.

وأما جلذان بكسر الجيم وسكون اللام ـ واختلف في الدّال، فمنهم من رواها معجمة، ومنهم من رواها مهملة ـ فموضعٌ بقرب الطائف. قال ياقوت: يسكنُه بنو نصر بن معاوية من هوازن، ومن الأمثال

المضروبة أسهلُ من جِلْذان. فنقل ياقوتُ عن نصر بن حماد أنّه حِمّى قريب من الطائف، مستو كالراحة.

وجاء في «المعجم» عن جِلْذان هذان البيتان لحسن بن إبراهيم الشيباني مِنْ سكان الطائف:

وجِلذانَ العريضَ قطعنَ سوقاً … يُطِرْنَ بِأَجْرَعَيْهِ قطاً سكونا
تَخَالُ الشَّمْسَ إنْ طَلَعَتْ عليه … لِناظِرِها علاليَ أوْ حُصُوْنا

ومن الأمثال المضروبة: صرَّحتْهُ بجلذان بجدّان وبجدّاء، إذا تبيّنَ لك الأمرُ وصرح، والتاء في قوله صرَّحَتْ إشارة إلى القِصّة أو الخِطة

وقال أمية بن الأسكر:

أصبحتُ فرداً لِرَاعي الضَأْنِ يَلْعَبُ بي … ماذا يَرِيْبُكَ مِنّي رَاعِيَ الضَّانِ
أعجب لغيرِيَ إنّي تابعُ سَلَفِي … أعمامَ مجدٍ وإخوانٍ وأخدانِ
وانعق بِضَأْنِكِ في أَرْضٍ تطيفُ بها … بيْنَ الأصافِرِ وانتُجْها بِجِلْذَانِ

وقال خفاف بن ندبة يذكر جِلْذان:

ألا طرقتْ أسماءُ مِنْ غيرِ مطرق … وأنّى ـ وقد حَلّتْ بِنَجْرَانَ ـ نلتِقي
سَرَتْ كلَّ وادٍ دون رَهْوَةَ دافعٌ … وَجِلْذَانَ أو كرم بليّةَ محدقِ
تجاوزتِ الأعراضَ حتى توسَدَتْ … وسادِي لدى بابٍ بِجِلْذَانَ مُغْلَقِ

فالكروم المحدقة في لِيّة هي من قديم الزمان.

وأما سكان وادي لِيَّةَ الآن، فأولهم الأشراف، الذي يقال لهم الفعور، ولهم أفضُل البساتين، والباقي من العرب شماطيط، وأكثرُهم من عُتيبة، ويقال: إن عُتيبة هي من هوازن، وقد بحثتُ عن عُتيبةَ في الكتب القديمة، فلم أجد إلا قولهم عتيبة قبيلة من العرب، وقد ذكروا أنّ حياً من اليمن اسمه عُتيب.

وأما هوازن فمن قبائل قيس، وهم بنو هوازن بن منصور بن عِكْرمة بن خصفة بن قيس عيلان، ومِنْ هوازن بنو سعد بن بكر بن هوازن، كانوا أفصحَ العرب، وكان النبيُ ﷺ رضيعاً فيهم، قال في

«صبح الأعشى» نقلاً عن «العِبر»: وقد افترق بنو سعد هؤلاء في الإسلام، ولم يبقَ لهم حيٌّ فيطرق، إلا أنّ منهم فِرقة بأفريقية من بلاد المغرب، بنواحي باجة، يعسكرون مع جند السلطان.

قلت: وقد أصاب هذا التشتتُ كثيراً من قبائل العرب، بسبب الفتوحات الإسلامية في صدر الملة، والرحيل إلى الآفاق، ففي كاشغر قبائلَ تركية أصلها من العرب من عهد قتيبة فاتح بلاد الترك، وفي الطاغستان على شواطىء بحر الخزر بطونٌ كثيرةٌ أصلُها عرب من زمن الفتح، وفي السند والهند أناسٌ كثيرون متحدِّرون من أصول عربية، وفي أفغانستان وفارس أسرٌ كثيرةٌ أصولُها عربية، وفي الأندلس، وفي جنوبيِّ فرنسة، وفي صقلية، وعلى شطوط إيطالية أممٌ أصلُها من العرب، هذا عدا القبائل التي تفرّقت في الأقطار، والتي هي إلى الآن عربية كالشام، والجزيرة، والعراق، ومصر، والسودان، وبرقة، وطرابلس، والصحراء الكبرى إلى أواسط أفريقية، وبحيرة تشاد، وكذلك تونس، والجزائر، والمغرب، والسوس الأقصى، إلى تنبكتو، وأضفْ إلى هذا بلاد الحبشة، والصومال، وزنجبار، وجزائر القُمَرَ، ومدغشقر، وموزامبيق، ولا تجدُ في أفريقية قُطراً إلا فيه أقوامٌ من العرب، ولا تنسَ سنغافورة، وجاوَة، وسومطرة الخ[1].

ومن هوازن بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن.

ومن بني عامر بن صعصعة بنو كلاب، الذي هاجروا إلى الشام، وكانت لهم دولة وصولة في حلب.

---

(١) العبرة الكبرى في هذا أنّ العرب كانوا في أيّام حياتهم ودولهم يدخلون المصر أو القطر من بلاد الأعاجم، فيحوِّلون أهلَهُ إلى دينهم ولغتِهم بقوة تأثيرهم في الهداية، ثم انعكست القضيةُ، فتحولوا هم إلى لغةِ بعض الأقطار، وإلى دينِ بعضٍ آخر ولغته، فهل يعتبرون فيعلمون كيف يرجعون؟

ومن بني عامر بن صعصعة بنو هلال، وهم الذي ذكر الهمداني أنّهم يسكنون وادي جِلْذان، وقد هاجر بنو هلال إلى مصر والشام والمغرب، ولم يبقَ لهم في جبال الطائف إلا آثار وأخبار، فكلُّ شيءٍ قديمٌ يقولُ عنه الأهالي: إنّه من زمن بني هلال.

قال الهمداني: وكان لهم بلادُ صعيد مصر كلّها، وذكرهم ابن سعيد في عرب برقة، وقال: منازِلهم فيما بين مصر وأفريقية، ولم يزالوا إلى أن بايعوا لأبي ركوة في أيام الحاكم العبيدي، فرماهم بغيرهم من العرب، وأفنى أكثَرهم، ونزح مَنْ بقيَ منهم إلى المغرب الأقصى، فهم مع بني جُشَمٍ هناك، ومنهم طائفة بحلب، وطوائف في أسوان، وأخميم، وأصفون، وإسنا من الصعيد.

ولا يزالُ من بني هلال في الحجاز حرب فيما ذكره ابن سعيد، وهم ثلاثة بطون: بنو مسروح، وبنو سالم، وبنو عبيد الله.

ومن هوازن بنو عُقَيل ـ بضم العين وفتح القاف ـ وهم بنو عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وكانت منازِلُهم بالبحرين، وكان معهم من العرب بنو تغلب وبنو سُلَيم (بضم ففتح) فاقتتلوا في إحدى المرار، وكان بنو تغلب وبنو عُقَيل يداً على بني سُلَيم، فأخرجوهم من البحرين، فجاءوا إلى مصر، ومنها نزلوا ببرقة، فأكثرُ عرب الجبل الأخضر من بني سُليم بن منصور، ثم اقتتل بنو تغلب وبنو عُقَيل، فتغلب بنو تغلب على هؤلاء، فخرجوا إلى العراق، ومنها تغلبوا على الموصل والجزيرة، وكانت لهم هناك دولة وسلطان.

ثم لما جاء الأتراك السلاجقة وانتزعوا منهم بلاد الجزيرة رجع منهم أناس إلى البحرين وتغلّبوا على بني تغلب فيها.

ومن بني عُقَيل بنو عبادة بالجزيرة الفراتية، وبنو خفاجة بالعراق، وكانت لهم إمرة فيه.

ومن بطون هوازن: بنو جُشَم، وكانوا بالسروات، وهي تلالٌ تفصِلُ

بين تهامة ونجد وسرواتهم متصلة بسروات هُذيل: وقد هاجر أكثرُهم إلى بلاد المغرب.

وثقيفٌ من بطون هوازن، وقد تقدَّمَ ذكر نسبهم، ويقال لوادي وَجّ بلادُ ثقيف، ولمدينة الطائف سُوُقُ ثقيف ـ إلى يوم الناس هذا.

* * *



عرض الطائف الجغرافي وسبب تأسيسه

والطائف في الإقليم الثاني، وعرضُها إحدى وعشرون درجة، كما في «معجم البلدان»، والأظهرُ في تسميتها بالطائف أنّه من الحائط المحدِقِ بها، ومنه قول أبي طالب بن عبد المطلب.

نحن بنينا طائفاً حصينا

قال ياقوت: وهي مع هذا الاسم الفخم بُليدةٌ صغيرةٌ على طرفِ وادٍ، هي محلتان إحداهما عن هذا الجانب يقال لها طائفُ ثقيف، والأخرى على هذا الجانب يقال لها: الوَهْط، والوادي بين ذلك تجرِي فيه مياه المدابغ، التي يدبَغُ فيها الأديم، تصرَعُ الطيورَ رائحتُها إذا مرّتْ بها، وبيوتُها لاطئة حرجة، وفي أكنافها كرومٌ على جوانب ذلك الجبل، فيها من العنب العذب ما لا يوجَدُ مثلُه في بلد من البلدان، وأما زبيبُها فيضرب بحسنه المثل، وهي طيبة الهواء شامية، ربما جمد فيها الماء في الشتاء، وفواكِهُ أهل مكة منها، والجبل الذي هي عليه يقال له غزوان.

ونقل عن عرام أنّ الطائف ذات مزارع، ونخل، وأعناب، وموز، وسائر الفواكه، وبها مياهٌ جارية، وأودية تنصبُّ منها إلى تبالة، وجلُّ أهلِ الطائف ثقيفٌ وحميرُ، وقومٌ من قريش، وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوانَ قبائل هذيل. اهـ.

قلت: يظهر أنّ هذا وصفَ مَنْ لم يشاهِدْ الطائفَ، لأنّه لو شاهدَها لعرف أنّه ليس بها نخيلٌ ولا موزٌ، إلا إذا كان يعني بالطائف جميعَ

البلاد التي حولها، فقد يوجَدُ في الهابط من جوارِها شيءٌ من النخيل.

قالوا: وكانت الطائف تسمى وَجّاً باسم وج بن عبد الحي من العماليق، هو أخو أجأ، الذي سُمِّيَ به جبل طيء، قالوا: وكان رجل من الصدف يقال له: الدمسون بن عبد الملك، قتل ابن عم له بحضرموت، وفرّ هارباً، فأتى مسعود بن معتب الثقفي، وكان معه مال كثير، فرغِبَ إلى ثقيف أن يزوِّجوه فزوَّجُوه، وكان مِنْ رأيه أن يبني لهم طوفاً مثل الحائط، حتى لا يصلَ إليهم أحدٌ من العرب، فبناه لهم، فسميت من ذلك الوقت الطائف.

وقيل: بل كانت الطائِفُ بين ولد ثقيف وولد عامر بن صعصعة، فلما كثر الحيان، قالت ثقيف لعامر: إنكم اخترتم العمد على المدن، والوبر على الشجر، فلستم تعرفِونَ ما نعرف، ولا تلطفوه ما نلطف، ونحن ندعوكم إلى حَظٍّ كبير، لكم ما في أيديكم من الماشية والإبل، والذي في أيدينا من هذه الحدائق، فلكم نصف ثمره، فتكونوا بادين حاضرين، يأتيكم ريف القرى، ولم تتكلّفوا مؤونةً، وتقيمون في أموالكم وماشيتكم في بدوكم، ولا تتعرّضون للوباء (كانوا يعلمون أنّ الوباءَ إنما يكونُ في الحواضِرِ) ولا تشتغلون عن المرعى، ففعلوا ذلك، فكانوا يأتونهم كلَّ عام، فيأخذون نصفَ غلاتهم، وقد قيل: إنّ الذي وافقوهم عليه كان الربع.

فلما اشتدت شوكة ثقيف، وكثرتْ عمارةُ وَجٍّ رمتهم العرب بالحسد، وطمع فيهم مَنْ حولهم وغزوهم، فاستغاثوا ببني عامر، فلم يغيثوهم، فاجمعوا على بناء حائط يكون لهم حصناً، فكانت النساء تلبِّنُ اللبن، والرجال يبنون الحائط، حتى فرغوا منه، وسمّوه الطائف، لإطافته بهم، وجعلوا لحائطهم بابين:

أحدهما: لبني يسار، والآخر: لبني عوف، وسموا باب بني يسار صعباً، وباب بني عوف ساحراً، ثم جاءهم بنو عامر ليأخذوا ما تعوّدوه،

فمنعوهم منه، وجرت بينهم حرب، انتصرتْ فيها ثقيف، وتفرَّدَتْ بملك الطائف، فضربتهم العرب مثلاً، فقال أبو طالب بن عبد المطلب:

منعنــا أرْضنــا مِــنْ كــلِّ حَــيٍّ ... كمــاامتنعــتْ بطــائِفِهــا ثقيــفُ

أتــاهــم مَعْشَــرٌ كــي يَسْلُبُــوْهُــمْ ... فحــالَــتْ دُوْنَ ذلِكُــمُ السُّيُــوْفُ

وقال بعض الأنصار:

فكــونــوا دُوْنَ بَيْضَتِكُــمْ كَقَــوْمٍ ... حَمــوْا أَعْنَــابَهُــمْ مِــنْ كُــلِّ عَــادِ

وذكر المدائني: أنّ سليمان بن عبد الملك لما حَجّ مرَّ بالطائف، فرأى بيادر الزبيب، فقال: ما هذه الحرار؟ فقالوا: ليست حراراً، ولكنها بيادِرُ الزبيب، فقال: لله در قَسِي: بأيِّ أرضٍ وضعَ سهامَهُ، وبأيِّ أرضٍ مَهَّدَ عُشَّ فراخِهِ ا هـ.

قلت: لعلّ سليمان بن عبد الملك سمعَ بذكر عنب الطائف الشهير، فحج إليه من بعد أن حَجَّ البيت، ورأى ما رأى منه.

وهنا يخطر ببالي قصة عن شدة نهمه رواها عنه أحدُ أصحابه، وهو أنّهم ذهبوا معه يوماً إلى بستانٍ للنزهة، فأتوه بزنبيلين، أحدهما ملآن تيناً، والآخر ملآن بيضاً، فلم يزل يأكلُ من هذا تينة، ومن هذا بيضة، حتى أتى عليهما، ثم قام يطوفُ على الأشجار المثمرة، فقطف بيدِهِ من كلِّ نوعٍ وأكلَ أكلاً ذريعاً. قال رواي القصة: ثم صرنا نقول له: وهذا العِنقودُ يا أميرَ المؤمنين فيخرطه في فيه[1] الخ فلا عجب أنْ عرّجَ أميرُ المؤمنين سليمان على كروم الطائف . . .

* * *

(١) خرط العنقود: وضعه في فيه، ففضم حبه، وأخرج عمشوشه عارياً.

خبر فتح النبي صلى الله عليه وسلم الطائف

قال ياقوت: ثم حسدهم طوائف العرب وقصدوهم، فصمدوا لهم، وجدّوا في حربهم، فلما لم يظفروا منهم بطائلٍ، ولا طمعوا منهم بِغرّة، تركوهم على حالهم أغبطَ العرب عيشاً، إلى أنْ جاءَ الإسلام، فغزاهم رسول الله ﷺ، فافتتحها سنة تسع من الهجرة صلحاً، وكتب لهم كتاباً، نزل عليها رسول الله ﷺ في شوّال سنة ثمان عند منصرفه من حنين، وتحصَّنوا منه، واحتاطوا لأنفسهم غايةَ الاحتياط، فلم يكن إليهم سبيل، ونزل إلى رسول الله ﷺ رقيقٌ من رقيقِ أهلِ الطائف، منهم أبو بكرة نفيع بن مسروح مولى رسول الله ﷺ في جماعة كثيرة، منهم الأزرق الذي تُنْسَبُ إليه الأزارقة، والد نافع بن الأزرق الخارجي الشاري، فعتقوا بنزولهم إليه. ونصب رسول الله ﷺ منجنيقاً ودبّابةً، فأحرقها أهلُ الطائف، فقال رسول الله ﷺ: «لم يُؤْذَنْ لي في فَتْحِ الطائفِ» ثم انصرف عنها إلى الجِعْرانة، ليقسّم سبيَ أهلِ حُنين وغنائِمهم، فخافت ثقيفُ أنْ يعودَ إليهم، فبعثوا إليه وفدَهم، وتصالحوا على أن يسلموا، ويُقَرُّوا على ما في أيديهم من أموالهم ورِكازهم، فصالحهم رسول الله ﷺ على أن يُسْلِمُوا، وعلى أن لا يَزْنوا ولا يُربوا، وكانوا أهل زنا وربا. ا هـ.

قال ياقوت: وكان معاوية يقول: أغبطُ الناس عيشاً عبدي، أو قال: مولاي سعد، وكان يلي أمواله بالحجاز، ويتربّعُ جدة، ويتقيّظُ الطائف، ويشتو بمكة. ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميري زينبَ بنت

يوسف أختَ الحجاج بالنَّعمة والرفاهية فقال:

تَشْتُــــو بمكـــــةَ نَعْمَـــــةً ومَصِيْفُهـــا بـــالطَّـــائِـــفِ

وقال البلاذري في «فتوح البلدان»[1] عن غزوة الرسول ﷺ للطائف ما يأتي: لمَّا هُزِمت هوازن يومَ حنين، وقتل دريد بن الصمة، أتى فلُّهم أوطاس، فبعث إليهم رسولُ الله ﷺ أبا عامر الأشعري، فقتل، فقام بأمر النّاس أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري، وأقبلَ المسلمون إلى أوطاس، فلما رأى ذلك مالك بن عوف بن سعد أحدُ بني دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، وكان رئيسَ هوازن يومئذٍ، هرب إلى الطائف، فوجد أهلها مستعدّين للحصار، قد رمُّوا حصنهم، وجمعوا فيه الميرة، فأقام بها.

وسار رسولُ الله ﷺ بالمسلمين، حتى نزل الطائف، فرمتهم ثقيفُ بالحجارة والنَّبل، ونصب رسول الله ﷺ منجنيقاً على حصنهم، وكانت مع المسلمين دبابة من جلود البقر، فألقتْ عليها ثقيفُ سكك الحديد المحماة فأحرقتها، فأصيب مَنْ تحتها من المسلمين، وكان حصارُ رسول الله ﷺ الطائفَ خمسَ عشرة ليلةً، وكان غزوه إياها في شوال سنة ثمانٍ[2].

قالوا: ونزل إلى رسول الله ﷺ رقيق من رقيق أهلِ الطائفِ، منهم أبو بكرة بن مسروح مولى رسول الله ﷺ، واسمه نفيع، ومنهم الأزرق، الذي نُسبت الأزارقةُ إليه، كان عبداً رومياً حدّاداً، وهو أبو نافع بن الأزرق الخارجي، فأعتقوا بنزولهم، ويقال: إنّ نافعَ بن الأزرق الخارجي من بني حنيفة، وأنّ الأزرقَ الذي نزل من الطائف غيرُه.

---

(١) [فتوح البلدان]: (٦٦)].

(٢) [أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة الطائف رقم (٤٣٢٦ ، ٤٣٢٧) ومسلم في الجهاد والسير رقم (١٧٧٨)].

ثم إنّ رسول الله ﷺ انصرف إلى الجِعرانة، ليقسِّمَ سبيَ أهل حُنين وغنائمَهم، فخافت ثقيفُ أن يعودَ إليهم، فبعثوا إليه وفدَهم، فصالحهم على أن يُسْلِمُوا، ويُقِرَّهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم، واشترطَ عليهم أن لا يربوا، ولا يشربوا الخمر، وكانوا أصحابَ ربا، وكتب لهم كتاباً.

وكانت الطائِفُ تسمّى وَجّ، فلما حُصّنِتْ وبُنِيَ سورُها سُميتْ الطائفُ.

ثم قال البلاذري: حدثني المدائني، عن أبي إسماعيل الطائفي، عن أبيه، عن أشياخ من أهل الطائف، قال: كان بمخلاف الطائف قومٌ من اليهود، طُرِدُوا من اليمن ويثرب، فأقاموا بها للتجارة، فوضعت عليهم الجزية، ومن بعضِهم ابتاع معاويةُ أموالَهُ بالطائف.

قالوا: وكانت للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أرضٌ بالطائف، وكان الزبيب يحمَلُ منها، فينبَذُ في السقاية للحاج، وكانت لعامة قريش أموالٌ بالطائف يأتونها من مكة، فيصلحونها، فلمّا فُتحت مكة، وأسلم أهلُها، طمعت ثقيفُ فيها، حتى إذا فُتِحَتْ الطائف، أقرّتْ في أيدي المكيين، وصارتْ أرضُ الطائف مخلافاً من مخاليف مكة، قالوا: وفي يوم الطائف أصيبتْ عينُ أبي سفيان بن حرب. ا هـ.

قلت: إنّ من عرف أنّ أكثر المؤرخين ينقلون في الفتوح عن البلاذري، نظراً لقرب روايته من أيام الفتح، ومتانة أسانيده، وقارن بين رواية ياقوت الحموي في «معجم البلدان» ورواية البلاذري في «فتوح البلدان» ـ علم أنّ ياقوت إنما أخذ عن البلاذري، لأنّ العبارة تكادُ تكونُ واحدةً، وقد نقلها البلاذري عن الكلبي، وإنما تجنّب ياقوتُ أن يذكر أنّ الأزرقَ الذي نسبت الأزارقة إليه ـ كان عبداً رومياً حداداً ـ لأن ياقوتَ نفسَه كان عبداً رومياً، فحذف من روايته عن البلاذري ما يذكّر الناسَ بأصله هو.

وقد روى محمد بن سعد بن منيع صاحب «الطبقات الكبرى» غزوة الطائف كما يلي: ثم غزوة رسول الله ﷺ الطائف في شوال سنة ثمان من مهاجره. قالوا: خرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف، وقدّم خالد بن الوليد على مقدمته، وقد كانت ثقيف رمّوا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة، فلمّا انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم، وأغلقوه عليهم، وتهيّؤا للقتال، وسار رسول الله ﷺ، فنزل قريباً من حصن الطائف، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً، كأنّه رِجْلُ[1] جرادٍ، حتى أصيبَ ناسٌ من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، فيهم عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وسعيد بن العاص، ورمي عبد الله بن أبي بكر الصديق يومئذٍ فاندمل الجرح، ثم انتقض به بعد ذلك فماتَ منه، فارتفعَ رسولُ الله ﷺ إلى موضعِ مسجدِ الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أمّ سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين، وكان يصلّي بين القبتين حصار الطائف كلّه، فحاصرهم ثمانيةَ عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق، ونثر الحسك[2] سقبين[3] . من عبدان حول الحصن فرمتهم ثقيفُ بالنبل، فقتل منهم رجال، فأمرَ رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقِها، فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً، ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ: «فإنّي أدعُها للهِ وللرّحم»، ونادى منادي رسول الله ﷺ: «أيّما عبدٍ نزلَ من الحصنِ وخرجَ إلينا فهو حرٌّ» فخرجَ منهم بضعة عشر رجلاً، منهم، أبو بكَرة، نزل في بَكَرةٍ، فقيل: أبو بكَرة، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كلَّ رجلٍ منهم إلى رجلٍ

(١) [القطعة العظيمة].

(٢) آلة من الحديد، وأحياناً من الخشب، تلقى حول العسكر لتنشب في رجل من يدوسها، وهي أشبه بما يقال له اليوم: الأسلاك الشائكة.

(٣) السَقْبُ بفتح فسكون: الطويل من كلّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ تمّ وامتلأ فهو سقبٌ، والغصنُ الغليظ الريان سقب انتهى. والحاشيتان للمؤلف.

من المسلمين يمونَـهُ، فشقَّ ذلك على أهل الطائف مشقةً شديدةً، ولم يؤذَنْ لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، واستشار رسول الله ﷺ نوفلَ بن معاوية الديلي فقال: «ما ترى؟» فقال: ثعلب في جحر، إنْ أقمتَ عليه أخذته، وإن تركتَهُ لم يضرَّك، فأمرَ رسول الله ﷺ عمرَ بن الخطاب فأذّنَ في الناس بالرّحيل، فضجَّ النّاسُ من ذلك، وقالوا: نرحلُ ولم يفتح عليناالطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال»، فغدوا، فأصابتْ المسلمينَ جراحاتٌ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّا قافلون إنْ شاءَ الله» فَسُـرُّوا بـذلـك، وأذعنـوا، وجعلـوا يـرحلـون، ورسـول الله ﷺ يضحك، وقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله وحدَه، صدق وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه» فلما ارتحلوا واستقلوا، قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون» وقيل: يا رسول الله ! أدعُ اللهَ على ثقيف. فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم».

أخبرنا عمرو بن عاصم الكلابي، أخبرنا أبو الأشهب، أخبرنا الحسن، قال: حاصر رسول الله ﷺ أهلَ الطائف، قال: فرمي رجل من فوق سورها فقتل، فأتى عمرُ رضي الله عنه فقال: يا نبيَّ اللهِ ادعُ على ثقيفٍ، قال: «إنّ الله لمْ يَأذَنْ في ثقيف» قال: فكيف نقاتِلُ في يوم لم يأذِنْ اللهُ فيهم؟ قال: «فارتحِلوا» فارتحلوا. اهـ[1].

وقالوا في كتب السير في سبب غزاة الرسول ﷺ للطائف: إنّه لمّا حصرته قريش في الشعب، ومات عمُّه أبو طالب الذي كان يحوطُه، وماتت زوجته خديجة، التي كانت تثبته، وتقر عينه في الناس، خرج إلى الطائف من شدة الكرب، يرجو عندَ أهلِها النُّصرةَ، لأنّ الله جعلَ الطائفَ متنفَّساً لأهل مكة.

فلمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفرٍ من ثقيف،

---

(١) [الطبقات (١ : ١٥٩)].

وهم ثلاثة إخوة: عبدُ ياليل، ومسعودُ، وحبيب أبناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، وكانوا سادات قومهم، وكانت تحت أحدِهم امرأةٌ من قريش من بني جُمَح، فجلسَ إليهم رسولُ الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، وإلى نصرتِه فيما جاء به، فقال له أحدُهم: أمرطُ ثيابَ الكعبة إنْ كان اللهُ أرسلَكَ، وقال الآخر: أما وجدَ اللهُ مَنْ يرسله غيرك؟ وقال الثالث: واللهِ لا أكلِّمك أبداً، لئن كنتَ رسولَ الله كما تقولُ لأنتَ أعظمُ خطراً من أنْ أردَّ عليك الكلام، ولئن كنْتَ تكذِبُ على الله، فما ينبغي لي أنْ أكلِّمك.

فقام رسول الله ﷺ وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: «إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عني» وكَرِهَ ﷺ أن يبلُغَ ذلك قومَه فيثيرهم[1]، ولكنّ هؤلاء لم يفعلوا، فأغروا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبّونه، ويصيحون به، حتى اجتمعَ عليه النّاسُ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف مَنْ كان يتبعه، ثم جلس في ظِلّ حَبَلَةٍ من عنب (الحبلة بالتحريك شجرة العنب) وابنا ربيعة ينظران إليه[2].

فلمّا اطمأنّ رسولُ الله ﷺ قال: «اللهم إليك أشكو ضعفَ قوتي، وقِلّةَ حيلتي، وهواني على النّاس، أنت أرحمُ الراحمين، أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنتَ ربيّ، إلى من تكلُني؟ إلى عدو يتجهَّمني؟ أو إلى قريبٍ ملَّكتَه أمري، إنْ لم يكنْ بكَ عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك هي أوسعُ لي، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، مِنْ أن ينزلَ بي غضبُك، أو يحلَّ عليَّ سخطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك»[3].

---

(١) [في كتب السير: فيذئرهم: أي يحرشهم ويحرضهم].

(٢) [ابن هشام (١: ٤١٩)، ومجمع الزوائد (٦: ٣٥)].

(٣) [مجمع الزوائد (٦: ٣٥) الجامع لأخلاق الرواي والسامع (٢: ٢٧٥)].

فلمَّا رآه ابنا ربيعة وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له: عدّاس، فقالا له: يا عَدّاس خُذْ قِطفاً من هذا العِنب، فضعه في هذا الطبق، واذهب به إلى ذلك الرجل، وقل له يأكل منه، ففعل عدَّاسُ، ثم أقبلَ به حتى وضعه بين يدي رسولِ اللهِ ﷺ، ثم قال له: كُلْ.

فلمَّا وضع رسول الله ﷺ فيه يدَه قال: «بسم الله»، ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه، ثم قال: واللهِ إنَّ هذا الكلامَ ما يقولُه أهلُ هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أيّ البلادِ أنتَ؟» فقال: أنا رجل نصراني من أهلِ نَينوى، فقال رسول الله ﷺ: «أَمِنْ قريةِ الرَّجلِ الصالحِ يُونُس بن متّي؟» فقال عدّاس: وما يدريك ما يُونُس بن متّى؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي» فأكبَّ عدّاسُ على رسول الله ﷺ يقبِّلُ رأسَه ويديه وقدميه وأسلم.

فقال أحد ابني ربيعة لأخيه: أمَّا غلامك فقد أفسدَهُ عليك، فلماجاءهما عدّاس، قالا: ويلك يا عدّاس مالك تقبِّلُ رأسَ هذا الرجل، ويديه وقدميه؟ فقال: يا سيدي ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمرٍ لا يعلمُه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنَّك عن دينك، فإنّ دينَك خيرٌ من دينه، ولكنّ عدّاساً لم يتزعزع لقولهما.

ولا يزال في المثناة محلٌّ يُزار يقال: إنّه المكانُ الذي أسلم فيه عدّاس.

وقد روى أهلُ السير أنّ رسول الله ﷺ لما خرج إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الإسلام، كان معه زيد بن حارثة، وأقام شهراً يدعوهم إلى الله، ولم يجيبوه، ثم أغروا به سفهاءهم، وجعلوا يرمونه بالحجارة، حتى لقد شُجَّ رأسه ﷺ، وحتى إنّ رجليه لَتدميان، وزيدٌ يقيه بنفسِه.

ثم إنّه غزا الطائف، وضرب في أثناء حِصارِه الطائفَ قبتين لزوجتيه: أم سلمة وزينب رضي الله عنهما، وكان يصلّي بين القبتين. فلما أسلمت

ثقيفُ بنَى عمرو بن أمية بن وهب بن مالك على مصلّى رسول الله ﷺ مسجداً.

قالوا: ونصب الرّسولُ ﷺ على حصنِ الطائف منجنيقاً، قيل: أشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقيل قَدِمَ به الطفيلُ بن عمرو، وقيل يزيدُ بن زِمْعة، ومعه دبابتان، وقيل: قدم بالمنجنيق والدبابتين خالد بن سعد بن حريش، وكانوا يصنعون الدبابات، ويغطّونها بجلود الإبل والبقر، ويدخلون في جوفها، فتقيهم من السهام والحجارة.

ثم قال ابن فهد في «تاريخه» للطائف، نـقلا عن الحافظ مُغْلَطاي: إنّ هذا المنجنيق هو أول منجنيقٍ رُمي به في الإسلام. وقد نثر رسولُ الله ﷺ الحسَكَ حولَ حِصنِ الطائف، ورمى رجالُ ثقيفٍ الدبابتين بسكك الحديد المحمّاة بالنار، فأحرقت الدبابتين، وأصيبَ جماعةٌ من المسلمين، وقالوا: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لم يؤذَنْ في ثقيف»، ثم انصرف من الطائف إلى الجعْرانة، وأرادوه على أن يدعوَ على ثقيف فكان دعاؤه: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم»[1].

ولما أسلمتْ ثقيفُ ثبتت، وحسن إسلامُها، ولما لحق رسولُ الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وارتدت العربُ، ثبتت ثقيف على الإسلام، ومن ارتدّ منهم قتلوه، وقالوا: ما دخلنا آخرَ النّاس إلا لما تبيّنَ لنا من الحق.

* * *

---

(١) [أخرجه الترمذي رقم (٣٩٤٢) وأحمد (٣: ٣٤٣)].

وجوب اتخاذ الات الحرب الحديثة وفنون صناعاتها

قلت: إنَّ رسول الله ﷺ قد استخدم إذاً الصناعةَ في الحرب بما أجمعت عليه الرواة، من ضربه حصن الطائف بالمنجنيق، ونثره حولَه الحسَك، وقتاله بالدبابات، وكلٌّ هذا من الصناعة المحضة، فالمنجنيق كان بمنزلة المدفع في هذه الأيام، والحسَكُ أشبه بالأسلاك الشائكة، والدبابات هي دبابات ـ التانك ـ التي يصفِّحونها اليوم بالفولاذ، حتى لا يخرقها الرصاص، وكانوا في ذلك العصر يجلِّلونها بالجلود، وعليه يكون استعمالُ الآلات الحربية بأنواعِها سنةً نبويةً أكيدةً، لا يجوزُ إهمالُها ولا التهاوُنُ بها، هذا فضلاً عن الأمر الإلهي الصريح الذي تتضمنه آية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ونحنُ مع الأسف نرى المسلمينَ اليوم أقلَّ الأمم اعتناءً بالميكانيكات، والطبيعيات، والكيمياء، وجميع العلوم، التي يكفُل لهم إتقانُهاالحيلَ الحربيةَ، وجرَّ الأثقال، واختراعَ الآلات، التي توفِّرُ دماءَهم وتصونُ دهماءَهم.

ونرى جمهورَ علمائهم نافرين من هذه العلوم والفنون، كأنها من عمل الشياطين، يقضون الأعمار الطويلة في درس علوم مخصوصة لا يتعدّونها، من نحوٍ وصَرْفٍ وحديثٍ وتفسيرٍ وما أشبهَ ذلك، مما لا شك في ضرورته، لأن به قوام اللغة والعقيدة، ولكنّه ليس يغني أصلاً عن العلوم الطبيعية، التي هلك اليوم مَنْ أهملها، وعن المكانيكيات التي

لو أفرغوا لها من الوقت ربع ما أفرغوه للحديث والتفسير والفقه والنحوِ والصرف لكانوا من الصناعة ومن ثَمّ من التجارة والثروة ـ على حَظ يضاهِي حظوظِ الأممِ الأوربية.

ولكنا قد أهملنا علومَ هذه الدنيا، وحصرنا جميعَ عنايتنا بعلوم الآخرة[1]، غيرَ ذاكرين أنّ الإسلام إنما هو شرعُ دنيا وآخرة، وأنّ من أهملَ أحد الشقين فهو آثم، كما لو أهمل الشِقَّ الآخر.

ونعود إلى الدبابات فنقول: إنّ الفرنج قد استعملوها من القديم، وأهمّ ما رُوي عنهم فيها ما صنعوه في حصار عكا في الحروب الصليبية، فقد صنعوا ثلاثةَ أبراجٍ طولُ البرجِ ستون ذراعاً، جاءوا بخشبها من جزائر البحر، وعملوها طبقَات، وشحَنوها بالمقاتلةِ، ولبّسوها جلود البقر والطين بالخل، وقربوها من الأسوار، وكادوا يأخذون بها البلد، لأنّ المسلمين رموها بالنيران، فلم تعمل فيها، فحاروا في أمرهم، ودخل عليهم من الخوف ما لا يوصف. قال أبو الفداء: فتحيّلَ المسلمون، وأحرقوا البرج الأول، فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوسُ المسلمين لذلك بعد الكآبة.

وقد رَوى بهاءُ الدين ابن شداد في سيرة صلاح الدين يوسف الأيوبي ـ وكان ابن شداد شاهِداً تلك الوقائعَ، ملازماً للسلطان [قال]: إنّ الذي تحيّلَ لإحراق هذه الأبراج المسيَّرة على العَجَلِ، بعد أن أعياهم أمرُها كان نحّاساً حموياً، قال للمسلمين: أنا أكفيكم أمرَها، بشرط أن تهيئوا لي كذا وكذا، وذكر مواداً أتَوْا له بها، فطبخ من هذه المواد ثلاث قدور، ورمى كلَّ دبابةٍ بقدْرٍ منها، فلم تكدْ تصيبها حتى اشتعلت بمن فيها جميعاً، فكان من فرح المسلمين بصناعة هذا النّحاس الحموي ما لا تفي به عبارة.

---

(١) قد ضعفتْ كلُّ هذه العلوم أيضاً في جميع الأمصار الإسلامية، وقلّما يوجَدُ أحدٌ يشتغِلُ بها لأجلِ الآخرة.

وقد ذكر المستشرق الفرنسي الشهير رينو (Reinaud) صاحب كتاب «غارة العرب على فرنسة» أنّه لما زحفَ العربُ من الأندلس إلى فرنسة، وافتتحوا أربونة (Narbonne) وقرقشونة (Carcassonne) ووصلوا إلى أفينيون وليون وغيرها تحت قيادة السَّمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، والحر الثقفي، كانت معهم آلات لم تكن عند الإفرنج في ذلك العصر، ذكر «رينو» ذلك في كلامه على حصارِ السَّمحِ الخولاني لطلوزة (Toulouse).

فاليوم قد انعكست الأمور، وصرنا في وسائل الدفاع عيالاً على أعدائنا أنفسِهم، فإنْ طابَ لهم أن يتفقوا علينا، ويمنعوا عنا السلاح بأجمعه ـ أمسينا وليس [لنا] مانداقع به طياراتهم ودباباتهم ومدافعهم وقذائفهم سوى أصابعنا وأظافرنا، ولقد رأيناهم بالفعل قرّروا منعَ الأسلحة عن جزيرة العرب في مؤتمر نزع السلاح، الذي انعقد منذ بضع سنوات في جنيف، ووُقِّعَ هذا القرارُ بأصواتِ أكثرية الدول، بناء على رغبة إنكلترة وفرنسة وإيطالية وتوابعهن، وغاية ما فعلتْه الأقليةُ أنّها استنكفت عن إعطاء الرأي لا سلباً ولا إيجاباً، وهي لو كانت راضيةً عن سياسة الأكثرية لما تأخّرت عن موافقتها على منع السلاح عن العرب، فكان اعتناءُ العربِ وجميعِ العالم الإسلامي بقضية التسلح فرضاً عليهم كفرض الصلاة، إذ لا بقاءَ لهم بدونه، وكان هذا متوقِّفاً على الصناعة، التي هي من ثمرات العلم الطبيعي، ولأجلِ هذا كان انصرافُ المسلمين إلى اتقان العلوم الطبيعية، وإدخالِها بحذافيرها في برامج تعليمهم من الأمور الحيوية، التي لا يجوزُ أن يغفلوا عنها طرفة عين.

وأراني قد بعدتُ عن الموضوع الذي كنت فيه، وليست هذه بأول مرة جرّنا الاستطراد إلى ما هو بعيد عن المقام الذي نكون فيه، ولكنّنا في كلِّ مرة لم نخرج إلى شيءٍ غيرِ مرتبط بأصل الموضوع.

* * *

عود إلى الطائف وآثار حضارة العرب فيها

ولنعد إلى سياحتنا في الطائف وجبالها بعد أنْ روينا مالا بدّ منه من تاريخها فنقول: من أنصع الدلائل على مدنية العرب، لا في دور الجاهلية فقط، بل في صدر الإسلام أيضاً ـ كثرة الكتابات المنقوشة على الصخور.

فمن المعلوم أنّ الأمم الهمجية لا تعرِفُ قيدَ الحوادث، ولا تخليدَ الذكريات، ولا تفكّرُ في اطلاع الأعقاب على ما جرَى في سالف الأحقاب، وأنّه لا يُعنى بأمورٍ كهذه إلا مَنْ علا كعبُهم في الحضارة، وبَعُدَ شأوهم في العمارة، وهذه أمم الفرنجة اليوم بعد أن بلغوا ما بلغوه من هذا المدى البعيد في المدنية تجدُهم لا يبرحون يشيّدون المباني، وينحتون التماثيل، ويقيمون الأنصاب، وينقشون عليها كلَّها التواريخَ المتعلقة بها، خدمةً لعلم التاريخ في مستقبل الدهر، وحرصاً على اطراد سلسلته، ووصل فصوله، وتفادياً من انقطاع أسانيده، وضياع مصادره.

وبالجملة لا يجتمع حفر الكتابات والنقش على الصخور مع الجهل والانحطاط، وخُلو الدار من الفاضل.

وما عثرنا في أثناءَ الحفر عمداً أو عرضاً على حجارةٍ من أنقاضِ السلف، عليها كتابات قديمة ـ إلا وجدناها محررة بلغات أمم عظيمة الآثار، جليلة المقدار، كالرومانين، واليونانيين، ومِنْ قَبلهم كالمصريين، والفينيقيين، والحثيين، والبابليين، والعرب الذين كان

الناس لا يدركون درجة مدنيتهم العالية في الأعصر المتوغلة في القدم إلى أن اطلعوا على ما تركوه من المباني الباذخة، والقصور الشاهقة، والمصانع، والسدود، وغير ذلك من الآثار الدالة على رسوخ الحضارة، وقرأوا ما عليها من الكتابات بالحميرية.

وقد كان أول من نبّه على ذلك الهمداني الحسن بن أحمد، صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» وكتاب «الإكليل» لا سيّما في الجزء الثامن من «الإكليل»، الذي فيه ذكر محافِد اليمن، ومساندها، وقصورها، ونقل كتابات بالقلم المعروف بالمُسْنَدِ، وجاء بعضُ المستشرقين مثل «مولر» وغيرِه، فحققوا ما قاله الهمداني، ولم يجدوا فيه مبالغةً، ونشر «مولر» كتاباً طبعه في فينا سنة (١٨٨١)عن هذه الآثار الباهرة واعتمد في تأليفه على «الإكليل»[١].

---

(١) هذا الكتابُ عشرةُ أجزاء، في أول الجزء الثامن منه مايلي: الجزء الثامن من «الإكليل» للحسن بن أحمد الهمداني، وهو كتاب محافِدَ اليمن ومساندها ودفائنها، ومراثي حمير، والقبوريات، وشعر علقمة، والمحفد القصد، وإنما سمي محفداً لحفود الناس حولَه، أي شدهم وقصدهم، ومنه دعاء الوتر «إليك نسعَى ونحفِد» والحفد الخدم.

واعلم أنّ كتاب «الإكليل» عشرةُ أجزاء.

فالأوّل، مختصٌ في المبتدأ وأصول الأنساب.

والثاني: نسب ولد الهُمَيْسَع بن حِمير.

والثالث: في فضائل قحطانَ.

والرابع: في السيرة القديمة إلى عهد تُبّع أبي كرب.

والخامس: في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع، إلى أيام ذي نواس.

والسادس: في السيرة الأخيرة إلى الإسلام.

والسابع: في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة.

والثامن: في ذكر قصور حمير ومدنها ودواوينها، وما حُفِظ من شعر علقمة، والمراثي والمساند.

وملخَّصُ الكلام أنّه لا يتصور العقلُ بلاداً تكثرُ فيها النقوش والرسوم على الحجارة المنضودة في الأبنية أو الصخور المبعثرة في الجبال والفلوات إلا إذا كانت تلك البلاد في أعصُرِها الخوالي حافلةً بالعمران، موصوفةً بكثرةِ السّكان[1].

ومما لا ريبَ فيه أنّ الطائفَ وجبالَها كانت من جملة أقسام الجزيرة

= والتاسع: في أمثالِ حمير، وحِكَمِها باللسان الحميري، وحروفِ المسند.
والعاشر: في معارف حاشد وبَكيل. والله أعلم وأحكم.
وكنت سمعتُ بوجودِ جزءٍ من هذا الكتاب في مكتبة جامع بايزيد في إستانبول، فأرسلتُ إلى الأخ الفاضل خالد بك القرقني الطرابلسي المغربي، المنسوب إلى بني هود ملوكِ سرقسطة بالأندلس، وكان يومئذ بتلك العاصمة، ليبحثَ لي عنه، فوجدهم نقلوه إلى مكتبة دار الفنون، ونقل لي بعضَ صفحاتٍ منه، فإذا به الجزء الثامن، وقال لي: إنّه قد بلغه وجود نسخةٍ من هذا الجزء في برلين، فلما ذهبتُ إلى برلين أواخر السنة الماضية(١٩٣٠) بحثتُ عنه في المكتبة الملوكية، فوجدتُ منه جزئين: الجزء الثامن، والجزء العاشر، ووجدتُ مع الجزء العاشر في جلدٍ واحدٍ بعضَ رسائل منها شيء عن المعادن التي في اليمن، وكتاباً من تأليف الملك الأشرف أبي حفص عمر بن رسول الغسّاني اسمه «طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب» فأخذت صورَ جميع ذلك بالفوتوغرافية، وبينما أنا مصمم على طبع هذين الجزئين من «الإكليل» إذ بلغني أنّ اللغويَّ المحقِّقَ الأب أنستاس الكرملي مباشِرٌ طبعَ الجزء الثامن ببغداد، معتمداً في ذلك على خمس نسخ وقعت في يده، وأنه سيطبعه مع حواش وتفاسير، فلما علمتُ ذلك وقفت عن طبع هذا الجزء، حتى أرى ما يكون، ثم إني أرسلتُ إلى حضرة صاحب السمو صديقي الأمير سيف الإسلام محمد والي تهامة، ونجل الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب اليمن أسأله عما يوجَدُ من أجزاء هذا الكتاب في اليمن، فأجابني بأنّه لا يوجَدُ من «الإكليل» إلا جزءان، وثلاثة قطع متفرقة، وأنّه مع ذلك سيبحَثُ ثانيةً، وهذا ما عرفنا إلى الآن عن هذا الكتاب (حاشية للمؤلف).

(١) [انظر الملحق الأول عن «تاريخ العرب الأولين» للمؤلف ص (٣٨٣)].

العربية المعمورة، وأنّه قد تقلّص عمرانُها كما تقلّص عمرانُ سائر الجزيرة بسبب الفتوحات الإسلامية، التي ضربت من الجزيرة إلى الصين والهند شرقاً، وإلى الأناضول والطاغستان شمالاً، وإلى [الميحط]الأطلسي غرباً، وكانت كلُّها على أيدي العرب، الذين التهمتهم القواصي، وأفنى رجالَهم قِراعُ الكتائب، فخلا كثير من ديارهم الأصلية، وصَفِرَتْ الجزيرةُ من تلك الجموع، التي كانت تموجُ بها، وتداعتْ القصورُ، وانهارتْ السدودُ، وتعطّلَتْ القُنيُ، وتصوّحت النضرةُ، وعطشَتْ الأرضُ.

وأما الكتابات المنقوشة على الصخور، فلم يضر بها الجوع ولا العطش، فبقيت على حالها، ناطقةً بما كان ثمة من عمرانٍ سابقٍ ومجدٍ سامقٍ.

ولقد أتيحَ لي أنْ أرى طرفاً من هذه الكتابات، وأن أقرأ بعضها، وأن تُشكِلَ عليَّ قراءةُ البعض الآخر، فعوّلت فيه على بعض الأساتيذِ المختصين بمعرفة الخطوط القديمة، وذلك أنّي نسختُ ما قرأتُه في جبل السُّكارى في وسط الطائف، وبعثتُ به إلى برلين، وذلك إلى الأستاذ موريتز (Morits) من فحول المستشرقين، فحلَّ الكتابةَ وأعادَها إلي، ولم تكن من الخط المسند، بل من الخط الكوفي القديم، الذي لم نألفه، فإنّ الخط الكوفيَ ليس شكلاً واحداً، وهذه الكتابات خالية مع الأسف من التواريخ.

وأكثرُ ما عثرتُ به من هذه الكتابات في كلّ محل خلو من ذكر السنة التي كُتِبَتْ فيها، إلا ما كان منها متأخّراً من آثار القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة، وما بعد ذلك فهو مؤرّخ بالأشهر والسنين، كما هي العادة.

ويظهر أنّ الكتابات التي في جبل السُّكارى هي من القرن الأول للهجرة، وكان بعضُها من زمن الجاهلية.

ونصٌ واحدة منها: اعف يا الله، عبدك أود بن موسى.

ونصُ أخرى: إياد بن عيفر بن أوس، بربه واثق.

نص أخرى: بالله محمد بن عبد الرحمن بن أبي (كلمة لم تُمكن قراءتُها) واثق بالله.

ونص أخرى: اللهم حكم عبدك عيفر بن أبي قبيع من النادي وكتب.

ونص أخرى: اللهم صل على محمد النبي وكتب محمد بن أبي قبيع.

وجبل السُّكارى هذا على طرف الطائف إلى جهة المثناة ـ رابية لا تعلو أكثر من ستين متراً عن سطح الأرض، لكنها لشدة قربها من البلدة يشرِفُ الذي يتوقَّلُ فيها على جميع الطائف وبساتينها، فيقصد الناس النزهة هناك، ولما كان الجبل كلُّه صخرياً كانت فيه جنادل كثيرة بعضُها فوق بعضٍ، ومنها ما هو ملاق الآخر على شكل يتكوّن منه شيءٌ أشبهُ بالكهف[1]، فيتقي الذي يقيلون تحت هذه الصخور حَرّ الشمس.

وقد كان لنا هناك قيلات، لم نزل نتذكر لطفها بدعوة الشيخ عبد القادر الشيبي كبيرِ سدنة البيت الحرام، الذي هو المثل البعيد في الكرم وحسن الوفادة، والذي ذكرتُه مراراً في هذه الرحلة، إلى أنْ قال لي الكثيرون: تَالله تفتأُ تذكر الشيبي، فقلت ارتجالاً:

يقولون لي: نبغي جوابَ سؤالِنا	ويسألُني عن ذاك صحبي وجُلّاسي
لمـاذا نَـرَى الشَّيبـيَّ عنـدَك أولاً	وتؤثِرُه في كلِّ شيءٍ على النّاسِ
فقلـتُ: أرى الشَّيبيَّ ينـدُرُ مثلُـهُ	ببـرٍّ وإكـرام ولُطْـفٍ وإينـاسِ
وفي خدمةِ الإسلام قد شابَ مَفْرِقي	لذاك أرى الشّيبيَّ تاجاً على رأسِي

وبعد أنْ برحتُ الحجاز بقيت المكاتبةُ بيني وبين الشيخ المشار إليه

---

(١) سبق للمؤلف أن تحدّث عن صخور الطائف ص (١٧٣)].

متصلة يتخللها النظم والنثر، ومقابلة الشيء بمثله من القافية والبحر، ولا عجب في فصاحة بني شيبة، وهم لبابُ قريش، وخلاصةُ العرب، والمقصِّرُ فيهم سابقٌ، حتى لقد قرأتُ في «بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس» لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضَّبيِّ أنّ أبا العباس أحمد بن رشيق الكاتب لما كان في سن المراهقة يطلب علمَ النحو بتدمير من بلاد الأندلس، دخل عليهم من طريق البحر رجلٌ أسمر، ذكر أنّه من بني شيبة حجبة البيت، وأنه يقول الشعر على طبعه، ولا يقرأ ولا يكتب.

وكان يقول: إنّه دخل عليه اللحن بدخول الحضر، وروى ابن رشيق من شعره:

يا خليلي مِنْ دونِ كلِّ خليلِ ... لا تَلُمْنِي على البكا والعويلِ
إنّ لي مهجةً تكنَّفَها الشو ... قُ وعيناً قَدْ وُكِّلَتْ بالهُمُوْلِ
كلّما غرَّدتْ هتوفُ العشايا ... والضّحى هيَّجتْ كمينَ غليلي
ذاتُ فرخين في ذرى أثلاتٍ ... هَدِلاتٍ غُصْنِ الذوائبِ مِيلِ
لم يغيبا عن عينها، وهي تبكي ... حَذَرَ البينِ والفراقِ المديلِ
أنا أولى بغُربتي وانتزاحِي ... واشتياقي منها بطولِ العويلِ
حلَّ أهلي بالأبطحَيْنِ، وأصبحـ ... ـتُ مع الشمسِ عِنْدَ وقتِ الأُفُولِ

فأنت ترى فصاحة الأمي منهم، فما ظنُّك بالمتأدب الذي قرأ العلم وثافن العلماء، ورأى من رجال الإسلام قصّاد البيت الحرام مالم يتيسّر لأحدٍ أن يراه.

ثم إنّ لهذا البيت من مزية خدمة البيت ما لا يشركهم فيه غيرهم منذ بضعة عشر قرناً، حتى إنّ النبي ﷺ لما فتح مكة قال لقريش: «ما تظنون؟» قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم وقد قَدِرْتَ، قال: «فإنّي أقولُ كما قال أخي يوسفُ عليه السلام ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]» ثم

قال ﷺ «ألا كلُّ دَيْنٍ ومالٍ ومأثرَةٍ كانتْ في الجاهليةِ فهي تحتَ قدميَّ إلا سدانة البيتَ وسقاية الحاجّ».

وحدّثوا من طريقٍ آخر أنّه ﷺ قال في خطبة «الحمدُ للهِ الذي صَدَقَ وعَده، ونَصَرَ جندَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه، ألا إنّ كلَّ مأثرَةٍ في الجاهليةِ وكلَّ دمٍ ودعوى موضوعةٌ تحتَّ قدميَ، إلا سدانة البيتِ وسقاية الحاج».

وقالوا: إنّ النبي ﷺ كان أخذَ مفتاحَ البيت يومَ فتح مكة من عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فنزلت الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فاستدعى عثمانَ، وأعادَ إليه المفتاح، قائلاً له: «خذوُها يا بني أبي طلحة بأمانةِ اللهِ سبحانه، لا ينزِعُها منكم إلا ظالمٌ» وفي رواية أخرى: «خذُوها يا بني أبي طلحة خالدةً تالدةً لا يظلمكمُوها إلا كافرٌ» وقيل: «إلا ظالمٌ» ولهذا بقي مفتاحُ البيت في هذا البيت إلى اليوم.

ليس في مكة أعرق منهم، لأنه لم يبقَ من صدر الإسلام ملازماً مكة بسبب سدانة البيت غيرهم، ولقد رأيتُ فتاوى كثير من العلماء في وجوب البِرِّ بهم، مكافأةً على هذه الخدمة المقدسة، التي اختصوا بها بمحكم الذكر من قديم الدهر.

هذا ولقد ذكر السيد خير الدين الزركلي جبلَ السُّكارى الذي كنا بصدده وقال: إنّهم يسمونه أم السُّكارى، وروَى عن قاضي الطائف الذي كان يومئذ (سنة ١٣٣٩) أنّ على هذا الجبل أسطراً تاريخها سنة (١٨٨) قال: فصعدتُه، ورأيتُ كتابات كثيرة، ولم أرَ التاريخ الذي ذكره.

قلت: وأنا لم أر كتابةً عليها تاريخ، ولكن يجوزُ أن تكونَ على صخرٍ لم يقعْ نظرُنا عليه، فإنّ هذا الجبل مغطى بالصخور، وفيه مقطع حجارة لبناء أهل الطائف، وليس كلُّ ما يراه الواحدُ يراه الآخر.

وأما تسمية هذا الجبل بأم السُّكارى أو جبل السُّكارىفنظنّها من جهة اجتماع الناس فيه للنزهة والشرب من أيام الجاهلية، ويقال: إنّ أبا سفيان بن حرب إنما اجتمعَ مع سمية أم زياد في هذا الجبل، أتاه بها أبو مريم الخمار.

وهناك جبل مناوح لمسجد ابن عباس، على مسافة (٢٠) دقيقة منه، فيه صخور كثيرة، عليها كتابات وصور حيوانات، ومن هذه الكتابات ما يظهر أنّه قديم، ومنه ما هو من القرن الثالث أو الرابع أو الخامس. وقد نقل الخير الزركلي منها كتابةً هي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وفي آخرها محمد بن مهدن.

وجبلٌ آخر اسمه الرُّدَّفُ ـ بفتح الدال وتشديدها ـ يذهبُ السائر إليه من الباب الذي بقرب مسجد ابن عباس رضي الله عنه، ويأخذُ الوصولُ إليه نحوَ ساعةٍ من الزمن، على طريق بستان حوايا، وبستان شهرا.

وفي الرُّدَّفِ هذا حجارةٌ كبيرة مترادفة، على بعضها كتابات، قرأنا بعضها، وهو من الخط الكوفي القديم من القرن الأول وما يليه. نقل من ذلك الخير الزركلي في كتابه «ما رأيت وما سمعت»[1] الجملَ الآتية:

عبد الله بن علي بن أبي محجن يسألُ اللهَ بوجهه الكريم الجنَّة.

عبد الله بن علي بن أبي محجن يسألُ اللهَ القتلَ في سبيلهِ على بركته.

عبد الرحمن بن سعيد بن عبدالرحمن، يشهدُ أنّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وأنّ الله قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً.

وبينما كنا قافلين من وادي لِيّة إلى الطائف، رأينا أيضاً كتابات على

---

(١) [ما رأيت وما سمعت: (٥٩)].

صخورٍ، منها كتابة ممحوةٌ بعضُ كلماتها، فهمنا منها أنّه كان أصاب البلادَ قحطٌ، وأُمطِرُوا بعد ذلك.

ورأينا كتابات على الصخور في طريق الطائف إلى وادي محرم، وقد تقدّم أننا رأينا خطوطاً كوفية، وأخرى من القرن السادس في سيدنا عكاشة من أرض الوهط.

قيل لي: إنّ بين المدينة المنورة وحائل كتابات كثيرة، ولا أعلمُ هل هي من الخط الكوفي، أو من الخط النبطي، أو من خطوط أخرى؟ وغاية ما يُدرِكُ الإنسانُ من كثرة هذه الخطوط في جزيرة العرب أنّها كانتْ حافلةً بالسكان، بالغةً الشأو الأقصى من العمران، وأنّ الفتوحات الإسلامية أثّرت في درجة عمرانها، فغلبت عليها البداوة في التالي، ويظنُّ بعضُهم أنّ هناك أسباباً طبيعية أيضاً، تقلّصَ به العمران: من غيضِ مياهٍ، ونضوبِ أنهارٍ جاريةٍ، وما أشبهَ ذلك مما حدا العربَ إلى الجلاء والتفرق في الأقطار.

ونعودُ إلى الطائف فتقول: إنّ عمرانها كان قبلَ الحرب العامة أكثرَ منه اليومَ بكثير، وأنّه بسبب الحرب بين الشريف حُسينٍ والأتراك، ثم بينه وبين النجديين خرب جانب كبير منها، ونزحَ أكثرُ سكّانها.

* * *

إشراف الحجاز على العمران بشمول العدل والأمان

وقد بدأ عمرانُها[1]، بل عمران الحجاز كلّه بالرجوع[2] في هاتين السنتين، بعد استقرار الأمن وشمول الدعة، ومما أقرَّ بهِ القاصي والداني، واعترفَ النّاسُ بالفضل فيه للهِ، ثم لابن سعود.

ولقد شافهتنا هناك الأهالي في الفرق الذي بين حالتهم الحاضرة وحالتهم الماضية، فأجمعوا على أنّ نعمةَ الأمن التي هم متمتعون بها الآن لم يعرفوا شيئاً منها مِنْ قبلُ، لاهم، ولا آباؤهم، ولا أجدادُهم، ولا سمعوا بها عَنْ سلفهم.

حدّثني بعضُ الأشراف الهاشميين من أولاد أمراءِ مكة أنفسِهم أنّهم كانوا في القرى التي لهم حول الطائف يُوصِدُون أبوابهم ليلاً، ولا يفتحونها لأي طارقٍ خيفةَ الغِيلة، وحذراً من سطو اللصوص، حتى جاء هذا العهد السعودي، فصاروا يأمنون أن يبيتوا وأبوابهم مُفَتَّحَةٌ، وصاروا يفتحون لأيِّ طارقٍ جاءهم.

وحدثني الجميعُ أنّهم كانوا لا يقدرون على التجوال إلا مسلحين، فأصبح الآن كلُّ إنسان يجولُ في الحواضر والبوادي أعزل، لا يحملُ شيئاً، ولا السكين، وقد يكون حاملاً الذهب، ولا يخشى عادية

---

(١) [أي الطائف].

(٢) [في الأصل التراجع].

ولا حادثة، وكثيراً ما يتركُ الناس أوقار دوابهم في قارعة الطريق، وتبقى أياماً وليالي إلى أن يعودَ أصحابُها، فيأخذوها ولا يجرؤ أحدٌ أن ينظرَ إليها.

وقيل: إنّ عِدْلاً من الشعير تركه صاحبُه لإعياءٍ مَسّ دابتَه، ومضى ينشد دابةً أخرى يحمِلُ عليها عِدْلَه، فجاء، ووجد في العِدْلِ ثقب سكين تتساقط منه حبوب الشعير، فأخبر الشرطة، فلم يزالوا يبحثون حتى عرفوا ذلك الرجل الذي وجأ العِكْمَ بسكينه، وجلدوه بالسياط، لأنّه حاول أن يعرفَ ما احتوى عليه ذلك العِكْمُ[1].

وكلُّ يومٍ يؤتَى إلى دوائر الشرطة في كل بلدة بأمتعة وأسبابٍ وحوائجَ وأموالٍ، منها الكثير، ومنها القليل، ومنها الثمين، ومنها الخسيس، مما يجده السابلةُ في الطرق اتفاقاً، فلا تجِدُ أحداً يطمَعُ في شيءٍ، بعد أنْ كان الدعَّارة[2] يذبحون ابنَ السبيل من أجل حاجةٍ لا تكادُ تساوي قطميراً.

فسبحانَ الذي أدال من تلك الحال لهذه الحال، وأوقع الرعبَ في قلوب الدّعار، في السهول والأوعار، وليس في باب الأمن في ممالك ابن سعود متطلَّعٌ لمزيد، وقصارى ما يتمنّى الإنسان دوامَ هذه النعمة.

ومن هذا الباب أنّ الثارات والدماء كانت بين قبائل العرب متصلة، والغارات مستمرة، وأنه إذا وقع دم بين قبيلة وأخرى انقطع كلُّ اتصالٍ بينهما، وصار ابن إحداهما لا يقدرُ أن يمرَّ بأرضِ الأخرى إلا تحتَ خطرِ القتل، وقد سمعتُ من القبائل التي شافهتُها في الحجاز أنّها إلى زمن استيلاءِ ابن سعود كان بعضُها لا يقدِرُ أن يدخُلَ منطقةَ بعضٍ، ولو

---

(١) حكى الريحاني وغيرُه مثل هذه الحادثة في بلاد نجد، والحالة العامة تلدُ حوادثَ متشابهة.

(٢) [المفسدون].

كانَ في أقرب محلٍّ إليه، وأنَّ كلّ ذلك قد نُسِخَ الآن بأحكام ابن سعود، وصار النّاس يمرُّ بعضُهم بأرضِ بعضٍ عُزّلاً من السلاح، ولا يخشى أحدٌ منهم مكروهاً، وانطوتْ تلك الثارات والذحول، كأنها لم تكن، **ولا نظن أن الأعراب ينسون الثارات، وليس ذلك من طبيعتهم، ولكنّهم إذا وقعت هيبةُ السلطان في قلوبهم، وعرفوا أنْ لَيْسَ عندَ السلطان إلا العدل وإقامة الحدِّ الشرعي بدون هوادة مع أحدٍ، انقادوا للأحكام انقيادَ الغنم.**

لهذا نجد العمران قد بدأ يرجع[1] إلى الحجاز بشمول الأمن، واستراحة الفكر، فالقوافلُ والسيارات الكهربائية، ذاهبة جائية، تخترِقُ الصحارَى بالأَمَنَةِ التي تمرُّ بها في شوارع البلد الحرام، والنّاسُ بعد أن أمنوا على أموالهم وزروعهم وضروعهم قد نشطوا للعمل، ووثقوا بالمستقبل، وإذا مضتْ عشرونَ سنة ـ وهذه الحالة لم تتبدّلْ، وهذه الأمنَةُ ممتدة الرواق على البلاد كما هي اليوم ـ فإنّ البلاد ستسير شوطاً بعيداً في ميدان الفَلاح، ويتضاعَفُ عدد قطينها، وترتفع أثمانُ أراضيها، ويقصد إليها كثيرونَ من أهلِ العالم الإسلامي، الذين يثقُلُ عليهم حكم المستعمرين الأوربيين، كما كانوا بدأوا يهاجرون إليها قبل الحرب العامة، مع أنّ أمنَةَ السوابلِ لم تكن حينئذٍ كما هي الآن.

ومن الأغلاط المشهورة التي شهرتُها لا تمنع كونها غلطاً، الظنُّ بأنّ بلادَ الحجازِ هي من القحولة بحيثُ لا تتحمَّلُ عدداً من السكان يزيد على أهاليها الحاضرين، وإنْ زاد فلا يكونُ إلا قليلاً، وأنّ الحجاز ناشِفٌ، وأنّ الحجازَ يابسٌ، وأنّ الحجازَ كثيرُ الحِحارِ والحِرَار، قليلُ الرياض والغياض، غيرُ أريضِ الأراضِي، إلى غير ذلك من وجوه الاعتراض.

وهذا كلُّه من الكلام المرسل بدون تحقيق، الذي يقوله مَنْ لا يعرِفُ

---

(١) [في الأصل: يتراجع].

الحجازَ، أو لا يعرف شيئاً عن الحجاز، أو بعضُ الكُسالَى من أهل الحرمين الشريفين، الذين يبدون ويعيدون أمام حُجّاج البيت الحرام، وزوّارِ الروضة النبوية عن فقر الحجاز تعمُّداً منهم، ليستزيدوا بِرَّ الحجاج بهم، ويستدرّوا عوارف العالم الإسلامي عليهم.

وحقيقةُ الحال أنّه لو كان سكانُ الحجاز ثمانية أو عشرة ملايين نسمة لكان ثمةَ مكانٌ لهذا القول، ولكن بدون أن نعرِفَ بالتدقيق عدَد أهالي الحجاز نَقْدِرُ أن نقول: إنّهم جميعاً بدواً وحضراً لا يزيدون على مليون نسمة، وربما لا يناهزون هذا العدد وإنّ مَنْ عرف جزءاً من الحجاز ـ لا كله ـ علم أنّ الحجاز إذا قام أهلُه على فَلْحِهِ وزرعِهِ حقَّ القيام أعاشَ منهم ملايين بالراحة التامة، وأصارَ إليهم من الخيرات ما لا يُذْكَرُ موسمُ الحجِّ في جانبه شيئاً.

ولقد رأيتُ على مقربة من مكة وادي فاطمة، الممتد إلى وادي الليمون مسافة خمس عشرة ساعة، فرأيت جنةً من جنان الله في أرضه، لا تفضُلها بقعةٌ لا في الشام، ولا في مصر، ولا في العراق.

ولما كنتُ في المدينة المنورة قبل الحرب العامة، وجوّلت في عواليها والبقاع التي تليها، وشاهدتُ زكاءَ تلك الأرضات، وسمعتُ خرير هاتيك المياه، قدّرت أنّ البلدة الطيبة وحدَها إذا كانت سكة الحجاز الحديدية متصلة بها، وبقيت المهاجرة إليها من الآفاق، قد تحمِلُ نصفَ مليون نسمة، ولا يتكاءدها أمرُ معيشتهم.

وقد كان بلغ عددُ سكان المدينة قبل الحرب العامة نحو خمسين ألفَ نسمةٍ، وصار المتر المربع من الأرض الفضاء في وسط البلدة يُباع بعشرةِ جنيهات، وفي الضواحي بجنيهٍ واحدٍ وكانت النّاسُ مقبلةً على الشراء مِنْ كلِّ جانبٍ.

فلما انقطعت السكة الحديدية الحجازية الواصلة بين المدينة والشام، بسبب استئثار دولتي فرنسة وإنكلترة اللتين وضعتا أيديهما على

قِطَع هذا الخط التي في سورية وفلسطين والبلقاء، وجهلتا، بل هضمتا حقوق المسلمين الخاصة فيه ـ تقلّص عمرانُ المدينة المنورة، ونزل عدد سكانها من الخمسين ألفاً إلى (١٥) ألفاً.

كما أنّ جميعَ القرى التي كانت على جوانب الخطّ مثل معان، وتبوك، ومدائن صالح، والعلا، وغيرها قد تراجعتْ إلى الوراء، بعد أنْ كانت السكة قد بدأت تعيدُ إليها غابرَ عمارتها.

ولعل التخوُّفَ من عمران الحجاز كانَ من جملة الأسباب التي حدت بدولتي إنكلترة وفرنسة على المعارضة في تسليم السكة الحديدية الحجازية للمسلمين، فإنّ هاتين الدولتين اللتين تسلطتا على نحو (١٥٠) مليون مسلم تكرهان أن يكون لهم ملجأ تهوي إلى أفئدتهم، ويكون معموراً، وتتوافر فيه أسباب الراحة، وينتهي الأمر بازدحام السكان فيه، ولا سيما الحجاز، ولا سيما الحجاز، ولا سيما الحجاز.

ولكنّ استئناف عمران الحجاز أمرٌ لا مناصَ منه، مهما وضع الأجانبُ أعداءُ الإسلام في طريقه من العراقيل والعوائير، لأنَ المسلمين يأرِزُون إلى الحجاز من كلّ صوبٍ، كما تأرِزُ الحيَّةُ إلى وكرها، وقد كانوا يشتكون قِلّةِ الأمنَةِ في السبل، فقد أُزِيْحَتْ هذه العِلَّةُ بتمامها بفضل الله، ثم بفضل عبد العزيز بن سعودٍ. وقد كانت تطول عليهم المراحل، وتتعبهم أكوارُ الرواحل، فالآن قامت السيارات الكهربائية مقامَ الأباعر، وطوت تلك المسافات الطوال طيَّ السجلِ للكتب، ولا بدّ من أن يأتيَ دورُ السكة الحديدية يوماً، فتكملَ من المدينة إلى مكة، ويمتدَ خطٌّ من جدة إلى مكة، ثم من مكة إلى الطائف.

وإذا كان العرب عرباً ساروا به من الطائف إلى أبها إلى صنعاء اليمن إلى عدن. **فإنّ الأمة العربيةَ سائرةٌ إلى الوحدة مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها، والمتفلسفون من أبنائها، وإنّ هذه الوحدة آتية لا ريب فيها، ولو بعد مئة سنة أو أكثر.**

وطالما قلتُ: إنّ من أهم الشروط الأساسية لهذه الوحدة هو مَدُّ الخطوط الحديدية بين الشام وجزيرة العرب، والعراق وجزيرة العرب، على أنْ تكونَ هذه الخطوطُ للعرب، وبأيدي العرب.

وبينما كنتُ أقرأ ترجمةَ حياة كافور مؤسس الوحدة الإيطالية بقلم المسيو باليولوغ سفيرِ فرنسة في بطرسبورغ سابقاً، إذ وجدتُه يقول: إنّ كافور كان يرى الشرط الأساسيَ لوحدة إيطالية ربطَ جميع أجزائها بالخطوط الحديدية، وقد ابتدأ بذلك من قبل أن يتمّ الوحدةَ الإيطالية.

قابلية خيبر للعمران

ونعود إلى عمارة الحجاز فنقول: إنّ من البقاع الملأى مستقبلاً ـ كما يقول الإفرنج ـ بقعةُ خيبر، ولم أصل إلى خيبر، ولكنّي سمعتُ بها كثيراً، وقيل لي: إن بها سبعةَ أودية سائلة، ونخيلاً من فوق التصور، وكنتُ أيام أنا مبعوثُ الشام في مجلس النواب بإستانبول سعيتُ بمدّ شعبةٍ من الخطّ الحديدي الحجازي إلى خيبر، ينفصِلُ من قبلِ الوصولِ إلى المدينة المنورة بنحو ساعتين، ولا تكونُ مسافة هذا الخط المتشعبِ من الخط العمودي أكثر من ساعتين فقط، فكان يمكنُ ذهاب الإنسانِ من المدينة إلى خيبر في أربع ساعات لا غير، وكنا قرّرنا مدّ هذه الشعبة إلى خيبر، كما قررنا مدَّ شعبةٍ أخرى من أذرعات (درعا) إلى عجلون في حوران، وشعبة أخرى من ضبعة إلى الكرك في شرق الأردن، كلُّها من الخط الحجازي، وجاءت الحرب العامة، فوقفتْ كلُّ هذه المشروعات، ثم جاء احتلالُ الأجانب للبلاد، فأخنى على كلِّ شيءٍ، **بينما هم يدّعون أنهم إنما أَتَوْا لأجل إسعاد البلادِ وترقية عمرانها!!.**

قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: إنّ خيبرَ سبعة حصونٍ: حصن ناعم، وحصن القموص، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة، ولها كلُّها مزارع ونخلٌ كثير.

وروي أنّ غزاةَ النبي ﷺ لها كانت لستِ سنين وثلاثة أشهر وواحد وعشرين يوماً للهجرة، وفتحها، وحقن دماءَ أهلها اليهود، وقالوا له: يا محمد إنّ لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرّنا، فأقرّهم، وعاملهم على الشطر من التمر والحب.

فلما كانت خلافةُ عمر، ظهر فيهم الزنا، وكان سمع أنّ النبي ﷺ قال: «لا يجتمعُ دينانِ في جزيرةِ العربِ»[1] فأجلى عمرُ رضي الله عنه يهودَ خيبر إلى الشام، وقسّم خيبرَ بين المسلمين.

قال: وكان رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر، ليخرص عليهم، فقال: إن شئتم خرصتُ وخيرتكم، وإن شئتم خرصتُم وخيرتموني، فأعجبهم ذلك، وقالوا: هذا هو العدل، هذا هو القسط، وبه قامت السموات والأرض.

وخيبر موصوفة من القديم بالحُمّى، وذلك من كثرة مستنقعاتها، وفيها اليوم أكرة من السودانيين الزنوج، لا يقدرون على الإقامة بها لولا ألفتهم للحُمّى.

وأما إذا قُيِّضَ لخيبر وللحجاز إصلاحٌ، وأعيدت السكة الحديدية إلى مجراها، وانشعب من عمودها شعبة إلى خيبر، وعمّرها الناسُ، فللحمى طرقٌ فنية كثيرةٌ تكفَلُ استئصالَ جراثيمها تدريجاً من إحدار المياه، وحصرها في القني السائلة، وغرس الغياض الكثيرة من شجر الأوكاليبتوس، وتجفيف المناقيع، وإتقاء الحُمّى بالكينا، وغير ذلك مما جرى مثله في أماكن أخرى كانت وبيئةً في الماضي، فصارت مصاح للأجسام.

ولما كنت في المدينة المنورة سنة (١٣٣٢) قيل لي: إن خيبر هي

---

(١) [انظر تخريج الحديث وحكمة ذلك في مقدمة السيد محمد رشيد رضا لهذا الكتاب ص (١٨)].

عن المدينة على مسافة ثلاثة أيام إلى الشمال بسير الجمل، وإنها كانت آيلةً إلى الخراب، فبعد أنْ كانَ ابنُ رشيد يأخذُ منها في السنة (١٢٥) ألف ريال، أصبحت الدولة لا تأخذ منها إلا ألف ريال.

العُلا ووادي القرى

ومن الأماكن القابلة جداً للعمارة العلا ـ بضم أوله ـ وهي على مسافة سبع أو ثماني ساعات من المدينة المنورة، إلى الشمال بسيرِ القطار الباخر.

قال ياقوت (٤/٣٣٨ ـ ٣٣٩): هو اسمٌ لموضع من ناحية وادي القرى، بينها وبين الشام، نزله رسولُ الله ﷺ في طريقه إلى تبوك، ولم يذكر ياقوتُ شيئاً عن جِنان العُلا ولذّةِ فواكهِها، وجودةِ ثمارِها وتمورِها، فهي من أجلّ المراكز المرجوة لعمران القسم الشماليّ من الحجاز.

ووادي القُرى كلُّه من الأماكن المرجوة لعمران الحجاز، نقل ياقوت في «المعجم» قولَ أبي المنذر عن وادي القرى قال: سُمّيَ وادي القرى لأنّ الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة، وكانتْ من أعمالِ البلاد، وآثارُ القرى إلى الآن بها ظاهرة، إلا أنّها في وقتنا هذا كلها خرابٌ، ومياهها جاريةٌ تتدفّقُ ضائعةً، لا ينتفعُ بها أحدٌ.

قال أبو عبيد الله السكوني: وادي القُرى والحِجر والجناب منازِلُ قضاعة، ثم جُهينة وعُذرة وبَلِي، وهي بين الشام والمدينة، يمرُّ بها حاجُّ الشام، وهي كانت قديماً منازِلَ ثمودَ وعاد، وبها أهلكهم الله، وآثارها إلى الآن باقية، ونزلها بعدَهم اليهودُ، واستخرجوا كظائمها، وأساحوا عيونَها، وغرسوا نخلَها، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً، وكان لهم فيها على اليهود طُعْمَةٌ وأكلٌ في كل عام، ومنعوها لهم عن العرب، ودفعوا عنها قبائل قُضاعة.

وروي أنّ معاوية بن أبي سفيان مرّ بوادي القُرى، فتلا قولَه تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا

هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦/١٤٨] ثم قال: هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة، وهي بلادُ ثمود، فأين العيون!؟ فقال له رجل: صدق الله في قوله، أتحبُّ أن استخرجَ العيون؟ قال: نعم، فاستخرج ثمانين عيناً. فقال معاوية: الله أصدقُ من معاوية.

وكان النعمان بن الحارث الغسّاني ملك الشام أرادَ غزوَ وادي القُرى، فحذّره نابغةُ بني ذبيان[1] ذلك بقوله:

تجنّبْ بني حُنٍّ فإنّ لقاءَهم	كَريهٌ، وإنْ لَم تَلْقَ إلا بصابرِ
وَهُمُ قتلوا الطائيَّ بالحِجْرِ عَنْوَةً	أبا جابرٍ، واستَنْكَحُوا أمَّ جابرِ
وهم ضربوا أنفَ الفزاريِّ بعد ما	أتاهم بمعقودٍ من الأمرِ قاهرِ
أتطمعُ في وادي القُرى وجنابِه	وقد منعوا منه جميعَ المعاشِرِ؟

في أبيات.

و(حُنّ) بضم الحاء المهملة والنون المشددة، هو ابن ربيعة بن حرام بن بن ضِنّة بن عبد بن كبير بن عُذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة.

و(أبو جابر) هو الجُلاس بن وهب بن قيس بن عُبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذُهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء، وكان ممن اجتمعت عليه جديلة طيء.

ولما فرغ رسولُ الله ﷺ من خيبر في سنة سبع امتدَّ إلى وادي القُرى فغزاه، ونزلَ به. وقال الشاعر[2]:

ألا ليتَ شعرِي هَلْ أبيتنَّ ليلةً	بوادِي القُرَى إنّي إذاً لَسَعِيدُ؟
وَهَلْ أرَيَن يوماً بهِ وَهِيَ أيّمٌ	وما رَثَّ مِنْ حَبْلِ الوِصَالِ جَدِيْدُ

انتهى كلام أبي المنذر، وكلام ياقوت.

---

(١) [ديوانه: (٩٨)].

(٢) [هو جميل بن معمر العذري في المعجم (جملاً) بدل (يوماً)].

ووادي القرى اليوم خرابٌ، كما كان في أيامهما، ولا يرجَى له استئناف عمران إلا باستئناف حركة الخطّ الحديدي الحجازي.

ولقد كان وادي القُرى معموراً في صدر الإسلام وما يليه، وبه مات موسى بن نُصير اللخمي فاتحُ الأندلسِ، وغازي الأرضَ الكبيرة الأوربية، وفاتحُها كلّها، لو تركه أعداؤه وحسّاده في دمشق يكْمِلُ عملَه في الغرب.

وقرأتُ في كتاب «الصلة» لابن بُشْكُوال في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم! ترجمةَ أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموي، الذي يعرف بابن ميمون من أهل طُلَيْطِلَة: وفيها أنّه رحل إلى المشرق سنة (٣٨٠) وحَجّ وزار المدينة، وأنه سمع بوادي القرى من أبي جعفر أحمد بن علي بن مصعب، وبمَدْيَنَ من أبي بكر السوسي الصوفي، وبأَيْلة من أبي بكر ابن المنتصر، وبالقَلْزَم من أبي عبيد الله ابن غسان القاضي.

فمن ذِكْرِه علماءَ في هذه الأماكن يَأْخُذُ عنهم مثلُ ابن ميمون الطليطلي بجلالة قَدْرِهِ يُعْرَف أنّها كانت معمورةً مأهولةً.

والحال أنّها اليوم خراب، فلا وادي القرى، ولا مدينَ ولا أيلةَ، ولا القلزمَ عليها رائحة العمارة، أو فيها شيءٌ يشبُه القرى، فضلاً عن الحواضر أو المزارع، فضلاً عن الجنان النواضر.

أين اليومَ وادي القرى ومدينَ وأيلةَ والقلزم، وأين العلمُ والأدبُ والسماعُ منها؟!!

أوديـة العقيـق فـي المدينـة واليمـامة وغيرهمـا

ومن أجمل ما في الحجاز، بل في جزيرة العرب، الأمكنة التي يقال لها العقيق، ويترنّمُ بها الشعراء بالشعر المتين الرقيق، والعربُ تقول لكلّ مسيل ماءٍ شقّهُ السيلُ في الأرضِ فأنهرَهُ ووسّعه عقيق.

فمن هذه الأعقّة: عقيقُ عراض اليمامة، وهو واد واسع ممايلي العرمة، يتدفق فيه شعاب العارض، وفيه عيون عذبة الماء.

قال السكوني: عقيق اليمامة لبني عقيل، فيه قرى ونخل كثير، ويقال له: عقيق تمرة، وهو منبر من منابر اليمامة عن يمين مَنْ يخرج من اليمامة يريد اليمن، عليه أمير، وفيه يقول الشاعر:

تُـرَبِّـعُ ليلـى بـالمضيّـحِ فـالحِمَـى ... وتَحْفِرُ مِنْ بَطْنِ العقيقِ السَّوَاقِيَا

ذكر ذلك ياقوت في «معجم البلدان» (٤: ١٣٨) ثم ذكر عن عقيقِ المدينةِ ما ملخّصُه: إنّه عقيقان: الأكبرُ ممايلي الحَرّة، ما بين أرض عروة بن الزبير إلى قصر المراجل، وممايلي الحِمى ما بين قصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن عثمان إلى قصر المراجل، ثم أذهب بالعقيق صعداً إلى منتهى البقيع.

والعقيقُ الأصغرُ ما سفل عن قصر المراجل إلى منتهى العرْصة.

وفي عقيقِ المدينة يقول الشاعر، وهو المديح المرقّصُ الذي ليس وراءه مديح في الكرم:

إنّي مررتُ على العقيقِ وأهلُه ... يشكـونَ مِـنْ مَطَـرِ الـرّبيـعِ نُزُوْرَا
ما ضرّكُمْ إنْ كان جعفرُ جارَكم ... أنْ لا يكـونَ عقيقُكـم ممطَـورا

قال: وفي هذا العقيق قصورٌ ودورٌ ومنازلُ وقُرى.

قال القاضي عياض: العقيقُ وادٍ عليه أموالُ أهلِ المدينة، وهو على ثلاثة أميال أو ميلين، وقيل: ستة وقيل: سبعة.

وهي أعقةٌ: أحدها عقيقُ المدينة، عُقّ عن حرَّتها، وهذا العقيق الأصغر، وفيه بئر رُومة.

والعقيق الأكبر بعد هذا، وفيه بئر عروة.

وعقيق آخر أكبر من هذين، وفيه بئرٌ على مقرُبةٍ منه، وهو من بلاد مُزَينة.

ومنها **العقيق** الذي جاء فيه (إنّك بوادٍ مبارَكٍ) هو الذي ببطن وادي ذي الحُليفة.

ومنها **عقيقُ اليمامة لبني عقيل**، وفيه يقول ابن حُميّر (بضم فتشديد) العقيلي:

يريدُ العقيقَ ابنُ المُهَيْرِ ورهطُه ... ودُوْنَ العقيقِ الموتُ ورداً أحمرا
وكيفَ تريدونَ العقيقَ ودونَهُ ... بنو المحصناتِ اللابساتِ السَّنَوَّرا

ومنها: **العقيق** ماءٌ لبني جعدة وجرم، تخاصموا فيه إلى النبي ﷺ، فقضى به لبني جَرْمٍ.

ومنها: **عقيق البصرة**: وهو وادٍ ممايلي سَفَوان.

ومنها: **عقيق آخر** يدفع سيله في غوري تِهامة، وهو الذي ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال: لو أهلّوا من العقيق كان أحبَّ إليَّ (يريدُ أهلَ العراق، الذين من عادتهم أن يهلّوا من ذات عرق).

ومنها: **عقيق تمرة**: قرب تبالة وبيشة، وقيل: عقيق تمرة هو عقيقُ اليمامة.

والعقيق وادٍ لبني كلاب، نسبه إلى اليمن، لأنّ أرضَ هوازنٍ في نجدٍ ممايلي اليمن، وأرض غطفان في نجد ممايليّ الشام، وإياه عنى الفرزدقُ بقوله:

ألم ترَ أنّي يومَ جَوِّ سُويقَةٍ ... بَكَيْتُ، فنادتني هُنيدةُ: ماليا؟
فقلتُ لها: إنّ البكاءَ لراحةٌ ... به يشتفي مَنْ ظَن أنْ لا تلاقِيَا
قِفي ودّعينا يا هُنيدُ، فإنّني ... أرى الركبَ قد ساموا العقيقَ اليمانيا

انتهى ملخصاً من «معجم البلدان».

وسيّدُ الأعقة كلِّها عقيقُ المدينة المنورة، وهو الذي يدورُ ذكرُه على ألسنة الشعراء، وإذا قيل العقيقُ وحاجر اشتدّ الشوقُ، وسالتْ الدموعُ من المحاجر، وقد تنزّهتُ فيه، ونشقتُ طِيْبَ هوائه، ورشفتُ من عَذْبِ

مائه، وهو على مسافة ساعة من المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وفيه بئر عثمان بن عفان رومة ـ وبئر عروة بن الزبير رضي الله عنهما.

وقد كانت لنا أيامَ زرتُ المدينة قبل الحرب العامة بسنة قيلاتٌ كثيرةٌ على بئر عروة المشهورة بخفة مائها، والتي كان يرسَلُ بمائها إلى هارون الرشيد، قال الزبير بن بكار: رأيتُ أبي يأمرُ به فيُغلى، ثم يجعلُه في القوارير، ويهديه إلى الرشيد، وهو بالرقة.

هذا ـ وقد كنتُ أشعر عند بئر عثمان من انشراح الصدر، وانفساح الفكر، ما لا أشعرُ به في مكان آخر، حتى إنّي أردت مقابلة أعيانِ المدينة المنورة الكرام على حفاوتهم بي، والمكارم التي أظهروها، والمآدب التي اتخذوها، فدعوت منهم خمسين أو ستين شخصاً إلى مأدبةٍ اخترتُ لها بئر عثمان، التي قال فيها النبي ﷺ: «نعم القليبُ قَلِيْبُ المُزَنيّ» وهي البئر التي كانت تسمى من قبلُ: بئر رُومة (بضم فسكون) كانت لرجل غِفاري يقال: إنّ اسمَه رومة، فلما أعجبتْ رسولَ الله ﷺ اشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم، وتصدّقَ بها على المسلمين.

وقال مصعب بن الزبير يذكر بئر رومة ويتشوّقُها وهو بالعراق:

أقولُ لثابتٍ والعينُ تَهْمِي دُموعاً ما أُنَهْنِهُها انحدارا
أَعِرْني نظرةً بقُرِى دُجَيْلٍ تُحايلها ظلاماً أو نهارا
فقال: أرى برُومةَ أو بِسَلْعٍ منازَلَنا معطَّلَةً قِفارا

ولم تكن جميعُ المنازل وقتئذ بالعقيق معطلة قفاراً، بل كانت تلك الديار عامرة، وكانت حولها الجنان ناضرة، ولا تزالُ آثارُ العمارة هناك ظاهرةً، ومنها آثار قصر عروة بن الزبير، وقصر سعيد بن العاص

وغيرهما، وإذا زخر عمرانُ يثربَ يوماً من الأيام، فلا بدّ من أن تتصلَ المنازِلُ من البلدة إلى العقيق[1].

سلع المدينة المنورة

وأما سَلْعٌ ـ بفتح أوله وسكون ثانيه ـ فهو جبلٌ على طرف المدينة المنورة، إلى الشمال الغربيّ، بيضي الشكل، شامخ، مشرف على جميع البلدة، تعلو ذِروتُه عنها نحو ثلاثمئة متر، فلو حفلَ عمرانُ المدينة، وعادَتْ إليها السكة الحديدية متصلةً بالشام، كما لا بدّ أن يكون ذلك إن شاء الله، وجُعِلَتْ إلى ذِروة هذا الجبل مرقاةٌ (Funiculaire) كما ترى في سويسرة للجبال العالية القريبة من العمران، التي يتوقّلون إليها بالسكك الراقية، لكان في رأس سَلْع متنزَهٌ يعزُّ نظيرُه في الدنيا، ولا يمَلُّ النّاسُ الاختلافَ إليه. ومعنى لفظة ـ سَلْع بالفتح وقد يكسر ـ الشِقُ في الجبل، قال ياقُوت: قال أبو زياد: الأسلاعُ طرقٌ في الجبالِ، يسمّى الواحد منها سَلْعاً، وهو أن يصعدَ الإنسان في الشعب وهو بين الجبلين، يبلغُ أعلى الوادي، ثم يمضي فيسند في الجبل حتى يطلعَ فيشرف على واد آخر، يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه (سندفيه: رقى فيه، والسند: ما قابلك من الجبل، وما علا عن السفح، وفي وطني من جبل لبنان مكانٌ يَصْعَدُ فيه الإنسانُ من عين عنوب إلى عيناب يقال له: سند عيناب) ثم ينحدر حينئذ في الوادي الآخر، حتى يخرج من الجبل منحدراً في فضاء الأرض، فذاك الرأس الذي أشرف من الواديين السَّلْعُ، ولا يعلوه إلا راجل. اهـ.

---

(١) في أحاديث أشراط الساعة وما يحدُث قبلَها ما يدلُّ على أنّ منها عمران المدينة، وأنّ النبي ﷺ قال: «تبلغُ المساكنُ إهاب، أو يهاب» رواه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٩٠٣) من حديث أبي هريرة، وإنّ بعضَ رواتِه قال: إنّ إهاب على بعد عدة أميالٍ من المدينة.

قلت: في سلع المدينة ذِروة تناوِحُها ذروةٌ أخرى، وبينهما منحدَرُ خفيفٌ من الأرض، وكان الأتراكُ قد جعلوا هناك نقطة عسكرية ومدافعَ، ولعلها باقيةٌ إلى اليوم، ولقد علوتُ هذا الجبل راجلاً في جماعة من الأحباب، بدعوةِ قائدِ المدينة قبلَ الحرب العامة بصري باشا، الذي دعانا إلى شرب الشاي هناك، ولكنْ سيأتي يومٌ تعمر فيه مدينة الرسول ﷺ عمراناً حفيلاً، ويصعدُ الناس إلى سلع بالمرقاة إنْ شاء الله، قال صفيُّ الدين الحلي:

إنْ جئتَ سَلْعاً فَسَلْ عن جِيْرَة العَلَمِ واقْرَا السّلام على عُرْبٍ بذي سَلَمِ

والشعرُ في سَلْعٍ كثيرٌ.

يَنْبُعُ

ومن الأماكن الحجازية الملأى بالمستقبل ـ كما يقول الإفرنج ـ ينبع، قال: ابن دريد: أُخِذَ اسمُها من الفعل المضارع لكثر ينابيعها، وهي عن يمينِ جبلِ رَضْوَى لمنِ كانَ منحدِراً من المدينة المنورة إلى البحر، على ليلةٍ مِنْ رَضوَى، وعلى سبع مراحلَ من المدينة.

قال ياقوت: قال الشريف ابن سلمة بن عياش اليَنْبُعي: عددتُ بها مئة وسبعين عيناً.

وقال عرام بن الأصبغ السلمي: وهي لبني حسن بن علي، وكان يسكنُها الأنصار، وجهينة، وليث، وفيها عيونٌ عِذابٌ غزيرةٌ، وواديها بَـلِيْلٌ، وبها منبر، وهي قريةٌ غنّاء».

رابـغ

ومنها رابغ: وهي بلدةٌ على وادٍ من دون الجَحْفَةِ، يقطعُه الحاجُّ من دون عزور (بفتح فسكون).

قال الحازمي: بطن رابغ واد من الجحفة، له ذكر في المغازي وفي أيام العرب، ومعنى الرابغ العيشُ الناعمُ، وكذلك الرابغ الذي يقيم على

أمر ممكّن له، وحُجّاجُ الشام يُحْرِمون من رابغ[1]، وإذا كانوا في السفين في البحر الأحمر وعلموا أنهم صاروا بحذاء رابغ أحرموا ولبّوا.

ووادي رابغ من أخصب أودية الجزيرة، يجعل الأهالي هناك له سداً موقتاً من طين، يجددونه كلَّ سنة، ويزرعون عليه، ولو انتدبت شركة إسلامية، وأخذت من حكومة الحجاز امتيازاً ببناء سد من حجر، يتكوّن وراءه خزانٌ مياه ذو مفاجر، تُسَدُّ وتفتَحُ بحسب الحاجة، لكانت عمليةً من أربح العمليات الاقتصادية، لأنّ الزُّراع وأصحابَ الأراضي يتمنَّوْن أن يؤدوا شيئاً معلوماً لأصحاب الخزان، بشرط أن يأمَنوا على قضية ري أراضيهم.

ومن مزايا رابغ أن ميناءها آمَنُ ميناءٍ في الحجاز، إذ مِنَ المعلوم أنّ مرافىءَ بحر الحجاز كلُّها مخُوْفةٌ، لا تقدِرُالسّفنُ أن ترفأ إليها إلا بدلالة بحرية من أهلِ الحجاز، يتخلّلون البحر أمامها، وأما رابغُ فقد عافاها الله مِنْ هذه العِلّة.

بيشة

ومن المواضع الزراعية ذاتِ البال في الحجاز بيشة التي إلى الجنوب من الحجاز نحو اليمن.

قال ياقوت (١ : ٥٢٩): اسم قريةٍ غنّاء في وادٍ كثيرِ الأهلِ من بلاد اليمن.

وعَنْ أبي زياد: خيرُ ديار بني سَلول بيشة، وهو وادٍ يصبُّ سيلُه من الحجاز ـ حجازِ الطائف ـ ثم ينصبّ في نجدٍ، حتى ينتهي في بلاد عقيل.

---

(١) وكذا سائرُ مَنْ يجيءُ من الشمال وشرقيه وغربيه، فيمر منها براً وبحراً، ولو عمرت ميناء رابغ لكانت أولى بنزول هؤلاء الحجاج منها، لأنّ بحرَها خيرٌ من بحر جدة، وبرّها خيرٌ من بَرّها لكثرة المياه والشجر فيه، وإن كان أبعدَ عن مكة.

وفي بيشة بطونٌ من الناس كثيرةٌ في خثعم، وهِلال، وسُواءَة بن عامر بن صعصعة، وعقيل، والضِّباب، وقريش، وهم بنو هاشم لهم المعمل.

ثم قال ياقوت: وبيشة من عمل مكة، ممايلي اليمن، من مكة على خمس مراحل، وبها من النخل والفسيل شيءٌ كثير، وفي وادي بيشة موضعٌ مشجَّرٌ كثيرُ الأُسد، قال السمهريّ:

وأُنبِئتُ لَيْلَى بِالغَرِيَّيْنِ سَلَّمَتْ عليَّ ودُوني طِخْفَةٌ ورِجامُها
فإنَّ التي أهدَتْ على نَأْيِ دَارِها سلاماً لمردودٌ عليها سلامُها
عديدَ الحصى والأَثْلِ من بَطْنِ بيشةٍ وطَرْفَائِها ما دام فيها حَمَامُها

قلت: (طخفة) جبلٌ، و(رجام) جبل أيضاً.

وأما المعمل الذي أشار إليه ياقوت فهو مِلكٌ لبني هاشم في بيشة والأصل في تسميته المعمل هو هذه القصة:

كان في بيشة سَلُول وخثعم يتنازعون، يحفِرُ السلوليون، فيضعون الفسيل، فيجيءُ الخثعميون فينتزعونه، ولا يزال بينهم القتال على ذلك، وسُمّيَ المكانُ الذي كانوا يتنازعون فيه مطلوباً، فتخوَّفَ العُجَيْرُ السَّلوليُّ مِنْ وقوع شَرٍّ أعظم، فأخذَ من طينِ هذا المحل ومائِه، ولحق بهشام بن عبد الملك الأموي، ووصف له صفته، وأتاه بالماء والطين، وأخبرَه بما في بيشة من الأودية، وما فيها من الفسيل، وقال له: إنّ من الممكن هناك غرسُ عشرةِ آلافِ فسيلة في يومٍ واحدٍ، فأرسلَ الخليفةُ هشام من الشام إلى أمير مكة أن يشتريَ مئة زنجي، ويجعلَ مع كلّ زنجي امرأته، ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوبٍ، وينقل إليهم الفسيل حتى يغرسُوه، ففعل أميرُ مكة ما أمره به الخليفة، فلما رأى الناسُ ذلك قالوا: إنّ مطلوباً معملٌ يعمَلُ فيه، فذهب اسمه المعمل إلى اليوم، وقال العُجير السلولي:

لا نومَ للعينِ إلا وهي ساهرةٌ حتى أصيبَ بغيظٍ أهلَ مطلوبِ

أو تغضبونَ فقد بدّلتُ أيكَتكَمْ ذرقَ الدّجاج وتجفافَ اليعاقيبِ
قد كنتُ أخبرتكم أنْ سَوْفَ يملِكُها بنـو أميـةَ وعـداً غيـرَ مَكْـذُوبِ

قلت: (اليعاقيب) جمع يعقوب، وهو الذكر من الحجل والقطا. و(تجفجف) اليعقوبُ انتفش وتحرّك، وألقى جناحيه على البيضة.

يريدُ أن يقول لسلول وخثعم: ما زلتم تتنازعون. حتى اضطرَتموني أنْ ألجأَ إلى الخليفة الأموي، وأدعوه أن يملِكَ المحل، ويحرِمَهُ الفريقين، فبدلتم بالجنان والمغارس ذرق الدجاج وتجفجف القطا.

ولم أشاهد ينبع النخل، ولا رابغ، ولا بيشة، وإنما شافهتُ كثيراً ممن شاهدوها، وكان أكثرُ من ذكر لي خِصْبَ بيشة وخيراتِها الكاتبُ النمساوي ليوبولد فايس، الذي أسلم، وتسمّى محمد أسد الله فقد حدثني عنها أنّ فيها من قابليةِ الزراعة ما تكفي به ميرة مكة وجوارها طول السنة لو كان العمل قائماً فيها كما يجب.

وأما النخيلُ فكثرتُه تدهِشُ العقلَ، وقد سمعت محمد أسد الله يذكر مثلَ هذا لجلالة الملك ابن سعود في مجلسه الملوكي بمكة، وهذه بعضُ أمثلةِ اجتزِىءُ بها عن الاستقصاء، فأقول:

الطريقة المثلى لعمران الحجاز الاقتصادي

إنّ الحجازَ فيه بقاعٌ زراعية هي في الدرجة القصوى من الخصب والزكاء، ولكنْ ينبغي لها المالُ والعِلمُ، فلا بدّ من بناء السدود كما كانت من القديم، ومن حفر الآبار الإرتوازية لاستنباط المياه، ومن الاعتماد في السواني على الآلات الرافعة البخارية (المواتر) وهناك طريقة رأيتها في الصيف الماضي في جزيرة مَيُورقة، وهي الدواليبُ الهوائية، تدور بهبوب الريح، فترفع الماءَ، ويتصبب إلى الصهاريج، ولا يتكلّف عليها صاحبُها زيتاً ولا فحماً. فإذا وُجِدَ الماء وُجِدَ من الخصبِ والخيرِ والمير في الحجاز ما لا يوجَدُ في قطرٍ آخر.

وأما المالُ اللازم للمشروعات الزراعية المذكورة فله طريقان:

إحداهما: أنْ تنظَّمَ الميزانيةُ الماليةُ لحكومة الحجاز تنظيماً حسناً، ويفرزَ منها جانِبٌ وافٍ لمصلحة الزراعة، فتأخذ هذه كلَّ سنةٍ بمشروع، وتقوم بإنشائه من مال الخزانة، ثم تستوفي ذلك من الأهالي المنتفعين على أقساطٍ معلومةٍ مؤجّلةٍ إلى عدة سنوات، بحسب جسامة المشروع.

والثانية: أن تتقدّم لهذه الأعمال شركاتٌ إسلاميةٌ بحتة من حجازيين، ونجديين، ومصريين، وشاميين، وهنود، وأندونيسيين وغيرهم، وتعطيها حكومة الحجاز بها امتيازات إلى آجال معينة، وهذه الشركات هي التي تبني السدود، وتستوفي على الري شيئاً معلوماً من الزُّراع، أو تحفرَ الآبارَ الإرتوازيةَ، وتأخذَ بدلَ العمل مع الربح الذي يكون وقع عليه الشرط، أو تقدِّمَ المواتر لأصحاب السواني، وتأخذ ثمنها منجّماً على عدة سنوات، وما أشبه ذلك[1].



(١) وفي أخبار «أم القرى» أنّ الحكومة السعودية انتدبت أحدَ كبار مهندسي الأمريكان لاختبار الأرض، وأماكن وجود المياه فيها، وأنّه وجدَ مياهَ غزيرةً قُرْبَ وادي فاطمة من جهة جدة، وستحفَرُ هناك الآبار الإرتوازية لاستخراجها وسقي الأرضِ بها.

ما في الحجاز وجزيرة العرب من كنوز المعادن

ويوجد عدا الزراعة منبع عظيم للرزق في الحجاز بل في كل جزيرة العرب هو **المعادن**[1]، فإنّ غنى الجزيرة بالمعادن موصوفٌ معروفٌ عند جميع الأمم من قديم الدهر، حتى إنَّ المؤرخين أجمعوا على أنّ حضارة هذه الجزيرة الباهرة في الحقب القديمةَ إنما قامت بأمرين:

أحدهما: نقلُ متاجرِ الهند والشرقِ الأقصى إلى الغرب، بموقع العرب بين الاثنين.

والثاني: ثروة المعادَن التي تكنُّها أرضُ الجزيرة.

فينبغي الآن وقد مضى وقتُ الفتوحات، وصرنا لا نطمحُ إلا إلى حفظ الموجود بيدنا، أن نأرِزَ إلى الجزيرة، التي هي مهد العربِ المنتشرين في أقطار المعمور جميعاً، ونجعلها الكهف المانع، والأصلَ الجامع، ونستخرجَ كلَّ ما فيها من عيون الحياة الكامنة، حتى تصونَ نفسها، وتنجد أخواتها التي انبسطتْ عليهنّ أيدي الاستيلاء الأجنبي، وأصبحنَ لا يملِكن لأنفسهنَ أمراً، فتزحزحَ عنهنّ هذا الرق الذي يرسفنَ في قيوده، وتتم بذلك **الجامعة العربية**، التي هي نكتة المحيا، ونشيدة آمالنا في هذه الدنيا، **ويجب أن لا ننسى أنّ هذا الأمرَ لا يصلحُ آخرُه إلا**

---

(١) [يستعمل المؤلف هذه الكلمة مرة بمعنى الفلزات الموجودة في باطن الأرض ومرة بمعنى المناجم].

بما صَلَحَ به أولُه، فقد كانت معادِنُ الجزيرة في القديم مِنْ أغزرِ منابع ثروتها، وعِزِّها، وارتقائها، وهي لا تزالُ هي هي، لا ينقصُها إلا الإرادةُ والعمل.

ولقد يقال: إنّ استثمارَ المعادن ليس بأمرٍ سهلٍ، وإنه إن أنشبت الشركاتُ الأوربيةُ مخالبَها في هذه المعادن جنينا منها السيطرةَ الأجنبيةَ، والذُّلَّ والندامة، فالأفضل أن نكونَ فقراء أحراراً ولا نكونَ أغنياء أرقاء... ولن نكونَ أرقاء وأغنياء أبداً، لأنّ الثروةَ لا تجتمعُ مع فقد الاستقلال، وهاؤم أهلُ المغرب والجزائر وتونس عندهم من معادن الفوسفات وغيرها ما يقوَّمُ بالمليارات، وليس بأيديهم منه شيءٌ، حتى كأنّ ذلك ليس في أرضهم.

كلُّ هذا التعليلُ صحيحٌ لا اعتراضَ عليه، وأحسنُ لنا أن نبقى فقراء مستقلّين، من أن يبتلعنا الاستعمارُ الأجنبي بواسطة معادن، نرجو في استثمارها اليسر، فيؤول بنا الأمرُ إلى الخسر، ولكنّ هذا التعليل لا يحلُّ المُشْكِلَ، ولا يجوزُ لأمّةٍ عاقلةٍ رشيدةٍ أبيّةٍ تبغي الحياةَ مثلَنا أن تعوِّلَ في قضيةٍ ذاتِ بالٍ كهذه على حلٍّ سلبيٍّ صِرْفٍ، نظن أننا قد أجبنا به ضمائرنا الناشزة، وسكنّا به خواطرنا الثائرة، على حين أنّه الحل الذي يليق بالأمم التي استوى عندها الماء والخشبة، والتي لا تريدُ أن تعملَ شيئاً، بل تنتظر قضاءَ الاستيلاء الأجنبيّ أن ينفذَ فيها.

أقول في تعليل ذلك:

أولاً: إنّ الذين يقترحون استثمارَ هذه المعادن الثمينة لا يشيرون بإعطاء أقلِّ شيءٍ منها لشركةٍ أجنبيةٍ، أو لشركةٍ مؤلّفة من مسلمينَ، هم تبع لدولةٍ أجنبية غيرِ مسلمةٍ، بل يشيرونَ بإعطاء الامتيازات لاستثمارها إلى شركاتٍ إسلاميةٍ، مرجعُها حكوماتٍ إسلامية، ومما لا نزاعَ فيه أنّ الشركات التجارية في بلاد الإسلام قليلةٌ، وأنّ رؤوس الأموالِ قليلةٌ أيضاً.

فالمسلمون لم يتعّودوا أسلوبِ الشركات في التجارة، فضلاً عن أنّ ثروتَهم العامة لا تساعِدُهم على تأليف هذه الشركات. إلا أنّ المبالغةَ في كلِّ شيءٍ مذمومةٌ، فلا يجوزُ أنْ نظنَّ أنَّ تأليفَ الشركات عند المسلمين مستحيلٌ، ولا أنَّ المالَ معدومٌ تماماً بين أيديهم، فكلا هذين الافتراضين مخالِفُ للمحسوس.

وفي بلاد الإسلام شركاتٌ اقتصادية كثيرة، ومن المسلمين عدد غفير من ذوي الثروة، وعددٌ غفير من ذوي المهارة في الأمور الاقتصادية.

وإذا جربت حكومتا الحجاز واليمن استثمارَ المعادن التي في هذين القطرين على أيدي متموّلين من المسلمين، فلا يبدأ هؤلاء بالربح، ولا يتحقق المسلمون أنّ هذه المشروعات ذات عوايد أكيدة حتى يقبلوا على المساهمة من كُلِّ صوبٍ، وتجدُ من رؤوس الأموال عند المسلمين مالا يخطُرُ لك على بال، وذلك لأنَّ الربحَ جلاّبٌ، وحيث تحقَّقَ وجودُ الفائدة وُجِدَ المال بلا إشكال.

إذن يمكننا أن نستثمرَ معادِنَ جزيرة العرب برؤوس أموالٍ أصحابُها مسلمون، بل أصحابها مسلمون لا تلي بلدانهم دول غير مسلمة[1]، وليس بضربة لازبٍ أنْ نستثمِرَ هذه المناجم كلَّها دفعةً واحدةً، بل يمكننا أن نستخرِجَ خيراتها تدريجاً، ولكنّ الذي لا يجوزُ أصلاً هو أن نظمأَ والماءُ فوقَ ظهورِنا، أو أن نشكوَ مزيدَ الفقر والمال تحت رِحالنا.

ثانياً: إنّ الظنَّ الذي يظنه بعضنا أنّ الشروع باستخراج هذه المناجم يفتحُ أعينَ الأوربيين على الجزيرة، لا سيما إذا رأَوْا الخيرات تدرُّ منها،

---

(١) إن تجار العرب في بومباي الهند ـ وأكثرهم من نجد والكويت ـ قد ألّفوا شركة بواخر، تمخر بين الهند وشط العرب، زاحموا بها الشركات الإنكليزية، فزحموها، ثم كانت الحرب العامة سببَ استيلاءِ الإنكليز عليها بصفة قانونية.

وأنّهم قد يشنون الغارات على البلاد لأجلِ حيازةِ هذه المعادن، هو ظُنٌّ لَعمري بغيرِ محله.

فإنّ الإفرنج يعرِفون مواقعَ هذه المعادن ـ ويعلمون ما فيها، إن لم يكن تفصيلاً فإجمالاً ـ وعندهم علمٌ آخرُ من طبقات الأرض، يجعلُهم عارفين بما يحتوي من المعدن والفلز كلُّ نوعٍ من هذه الطبقات، فإنْ كانوا لم يشنّوا الغارات إلى اليوم على الجزيرة فليس لجهلهم بما في بطنها من الكنوز والخيرات، بل لأنّ الأمورَ مرهونةٌ بأوقاتِها، والاستيلاءُ على جزيرة العرب أو على بعض أقسامِ من جزيرة العرب ليسَ بالأمر السهلِ، بل دونَهُ عقباتٌ من وعورةِ الجبال، وحرارةِ الرّمالِ، وشَجاعة الرجالِ، فضلاً عما بين الدول من التنافس الذي يحمِلُ بعضهنّ على الوقوف بالمرصاد لبعضٍ، مما يخشى منه وقوع الحرب بينهن.

وعلى كلِّ حالٍ فالجزيرةُ إلى الآن سالمةٌ من استيلاء الأجنبي إلا بعضَ أطرافٍ لا بالَ لها.

فليس من الحكمة، ولا من الحزم، أن نضيّعَ على أنفسنا ثروةً، نحن في أشد الاحتياج إليها تحتَ ملاحظاتٍ ليستْ صحيحةً، وأسبابٍ غيرِ واردةٍ.

ومما يدلُّنا على كون هذه المعادن معروفةٌ عند الإفرنج رسالة بالألمانية أطلعني عليها مؤخَراً مؤلفُها المستشرق الألماني الشهير الأستاذ موريتز واسمها «المعادن في العربية القديمة» (die Bergwerke in altenarabien) جاء فيها ما ملخصه: يظنّ النّاسُ إجمالاً أنّ جزيرة العرب هي من أفقر بلادِ الدنيا، وحقيقةُ الحال أنّها ليست كذلك، بل إذا نظرنا إلى ما كانت عليه في القرون الوسطى نجدها كانت ذاتَ ثروةٍ تُضْرَبُ بها الأمثال، وكانت تلك الثروة آتية من منبعين:

أحدهما: **كون الجزيرة طريق التجارة بين الشرق والبحر المتوسط.**

والثاني: وفرة المعادن التي كانت فيها، وأخصُّها الذّهبُ، فقد كانت هذه المعادن في أواسط عهد الألف سنة قبل المسيح معروفةً عند العبرانيين والفينقيين والآشوريين. وقد كان سليمان بن داود عليهما السلام أرسلَ بعثة على حسابه إلى البحر الأحمر، وعادت بغنائم تُدْهِشُ العقل.

وذكر سترابون (جغرافي يوناني مات في زمان طيباريوس قيصر) وديودور (مؤرخ يوناني يقال له ديودور الصقلي صاحبُ تاريخ عظيم، وكان معاصراً لأغُسطس قيصر) أنهراً في بلاد العرب كان فيها التِبر.

وقد كانت جزيرةُ العرب قبل الإسلام وقبلَ دخولها في الفتوحات النائية ذاتَ ثروةٍ عظيمةٍ بالزراعة والمعادن، وكانت مكةُ أشبهَ بمركز حكومة جمهورية ذي مراكز تجارية عظيمة، ذات علاقات مع الآفاق[1]، وكان الأخذُ والعطاء جاريين بقوة بينها وبين سائر البلدان، وكانت فيها صناعة الحلي بالغةً درجة الإتقان، ولا يزالُ صاغة مكة، وصنعاء اليمن، وعنيزة نجد، إلى يومنا هذا مشهورين بإتقان الصنعة.

أماكن معدن الذهب في جزيرة العرب

فأما الأقاليم التي فيها معادِنُ الذهب من جزيرة العرب، فمنها الأقاليم الغربية، والذهب يوجَدُ فيها بأسناد الجبال الواقعة بين الداخل والساحل، أي أسناد الجبال المتدلية إلى التهائم.

وكذلك توجَدُ معادن ذهب في أواسط الجزيرة، في الأماكِن المجهولةِ الضاربة إلى الجنوب والشرق، وهذه الجوانب الجبلية متكونة من حجر الغرانيت، مع كثيرٍ من الرخام السُّماقي، وهذه الحرّات التي

---

(١) [انظر فكتور سحاب: «إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف» طبع المركز الثقافي العربي في بيروت].

في الجنوب، والتي تمتدّ إلى مكة وإلى غربيها ـ لا شك أنّها تولّدت تحت تأثير التحولات الجيولوجية، التي أدّت إلى هذه القفار المحرقة، وهذه اليبوسة في الجزيرة، وإنّ شكل الغرانيت الصّواني هذا يظهَرُ في وسط البلاد، وتمتد آثاره إلى جهة الشرق أي في جبال نجد، وأطرافه الجنوبية تظهر في شماليِّ اليمن إلى أن تحاذِي صنعاء من الشمال.

وأما الجنوب الغربي من الجزيرة والجنوب كلُّه فتشكلاتهما الجيولوجية مختلفة عن الأولى، والذهب إنما يوجد في الجهات التي فيها الصوان أو الغرانيت وهي ما يأتي:

أولاً: في الشمال الغربي من الجزيرة بأرض مدين القديمة.

ثانياً: في أرض الحجاز الضاربة إلى الجنوب.

ثالثاً: في الشرق من الجزيرة نحو نجد.

رابعاً: في الجنوب الشرقي إلى جهة اليمن.

خامساً: في الجنوب المحض بأرض عسير إلى الشمان من اليمن.

فمدين هي البلاد الواقعة بين البحر الأحمر وقمم الجبال المحاذية للبحر الممتدة من نحو العقبة في الشمال إلى وادي الحمض في الجنوب، وهي اليوم تابعة للحجاز وهناك مراكز على ساحل البحر منها: ظبا والمويلح، والوجه.

وفي بلاد مدين معادن مفتوحة من قديم الدهر، وآثار الشغل في المعدن واضحة جداً.

ومعدن مدين هو المعدن الوحيد الذي توصّلَ الأوربيون إلى معرفته جيداً من معادن جزيرة العرب، فإنّ الكابتن برتون (Burton) الرحالة الإنكليزي كان قد ذهب على رأس بعثة أولى وثانية سنة (١٨٧٧) من قبل إسماعيل باشا خديوي مصر ـ الذي كانت مدين إذ ذاك تحت إدارته ولكن لم يستصحبوا معهم في تلك البعثات علماء متخصصين في فن

المعدن، ومع هذا فقد أمكنهم أن يحققوا وجود التعدين القديم في نقاط عدة، وجاءوا بحجارة مأخوذة كيفما اتفق من على سطح الأرض، ووجدوا (٤٨) غراماً من الذهب في الطن الواحد، ووجدوا فضة ونحاساً وحديداً، ولكنّ النتائج لم تكن بحسب المأمول منها، لعدم اعتمادهم في التعدين على أرباب الفن ذوي الاختصاص.

ثم إنّ إسماعيل باشا بلغه ظهورُ معادن ذهب في السودان، فانصرف عن معادن مدين إليها. ولم تلبث أن استرجعت الدولة العثمانية مدين إلى إدارتها، فبطلت كلُّ حركةٍ بحثٍ في مدين[1].

وفي جنوبيِّ مدين معدنٌ يقال له الحُراضة[2]، ثم إلى الجنوب منه

---

(١) بعد أن احتلّ الإنكليز مصر، بادرت الدولة إلى استرجاع سواحل العقبة والوجه وما يليها من يد الحكومة المصرية، حتى لا تجعل للإنكليز يداً في الحجاز. ولو لم تفعل الدولة ذلك لكان شطرٌ من الحجاز الآن تحتَ سيطرة إنكلترة، وبرغم هذا، فقد أذاق الإنكليز بعد ذلك السلطان عبد الحميد عرق القربة من أجل العقبة، وما رجعوا حتى ألحقوا طابة بمصر، لتكون العقبة تحت طائلة قوتهم، ثم لما زالت الدولة العثمانية بعد الحرب العامة لم يزالوا حتى ألحقوا العقبة بشرقي الأردن، بموافقة الملك علي بن الحسين، الذي كان سُمِّيَ ملك الحجاز حينئذ لأخيه الأمير عبد الله أمير هذه الجهة، ويقال بموافقة غيرِه من أمراء الحجاز. وقد احتجَّ على ذلك المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في مكة منذ خمس سنوات، ولم يعترف الملك ابن سعود باعتداء إنكلترة هذا على العقبة ومعان اللتين كانتا تابعتين للحجاز مع كل مراودتها له على هذا الأمر، ومع استظهارها باعتراف الملك علي.

(٢) في «معجم البلدان» ذو حُرُض ـ على وزن عنق ـ وادٍ لبني عبد الله من غطفان، على مقربة من معدن النقرة، ولم يقلْ شيئاً عن هذا المعدن، ولقد جاء ذلك التعريف بعينه في «تاج العروس».
وأما الحُراضة ـ بضم أوله ـ فقد قالوا: إنه ماء بالمدينة ا هـ من هوامش الأصل.

معدن غير الذي ذكره الجغرافي العربي المقدسي، وقال: إنّه بين ينبع النخل ومروة، وهذا المعدن المجهول لم يزل بكراً، وأصحابُه قبائل صغيرة لا يمكن للأوروبي أن يَجُوْل في أرضهم.

وأما المعادن المهمة في الجزيرة فهي التي في الحجاز واليمن، ويكثرُ فيها الذهب والفضة، وفيها قليل من النحاس، وفيها الحديد.

ففي جنوبيِّ الحجاز معادن كثيرة شهيرة، وكانوا في زمن النبي ﷺ يستخرِجونَ منها بمجرد رفع الحجارة، ومما لا شكَّ فيه أنّ الاستخراج منها وقع بعد المسيح بستمئة سنة، وكان حثيثاً.

ومن معادن الحجاز معدن بُحران[1] بالضم أو بالفتح ـ على الطريق السلطاني من مكة إلى المدينة.

ومنها معدن القبلية[2] في جبل قُدُس (بالضم) حيث بويع الرسول ﷺ، وكان معدناً عظيمَ الغلة.

---

(١) جاء في «معجم البلدان» بُحران بالضم موضع بناحية الفُرْع، قال ابن إسحاق: هو معدن بالحجاز في ناحية الفُرع، وذلك المعدن للحَجّاج بن علاط البهزي، قال ابن إسحاق في سرية عبد الله بن جحش: فسلك على طريق الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران (بفتح الباء): أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه، كذا قيّدَه ابنُ الفرات بفتح الباء ههنا، وقد قيده في مواضع بضمها، وذكره العمراني والزمخشري وضبطاه بالفتح.

(٢) القبلية ـ بالتحريك ـ من نواحي الفرع قال العمراني سراة ما بين المدينة وينبع، ما سال منها إلى ينبع سمي بالغور، وما سال منها إلى أودية المدينة سمي بالقبلية، وأقطع رسولُ الله ﷺ هذه القطيعة بلالَ بن الحارث المزني، وكتب له «هذا ما أعطى محمَّدٌ رسولُ اللهِ بلالَ بن الحارث، أعطاه معادن القبلية غوريَّها وجلسيَّها: غشية وذات النصب وحيث صلح الزرع من قدس. وكتب معاوية.

وكانت ثروة الخليفة أبي بكر[1] من هذا المعدن، ومن معدن آخرفي بلاد جهينة.

ومن المعادن المعروفة في الحجاز معادن **السوراقية**، وهي على ثلاث مراحل من المدينة إلى الشرق منها، وهي ذهب وفضة ورصاص، وهناك طواحينُها وأفرانها.

ومن الغريب أني لم أجدها في «معجم» ياقوت، إلا إذا كان قد ذكرها تحت اسم آخر.

وبحثت في «القاموس» و«التاج» عن السوارقية فرأيتُه يذكر بلدةً بهذا الاسم من الحرمين الشريفين، ولم يذكر أنّ فيها معادن، ويقول: إنها بضم أولها.

وملحوظ أنّ كلّ هذه الجبال التي هناك غنيةٌ بالمعادن، وقد كانت في زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يُؤْخَذُ عليها رسمٌ من مالِ الصدقة، ثم أخذ منها على وجه الخمس.

---

(١) جاء في «طبقات ابن سعد»: كان أبو بكر معروفاً بالتجارة، ولقد بُعِثَ النبي ﷺ وعنده أربعون ألفَ درهم، فكان ينفق منها ويقوِّي المسلمين، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم، فكان يفعلُ فيها ما كان يفعلُ في مكة. انتهى.
وأمّا من جهة ما كان يعودُ عليه من المعادن، فجاء فيها مايلي: وكان قدم عليه مال من معدن القبلية، ومن معادن جهينة كثير، وانفتح معدن بني سُليم في خلافة أبي بكر، فقدم عليه منه بصدقته، فكان يوضَعُ ذلك في بيت المال، فكان أبو بكر يقسمه على الناس نُقَراً نُقَراً ـ بضم النون وفتح القاف ـ فيصيبُ كلُّ مئة إنسان كذا وكذا، وكان يسوِّي بينَ الناس في القسم، الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير اهـ كلُّه من حواشي الأصل. =

وأعظمُ معدنٍ في جزيرةِ العربِ معدنُ **جبل فاران**[1] الذي كان لبني سُليم[2]، وكان فيه ذهب وحديد.

ولا نعلم أنّه تأسست نظارة خاصة بمعادن الحجاز في الدولة الإسلامية إلا سنة (١٢٨) للهجرة، وبعد هذا التاريخ بمئتي سنة خربت هذه المعادن، أو انقطع الاستخراج منها بحسب رواية الأصطخري، ولم يذكر ياقوتُ عن استغلالها شيئاً.

وليس عندنا عن أسبابِ تركِ العملِ في هذه المعادن إلا افتراضات، فيجوز أن تكونَ نفدت مادتُها، ويجوزُ أن يكونَ إهمالُها جاء من قِبَلِ الفتح الإسلامي، الذي نشر العربَ في الأقطار، فقد كانت مكةُ قبلَ الإسلام مركزاً عظيماً للأخذ والعطاء، ولم يكن ذلك بسبب حركة أهلها وحدَهم، بل بسبب كونها محط رحال القبائل المجاورة، فقد كانت القافلةُ الواحدةُ نحوَ ألف جمل تتقدمها السواري[3] وتخفرها، وتأخذ (٥٠) بالمئة من الأرباح، وهكذا كان البدو متعلّقين بأهل مكة تابعين لهم، فلما فتحَ الإسلامُ البلدانَ، وتفرّقَ العربُ، لم تبقَ مكةُ كما كانت من قبلُ مركزاً كبيراً للأخذ والعطاء، لكنّها بقيتْ فيها ثروة غير زهيدة.

وفي القرن الأول من الهجرة كان في الحرمين يسار عظيم، يستدَلُّ على ذلك من أنّه لما قُتِلَ الخليفة عثمان وُجِدَ وراءه من الذهب

(١) فاران من أسماء مكة المكرمة، وقيل: هو اسم لجبالِ مكة، وفي «التوراة»: جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران. تفسيره: إنّ اللهَ كلّمَ موسى عليه السلام من سيناء، وأنزلَ الإنجيلَ على عيسى عليه السلام في ساعير، أي جبال فلسطين، وأنزلَ القرآن على محمد عليه السلام في فاران أي جبل مكة.

(٢) جاء في «المعجم»: معدن بني سُليم هو معدن فاران، وهو من أعمال المدينة على طريق نجد. اهـ. من الأصل.

(٣) [الخيالة].

العين(١٥٠) ألف دينار، يساوي الدينار عشرة ماركات، فإذا ضُربَ بأربعة، ليطابق حساب النقد اليوم، بلغ ذلك ما يساوي (٦) ملايين مارك[١].

---

(١) كان عثمان بن عفان رضي الله عنه تاجراً في الجاهلية والإسلام، وهو الذي جهّزَ جيشَ العسرة، لغزوة تبوك من مالِه، وترك يومَ قُتِلَ مئة وخمسين ألف دينار، وثلاثين ألف ألف درهم، وخمسين ألف درهم، وترك ألف بعير بالربذة، وترك صدقات كان تصدّقَ بها في براديس، وخيبر، ووادي القُرى، قيمتها مئتي ألف دينار. فأنتَ ترى أنّ تركة عثمان كانت أعظمَ مما قال الأستاذ موريتز الألماني.
وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه موسراً أيضاً، باع أرضاً من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسّم ذلك في فقراء بني زُهرة أقاربِهِ، وفي ذوي الحاجة من الناس، ولما مات ترك ألفَ بعيرٍ، وثلاثةَ آلاف شاة، ومئةَ فرس ترعى بالبقيع في المدينة، وكان يزرع بالجُرُف على عشرين ناضحاً، وقيل: إنّه ترك ذهباً قُطِّعَ بالفؤوس، حتى مجلت أيدي الرجال منه، وكان له نسوة أربع، فخرجت كلٌّ واحدةٍ، بثمانين ألف درهم.
وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه غنياً، ترك يوم مات مئتي ألف وخمسين ألفَ درهم.
ولكن الثروة العظمى كانت للزبير بن العوام رضي الله عنه، جاء في «طبقات ابن سعد»: أنّه بلغ مالُه قيمةَ خمسة وثلاثين ألف ألف ومئتي ألف درهم، أي (٣٥) مليوناً و(٢٠٠) ألف، وترك أربع نسوة، فأصاب كلاً منهن مليون ومئة ألف.
وحدّثَ ابنُه عبد الله بن الزبير أنّه دعاه يومَ الجمل، وقال له: إني سأُقْتَلُ اليومَ مظلوماً، يا بني! بع مالنا واقضِ ديني، وأوص بالثلثِ، فإنْ فضل مِنْ مالنا مِنْ بعدِ قضاءِ الدين شيءٌ فثلثه لولدك، قال عبد الله بن الزبير: فجعل يوصيني بدينه، ويقول: يا بني إن عجزتَ عن شيءٍ فاستعن عليه بمولاي، قال: فو الله ما دريتُ ما أراد حتى قلت: يا أبت! من مولاك؟ قال: الله، قال: فو الله ما وقعتُ في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه دينَه، فيقضيه، [قال]: وقتل الزبير ولم يدع ديناراً ولا درهماً، إلا أرضين فيها الغابة، وإحدى=

. . . .

= عشرة داراً: بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر.

وأما دينُه فكان مليونين ومئتي ألف درهم، وكان سبب هذه الديون أنّ الرجلَ كان يأتيه بالمال ليستودعه إياه، فيقول الزبير: لا، ولكن هو سلف، إني أخشى عليه الضيعة.

وكان الزبير اشترى الغابةَ بمئة وسبعين ألف درهم، فباعها عبد الله بن الزبير بمليون وستمائة ألف، ثم قام فقال: من كان له على الزبير شيءٌ فليوافنا بالغابة، فوافاه أصحاب الديون، واستوفوا حقوقهم.

وقال بنو الزبير لعبد الله: اقسم لنا ميراثنا، قال: لا واللهِ لا أقسم بينكم حتى أنادي في الموسم أربعَ سنين: ألا مَنْ كان له على الزبير دينٌ فليأتنا فلنقضه، فجعل كلَّ سنةٍ ينادي بالموسم، فلما مضت أربعُ سنين قسمَ بينهم.

قالوا: كان للزبير بمصر خطط، وبالإسكندرية خطط، وبالكوفة خطط، وبالبصرة دور، وكانت له غلات كثيرة تَقْدُمُ عليه من أعراض المدينة.

وأما طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فقد ترك يوم قتل في واقعة الجمل تركة عظيمة، جاء في «الطبقات» قُتِلَ طلحةُ بن عبيد الله - رحمه الله - وفي يد خازنه ألفا ألف درهم، ومئتا ألف درهم، وقُوِّمَتْ أصولُه وعقارُه ثلاثين ألف ألف درهم.

وحدث عمرو بن العاص قال: إنّ طلحة بن عبيد الله ترك مئة بهار في كل بهار ثلاثة قناطر ذهب، وسمعت أن البهار جلد ثور (وفي «المصباح المنير» البهار بالضم شيءٌ يوزن به).

وقال إبراهيم بن محمد بن طلحة: كان قيمة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقارِ والأموالِ وما ترك من الناضّ (المال الصامت العين في إصطلاح أهل الحجاز) ثلاثينَ ألفَ ألف درهم، ترك من العين ألفي ألف ومئتي ألف درهم ومئتي ألف دينار، والباقي عُروض.

وسأل معاويةُ موسى بن طلحة: كم ترك أبو محمد يرحمه الله من العين؟

قال: ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم ومئتي ألف دينار.

وكان يغل كلَّ سنة من العراق مئة ألفٍ سوى غلاته من السراة وغيرها. وكان يدخل قوت أهله بالمدينة سنتهم من مزرعةٍ بقناةٍ، كان يزرع على عشرين

وقد كانت تركةٌ أخرى مقدرة بخمسمئة ألف دينار، أي (٢٠) مليون مارك، ولكن عند ما ارتفع لواء الإسلام في الآفاق، أخذ العرب يغادرون الجزيرة لينضووا تحته، ولم يبق في الحجاز إلا قبائل بادية، كبني هلال، وبني سُليم، وحرب ـ الذين بين مكة والمدينة ـ فصاروا بخلوّ البلاد من الساكن إلى فقرٍ شديدٍ، حملهم على الارتزاق من نهب الحجاج، وقطع السوابل، وعاد معوَّلُ الحجاز كلِّه ـ بدواً وحضراً ـ في المعيشة على موسم الحج.

وفي نجد معادن أيضاً منها المعدن الذي يقال له: الحليت في أمِّ البِل أي أم الإبل، بقرب حِمى ضرية[١]، وهومشهور بالتبر، وقد تناقص محصوله من كثرة ما استُخرِج منه، وترك أخيراً، ولو أمكنت زيارة الأرض لكان منها فائدة، إذ عندها كتابات منقوشة من قبل الإسلام، ربما يعرَفُ منه شيءٌ عن استخراج هذا المعدن.

ثم في نجد معدن المحجة، ومعدن الهجيرة، ومعدن القصاص

= ناضحاً، وأول من زرع القمحَ بقناة هو، وكان لا يدعُ أحداً من بني تيم أقاربه عائلاً إلا كفاه مؤونته ومؤنة عياله، وزوج أياماهم، وأخذ دم غائلهم، وقضى دينَ غارمهم، وكان يرسل إلى عائشة كلَّ سنة (١٠) آلاف درهم، وقضى عن صبيحة التيمي(٣٠) ألف درهم، وطلحة هو أحد أجوادِ العرب المشهورين، وأحد الطلحات الأربعة المضروب المثلِ بكرمهم ا هـ من الأصل.

(١) قال الأصمعي: حليت ـ بوزن خريت ـ معدن وقرية. وقال ياقوت: قال نصر: حليت جبال من أخَيلة، حمى ضرية، عظيمة، كثيرة الفنان، كان فيه معدن ذهب، وهو من ديار بني كلاب.
وقال أبو زياد: حليت ماءٌ بالحمى للضباب، وبحليت معدن اهـ.
وجاء في «معجم البلدان» ذِكْرُ معدم بقرب حمى ضرية غير هذا، قال أبوعبيدة: والخربة (بالتحريك) أرضٌ مما يلي ضَرِيَّة، به معدن يقال له معدن خربة.

وهي معادن ذهب والمعمل في تربة[1] هو معدن ذهب، أيضاً.

وأما معادن الفضة فهي اثنان فقط:

أحدهما: معدن أبرق خُتْرب[2] الذي كان غزيراً جداً، ثم من القرن الحادي عشر (أي الرابع للهجرة) انقطع خبره.

ومعدن النَقرة (بالفتح)[3] الذي كان مذكوراً كثيراً إلى القرن الثاني عشر.

وأما الحديد فقد ذكر وجوده الرحالة الإلزاسي هربر (Huber) الذي ساح في بلاد العرب، لكنه لم يقل عنها شيئاً، وإنما أشار إلى معدن حديد في تبوك.

واليمامةُ غزيرةُ المعادِن. ذكر الجغرافي الهمداني ص (٢٩١) معدن

---

(١) جاء في «معجم البلدان» ذكر تربة ـ بضم ففتح ـ أنّها وادٍ بالقرب من مكة، على مسافة يومين منها، يصبُّ في بستان ابن عامر، يسكنه بنو هلال، وحواليه من الجبال السراة ويسوم وفرقد، ومعدن البرم اهـ.
قال محمد بن أحمد الهمداني: تربة ورنية وبيشة هذه الأودية الثلاثة ضِخام، مسيرة كلّ واحدٍ منها عشرون يوماً، أسافلها في نجد، وأعاليها في السراة، ثم قال: وفي المثل عرف بطني بطنَ تربةِ، قاله عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب أبو براء ملاعب الأسنة في قصة فيها طول، غاب عن قومه، فلما عاد إلى تربة وهي أرضُه التي ولد بها، ألصقَ بطنَه بأرضها، فوجد راحةً فقال ذلك اهـ من حواشي الأصل.

(٢) ضبطها الأستاذ موريتز بضم فسكون، وهكذا في «تاج العروس» أنّه على وزن قنفذ، وقد جاء في «معجم البلدان»: «ختْرب» اسمُ موضعٍ، لكنْ بفتحٍ فسكونٍ.

(٣) جاء في «القاموس» للفيروز أبادي: والنقرة، ويقال معدن النقرة، وقد تكسر قافها.

الحسن[١] ومعدن الحفير[٢] والضبيب[٣] وثنية ابن عصام، والعوسجة، وتياس.

ثم يذكر الهمداني بعد ذلك ص (٢٩٤) معدني فضة ونحاس في شمام[٤] وكان يشتغل فيهما ألف رجل يومياً، وإن صحَّ ذلك، فيكون تعدينُ هذه المعادن من أيام الجاهلية.

وأما معادن اليمن وعسير فكانت معروفةً من زمان الفينيقيين والعبرانيين، وهي شويلة، وشيبا، وأوفير، وفراويم، والمظنون أنّ شويلة هي خولان وأنّ شيبا هي سبأ، وأن فروايم هي فروة. وأما أوافير فمذكور في التوارة، ويُظَنُّ أنّه في المكان المسمّى سينبابي.

وكثير من المؤلفين العرب لم يكونوا يعرفون من هذه المعادن إلا أسماءَها، ولم يكونوا محققين أماكنها، ومن ذلك قول ياقوت: إنّ معدن البُرْم (بضم فسكون) بين مكة والطائف[٥]، وفي الوقت نفسه

---

(١) جاء في «المعجم»: الحسن في ديارضبة. وسنذكر كلامَ الهمداني نفسَه عن هذه الأماكن.

(٢) الحفير كزُبير، جاء ذكره في «المعجم» وفي «التاج» ـ اسماً لعدة مواضع أشهرُها موضع بين البصرة ومكة يمرُّ عليه الحاج، ولكنّ المقصودَ هنا معدنُ الحُفير بناحية عماية، وسننقل كلامَ الهمداني نفسَه.

(٣) ضبطه موريتز بفتح فكسر كأمير، ولم أجده اسمَ موضع إلا بضم ففتح كزُبير.

(٤) سننقل كلامَ الهمداني عن كلّ هذه المواضع ا هـ من الأصل.

(٥) قال في «المعجم»: معدن البرم قال عرام: قرية بين مكة والطائف يقال لها المعدن، معدن البرم كثيرة النخل والزروع والمياه، مياه آبار يسقون زروعهم بالزرانيق، قال أبو الدينار: معدن البرم لبني عقيل.

قلت: وقوله (الزرانيق) معناه السواني، و(الزررنوقان) حائطان مبنيان على رأس البئر من جانبيها، فتوضع عليهما النعامة، وهي الخشبة المعلقة عليهما، ثم تعلق بهما البكرة، قيل: وإذا كان الزونوقان من خشب فهما النعامتان، والخشبة المعترضة هي العَجَلة، والغرب معلّقٌ بالعَجَلة.

قالوا: إنه في وادي تربة.

كذلك معدن العتم الذي جرى ذكره إلى القرن العاشر والحادي عشر، جعلوه في الساحل جنوبيَّ الليث، وفي تثليث إلى جهة الداخل، ويجوزُ أن يكونَ المكان الثاني مقصوداً به معدن نجران.

وعلى (١٨٠) كيلو متراً من نجران إلى الشمال بالعقيق الأعلى معدن صعاد[١]، الذي بأرضِ بني عُقيل، الذي قال فيهم الرسول ﷺ: «بأرضِ بني عُقيلٍ يُمْطِرُ الذّهبُ» وقد كان هذا المعدن غزيرَ المحصول إلى القرن العاشر، فانقطع ذكره.

واشتهر معدن ضنكان[٢] شماليَّ عسير بجودة التبر الذي يخرج منه، ثم انقطع خبرُه أيضاً، ويجوز أن تتغيرَ الأسماء بكرور الأيام، فإنَّ ناحية قنونا صار اسمها في الحديث قنفذة، وإنّ التي كان يقال ها: ليتوس هامايوم هي الليث اليوم.

وفي صعدة من اليمن معدن الحديد، وذكر السائح هالفي أنّه شاهد بعينه سنة (١٨٧٢) في خولان وسِرْواح شمالي صنعاء قِطعاً من الذهب مع الأدلاء، الذين كانوا معه من العرب، وعلمتُ أنّهم يجدون هذا الذهب بشكل حبّاتٍ في الرمل، وفي مجاري الأنهر، وفي الأودية.

وفي اليمن أيضاً معادن فضة منها معدن الرحراح في أرض همدان.

وختم الأستاذ موريتز رسالته على معادن بلاد العرب بقوله: إنّ

---

(١) قال الهمداني في «صفة جزيرة العرب» (٣٢٩): العقيق عقيقان: العقيق الأعلى للمنتفق، ومعه معدن صعاد على يوم أو يومين، وهو أغزر معدن في جزيرة العرب، وهو الذي ذكره النبي ﷺ في قوله: «مطرت أرض عقيل ذهباً» والأسفل هو في طيء.

(٢) قال في «المعجم»: هو واد في أسافل السراة، يصبُّ إلى البحر، وهو من مخاليف اليمن ا هـ من حواشي الأصل.

جزيرةَ العرب هي من البلاد التي عرفها السياح أقل من جميع أقطار الأرض، وأكثر ما عرفوا منها السواحل وبعض القسم الشمالي، وفي جوف الجزيرة قطعة يعدِلُ طولُها بثمانمئة كيلو متر، وعرضُها بستمئة كيلو متر، لا يُعْرَفُ عنها شيءٌ، ولا من أي شكل هي[1]، ولا إذا كانت صحراء ميتة أو مسكونة؟ وإنّ عدم الاطلاع على حقائق هذه المجاهل ليس ناشئاً من طبيعة الأرض كما هو ناشىء من طبيعة السكان. انتهى ملخصاً.

* * *



(١) [يقصد منطقة الربع الخالي].

الدين النصيحة!!

فأنت ترى من هذه الرسالة المنشورة سنة (١٩١٧) أي منذ أربع عشرة سنة أنَ الأوربيين يعرفون ما في جزيرة العرب من المعادن، إن لم يكن تفصيلاً فإجمالاً، وأنّه ليس عدمُ سماعهم بثروتها المعدنية هو الذي ثبّطهم حتى اليوم عن احتلالها، بل لذلك أسباب:

سياسية: مرجعها حفْظُ التوازن الدولي.

عسكرية: مرجعها صعوبة مراس أهلها.

فالأولى بنا أن نغتنمَ هذه الفرصة، ونستغل ما أمكننا من هذه المعادن، لنقوّي بها جيوشنا، ونصلح إدارتنا، ونبثّ العمارة في بلادنا، وأن لا نأخذَ هذه الأمور بالتسويف والمطاولة، حتى يصيبنا ما أصاب تركية في مطاولاتها باستخراج الكنوز التي كانت تحت يدها، إلى أن جاء الأجانب واستولوا عليها، فقد كانت قادرةً أن تستفيدَ من زيت الموصل من عهد طويل، فلم تبتَّ في أمره شيئاً، ولم تزل تماطِلُ إلى أن أضاعت بهذه المماطلة ثروةً تقوَّمُ بالمليارات الكثيرة من الجنيهات لا من الفرنكات، وكان عندها البحر الميت، فلم تصنعْ في استخراج ثروتِه شيئاً، ولا أبدتْ ولا أعادتْ، إلى أن جاء الإنكليز بعد الحرب العامة، فحلّلوا مياهه، وقوّموا ما يمكن أن يستخرجَ منه، فقالوا: إنّه يمكن أن يستخرَجَ منه قيمة خمسة آلاف مليار جنيه، وعشرون ألف

مليون طن من الفوسفات[1]، وهلم جرا، مما تَعَيى العقولُ عن تصوّره، وليس في جزيرة العرب شيءٌ من الخيرات التي تقوَّم بهذه المليارات من الجنيهات، ولكنّه بدون شك فيها كثير من المعادن التي يمكن لكلٍّ من حكومة الحجاز ونجد السعودية وحكومة اليمن الإمامية أن ترتفقَ به، وتستعينَ به لإصلاح بلادها، وتعزيزِ أجنادها، وذلك على شرط أن لا تلجأ في هذ الموضوع إلا إلى رؤوس أموالِ أصحابُها مسلمون، ليسوا من تبعة الأجانب، وهذا ممكن إذا أرادته هاتان الحكومتان، وبدأتا بفحصٍ فني عن هذه الأماكن حتى تعلما ما تحت أرجلهما قبل مباشرة العمل[2].

---

(١) [الذي يستخرج من البحر الميت هو البوتاس].

(٢) بينما نحن مباشرون طبع هذا الكتاب إذ حدث حادثان مهمان يتعلّقان بالمعادن وأمرِ التنقيب عنها في الجزيرة العربية وفقاً للأمانيّ التي تجول في صدور مفكري العرب، من استثمار هذه الخيرات العظيمة، والاستعانة بها على إصلاح أحوال العرب.

وهذان الحادثان أولهما أنّ الإمام عبد العزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها قد انتدب المستر توتشل المهندس الأميركي المتخصص بالمياه والمعادن للتنقيب عن المياه التي يقرب إنباطُها والمعادن التي يتحقق وجودُها في ممالك الحجاز ونجد، وأنّ المهندس المذكور قد بدأ بالعمل، وسار إلى سواحل الحجاز الشمالية، ورافقه في رحلته الأخ السري الفاضل خالد بك القرقني الطرابلسي المغربي من سلالة بني هود، الجالين من الأندلس.

وقد جاء في العدد (٣٣٥) من جريدة «أم القرى» الرسمية تاريخ (٢٠) ذي الحجة سنة (١٣٤٩) ما يفيدُ أنّ المهندسَ المذكور تجوّلَ في سواحل الحجاز الشمالية، ودأب هناك في الفحص والبحث مدة ثلاثة أسابيع، قطع خلالها مسافة (٣٥٠٠) كيلو متر، وأنه رأى أنّ المياه في تلك المنطقة لا تقلُّ غزارةً عن مياه المنطقة الواقعة بين وادي فاطمة وجدة، وأنّها قريبةٌ جداً من سطح الأرض، لا يتجاوز أقصى عمقٍ لها عشرةَ أمتار، كما أنّ إماهة المياه في هذه المنطقة لا يحتاجُ فيها إلى حفريات إرتوازية. =

= قالت الجريدة: وإنّه عثر على منجم بترول غزير بين اللبانة والمويلح في ساحة لا يقلُّ طولُها عن (٣٥٠) كيلو متراً تقريباً، وكنا نسمع دائماً أنّ في ذلك الساحل زيت بترول يسيل إلى البحر، فعسى أن لا يبطىءَ الملك عبد العزيز في استخراج هذا المنبع الغزير القريب من البحر، الذي لا يلزم له مد أنابيب على مسافات طويلة جداً كما هو الشأن في منابع باكو ومنابع الموصل مثلاً.

ثم قالت الجريدة: إنّ هذا المهندس قد عثر أيضاً على منجم ذهب غزير في ضواحي الوجه، مؤلف من عروق ذهبية عديدة، وعلى منجم رصاص بالقرب من الوجه أيضاً.

فعسى أن يطوف هذا المهندس في جميع مملكة ابن سعود، وأن يردَفَ بمتخصصين آخرين، ويبحثوا في الأماكن كلّها مما سبق العهد بالمعادن والزيوت والأملاح فيه، وما لم يعرف عنه شيء إلى اليوم.

وأما الحادث الثاني فهو أنّ الأخ الفاضل السيد رشدي الصالح ملحس النابلسي محرر جريدة «أم القرى» أخرج رسالةً في المعادن بالحجاز ونجد وملحقاتهما، ذكر فيها ما فيهما من مناجم مختلفة وأملاح، مما وصفه الهمداني وياقوت والمقدسي والزمخشري وبعض رجال الأتراك الذي سبقت لهم ولايات في جزيرة العرب وغيرهم. وقد أهدى إلينا نسخةً من هذه الرسالة، التي يقول: إنه انتزعها من كتاب هو شارع في وضعه تحت اسم «معجم البلدان العربية» فتصفحناها، ووجدناها رسالةً قيّمةً ثمينةً، كأنّها هي بذاتها معدن من معادن العلم والتحقيق، ورأينا فيها ذكر معادن كثيرة، أوردنا الخبر عنها في كتابنا هذا، وربما جاء فيها ما فاتنا ذكره، كما أنّ في هذا الكتاب عن معادن اليمن ما ليسَ في تلك الرسالة.

واستيفاءُ البحث عن معادن الجزيرة العربية يستجلبُ على كلِّ الأحوال أنظارَ العرب إليها، ويستثيرُ همَمَ الناهضين منهم إلى استخراجها، وإفاضة خيراتها على هذه الأمة. فنسأله تعالى تعجيلَ هذه الأمنية. آمين.

* * *

كلام الهمداني عن معادن جزيرة العرب

ولنذكر الآن ما قاله الهمداني في كتاب المنقطع النظير «صفة جزيرة العرب» المطبوع في ليدن من سبع وأربعين سنة[1]: وذلك عن معادن الجزيرة:

معادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيلُ بن كعب

معدن الحسن، والحسن قرن أسود مليح، وهو معدن ذهب غزير ومعدن **الحُفير** بناحية عَماية، وهو معدن ذهب غزير. **ومعدن الضبيب** عن يسار هضب القليب. ومعدن **الثنية**: ثنية ابن عصام الباهلي، معدن ذهب. ومعدن **العوسجة**[2] من أرض غَني، فويق المغيرا، ببطن السرداح، والمغيرا الماء الذي يُقال: إنّه رُمِيَ عليه شأس بن زهير بن ثعلبة بن الأعرج الغنوي، ويقال: المغيرا قرن يقال له الوتدة في بطن الوادي. ومعدنا **شمام**: الفضة والصفر، ومعدن **تياس**: ذهب مُجِفّ بتياس[3]، ومعدن **العقيق**،[4] ومعدن **المحجَّة** بين العمق وبين أفيعية،

---

(١) [ثم طبع ثانياً بتحقيق العلامة الشيخ عبد الله بن بلهيد قاضي قضاة المملكة العربية السعودية، ثم ثالثاً بتحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع الحوالي اليماني وبإشراف الشيخ حمد الجاسر، ثم رابعاً بتحقيق القاضي الأكوع، وقد رجعتُ إلى الطبعة الثالثة].

(٢) ورد ذكره العوسجة في «المعجم» أنّه معدن فضة ببلاد باهلة.

(٣) ورد ذكر تياس في «المعجم» ولم يذكر معدناً، بل قال: إنّه جبلٌ بقرب اليمامة.

(٤) عقيق عارِضُ اليمامة، ذكره ياقوت.

ومعدن بيشة[١] ، **ومعدن الهجيرة**[٢] ، **ومعدن بني سُليم**[٣] ، **فهذه معادن نجد**[٤] .

ثم ذكر الهمداني **الأملاح**، وهي مما يجب أن يحلّلَ تحليلاً فنياً، ليعرفَ ماذا يحتوي، وما يمكن أن يستخرجَ منه من الأجزاء، التي قد تقوَّمُ بالذهب، كما جرى بالبحر الميت.

قال الهمداني[٥]: **الدبيل**: أملاح من أوله إلى آخره، **الحذيفة والرابغة**، **وصَبيب**، **والهوة**، **ومياه الشربة**، وفيها يقول الحارث بن ظالم:

فلو طاوعتُ عمرَك كنتُ منهم ... وما ألفيتُ أنتجِعُ السحابا
ولا ضِفْتُ الشَرِبَّةَ كلَّ عامٍ ... أجدُّ على أبائرها الذبابا
أبائِرُ مِلحة بحزيز سوءٍ ... تبيتُ سقاتها صَرْدَى سِغابا

ومن أملاح مياه العُصْق: المنهلة والنعجاوي.

ومن أملاح العبامة والثُّعل والبغرة وأحساء بني جُوية، وينوفة خنثل، وناضحة، والبقرة، والنجلية، والنقرة، والمجازة مجازة الطريق، سوى مجازة اليمامة بين إجلة وبين الفرعة.

مياه الحمادة أملاح، ونجيل، ونجلة، والآباط، والحفيرة، والحامضة، وشعبعب.

مياه منيم إلا الجدعاء.

وماء يُفاء، وبَرك، وأوان، والخُيانية، والنَّهيقة، واللقيطة،

---

(١) تقدم ذكر بيشة ص (٢٩٥).

(٢) لم يذكر ياقوت عن الهجيرة إلا أنّها موضع.

(٣) تقدّمَ ذكر معدن بني سُليم ا هـ من حواشي الأصل.

(٤) «صفة جزيرة العرب» (٢٩٩) ط دار اليمامة بالرياض.

(٥) المصدر السابق ص (٣٠٠) ط دار اليمامة بالرياض.

وما احتازته بذران، فقبة أرام إلى خلفة وعماية عذاب كله.

والقطانية مِلْحٌ ببطن السُّرَة.

فأما الملح الذي يمتلح فصباح ملح الحاجر، وملح المطلفية، وملح القصيبة، وملح يبرين، وملح بناحية البحرين، وفي رؤوس الجبال مِلْحٌ نحيت أحمرُ عروق، وهذه ملحات أهل نجد.

فأما ملح اليمن، فمن جبل الملح بمأرب، وملح بالقمة من تهامة بناحية مور، والمهجم، وكثير من مياه تهامة أملاح، فمنها المعجر، والجبال، والحويتية، وجوّحلي، وكل ما قارب الساحل جميعاً أملاح إلا اليسير.

* * *

ثم يعود إلى المعادن في موضع آخر[١] فيقول: قد ذكرنا معادن الذهب، فأمّا معدن الفضة بالرضراض (بفتح أوله) فما لا نظيرَ له، وبها معادن حديد غير معمولة، مثل نُقُم (بضمتين)، وغُمدان (بضم أوله) وبها فصوص البقران (محركة) ويبلغ المثلث بها مالاً[٢]، وهو أن يكونَ وجهه أحمر، فوق عِرْقٍ أبيض، فوق عِرْقٍ أسود.

والبقران ألوان، ومعدنه بجبل أَنِس (بفتح أوله وكسر ثانيه) وهو ينسب إلى أنس بن ألهان بن مالك.

---

(١) ص (٣٦٤).

(٢) قال ياقوت في «معجمه»: البَقَرَان بثلاث فتحات، وقد تكسر القاف، وربما سُكِّنَتْ، من مخاليف اليمن لبني نجيد، يجلب منه الجزع البقراني، وهو أجودُ أنواعه. قالوا: وقد يبلغُ الفَصُّ منه مئة دينار.
قلت: لعلّ هذا كان قديماً، فأما في زماننا فما رأيتُ ولا سمعتُ فَصَّ جَزْعٍ بلغَ ديناراً قط، ولو انتهتْ غايتُه في الحسن إلى أقصى مداها اهـ. من هوامش الأصل.

والسعوانية من سعوان(بفتح فسكون) وادٍ إلى جنب صنعاء، وهو فص أسود، فيه عرق أبيض، ومعدنه بشهارة (بضم أوله)، وعَيشان (بفتح أوله) من بلد حاشد، إلى جنب هِنْوَم (بكسر فسكون ففتح)، وظُليمة (بضم ففتح)، والجمش (بفتح أوله) من شرف همدان.

والعشاري (بضم أوله) وهو الحجر السماوي، من عشار بالقرب من صنعاء.

والبلور يوجد في مواضع منها.

والمسنى الذي تعمل منه نصب السكاكين، يوجد في مواضع منها.

والعقيق الأحمر، والعقيق الأصفر، العقيقان من ألهان، وبها الجزع الموشّى والمسيَّر، وهو في مواضع منها، منه النُقميّ، وهو فحل العرف، والسعواني، والضهري، منه أجنسٌ، والخولاني والجرتي (بضم فسكون) من عذيقة. والشزب (بفتح فسكون) تعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف، ونصب سكاكين، ومداهن وقحفة وغير ذلك، وليس سواه إلا في بلد الهند، والهنديُّ بعرقٍ واحدٍ.

ثم ذكر الهمداني معدن الرضراض في موضع آخر صفحة (٨١) من النسخة المطبوعة بليدن[1] فقال: ثم أودية الرضراض وحريب نِهْم ومشاربها من جبال السر، وصُرَع، وسامك، ومساقط بلد عذر مطرة، وبلد يام، وهيلان، وتحت سامك الرضراض، وإليه ينسب معدن الرضراض، وثَمّ قرية المعدن معدن الفضة، وهو معدِنٌ لا نظيرَ له في الغزر، وخُرِّبَ بعد قتل محمد بن يعفر. اهـ.

وقد تقدم ذكر الهمداني معدِنَ البرام بقرب الطائف، وقد ذكر أيضاً في كلامه على بلد حَرام من كنانة معدن ضنكان (بفتح فسكون) وقال

---

(١) ص (١٥١) ط الرياض.

عنه: هو معدِنٌ غزير، ولا بأسَ بتبره، ثم ذكر معدن عشم (محركة أيضاً)[1].

ولقد كان الملك حسين بن علي في أثناء ولايته انتدبَ بعضَ متخصصين في الزراعة وفي علم طبقات الأرض للبحث في أراضي الحجاز، وإبداءِ آرائهم فيما يمكن عملُه لاستثمارها، فجالوا في الأراضي، ونظروا، ودققوا، ورفعوا لجلالته تقريراً نشر الخيرُ الزركلي خلاصته في كتابه «ما رأيتُ وما سمعتُ»[2] ومنه يظهر أنّ أراضي المنطقة الطائفية صالحةٌ جداً للزراعة، وأنه ينبت فيها أكثر الأشياء النافعة: كالشوندر، والبطاطا، والتبغ، والقنب، والسمسم، والأرز، والقطن، والورد، وغيرها. فأما عن تشكّلات الأرض الجيولوجية، فقد قررت البعثة الفنية المذكورة مايلي، نأثره بحرفه:

تقرير علمي فني في صفة أراضي الحجاز وصخورها

الأراضي التي في منطقة الطائف هي من أقدم طبقات الأراضي الجيولوجية، جميعُها من الصخور الاندفاعية الصلبة، وهي لا تمتصُّ المياه، ولذلك يقلُّ وجودُ الماء في الجبال، إذ تتسرَّبُ عنها، وترسب في الأودية.

وهذه الصخور مركبة من غنايس رمادي اللون، فيه ذرات سوداء، ويتركب من ميكا وكوراتس وفلدسبات، ثم تليه طبقة صخور الغرانيت، وهو على الغالب أحمر اللون، فيه حبيبات رمادية لماعة، وتركيبه كتركيب الغنايس، وتليه طبقة صخور البازالت هو صخر بركاني كحلي أو أسود اللون، مثقَّبٌ كالإسفنج، وقد تتغير هيئة الصخور في منطقة الطائف، ويكثر فيها صخر الميكاشِيْست، وهو صخر أسود اللون،

---

(١) «صفة جزيرة العرب» (٢٥٩).

(٢) [رأيت وما سمعت ص(٨٠)].

مصفَّحٌ، ذو طبقات بعضُها فوق بعض، والكوارتس ـ وهو صخر أبيض لماع، وقد يوجد بصفة متبلورة، ويتركّب منه السيليس الطقّي. ويعلو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من الكالسيت، اجتمعت في الأودية ومجاري السيول، وعلى مرور الزمان تألّفت الطبقة العليا، التي هي من تفتت الصخور الممتدة فوق الأرض، ومن خصائص هذه الطبقات القديمة أنّها تحتوي على معادِنَ من الجنس الجيد، ومن جملتها معدنان:

أحدهما: رمل مركب من حديدٍ مؤكسَدٍ ممزوج به قليل من النحاس، ويبلغ مقدار الحديد نحو (٦٠) في المئة، ولا بد من تحسُّنِ المعدن في العمق.

والثاني: حديد مؤكسد أيضاً، إنما هو صافٍ من الجنس الجيد، يصلُحُ للاستخراج، ويحتوي على نحو (٧٠) في المئة حديداً صرفاً.

وفي منطقة الطائف خصوصاً ما بين عين الخضرة والطائف ـ مقادير وافرةٌ من المرمر الأحمر الجميل، الذي من فوائده أنّه يعمل أعمدة للأبنية الجميلة، وتوضع منه أشكال عديدة للزخرف.

ثم جاء في ذلك التقرير:

وعلى بُعْدِ أربع ساعات من الطائف محلة تدعى المعدن، فيها جبل مرتفع (٥٤٠) قدماً، به حفريات قديمة، تنبىء باستخراج معدن منه، وفيه آثار معدنية تحتوي على شيءٍ من الحديد، وقليلٍ من النحاس، وإذا حفر هذا الموضع فلا بدّ من وجود أشكالٍ معدنية غير الشكل الظاهر على السطح.

ومما يبرهن على استخراج هذا المعدِن قديماً آثار بيوت مبنية في قمة الجبل، وبوادِق من حجر يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم، ويستخرج منها الحديد، وإذا أريدتْ متابعةُ استخراجِه الآن، لم

يكف له الحفر على وجه الأرض، بل ينبغي حفر آبارٍ تتفرّعُ منها سراديبُ تحت الأرض.

وفي جبل الوَهْط جِنْسٌ صخر يدعى ميكا أبيض اللون، تتجزّأ منه صحف رقيقة كالورق، شفّافة كالزجاج، وهو غيرُ قابلٍ للذوبان في النار، مهما بلغت حرارتها، ومن فوائده أنّه يستعمل نلآلات الكهربائية، وللمواقد الحديدية، المتخذة للدفء، وفيه من الحجر الكلسي المتبلور الصافي، الصالح لاستخراج الكلس، الصافي اللون. انتهى.

قلت: قد رأيتُ في بلاد الطائف أشكالاً وألواناً من الحجارة، وأتذكّر أنّي رأيتُ في العقبة المسماة بكرا الصغير ـ التي يصعد بها الإنسان من وادي المحرم إلى الهدا ـ حجراً أخضر كثيراً، وقد جاء في «معجم» ياقوت عند ذكر حَرّة بني سُليم: إنّ بها معدن الدهنج، وهو حجرٌ أخضرُ، يحفر عنه كسائر المعادن.

رسالة قديمة في معادن اليمن

ولقد جرّنا ذكر المعادن إلى نقل رسالة صغيرة عن معادن اليمن وجدتُها في آخر الجلد الذي فيه الجزء العاشر من كتاب «الإكليل» للهمداني من النسخة التي في المكتبة الملوكية في برلين، وليس الكلام للهمداني، ولا هو من عبارته، وإنما فيه شواهد أحياناً من كلام الهمداني.

قال: حجأري وترابأي في الخلقة معدن في الجبل فضة وذهب. وفي خرابة ذي حرب معدن، وفي إبّ[1] معدن، وفي

---

(١) قال ياقوت: أبُّ بالفتح والتشديد هي بُليدة باليمن، ونقل عن عمر بن عبد الخالق الإبي أن إبَّ بالكسر، وأنّ أهل اليمن لا يعرفون الفتح، وجاء في «تاج العروس» عن أبي طاهر السِّلفي أنها بكسر الهمزة، وجاء أن إب بالكسر من قرى ذي جبلة باليمن، وقال الصاغاني: هي من مخلاف جعفر. =

أَفيق[1] معدن، وفي بلد عَنْس[2] معدن ذهب في وسط الجروف فوقَ المزارع.

فوق الجرن معدن رصاص أسود في جرشة عنس، في الشعب الذي ينزل إلى ورقة في الأكمة السوداء على الشمال إذ أنتَ نازلٌ إلى ورقة، وهي حجارة سود تشبه الكُحل، تكسر الحجارة، ويوقَدُ عليه زبلُ الدجاج إلى أن يصيرَ كالماء.

وفي بلد بني غصين[3] معدن فضة عند خشران، بالخرابة العالية عند الخربتين الكبيرتين، وهو ترابٌ لونُه أصفر مرجح إلى خضرة، يؤخَذُ

---

(١) لم نجده في الأصل مضبوطاً، فلا نعلم هل هو بفتح فكسر، أم بضم ففتح فسكون ـ وياقوت يذكر أفِيق على وزن أمير ـ البلدة ذات العقبة المشرفة على بحيرة طبرية، ويذكر بلداً بالتصغير ـ على وزن سُهيل ـ يقول عنه موضع ببلاد بني يربوع، ولا يقول غير ذلك، إلا أن «تاج العروس» يقول: إن أفيق ـ على وزن أمير ـ بلدة بين حوران والغور، ومنه عقبة أفيق، وبلدة لبني يربوع، أو بلدة بنواحي ذِمار. وقد أغفله ياقوت والصاغاني، والمفهوم من كلام الفيروزأبادي والزبيدي أن جميعها ـ على وزن أمير ـ وليس فيها ما هو بالتصغير، ولم يذكر منهم أحد معادن لا في إب ولا في أفيق. [قال محقق«صفة جزيرة العرب» (٢٢٦): وأفيق قرية عامرة في الشمال الغربي من ذمار، وأفيق أيضاً بلدة من عنس من مشرق ذمار].

(٢) بفتح أوله وسكون ثانيه، قال ياقوت: هو مخلاف باليمن، وجاء في «تاج العروس» أن عنس لقب زيد بن مالك بن أدد، أبو قبيلة من اليمن، ومخلاف عنس بها مضاف إليه، ولم يذكر بها معدناً (بالحاشية). اهـ.
كل ما تقدّم وما سيأتي في هذا الفصل من حواشي الأصل.

(٣) قال ابن دريد: وأحسب أن بني غصين بطن، قال الزبيدي: قلت: وهم اليوم بغزة، وشِرذمة بالرملة، منهم الإمام المحدث الشيخ عبد القادر بن غصين الغزّي الشافعي، ولم يذكر، هل هي بالتشديد أم لا. =

منه، ويخلط علي فراز الخل وعضة[1] الكشر[2] واللبن الحامض ستةَ أيام، ويطبخ، فإنه يصيرُ ماء، فيطلع الزبد في أعلاه.

ومن المعادن المشهورة: معدن فضة جيد في موضع يقال له: الرضراض، حد ما بين خولان وهمدان، كان لبني بعفر، وقد خرب، فوقه الآن جبل ذكره صاحب «جزيرة العرب»[3] ولعله في حوزة نِهم[4].

معادن يابسة من نهم مشهورة منها ما هو رصاص أسود جيد، ومنها ما هو فضة.

معدن فضة في بلد سارع[5] في المغرب، كان يعمل منه الإمام شرف الدين عليه السلام، وربما انهدم عليه جبل على ما وصفه أهل الخبرة.

معادن جبل نقم[6] كثيرة، فيه معدن ذهب جيد، ومعدن حديد،

---

(١) العضة القطعة.

(٢) الكشر الخبز اليابس.

(٣) يريد أن يقول صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» وهو الهمداني ص (١٥٢) ط الرياض.

(٤) نِهم ـ بالكسر ـ ابن عمرو بن ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل، أبو بطن من همدان، قال الزبيدي صاحب «تاج العروس»: ومنهم بقية اليوم بصنعاء اليمن.

(٥) لم نجد ذكر سارع في «تاج العروس» وإنما وجدنا فيه ذكر شارع بالمعجمة، وقال: بلدة. ولم يذكر أين هي، أما الهمداني في «صفة جزيرة العرب» فيذكر سارع الأعلى بمخلاف شبام مغرب صنعاء [وذكر القاضي الأكوع في تعليقه على «صفة جزيرة العرب» ص (١١٠): سارع منطقة معروفة تحتفظ باسمها، وتسمى سارع بني سعد من ناحية قيهمة وبها معادن].

(٦) (نقم) بضمتين قال في «القاموس»: نقم: بالضم بلدة باليمن. قال الزَّبيدي: قلتُ: قد أجحف المصنِّف في ضبطها وبيانها إجحافاً كلياً، والصواب في ضبطها بضمتين وبفتحتين وكعضد ـ كما صرح به ياقوت. وأما الضم وحده مع تسكين القاف فلم يذكره أحد، قال ياقوت: هو جبل مطل على صنعاء قرب =

كانت حمير تعمل منه السيوف الحميرية، التي تسمى البرغشية، صنعت في زمن الملك برغش المشهور، قال صاحب «جزيرة العرب» وفيه معادن الجواهر: الزمرد والياقوت والبلور والزجاج والجزع.

وفي سعوان[1] معدن ذهب، ومعادن حجارة، منها الحجر المريمي.

معدن صِرْواح[2] ذهب جيد، وفي بيحان في الجوف[3] معدن ذهب.

= غمدان قال فيه زياد بن منقذ:

ألا حبذا أنتِ يا صنعاءُ من بَلَدٍ ولا شعوب هوى مني ولا نُقُمِ

(١) قال الهمداني (١٥٤): جبل عِيبان وجبل نقم وما بينهما من حقل صنعاء وشعوب ووادي سعوان ووادي السر ومطرة، وفيها أودية كثيرة، وأوردَ مثلاً يمانياً (٢٣٦): أحلك الأرض مسور (بفتح فسكون) وأختها: بتوعر (بضم فضم) وأحْوَر، فأَحْوَر (على وزن أفعل) وسعوان لو تمطر [أحلك من الحُلْك: وهو شدة الحلاوة مع زيادة خاصيته الذوق والطعم، وهي لغة يمانية].

(٢) صِرْواح حصنٌ باليمن ذكره في «التاج» وقال ياقوت: والصرواح في اليمن قرب مأرب، وأنشد له جملة شواهد من الشعر منها:

أبونا الذي أهدى السُّرُوْجَ بمأربٍ فآبتْ إلى صِرْواحَ يوماً نوافِلُهْ

ومنها:

تشتّو على صِرْواحَ خمسينَ حِجّةً ومأرِبَ صافوا رِيفَها وتَرَبَّعُوْا

(٣) قال ياقوت عند ذكره لفظة جوف والأماكن المسماة بها: قال أبو زياد: الجوف جوف المحورة ببلاد همدان ومراد. وقال: الجوف من أرض مراد، واستشهد عليه بشعر:

فلو أنَّ قومي أنطقَتِني رماحُهم نطقتُ، ولكنّ الرماحَ أَجَرَّتِ

شهدنا بأنَّ الجوفَ كان لأمّكُمْ فزالَ عقارُ الأمّ منها فَعَرَّت

سيمنعكم يومَ اللقاءِ فوارسٌ بِطَعْنٍ كأفواهِ المزاد اسْبَكَرَّتِ

وقال الهمداني (١٥٢): الجوف منفهق من الأرض بين جبل نهم الشمالي، الذي فيه أنف اللوذ، وأوبن الجنوبي الموصل بهيلان من بعد، وذكر الهمداني أنّ سكان بيحان مراد.

=

وذكر صاحِبُ «كتاب التيجان» معادَن الجبل الأبلق، وهو بالقرب من سدِّ مَأرِب[1]

---

(١) بهمزة ساكنة وكسر الراء، قال ياقوت: هي بلاد الأزد باليمن. وقال السُّهيلي: مأرب اسم قصر كان لهم، وقيل اسمٌ لكلِّ ملكٍ كان يلي سبأ، كما أنّ تُبَّعاً اسمٌ لكل من وَلِيَ اليمنَ والشَّحْرَ وحضرموت.

وروى ياقوتُ عن المسعودي أنّ سَدَّ مأرب من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب، وكان سافله سبعين وادياً، فمات قبل أن يستتمه، فأتمته ملوكُ حمير بعده، وقال: إنّه حَدثه شيخ فقيه محصّل من ناحية شبام كوكبان، وكان مستبيناً متثبتاً فيما يحكي قال له: إنّه شاهد مأرب بعينه، وهي بين حضرموت وصنعاء، وبينها وبين صنعاء أربعة أيام، وهي قريةٌ ليس بها عامر، إلا ثلاث قرى، يقال لها الدروب إلخ.

قال: وسألتُه عن سدّ مأرب فقال: هو بين ثلاثة جبال، يصبُّ ماءُ السيل إلى موضعٍ واحد، ليس لذلك الماء مخرجٌ إلا من جهة واحدة، فكان الأوائلُ قد سدّوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص، فيجتمع فيه ماءُ عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول، فيصير خلفَ السد كالبحر، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة، وحركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم، ثم يسدونه إذا أرادوا، قال عبيد الله بن قيس الرقيات:

يـــا ديـــارَ الحبـــائـــب ... بيـــن صنعـــا ومـــأربِ
جـــادَكِ السعـــدُ غـــدوةً ... والثـــريـــا بصـــائـــبِ
مـــن صـــريـــمٍ كـــأنّمـــا ... يـــرتمـــي كـــالقـــواضـــبِ
فـــي اصطفـــاقٍ ورَنّـــةٍ ... واعتـــدالِ المـــواكـــبِ

وأما قِصَّةٌ خراب سد مأرب فطويلة، والمؤرخون على أنَّ قبائل اليمن تفرّقت في البلدان من بعده، وهم يقولون: إنّ جرذاناً حُمْراً حفرنَ السد بأنيابها، حتى اقتلعت الحجر الذي لا يستقله مئة رجل، ثم أخذت تدفُعه بمخاليب رجليها إلى غير ذلك من الأقاويل، وما أراه خرب إلا من قلة التعاهد، وانقطاع الترميم، الذي يجب استمراره لمثله، وإنّ نهاية الأمر أنّه لما وقع فيه الخرق =

كان كل من بني قحطان وحمير وعاد يعرف معادنه.

والأبلق جبل متصل بالجبال الزرق، وإنما قيل له الأبلق لأنّه في أرضٍ سوداء فيها معادن اللجين، متصل بالسد، وأرض غبراء فيها معادن العقيان، وأرض زرقاء فيها معادن الزبرجد والجزع، وكان يقال له: الباذخ، ولمأرب: الشامخ، فمأرب متصل بجبال عُمان، والأبلق متصل ببحر لنجة.

قال الحسن الهمداني: وفي بلد الهان بن زيد بن مالك معادِنُ البقَرَان الجيِّد، وكذلك في جبل أبي أَنِس[1] بن الهان بن زيد بن مالك وهو جبل ضوران[2] الحجر العتيق من العقيق اليماني والبقَرَاني.

ويقال: إنّ في بلد يسمّى دهم في حد بني قشيب معدن، وفي رأس جبل الشرف معدن فضة، وفي وادي مونا بموضع خربة الساوة معدن فضة.

قال الهمداني في كتاب «صفة جزيرة العرب»: وفي جبل عشار

= انهار، وغَرَّقَ ماؤه البلادَ، وأذهبَ الكرومَ والجنانَ والحدائقَ والبساتينَ والقصورَ والدورَ، وجاء السيلُ بالرمل فطمّها، وذهبَ أكثرُ عمران اليمن، وتفرّقت عربُه عباديدَ في الأقطار، وقال الأعشى:

ففــي ذاك لمــؤتسـي أسـوة ... ومــأرب عفّــى عليهــا العَـرِمْ
رخــامٌ بنتُــه لهــم حميــرٌ ... إذا مــا نــأى مــاؤهــم لــم يُـرِمْ
فــأَرْوَى الحــروثَ وأغنــامهــا ... علــى ســاعــةٍ مــاؤهــم أن قُسِـمْ
وطــارَ الفيــولَ وفيّــالهــم ... بيهمــاءَ فيهــا ســرابٌ يَطِـمْ
فكــانــوا بــذلكــم حقبــةً ... فمــال بهــم جــارِفٌ مُنْهَـدِمْ

(١) الهمداني لا يقول جبل أبي أَنِس، بل جبل أنس بن إلهان بن مالك، هكذا في النسخة المطبوعة من «صفة جزيرة العرب» ويعيدُ ذلك مرّةً ثانية في صفحة (١٠٥) فيقول: جبل أَنِس، وفيه معدن البقَرَان.

(٢) هذا الجبل مذكور في «صفة جزيرة العرب» للهمداني.

معادن البقَرَان وهو جيد، وفي جبل هزان[1] قبلي مدينة ذمار معادن الحجارة النفيسة اليمانية من العقيق الأحمر والأبيض والأصفر والورد.

وفي قرية ملص[2] من مغرب ذمار[3] معادن العقيق اليماني، والجواهر النفيسة، وذلك مشهور معاين، وعما رواه بعضُ حككة العقيق من أهل ملص أنّ في بلد زَبِيد[4] معدن الزمرد العال، وإنّه لما ظهر هدم

---

(١) جاء في «التاج» وهزّان بن الحارث الخولاني شَهِدَ فتحَ مصر، ولعلّ هذا الجبلَ منسوبٌ إليه أو إلى رجلٍ آخرَ اسمه هزّان. [لعله هِران بالراء انظر «صفة جزيرة العرب» (١٤٩)].

(٢) قال في «التاج»: وملص اسم موضع.

(٣) قرية باليمن، قيل على مرحلتين من صنعاء، وقال قوم: ذمار اسم صنعاء، وصنعاء كلمةٌ حبشية أي حصينٌ وثيقٌ، قاله الحبش لماقدموا مع أبرهة، ورأوا صنعاء، ورواها بعضهم بالكسر، وقال ابن دريد: بالفتح، قيل: إنّه وجد في أساسِ الكعبة لما هدمتها قريشٌ مكتوب بالمسند: «لمن ملك ذمار؟ لحمير الأخيار، لمن ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار، لمن ملك ذمار؟ لفارس الأصرار، لمن ملك ذمار. لقريش النجار، ثم حار محار» أي رجع مرجعاً.
وأما الهمداني فقد قال في «صفة جزيرة العرب» (٢٢٤) عن ذمار مايلي: مِخلافُ ذمارٍ قريةٌ جامعةٌ، فيها زروع وآبار قريبة، ينالُ ماؤها باليد، وتسكنها بطون من حِمير، وأنفارٌ من الأبناء (قلت: الأبناء أبناءُ الفرس الذين كانوا احتلوا اليمن) ورأسُ مخاليفها بلد عنس، وساكنه اليوم بعض قبائل عنس من مذحج.
ثم ذكر ذمار القرن، وقال: قرية قديمة خراب، وقال: إنّ ذمار المخدر غيرُها قال: وأما مخاليف ذمار من غربيها فهي مصنعة أفيق للمغيثين ـ قبيلة ـ وجمع، والموفد، وسربة، ووادي القضب لبني عبد كلال ـ إلى أن يقول ـ ويسكن هذه المواضع من بطون حمير: أوزاعي ومغيثي وغير ذلك.

(٤) من أشهرِ مدن اليمن، بل مدن العرب، ذكر السيد مرتضى الزبيدي صاحب «تاج العروسَ من جواهر القاموس» زَبِيد فقال ـ كأمير ـ بلد باليمن مشهور، اختطه محمد بن زياد مولى المهدي في زمن الرشيد العباسي، إذ بعثه إلى =

عليه أهلُ البلاد جبلاً، خشية أنَ تعيِّرَهم القبائل وتسميهم الحكاكين[1].

بلاد برط[2] كثيرة المعادن، يوجد فيها معادن الرصاص الأسود في مواضع كثيرة صلب صاف جيد، وفيها معادن ذهب وفضة، ويوجد فيها معادن المرقيشيا الذهبية والفضية وما شابهما.

= اليمن، فاختار هذه البقعة، واختطّ بها هذه المدينة المباركة، وسوّرها، وجعل لها أبواباً، ثم مات سنة (٢٤٥) ثم خلفه أخوه إبراهيم بن زياد، واستمرّ إلى سنة (٢٨٩) وخلّفه ابنه زياد بن إبراهيم، ومات سنة (٢٩١) ثم ابنه زياد وهو طفل، فتوزّر له حسين بن سلامة، وهي باني السور، ثم أدار عليها سوراً ثانياً الوزير أبو منصور الفاتكي، ثم أدار عليها سوراً ثالثاً سيف الإسلام طغتكين بن أيوب في سنة (٥٨٩) وهو الذي ركّب على السور أربعةَ أبواب.

قال ابن المجاور: عددتُ أبراجَ مدينة زبيد فوجدُتها مئة برج وسبعة أبراج، بين كل برج وبرج ثمانون ذراعاً. قال: ويدخل في كل برج عشرون ذراعاً، فيكون دَوْرُ البلد عشرة آلاف ذراع وتسعمئة ذراع، وقد تكفّل بتفصيل أخبارِها ابن سمرة الجَنَدي في «تاريخ اليمن» وكذا صاحب «المفيد في تاريخ زبيد» اهـ.

قلت: أتذكر أني قرأتُ أنَ أحدَ خطباء الجوامع كان يدعو لأحدِ الملوك وأظنُّه صلاح الدين الأيوبي قائلاً عنه: صاحبُ مصر وصعيدها، واليمن وزَبيدها والحجاز وعبيدِها، والشام وصناديدها. ولعلّ قائلاً يقول: هذه جرتها السجعة، فأقول له: لا يحسنُ وقعُ السجعةِ إلا إذا جاءتْ في محلها.

(١) قلت: ما أحد سلم من التعيير. وقولهم عن أهل زبيد حكاكون أهونُ من قولِ بعضهم عن أهل اليمن: دابغ جلدٍ، وناسج برد، وسائس قرد، وراكب عرد، أي حمار. ولعمري إنّ دبغَ الجلود، ونسجَ البرود لمما يتنافَسُ فيه اليوم، وإنّ حَمِيْرَ اليمن لا نظير لها في تسلُّق الجبال، والمشي على الصخور، التي قد يزل عنها الماعز، عرفتها في الطائف جيداً، ولما صعدنا إلى الجبال المسماة بالشفا، التي لا تكاد تسلكها الطير، لم يكن لنا حيلة بدون هذه الحمير اليمانية.

(٢) برط ـ محركة ـ من بلاد همدان، قال الهمداني: جبل برط ساكنه دهمة من شاكر بن بكيل، وزروعه أعقار، وعلى المساني وأهله أنجد همدان، وحماة العدوة، ومنعة البحار.

وفي بلاد صَعْدة[1] معادن الحديد، يدخلُه أهلُ البادية تراباً إلى مدينة صعدة، ويخلّص فيها، والكثير منه في بلاد بني جماعة[2]، وأجودُ ما كان من بلاد باقم[3] معدن الهندوان[4] والمرقيشيا في الشام[5] (أي الشمال) كثيرٌ موجود.

وفي قلعة وادي ظهر[6] معدن حديد ومعدن فضة، قال الهمداني في كتابه هذا: كان بنو يعفر يحملون الفضة من شبام[7] سحم إلى صنعاء،

---

(١) قال الهمداني (٢٤٨): أما حقل صعدة فإنّه مختزل من بلد همدان، ولذلك خبر في كتاب «الأيام»، ومدينة خولان العظمى صعدة، وأحدثت قرية الغيل من قرب صعدة، وصعدة بلد الدباغ في الجاهلية الجهلاء (قلت من هنا جاء دابغ جلد عن أهل اليمن) وهي في وسط بلد القُرظ، ربما وقع فيها القرظ من ألف رطل إلى خمسمئة بدينار مطوّق على وزن الدرهم القفلة (درهم قفلة بفتحٍ فسكون أي وازن).

وقال ياقوت: صعدة مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخاً، وبينه وبين خَيوان ستة عشر فرسخاً، قال الحسن بن محمد المهلبي: صعدة مدينة عامرة آهلة، يقصدها التجار من كل بلد، وبها مدابغ الأدم وجلود البقر، التي للنعال، وهي خصبة، كثيرة الخير، وهي في الإقليم الثاني، عرضُها ست عشرة درجة، وارتفاعُها وجميع وجوه المال مئة ألف دينار.

(٢) قال الهمداني: وادي نجران فروعُه من ثلاثة مواضع من بلد بني خيف، من وادعة، ومن بلد بني جماعة من خولان، ومن بلد شاكر.

(٣) ذكر في «تاج العروس» البقوم قبيلة من الأزد، وقال: إنّ واحدَهم باقِمٌ.

(٤) لا نعلمُ ما يريدُ بالهندوان، فلعلّه مختصر من الهندواني، وهذا شيءٌ منسوب إلى الهند.

(٥) [هذا يدل على أن أهل اليمن هم الذين سمّوا بلاد الشام بهذا الاسم ويعنون به الشمال، والكلام في هذا يطول وأكتفي هنا بهذه الإشارة].

(٦) لعلّه منسوب إلى ظهرٍ بطنٌ من حمير.

(٧) شبام بكسر أوله حيٌ من همدان من اليمن، وجبل همدان باليمن، به سميت القبيلة المذكورة، لنزولهم فيه، علي ما في «تاج العروس» وأيضاً بلد تحت =

وهي بالقرب من صنعاء على ساعتين قريب من ذي مرمر، فظاهرٌ قولُه: إنّ فيها معدن فضة.

وذكر بعض الفقهاء أنّه وُجِدَ بجبل صبر[1] معدن ذهب، وعمل منه عملاً إلا أنّه كان يقسى عليه، ولعله لم يُحْكِم تدبيره.

وفي بلاد المعافر[2] من اليمن الأعلى والأسفل معادِنُ كثيرة، إلا أنّنا

= جبل كوكبان، وأيضاً بلد لبني حبيب عند ذي مرمر. والأرجح أن شبام المقصودة هي هذه. والهمداني يقول: إنّ شبام هي أول بلادِ حمير، وهي مدينة الجميع الكبيرة، وبها ثلاثون مسجداً، لكنّه يذكرُ أنّ نصفها خرابٌ خرّبتها كندة.

(١) قال ياقوت: صبر ـ بفتح أوله وكسر ثانيه ـ بلفظ الصبر من العقاقير، اسم الجبلِ الشامخ العظيم، المطل على قلعة تعز، فيه عِدّةُ حصون وقرى باليمن، وقال ابن أبي الدمينة: جبلُ صَبْرٍ في بلاد المعافر، وسكانُه الركب والحواشب من حمير وسكسك.

(٢) معافر أبو حي من همدان، لا ينصرف، لأنّه جاء على مثال ما لا ينصرف من الجمع، وإليه تنسب الثياب المعافرية، ويقال: ثوب معافري، فتصرفه، لأنك ادخلت عليه ياءَ النسبة، ونسب على الجمع، لأن معافر اسم لشيءٍ، كما تقول لرجل من كلاب كلابي.

وجاء في كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني ص (٢٠٧): مخلاف المعافر: أما الجُوة من عمل المعافر، فالرأس فيها والسلطان عليها إلى آل ذي المغلس الهمداني، ثم المراني، من ولد عمير ذي المران، قيل: همدان الذي كتب إليه الرسول ﷺ.

وأما جبأ وأعمالها وهي كورة المعافر، فهي في فجوةٍ بين صَبْرٍ وجبل ذخر، وطريقُها في وادي الضباب، ومنها أودية ذخر، وتباشعة، ويسكنها السكاسك ورسيان، ويسكنُه الركب وبنو مجيد. وجيرة لهم من بني واقد، ومن الركب النشورة.

وملوك المعافر آل الكرندي من سبأ الأصغر، ينتمون إلى ولادة الأبيض بن حمال، منازلهم بالجبيل من قاع جبأ.

ومشربُ الجميع من عينٍ تنحدِرُ من رأس جبل صب غزيرة، يقال لها أُنُفُ، =

لم نطلع على شيء من أخبار موضعها.

ووصفَ بعضُ أهلِ الصناعة في صيغة الفضة أنّه وُجِدَ معدن فضة فوق مدينة جبلة[1] ومعدن رصاص أسود في الشعب المدني.

= أخف ماء وأطيبه، ويصلُحُ عليه الشعر ويكثر.

وأهلُ المعافر وما والاها يستعملون السُكينية في الرأس وتحسنُ في بلدهم (قلت السكينية طُرةٌ منسوبة إلى سُكينة، على وزن جُهينة وهي بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما، شهدت مع أبيها الطفَّ، ولما رجعتْ إلى المدينة خطبها أشرافُ قريش، فأبتْ وترفّعتْ، وبقيتْ تبكي على أبيها حتى ماتت كمداً رضي الله عنها).

ويفضي قاعُ جبأ في المنحدر إلى ناحية بلد بني مجيد، إلى كثير من قرى المعافر، مثل حرازة، وصحارة، وعزازة، والدمينة، وبزداد، وساكن هذه المواضع من بطون حمير من ولد المعافر بن يعفر. اهـ.

قلت: وكانت معافر كثيرة العدد في جالية العرب إلى الأندلس، وقد جاء أمامي ذكر المعافري كثيراً في كتاب «الصلة» لابن بشكوال، و«التكملة» لابن الآبّار البلنسي، و«بُغية المتلمس» لابن عميرة، و«نفح الطيب» للمقري، وناهيك أنّ محمد بن أبي عامر الملك المنصور الشهير الفاتح ـ المعدودَ من أعظمِ رجال الإسلام، بل رجالِ العالم، الذي غزا ستاً وخمسين غزوةً في الإفرنج لم تنكس له رايةٌ في واحدةٍ منها ـ هو معافريٌّ، ونسبه محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، وعبد الملك جدُّه هو الوافِدُ مع طارق بن زياد على الأندلس. [انظر سيرته في كتاب «منصور الأندلس» للأستاذ علي أدهم من سلسلة أعلام الإسلام].

(١) جَبْلة (بكسر فسكون) مدينة باليمن، تحت جبل صَبِر، وتسمى ذات النهرين، وهي من أحسن مدن اليمن، وأنزهها، وأطيبها. قال عُمارة: جَبْلة رجل يهودي كان يبيع الفخار في الموضع الذي بنت فيه الحُرَّةُ الصُّليحية دارَ العروبة، وسُميت باسمها.

وكان أول من اختطها عبد الله بن محمد الصُّليحي، ويقال لها: ذو جبلة أيضاً. =

وذكر أيضاً أنّ في جبل بني سبأ[1] قبلي ضرية[2] عمرو، وفي رأس نقيل[3] مما يلي بني سيف معدنُ نحاس، وقد أخذ منه، وعمل عملاً، وهو بالقرب من الطريق الذي ينزِلُ منها إلى بني سيف.

وفي مكان يسمّى حوبر[4] قفر حاشد[5]

= وياقوت قال: إنّها مدينة، وصاحب «تاج العروس» قال: إنّها قرية ـ ولعلّها في زمن الزَّبيدي أي منذ نحو (٢٠٠) سنة ـ كانت أنحطّت إلى قرية.

(١) بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره ـ أرضٌ باليمن، مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ـ على قول ياقوت ـ سُميت سبأ باسم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان اسم سبأ عامراً، وإنما سمي سبأ لأنّه أول من سبى السبي، ولما كان سَيْلُ العَرِمِ، تفرَّقَ أهلُ اليمن، فقيل ذهبوا أيدي سبا، أي طرائق سبأ، فاليد الطريق، ومتى قيل: تفرقوا أيدي سبا. لا ينبغي الهمزُ، لأنّه كثُرَ في كلامهم، فاستثقلوا الهمزةَ.

(٢) الضرية ـ بفتح فكسر وياء مشددة ـ مأخوذة من الضراء هو ما واراك من شجر، ويقال للأرض المستوية إذا كان فيها شجر: ضرّاء، فإنْ كانت في هبطةٍ فهي غَيْضَةٌ.

(٣) النقيل بلغة أهل اليمن العقبة، وفي اليمن نقيل بين مخلف جعفر وبين حقل ذمار، وعمل فيه سيف الإسلام عتباً، سهل به طلوعه، وفي رأسه قلعة تسمى سمارة، قاله ياقوت.

(٤) لم نعرف هل هو حوبر بالمهملة، أو جوبر بالمعجمة، أو هو مصحَّفٌ عن حوير بالياء، أو جوير، أو عن غيرِ ذلك، وقد وجدنا خوير اسم نهرٍ بالخاء المعجمة في أرض حاشد.

(٥) حاشد حي من همدان، يذكر مع بَكيل، قال الهمداني (٢٣٩): أمّا بلد همدان فإنّه آخذ لما بين الغائط وتهامة من نجد والسراة في شماليِّ صنعاء، ما بينهاوبين صعدة من بلد خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وهو منقسم بخط عرضي ما بين صنعاء وصعدة، فشرقيه لبكيل، وغربيه لحاشد، وفي قسم بكيل بلاد لحاشد، وفي قسم حاشد بلاد لبكيل، ثم شرح الهمداني أقسام كلِّ من حاشد وبكيل، ومدن الفريقين، وقراهما، وأوديتهما، وأسواقهما، فمن =

وعتمة[1] معدن ذهب. وفي بلدٍ سماه معدن فضة، وفي وادٍ من بلد حراز[2] معدن ذهب، وفي ذمار القرن معدن نحاس أحمر جيد، وكذلك اثنان من المعادن في رُداع[3]،

= شاءَ معرفة ذلك فعليه بمطالعة «صفة جزيرة العرب».

(١) حصنٌ من جبال وِصاب من عمل زَبيد، ولفظها بضمتين.

(٢) بالفتح وتخفيف الراء، وآخره زاي ـ مخلافُ باليمن، قرب زَبيد، سُمّيَ باسم بطنٍ من حمير، وهو حراز بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن أيمن ابن الهميسع بن حمير. ويقال لقريتهم: حرازة، وبها تعمل الأطباق الحرازية، قاله ياقوت في «المعجم»: وذكر الهمداني أيضاً الأطباق الحرازية، وربما نقله ياقوت عنه.
وأما قول الهمداني عن حراز فهو مايلي (٢٢٨): مخلافُ حراز وهوزن، سبعة أسباع أي سبع بلاد: حراز المستحرزة، وهوزن، وكراراً، وإليها تنسب البقر الكرارية، وصعفان، ومسار، ولهاب، ومجيح، وشبام، ومجمع الجميع اسم حراز وهوزن وهما بطنان من حمير الكبرى، وهما ابنا الغوث بن سعد بن عوف بن عدي.

(٣) ذكر الهمداني رداع في وادي اليمن الشرقي، وقال ياقوت: رُداع بضم أوله ـ وأصله النكس من المرض، وقيل: وجع الجسد أجمع ـ هو مخلافٌ من مخاليف اليمن، وهو مخلافُ خولان، بين نجد وحمير، الذي عليه مصانع رُعين، وبين نجد مذحج الذي عليه ردمان وقرن، قال: وبه وادي النمل المذكور في القرآن المجيد، وخبرّني بعضُ أهل اليمن أنّه بكسر الراء. ومنها أحمد بن عيسى الخولاني له أرجوزةٌ في الحجِّ تسمّى الرداعية.
قلت: هذه الأرجوزة استوفاها الهمداني في آخر كتابه «صفة جزيرة العرب» (٤٠١ ـ ٤٥٨) أولها:

أول ما أبدأُ مِنْ مقالي … فالحمدُ للمنعِم ذي الجلالِ
والمنُّ والآلاءُ والإفضالُ … والملكُ والجَدُّ الرفيعُ العالي
عدَّ خليلي كم مَضَتْ ليالِ … من شهرِ ذي القعدة مع شوّالِ
ثم أنم بالكور عن شملال … عيدية أو قطم ذيّالِ=

= قـد دق منـه مـوضـع الحبـالِ ثَمَّـتَ نـادى القـومُ بـارتحـالِ

قوله(الجد الرفيع العالي) أي العظمة، قال في «تاج العروس» الجَدّ العظمة، وفي التنزيل ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣] قيل: جده عظمته، وقيل: غناه، وقال مجاهد: جُدّ ربنا، جلالُ ربنا، وقال بعضُهم: عظمة ربنا، وهما قريبان على السواء، وفي حديثِ دعاء الاستفتاح في الصلاة: «تبارَك اسمُك وتعالى جَدُّكَ» اهـ قال لي السيد جمال الدين الأفغاني: تعالى جَدُّك أي سريرُك، والجد هو معرب «ككد» وهو السرير بالفارسية، ولكن غاب عن علمائنا أصلها!! ثم منها:

فتيـانُ صِـدْقٍ مـن بنـي أبيكـا فـإنّهـم أولـى بمـا يعنيكـا
وأسـرعُ القـوم لمـا يـرضيكـا إنـي سـأصفيـك الـذي أصفيكـا
فـاسمعْ إلـى قـولـي إذ أوصيكـا أوامـراً أضعـافَ مـا يـوليكـا
مَـنْ تـرَهُ يـرغـبْ ويَـزْدَدْ فيكـا ثـم ادعُ ربـاً مـالكـاً مليكـا
فـإنّـه أجـدَرُ أنْ يكفيكـا وقُـلْ صحـابـي ارتحلـوا وشيكـا

وهي نحو (٥٥٠) بيتاً، مقسومةً إلى مقطوعات، كلُّ مقطوعة خمسة أبيات، يذكر فيها جميعَ منازل الحج إلى البيت الحرام برجزٍ سلسٍ متينٍ بغاية الانسجام.

ويقول عند الوصول إلى البيت:

بعقبـة فـي الحـرم المحـرَّمِ ألقـي بـهـيا نـاقُ رحلـي واسلمـي
فـي منـزلٍ كـان لـرهـطِ الأقـدمِ ثـم عَـنْ الحجـونِ لا تَلَعْثمِـي
إلـى جـوابيهـا العظـامِ العُظَّـمِ ثـم اشربـي إنْ شئـتِ أو تقـدَّمـي
منهـا لـردم السـؤدد المـردَّمِ ردم بنـي مخـزومِهـا المخـزَّمِ
حتـى تنـاخـي عند بـاب الأعظـمِ وتشـربـي ريـاً بحـوضِ زَمْـزَمِ

* * *

والحمـدُ لله الـذي قـد أنعمـا سيّـرنـا فـي أرضِـهِ وسلّمـا
حتـى أتينـا بيتَـه المحـرَّمـا منـا فعظمنـاه مَـعْ مَـنْ عظّمـا
ثـم هـدانـا نسكـاً وعلّمـا كمـا هـدى قبـلُ أبـانـا آدمـا
ثـم تطـوّفنـا بـه تحـرُّمـا وسنـةً يفعلهـا مَـنْ أسلمـا
ثـم استلمنـا ركنَـهُ المكـرّمـا ثـم ركعنـا ووردْنـا زمـزمـا

واثنان ذهب وحديد في القانع[1]، وكذلك معدن في البيضاء[2] نحاس.

ومما وُجِدَ في بعض الكتب المكتومِ سرُّها وتركيبُها من معادن الأجساد الترابية التي بين بيشة وذمار خمسَة وعشرون موضعاً مشهوراً، ولا يصلُحُ منها إلا ستة:

واحد منها بنجران.

= ويقول في الإفاضة:

حتـى إذا ضـوءُ النهـار أدبـرا ... وغـابتْ الشَّمسُ استطاروا حُسَّرا
يـدعـونَ ذا العِـزِّ الـذي تجبَّـرا ... ثـم مَضَـى إمـامُهـم وكبَّـرا
إفـاضـةً لـم تـكُ فيهـم منكـرا ... قـد لَـزِمُـوا التسؤدة والتـوقُّـرا
حتى أتَوْا جمعاً، وجاءوا المشعرا ... ثـم أنـاخـوا سـاهمـاتٍ ضُمَّـرا
بهـا يخـافـونَ العـذابَ الأكبـرا ... حتـى إذا ضـوءُ الصبـاحَ أسفـرا

* * *

وانجـابَ ليـلٌ ودنـا النَّهـارُ ... سـار إمـامُ النـاسِ ثـم سـاروا
مـع كـلِ مـرءٍ منهمـو أحجـارُ ... سبـعٌ لطـافٌ صُنَّـعٌ صغـارُ
ثـم مَضَـوْا عليمـو وقـارُ ... لجمـرةٍ مِـنْ دونهـا جِمـار
ثـم رَمَـوْهـا ولهـم كبـارُ ... وحلَّقـوا وذبَحُـوا وازداروا
يـومـاً بـه للبُـدْنِ مُسْتَطَـارُ ... مـن طـول مـا يَشحَـذُهـا الشِفَـارُ

وآخرُ مقطوعة منها:

فـالحمـدُ للهِ علـى إحسـانِـهِ ... وفضلِـهِ المعـروفِ وامتنـانِـهِ
سيَّـرنـا ذو اللطـف فـي بلـدانِـهِ ... فـي رزقِـهِ العفـو وفـي أمـانِـهِ
حتـى أتينـا البيـتَ فـي مكـانـهِ ... ثـم قضينـا شـأننـا مـن شـانـهِ
مِنْ طَوفِه والمسحِ من أركـانِـهِ ... ثـم هـدانـا الله فـي ضمـانـهِ
كـلاً إلـى المحبـوبِ مِـنْ أوطـانِـهِ ... مـع الـذي يـأمـلُ مـن غفـرانِـهِ

(١) لم نعثر على ذكر القانع أو هي مصحفة.

(٢) ذكر ياقوت في «المعجم» ستةَ عشرَ موضعاً باسم البيضاء، لكنّه لم يذكر ولا بيضاء في اليمن. [ذكر القاضي الأكوع: البيضاء في اليمن وكان يسكنها آل الجلال].

الثاني: بشرس[1] في مكان يسمى القروات.

الثالث: بسحر من نواحي هجرة عريمان[2].

الرابع: في بلاد بني شداد[3] يسمونه كحال.

الخامس: بردمان بني النمري[4] فيْ سكان يسمى العنقفير.

السادس: في جبل الأحزم[5] في سارع، وهو أفضل هذه، لكن قد نزل قدر ثمانين ذراعاً (وفي الأصل ثمانونَ، وصاحب هذه الرسالة لا يقيم النحو كثيرا) وحلف عليه من عرضه، وهو رطب لا يحتاج لدواء.

والثاني مما يذكر يخرج قاسيه يحتاج إلى ملينات، ثم خرج واحد

---

(١) ذكر الهمداني شرس هذه، وضبطها بفتح فكسر، وذلك عند كلامه على أسواق حاشد، قال (٢٤٨): فأولُها وأقدَمُها سوق همل، وهَمَل (بفتحتين) من الخارف، وهي سوق جاهلية، والكلابح المرانيين من الجبر (بفتحتين)، وياري للفائش من الجبر، وسوق صافر، وسوق الفاقعة، وسوق الأهنوم، وسوق الظهر، وسوق قُطابة (بضم أوله) والعرقة ـ بفتح فكسر ـ لوثن بن قدم (بضم ففتح) عيان سوق قديمة من همدان، وأدران وحجة ونمل وقيّلاب ـ بفتح فسكون ـ وشرس، وحملان ـ بضم فسكون ـ وبند، الخ.

(٢) أورد الهمداني ذكر سحر وهجرة.

(٣) ذكر الهمداني بني شداد وقال (١٩٨): إنّ لهم أودية كثيرة النخل مثل البجباجة.

(٤) ردمان مشرق صنعاء، الذي يقع بينها وبين مأرب، وهو مخلاف خولان بن عمرو. وهم خولان العالية، الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم صلِّ على السكاسك والسكون، وعلى الأملوك أملوك ردمان، وعلى خولان العالية» وقال الهمداني (٢٢٠): مخلاف رَداع القريتان، رَداع وثاث والعروش، ونشران ـ بضم فسكون ـ وأذنة، ـ محركة ـ ورحبتها، وبلد رَدْمان ـ بفتح فسكون .

(٥) جبل الأحزم قال الهمداني (٢٤٦): إنه الجنوبي من جبلي لاعة في غربي صنعاء.

في قرب سوق (كذا)[1] فوق قريةالهجر[2] من بلاد الأهنوم[3] في زمن الإمام شرف الدين عليه السلام، وضع منه ولده شمس الدين ابن الإمام، وهو جيد يماثل الذي في أحزم بالصلاح.

وحكي أنّ في سارع بادية تسمى السواد، فيها مكانٌ يُسمّى بني سعيد، فيها مكان يسمّى عدة الزعلا، مقابل لمكان يسمى المقتال، فيها جنسٌ يفرِحُ القلبَ.

ومما حكي أنّ جبل شايبة جبل الصلب[4] في شرقيه لون شمسي، والمليح الذي يناله الشمس، والثاني غربيَّ الجبل، مشهور كثير يجذوه تظهر فيه فضة مليحة طيبة.

وأما المواضع التي تكثر شهرتها، فواحد بجبل الشرف من بلاد أَنِسَ بمكان يسمّى الركن، والأشهرُ في اسمه أبو صلاح ابن علي، وواحد بمكان يسمى البونين[5] مستور، وواحد في آكام بني الأقرعي، في مكان

---

(١) هنا كلمة لم نقدر أن نتبينها فوضعنا محلها لفظة كذا.

(٢) الذي عثرنا عليه هو أن الهجر في بلد حَكَم بتهامة، فهل هي هذه، أو قرية أخرى بهذا الاسم لا نعلم، فقد ذكر الهمداني (١٧٠) أنّ معنى هجر القرية بلغة حمير، والعرب العاربة، فمنها هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصبة من مخلاف مَأْذِن.

(٣) ورد ذكر الأهنوم في أسواق حاشد، وقال الهمداني في محل آخر: جبل الأهنوم من همدان، ثم من حاشد، بطن من خولان بن عمرو بن الحاف، وهو قبالة تخلى من شماليه، وعلى وصفه من جبال السراة وهو أحصن، وأثلع، وأوسع.

(٤) نظنه الصلب ـ بضم ففتح مشدد ـ أي حجر المسن.

(٥) قال ياقوت: بون مدينة باليمن، وزعموا أنّها ذات البئر المعطلة والقصر المشيد، المذكورين في القرآن العظيم، قال: وحدثني أبو الربيع سليمان المكي، والمفضل بن أبي الحجاج أنّهما بونان، وهما كورتان ذاتا قرى، البَوْن الأعلى، والبَوْن السفل ولا يقوله أهل اليمن إلا بالفتح، وهي مذكورة هنا بالتثنية. =

يسمى السهر، تحت القدرة، لونه عجيب يفرِحُ القلب، وواحد في ملتقى وادي مزهر، ووادي صيحان[1] بقرب الجود يعرفه البداوة وبعض المحاددين انتهى.

عمران جزيرة العرب
وما يجب على الحكومتين السعودية والإمامية من استئنافه

هذا ما آثرنا ذكره على وجه الاختصار عن معادن جزيرة العرب التي يجب على حكومة الحجاز ونجد من جهة، وحكومة اليمن من جهة أخرى، أن تبادرا فيها إلى مباحثَ فنيةٍ دقيقةٍ عميقةٍ، بدون أن يثبطهما عن ذلك ملاحظات سياسية، كالتي تقدَّم ذكرها. فإنّ هذه الملاحظات غيرُ واردة، وإنّ استئناف عمران جزيرة العرب متوقِّفٌ على أمرين:

أحدهما: **ترقية أحوال الزراعة**، باستعمال الآلات الرافعة الحديثة، واستنباط المياه، وبناء السدود، وحفر الآبار الارتوازية، وما أشبه ذلك، ما يزيد كمية مياه الري.

والثاني: **تعدين المعادن** التي في الجزيرة، واستخراج أفلاذ هذه الأرض، التي طالما كانت تغني الأهالي في الأعصر القديمة، **وما صَلَحَ به أول الأمر يصلح به آخره.**

فإذا دأبت الحكوماتُ العربية المستقلة في هذه السبيل من الآن، وسارت تدريجاً، وجدت من العرب الآخرين الذين بالشام ومصرَ والعراق والمغرب وغيرها من يأخذ بأيديها، وذلك لأنّ جميعَ العرب في الدنيا يهتمون بتقوية الجزيرة العربية، وصيانتها، وإصلاح أمورها، كما يهتمون ببلدانهم ومساقط رؤوسهم، إن لم نقل زيادةً، لأنّها هي دار العروبة، وعقر الأمة الناطقة بالضاد، والمركز الذي تفرقوا منه إلى سائر البلدان، والملجأ الذي يلجأون إليه إذا نبا بهم الدهر، وأديل من المد

---

(١) وادي صَيْحان بأرض نجران.

بالجزر، وحسبُك أنها هي أيضاً دار الإسلام، ومبعث الدين، ومهوى أفئدة المؤمنين، وإنّ فيها المثابةُ التي تخفِقُ عليها قلوب ثلاثمئة وخمسين مليون نسمة من العالمين، وهي البيت الحرام ـ حماه الله ـ مركز الحج، ومقصد المسلمين من كل فَجّ، فلا يوجد مسلم على وجه البسيطة إلا وقلبُه مشغوفٌ بهذا البيت وجوارِه، مشغولٌ بنُصرةِ حماتِه وعُمّارِه.

ولقد صادفتُ كثيرين من مسلمي الأمم غير العربية ـ أذكرُ الآن منهم كثيرين من أعيان التتر وفضلائهم، لقيتهم في موسكو بعد صلاة الجمعة ـ فرأيتُ من اهتمامهم بأمرِ الجزيرة العربية والحجازِ الشريف وإحفائهم في الأسئلة عنه، وتواجدهم الشديد ـ ما لا يمكن أن يكونَ أكثر منه عند العرب أنفسهم.

دحض شبهة عدم قابلية الجزيرة للعمران

ومما يذهب إليه بعضُ الناس أنّ جزيرةَ العرب لا يتهيأ لها أن تكونَ ذاتَ مستقبلٍ باهرٍ، وأن تكون ميدان عملٍ للعرب، وذلك لحرارة إقليمها التي تزيد على درجة الاحتمال، وتمنع العربَ الذين في الديار الشمالية من الدأب في أطراف الجزيرة، ولا رأي أعرق من هذا الرأي في الوهم، فلو كانت الحرارةُ تمنعُ العملَ لمنعت الأوربيين، الذين نجدهم في الهند، وجاوة، ومدغشقر، وزنجبار، وأوغندة، وموزامبيق، وبلاد الرأس،(١) والكونغو، وغينية، والسنغال، وأمريكة الجنوبية، وغيرها ممالا يحصى، وقد صاروا فيها كالجراد المنتشر، وعمّروا فيها أوطاناً، وأدركوا أوطاراً، وهم أقلُّ منّا تحملاً للحرارة، وآلفُ منا للبلاد الباردة، ولكنّهم قاتلوا حُمارّة القيط بالوسائل الفنية،

---

(١) [رأس الرجاء الصالح].

وبإسالةِ المياه، وغرسِ الأشجار، وبثّ الخُضْرَةِ حولَ المنازل، بحيث تجدهم بواسطة الفن في نعيمٍ مقيمٍ في وسطِ ذلك السعير.

على أنّ الحرارةَ الشديدةَ إنما هي في أشهرٍ معدودات من الصيف، وفي سواحل الجزيرة وتهائمها، التي إنْ ارتفَع الإنسانُ عنها مسافةَ بضعِ ساعاتٍ في الجبال رَقّ الهواءُ، وطابَ الإقليمُ، ومن هناك كلما ارتفعَ صار إلى الأهوية اللطيفة والأماكنِ التي لا يفضُلها في الصيف مكانٌ من المعمور كله.

❋ ❋ ❋



جبال جزيرة العرب أطيبُ هواءً منْ لبنان وسويسرة

إنّ في جزيرة العرب سلسلة جبال عالية، لا تجد أحسنَ منها هواءً، ولا أطيبَ إقليماً، لا في جبال لبنان، ولا في جبال سويسرة، ولا في غيرها.

ولأجلِ أن تعلَمَ ارتفاعَ هذه الجبال، أريدُ أن أذكر لك عُلُوَّ بعضِ المدن والقرى العربية عن سطح البحر، مما أمكنني الاطلاع عليه في كتبٍ من تأليف ضباطٍ من أركان حرب الجيش التركي، أطالوا الإقامةَ باليمن، وكتبوا عنه:

فالطائف تعلو نحو (١٦٠٠) متر عن سطح البحر، على حين عين صوفر أبدع مصيف في لبنان لا تعلو أكثر من (١٢٥٠) ولا يوجدُ في جبل لبنان مكانٌ مسكون يعلو عن سطح البحر أكثر من (١٥٠٠) متر.

وأن علو أبها ـ مركز حكومة عسير ـ عن سطح البحر (٢٢٧٥) متراً وأعلا منها سوغا فهي تعلو (٢٣٦٠) متراً، وهناك بلدة غامد وعلوها (٢١١٠) أمتار، ومحائل وعلوها(١٦١٠) أمتار.

ثم إنّ صنعاء اليمن تعلو عن سطح البحر (٢٣٤٢) متراً، وجبل نُقُم ـ الذي تقدّم ذكره ـ يعلو (٢٩٤٢) متراً، وكوكبان (٣٠٠١) متر، وتعز (١٣٤٧) متراً، وعمران (٢٣٠٢) وصعدة (٢٢١٦) والروضة (٢٣٠٦) وتلا (٢٨٦١) وذو مرمر ـ تقدم ذكرها في بحث المعادن ـ (٢٦٩٨)

وشبام ـ تقدم ذكرها أيضاً (٢٦٣٥) وذمار (٢٤٣١) وبوعان (٢٩٣٦) وسوق الخميس (٢٣٧٢) ومناخة (٢٣٢١).

فارتفاعاتٌ مثلُ هذه مهما يكن من وجودها في منطقة جنوبية لا يمكنُ إلا أن تكونَ المثل الأعلى في رِقّةِ الهواء، وطيب المناخ، والملاءمة للصحة، وهذه الجبال هي عندي أوتادُ البيت العربي، لا في منعتها الطبيعية ومواقعها الحربية فحسب، بل في بيئتها الصحية، ونقاوتها الجوية، إذ ذلك من أعظم العوامل التي تعتمد عليها الأسرة العربية في صيانة نفسها.

وهذه السلسلة الجبلية العالية ممتدّةٌ من بلاد الشام، ومن أهم أقسامها وأطيبها نجعة جبالُ الشراة، التي كانت معمورةً جداً في صدر الإسلام، والتي لها مستقبلٌ كبيرٌ للعرب، ومستأنَفٌ باهرٌ لو خلصت من أيدي الإنكليز.

ولقد أقمتُ بقصبة معان شيع شهر في أثناء الحرب العامة سنة (١٩١٥) إذ كنتُ ذاهباً ومعي (١٢٠) مجاهداً من جماعتي إلى حرب الترعة، منضماً إلى الجيش العثماني الحجازي، الذي كان يقوده وهيب باشا، وسِرْنا من معان هبوطاً مستمرّاً إلى قلعة النخل في صحراء التيه[1]، ولقد قطعت في تلك الرحلة جانباً من جبال الشراة، وعرفت أي جبالٍ هي، وأي نجعة طيبة هنالك.

ومن حول وادي القُرى في الحجاز جبالٌ وأوديةٌ وعيونٌ تقدَّمَ الكلام على شيءٍ منها.

وفي جهات المدينة المنورة جبلُ رضوى الشهير، قال أبو زيد: وقرب ينبع جبلُ رَضوى، وهو جبلُ منيفٌ، ذو شعاب وأودية، ورأيتُه

---

(١) [صحراء سيناء، انظر تفصيل ذلك في كتاب الأمير شكيب «تاريخ الدولة العثمانية» وهو من جمعي وتحقيقي نشر دار ابن كثير بدمشق].

من ينبع أخضر، وأخبرني مَنْ طافَ في شعابه أنّ فيه مياهاً كثيرةً وأشجاراً، ومن رضوى يُقْطَعُ حجر المِسَنّ، ويحمل إلى الدنيا كلها، قال النبي ﷺ: «رضوى رضي الله عنه، وقدس قدسه الله» (قُدْسٌ بضم فسكون جبل بتلك الناحية) و«أُحُدٌ يحّبنا ونحبّه»[1].

قلت: وحدّثنا من يعرفون رضوى أنه مصيف كأحسنِ ما يوجَدُ من مصايف الشام ماءً وهواءً، وهو على مقربةٍ من المدينة، ومن ينبع، وعلى ليلتين من البحر، فلا يلزم لرضوى إلا تعبيدُ طريقٍ تسيرُ عليها السيارات، ليعمر، وتسكنُه النّاسُ وتقصِدُه في أيام القيظ.

وقال الهمداني (٢٦٧): الجبالُ المشهورة عند العرب المذكورة في أشعارها: أجأ، وسلمى، جبلا طيء، وأبان (بفتح أوله)، وتعار (بفتح أوله)، ولبن (بضم فسكون) وقُدْس، ورضوى، وغزوان، ويسوم، وحِرَاء، وثبِير، والعارض، وقنان(بفتح أوله) وأفرع (على وزن أفعل) والنير (بكسر النون) وعسيب، ويذبل، والمجيمر، ولبنان، واللكام.

ومن أنزه الجبال في الجزيرة: أجأ وسلمى جبلا طيء. قيل: إنّ أجأ اسم رجلٍ، وسلمى اسم امرأة، وقيل: أجأ علم مرتجل، وقيل: بل

---

(١) أما جبلُ أحدٍ فحديثه في «الصحيحين» وأما رضوى وقُدْسٌ فلا يصحُّ فيهما ما ذكر.

وقالوا: إنّ المراد بحب أُحدٍ للنبي ﷺ حُبّ أهله، وهم الأنصار رضي الله عنهم، وجوّزَ بعضُهم حملَه على الحقيقة لمعنى غيبي.

وأما قوله ﷺ «ونحبه» فجواز الوجهين فيه أظهر، فإنّ الناس يحبون بلادهم وأوطانهم، ويفضّلون بعضَ جبالها ومواقعها الجميلة في الحب على بعض، وأحب ما يحبون منها أهلها، ولا سيما الآل والأصحاب والأحباب، قال الشاعر:

أمرُّ على الديارِ ديارِ ليلى ... أقبّلُ ذا الجدارَ وَذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شغفنَ قلبي ... ولكنْ حُبُّ مَنْ سكنَ الدّيارا

اهـ. مصححه.

منقولٌ، معناه الفرار، يقال: أجأ الرّجلُ إذا فرّ.

قال الزمخشريُّ: أجأ وسلمى جبلان عن يسار السميراء، وقد رأيتُهما شاهقان.

ونقل ياقوت عن أبي عبيد السكوني: أجأ أحدُ جبلي طيء، وهو غربي فَيْدٍ، وبينهما مسيرُ ليلتين، وفيه قرى كثيرة، قال: ومنازِلُ طيء في الجبلين عشر ليال من دون فَيْدٍ، إلى أقصى أجإٍ، إلى القرياتِ من ناحية الشام، وبين المدينة والجبلين على غيرِ الجادة ثلاثُ مراحل. قال امرؤ القيس[1]:

أبتْ أَجَأٌ أنْ تُسْلِمَ العامَ جارَها ... فمن شاءَ فَلْيَنْهَضْ لها مِنْ مُقاتِلِ

أي أبت أهل أجأ، حذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، مثل قالت إنكلترة لفرنسة كذا، واحتجت ألمانية على كذا، وعقدت أمريكة معاهدة كذا الخ.

وقال عارق الطائي:

ومن أجإٍ حولي رعانٌ كأنّها ... قنابِلُ خيلٍ مِنْ كُميتٍ ومِنْ وَرْدِ

وقال العَيْزارُ بن الأخفش الطائي:

ألا حَيِّ رسمَ الدّارِ أصبحَ بالياً ... وحَيِّ وإنْ شابَ القذالُ الغَوانِيا

تحمَّلْنَ من سلمى فَوَجَّهْنَ بالضُّحى ... إلى أجإٍ يقطعنَ بِيداً مهاويا

وقال زيد بن مهلهل الطائي:

جلبنا الخيلَ من أجإٍ وسلمى ... تَخُبُّ نزائِعاً خَبَبَ الرِّكابِ

جَلَبْنَا كلَّ طِرْفٍ أعوجيٍّ ... وسلْهَبةٍ كخافيةِ الغُرابِ

وكان يحدّثني عن هذين الجبلين وما فيهما من الريف والخصب والأودية والعيون الخ رشيد باشا النجدي، الذي كان معتمَداً لابن رشيد في الآستانة العلية أيام السلطنة العثمانية، وسمعتُ أخبارهما من نجديين

---

(١) [ديوانه (٩٥)].

آخرين، وطالما تمنيتُ لو أمكنتني الرحلة إلى نجد والتنزُّهِ فيهما.

والسلسلة الجبلية من الحجاز إلى اليمن متصلةٌ، وعن يمين الذاهب من الشام إلى مكة التهائم، الواصلة إلى سيف البحر الأحمر، وعن اليسار بلادُ نجد، وهي من أطيبِ البلدان نجعةً، وألطفِها هواءً، يُضْرَبُ المثل بجَوْدَةِ هوائها، فيقال: بلاد نجديَّةُ الهواء[1].

وإذا سارَ الراكب من الطائف إلى صنعاء اليمن، لم يصل إليها إلا في مسيرة شهر، كلها في الجبال العالية، والأهوية اللطيفة، والمناظر البديعة، والمناهل العذبة.

ما شاهدنا من الأماكن النزهة بجوار الطائف

وأما ما تيسّرَ لي مشاهدتُه من الأماكن النَزِهَةِ بجوار الطائف فهو وادي مَحرَم، أي قَرْنُ المنازل، الذي ينتهي إلى وادي السيل، ومنه يُحْرِمُ الحُجّاجُ الذين هم آتون من الشرق، ولا يبعد وادي مَحَرم عن الطائف أكثر من ساعة ونصف، وهو على طريق الكرا، وهو وادٍ يجفُّ في الصيف، إلا أن البساتينَ منتظمةٌ بجانبه، على مسافة ثلاث أو أربع ساعات، تشرَبُ بالسواني، وفيها مِنْ جميع أصنافِ الفواكه وألذِّها،

---

(١) للشعراء من المدح لهواء نجد والحنين إلى صبا نجد ما يكاد يفوقُ نسيبهم وتشبيبهم بالغواني الحسان، ولعلّ أميرَ البيان لو تذكّرَ هذا هنا لروى لنا من محفوظِهِ الواسعِ من الشعر الرائع [ما] هو أشدُّ تشويقاً لجزيرة العرب من سرد أسماءِ المواقعِ، فإنّ ذكَر تلك الصَّبا يكادُ يكون أرقُّ من ذكري أيام الصِّبا، وحسبي في هذه الحواشي التي أكتبها بإذن الأمير لتكونَ ذكرى لإخائنا الذي لا يلزبه نظير، قول الشاعر الشهير [الحاجري]:

خذا مِنْ صِبا نجدٍ أماناً لقلبهِ ... فَقَدْ كادَ رَيّاها يَطِيْرُ بِلُبِّهِ
وإيّاكُما ذاك النَّسيمُ فإنَّهُ ... إذا هَبَّ كانَ الوَجْدُ أيسرَ خَطْبِهِ

اهـ. مصححه.

ولم أصادِفْ عنباً أشهى ولا أكبرَ حباً من عِنَبِ وادي مَحرَم، ومن هذا الوادي يصعَدُ الإنسان إلى الهَدَة، مرتقياً العقبة المسماة الكرا الصغير، وخمنت علوَّها بثلاثمئة متر، ومرتقاها صعب.

وقد كان الواجب على الحكومة وعلى أهالي القرى الكثيرة المجاورة ولا سيما وادى مَحرَم أن يُصْلِحُوا هذا المرتقى، الذي يترجَّلُ فيه كلُّ الركبان من وسط العقبة، وإذا وصل الإنسانُ إلى سطحِ الجبل، وجدَ يفاعاً منبسطاً، ينشرِحُ له الصدر، وشاهد جناناً ناضرة تشرب بالسواني أيضاً، يقال لها: بستان المغربي، وبستان الثِّني، وغيرهما.

ولقد بتنا ليلتين بوادي مَحرَم، وليلة واحدة في بستان المغربي ضيوفاً على صاحب البستان، وهو مغربي تونسي الأصل، أبوه جاء إلى هذا المكان، وتمكن به.

وهناك جبلٌ عال جداً ربما يعلو (٢٥٠) متراً عن البساتين، يقال له: جبل الهندي، وهو ناتىء من الأرض صُعداً أشبَهُ بالمئذنة، وكان في إحدى ذُراه حصنٌ بقيت فيه مدافع وجنود إلى آخر أيام الملك حسين، وقد طلعنا هذا الجبل إلى قنته، فظهر لنا جانبٌ كبيرٌ من الحجاز، وبدت لنا خضرةٌ ونضرةٌ وأوديةٌ لا يأخذُها الإحصاء، وكان منظراً يَبْهَرُ العقولَ.

وبإزاء هذا الجبل جبلٌ آخر أقلُّ منه ارتفاعاً، اسمه جبل الكمل بحذائه قرية، بل قرى وبساتين، تسقيها النواضح، ومن الكمل إلى قرية الهَدَة مسيرة نصف ساعة لا غير، والهَدَة قرية من أشهر قرى الحجاز، تعلو (١٧٦٠) متراً عن سطح البحر، وفيها جنانٌ ومنازه، وبعضُ مصايف لأهلِ مكة، ولها منظر على وادي نَعمان لا مثيل له في بلاد العرب، لأنَّ الناظر يشرِفُ منها على شفير الوادي المسمى الكرا الكبير ذي العقبة الشهيرة، التي تأخذُ ثلاث ساعات على الصاعد، وهي من الوقوف في مثل الحائط، وإذا أشرفَ الرائي على حافة هذا الشفير لم

يكن أمامه العمق الهائل فقط، بل العمق الهائل والعرضُ المدهش، فللنظر هناك مَدٌّ ليس له حَدٌّ.

وتكتب الهَدَة بتشديد الدال، لكن غلب عليها التخفيف، وقد ذكرها ياقوت في «المعجم» وقال: إنّها مكان بين مكة والطائف فيه القرود[1].

قلت: والقرود توجَدُ في جبل الكمل الذي فوق الهاد، وتقدم ذكره، وتكثر في بعض جبال الحجاز، ولكنها في جبال اليمن أكثرُ جداً.

ومن كثرة ما توصَفُ اليمن بالقردة صار الذين يريدون أن يتنادروا على أهل اليمن يقولون: إنّ أباهم قرد.

روى ياقوت أنّ زياد بن عبيد الله الحارثي خالُ الخليفة أبي العباس السفاح اجتمع بابن هُبيرة الفزاري ـ وكان الأول يمانياً، وكان الثاني قيسياً ـ فقال ابن هُبيرة لزياد: مِمّنْ الرجلُ؟

فقال زياد: من اليمن.

فقال ابن هُبيرة: فأخبرني عنها.

---

(١) اقتصر الأمير هنا على هذا خلافاً لعادته في الاستقصاء، وقد ذكر ياقوت في حرف الهاء ثلاثة مواضع:

(١) (الهدى) المقصور، قال: (الهدى) بالفتح منقول عن الفعل الماضي من هدى يهدي إذا أرشد ـ موضع في نواحي الطائف.

(٢) (الهدّة) بالفتح ثم التشديد، وهو الخسفة في الأرض، و(الهدة) الهدم ـ وهو موضع بين مكة والطائف، والنسبة إليه هدوي، وهو موضع القرود، وقد خَفَّفَ بعضُهم داله.

(٣)(الهدى) بتخفيف الدال من الهدي أو الهدى بزيادة هاء ـ بأعلى مَرّ الظهران بمدرة أهل مكة، والمدر طينٌ أبيضُ يحمَلُ منها إلى مكة، تأكلُه النساء، ويُدَقُّ ويضاف إليه الأذخر يغسلون به أيديهم اهـ وذكر هذه في «التاج» وزاد أنّ بعضهم يزيد فيها ألف فيقول الهداة. أقول: ولم أسمع مِنْ نُطقِ أهل مكة إلا (الهدى) بالفتح والقصر. اهـ مصححه.

فقال زياد: أمّا جبالها فكرومٌ ووزسٌ، وأمّا سهولُها فبُرٌّ وشعيرٌ وذُرة.

فتغيَّر وجهُ ابنِ هبيرةَ وقال: أو ليس أبو اليمن القرد؟

فقال زياد: إنما يكنى القرد بولده، وهو أبو قيس، فيوجِبُ أن يكونَ أبا قيس عيلان، فاصفرّ لونُ ابن هبيرة من هذا الجواب.

فمن هنا يظهر أنّ مذهب داروين كان ملحوظاً في الغابرين، وكان خاطرُ أبوةِ القردِ لابن آدم وارداً، إلا أنّ ما كان يقال في الماضي مزاحاً، صارَ اليوم جداً بحثاً وحقيقةً علمية!

أقول: حقيقة علمية بحسب رأي بعضهم، وإلا فليسَ بصحيح أنّ الجمهورَ كلهم في أوربة تلقّوا هذا الرأي بالتسليم، بل العلماء في أوربة لا يزالوان فيه مختلفين. وقد كَثُرَ في السنين الأخيرة العلماء القائلون بنقضه، والأكثرونَ على عدم الجزم لعدم كفاية دلائله، ولوفرة نواقضه ونواقصه[1].

ومن العلماء مَنْ يقفُ موقفاً وسطاً في النظرية الداروينية، فيحكم بصحة بعضها، ويرد البعضَ الآخر، مما ليس هنا موضعه.

ناحية الشَّفا من جبال الطائف

ومن أنزه الجبال التي عهدتُها في حياتي، وأبدعها مصيفاً، وأطيبها نجعة، وأنقاها إقليماً، الناحية التي يقال لها: الشَّفا، (بفتح أوله) وهي جبالٌ المسكونُ منها يعلو عن الطائف نحو ألف متر، وربما أكثر، وسكان هذه الناحية السفاينة من ثقيف، ولا تبعدُ عن الطائف أكثرَ من أربع أو خمس ساعات بالسير المعتدل.

قصدنا إليها من الوهط والوُهَيْط في رفقةٍ من إخواننا الدكتور محمود

---

(١) [انظر كتاب «أصل الإنسان» للدكتور موريس بوكاي].

بك حمدي رئيس الدائرة الصحية الحجازية، وفؤاد بك حمزة مستشار الخارجية، وفوزي بك القاوقجي قائد القوة النظامية الحجازية، والسيد الطيب الهزاز من رجال المعيّة الملوكية، ورشدي بك ملحس محرر جريدة «أم القرى» فبتنا ليلة في الوهط وليلة في الوُهَيْط، ثم أصبحنا قاصدين شقرا، صاعدين إليها في عقاب، فبلغناها بعد مسير ساعتين من الوُهَيط، ومررنا في طريقنا بخربة ذات جبانة متسعة، يستدل منها على أنّ القريةَ كانت ذات شأن، وفي تلك الأودية سِدْرٌ كثير، وطلح، وأشجار غيرها، وفي الجبال عَرْعَرٌ كثير.

وأما شقرا ففي وادٍ لطيفٍ، عن جانبيه البساتين، تسقيها النواعير أو السواني، وهي حارتان، شقرا العليا، وشقرا السفلى، وقد كان نزولنا عند مختار شقرا السفلى، وشعرنا من النشاط ورقة الهواء في شقرا ما لم نعهده لا في الطائف ولا في مكان آخر، ولغةُ أهلِ تلك الديار فصيحةٌ، سمعتهم يقولون: خَصِرَ الماءُ، أي برد، فخطر ببالي قول شاعرِ قريشٍ في الحجاز عمر بن أبي ربيعة:

رأتْ رجلاً أما إذا الشَّمسُ عارضتْ ... فيضحَى، وأمّا بالعشيّ فَيَخْصَرُ

ومن شقرا صعدنا عقاباً أوعر وأعلى من التي توقلنا فيها بين الوُهَيط وشقرا، ثم انحدرنا من رأس العقبة إلى وادٍ هو مبدأ وادي لِيَّة الشهير، وكنا كلما تقدّمنا في السير رأينا الحِراج تزدادُ، ولا سيما العرعر والعفص، ومن ذلك الوادي عُدنا إلى التصعيد، فوصلنا إلى قريةٍ صغيرةٍ اسمها مسيمير، فبتنا فيها، وشممنا هواءً عاطراً، وشربنا ماءً خاصراً[1]، وشاهدنا منظراً ناضراً.

قريـة الفَـرْع وموقعهـا من أفضـلِ مصـايف الدنيـا

ومن مسيمير تسلقنا في عقبة أوعر مِنْ كلِّ ما مضى، أخذت أكثرَ من

---

(١) خَصِرَ الماء وغيره فهو خَصِرٌ (كتعب فهو تعب) أي برد.

ساعة ونصف، أفضنا في منتهاها إلى يفاعٍ أفيحَ، عليه قرية كبيرةٌ متفرّقة الحارات، اسمها الفَرْعُ، هي من أعلى المعمور في جبال الحجاز، ومعنى الفرع في اللغة أعلى الشيء.

ومن محاسن هذه القرية أنّها مع علوها ـ ولا أظنه أقل من (٢٥٠٠) متر ـ عن سطح البحر ـ واقعةٌ في بسيط من الأرض، تحيط به الهضاب الخضر المغطاة بالحِراج من الأرز والعرعر، وهذا البسيط المطمئن في الوسط منه ما هو مزارع للحبوب، ومنه ما هو مباقل للخضر، ومنه ما هو جنانٌ للفواكه، وكلُّ ما ينبت هناك يأتي بغاية الزكاء والفكاهة، والجنانُ تسقَى بالسواني والماء غزير[1].

ولما صرت في الفرع تمنيت أن يكون لي هناك مصيف، ورجحتُه على أي مصيفٍ آخر، حتى على عين صوفر، التي هي أنزه مصايف جبل لبنان مع كثرتها، والتي قضيت مدةَ شبابي أقيِّظُ بها، ولي فيها الأراضي الواسعة والعقارات، نعم لم أجد أعلى ولا أهنأ ولا أعزل من الفرع.

وإلى الغرب من الفرع على مسافة (٢٠) دقيقة فقط شفيرٌ عال، يشرف منه الإنسانُ على وادٍ عميق، قد حزرتُ انحطاطَه عن الفرع بنحو ألف متر، وقد ذكر لي أهلُ الفرع أنّهم في فصل الشتاء ينحدرون من الفرع إلى هذا الوادي بمواشيهم، ويشتّون فيه، ولا يبقى في القرية سوى بعض الحراس.

وأمامَ هذا الوادي إلى جهة الغرب ـ أي إلى البحر ـ جبلٌ عال أيضاً، لكنّه ليس بعلو جبل الفرع، ووراء هذا الجبل أودية أخرى، ثم جبالٌ أقلُّ ارتفاعاً، وهكذا إلى أن تصلَ إلى البحر بين جدة والليث، وقد سألتهم: كم مرحلة من الفرع إلى جدة؟ فقالوا: إنّهم يصلون إلى جدة في (٨) أيام بسير البعير.

---

(١) وقيل لي في المدينة لما زرتها سنة (١٣٣٣): إن بالفرع ستين عين ماء.

وإلى الجنوب الغربيِّ من الفرع جبلٌ متصل بالفرع، له قمة شاهقة، تعلو نحواً من ثلاثمائة متر عن أرض القرية، يشرِفُ منها الإنسانُ على البحر الأحمر، وقد حدثني صديقي الشيخ عبد القادر الشيبي أنّه رأى بناظوره من تلك القمة المراكبَ الشراعية ماخرةً في بحر الليث، وشعفات الجبال هناك كلُّها شاهقة في السماء، أينما وقف فيها الرائي رأى منظراً عجباً.

وإلى الشمال الشرقي من الفرع قريةٌ يقال لها: الشَرَف، (محركة) هي على مساواة الفرع، ولم يقدَّرْ لنا الذهابُ إلى هذه القرية وما جاورها من القرى التي هي في جبال هُذيل.

وجبال هذيـل ممتـدة من هنـاك إلى تهـامة، أي إلى سـاحل البحر. قـال الهمدانـي في «صفـة جزيـرة العـرب» (٣٢٣): منـازل هذيل عُرَنـة[١] (بوزن همزة لمزة) وعرفة، وبطن نَعمان، ونخلة[٢]، ورحيل، وكبكـب[٣] (بفتـح فسكـون مـرتيـن) والبـوبـاة[٤] (بفتـح فسكـون)

(١) عرنة واد بحذاء عرفات، وعرفة وبطن نَعمان تقدَّم ذكرُهما ا هـ من الأصل.

(٢) نخلة ـ وهما نخلتان ـ واديان لهذيل الشامية واليمانية، على ليلتين من مكة، يجتمعان ببطن مر وسبوحة، والوادي الشامي يصبُّ من الغمير، واليماني من قرن المنازل ا هـ من الأصل. انظر «صفة جزيرة العرب» ص (٨٦).

(٣) هما كبكبان: أحدهما من ناحية الصفراء، وهو نقب يطلعك على بدر، والآخر يطلعك على العَرْج، وهو نقب لهذيل. قاله ياقوت ا هـ من الأصل.

(٤) قال ياقوت: البوباة صحراءٌ بأرض تهامة، إذا خرجتَ من أعالي وادي النخلة اليمانية، وهي من بلاد بني سعد بن بكر من هوازن. قال رجل من مزينة:

خليليَّ بالبوباةِ عُوجا فلا أرى ... بهـا منـزلاً إلا جـديـب المقيَّـدِ

نَذُقْ بَرْدَ نجدٍ بعد ما لَعِبَتْ بنا ... تهـامـةُ فـي حمَّـامهـا المتـوقِّـدِ

فكلامه يختلف عن كلام الهمداني، الذي يجعلها من بلاد هذيل، ولعلّ منها ما هو لهوازن، ومنها ما هو لهذيل.

وأوطاس[1] (بفتح السكون)وغزوان[2] (بفتح فسكون).

---

(١) أما أوطاس فيقول ياقوت: إنّها في ديار هوازن، وبها كانت غزوة حنين، وبها قال النبي ﷺ: «حمَي الوطيسُ» فأرسلها مثلاً.
قال ابن شبيب: الغور من ذات عِرْقٍ إلى أوطاس، وأوطاسُ على نفس الطريق، ونجد من حَدّ أوطاس إلى القريتين، ولما نزل المشركون بأوطاس قال دريد بن الصمة ـ وكان مع هوازن شيخاً كبيراً ـ بأيّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعْمَ مجالُ الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.
وقال أحمد بن فارس في «أماليه»:

يـا دار أقـوتْ بـأوطـاسٍ وغيّـرَهـا	من بعدِ مَأْهُوْلِها الإمطارُ والمورُ
كم ذا لأهلكِ مِنْ دهرٍ ومن حِجَجٍ	وأينَ حلَّ الدمى والكنّسُ الحورُ
رُدِّي الجوابَ على حَرّانَ مكتئِبٍ	سهـادُه مطلَـقٌ، والنـومُ مـأسـورُ
فلـم تبيّـنْ لنـا الأطـلالُ مـن خَبَرٍ	وقـد تجلـي العمـايـاتِ الأخـابيـرُ

(٢) وأما غزوان فلقد جاء في «المعجم» أنّه جبلٌ بمكة، وهو الجبل الذي في ذِروته الطائف، وتسكنُه قبائل هذيل، وليس بالحجاز موضعٌ أعلى من هذا الجبل، ولذلك اعتدل هواءُ الطائف، وقيل: إنّ الماءَ يجمُدُ فيه، وليسَ في الحجاز موضِعٌ يجمد فيه الماء سوى غزوان، قال أبو صخر الهذلي:

فـألحقـن محبـوكـاً كـأنَّ نشـاصَـه	مناكِبُ مِنْ غَزْوَان بِيْضُ الأهاضِبِ

(المحبوك) الممتلىء من السحاب، و(نشاصه) سحابُه.
(قلت): مراده بقوله في ذروته الطائف: بلاد الطائف كلها، لأنّ جميعَ هذه الجبال يطلَقُ عليها اسم الطائف.
وأما الماءُ فيجمُدُ في أكثر هذه الجبال وأحياناً في نفس قصبة الطائف، وأما ما يُرى من الاختلاف بين قول الهمداني وياقوت ـ والهمداني عاش قبلَ ياقوت بثلاثمئة سنة ـ بقول هذا: إنّ ديار كذا لهذيل، وقول ذلك: إنّها لهوزان، فلعلّ السبب فيه تغير الأيام، والهمداني نفسُه يقول بعد أن ذكرَ منازلَ هُذيلٍ ص (٣٢٣): إنّ بني سعد أخرجوهم منها في وقته ذاك بمعونة عج بن شاخ سلطان مكة. ثم يقول الهمداني: إنّ غزوان أمنعُ الحجاز وأكثرُها صيداً وعسلاً هـ من الأصل.

قلت: إنّ جبلَ الفرعِ وجبلَ الشَرَفِ وجميعَ الشعافِ والشناخيب التي هناك هي داخلةٌ تحت اسم غزوان، ولقد سألتُ الأهالي عن درجة البرد في الشتاء والربيع في تلك الجبال الشامخة فقالوا: إنّ الماء يجمُدُ فيهما دائماً، ولكنّه لا ينزل فيها الثلج المعروف ببلادنا الشامية[1] ، وذكروا أنّه ينزل عندهم صقيع أبيض يجدونه صباحاً قد غطّى الأرضَ.

لغة ثقيف وهذيل في هذا العهد

وأما عربية الأهالي ثقيف وهذيل فنقية، وكيف لا، وثقيفٌ مضرب المثل بفصاحتهم يقال: شاعِرٌ ثقفي، ويقال مثل آخر: أكثر من شعراء هذيل. وكان عمر يقول: لا يملي مصاحفنا إلا غلمانُ قريشٍ وثقيف، وكان عثمان يقول عند جمع القرآن: اجعلوا المملي من هُذيل، والكاتبُ من ثقيف.

ومررت بسانية في الفَرْع، يديرها شاب لا يتجاوز العشرين، فأخذتُ أحادثه وأسائله عن الفرع فقال لي: سقى الله الفرعَ، فيها من فضولِ الله ما لا يُحصَى. أعجبني جِداً كلامه، وقوله: (سقى الله الفرع) هذه العبارة الشعرية، ثم قوله: (فضول الله) ولو كان من أهل بلادنا الشامية لقال: أفضالُ الله. فجمعُ فضل على أفضال خطأٌ، وصوابه فضول، كما قال الشاب الفرعي الثقفي. وحسبُك أنّ أدباءنا وقعوا في هذا الخطأ فضلاً عن عوامنا، وانتقدَ أحمد فارس الشدياق على ناصيف اليازجي ـ وكلاهما من مفاخر سورية ـ قوله:

مضى يجمع الأفضالَ وهي عبيدُه

ولكنّ عند ثقيف وهذيل لغة لم أقرأ عنها في كتاب، ولا سمعتُ بها

---

(١) السبب في ذلك أنّ بلاد الشام يكثرُ فيها بخارُ الماء المتصاعد من البحر والأنهار، وجبالُ الطائف بعيدةٌ عن البحر، وليس فيها أنهارٌ كأنهارِ الشام.

في مجلس، وهي أنهم يتلفَّظُون بالضاد والظاء كاللام المفخمة، فيقولون مثلاً: الليف، في الضيف، وصلاة اللهر، في صلاة الظهر، وقرية الليق في قرية الضيق، وهلم جرا.

وقد لحظت أنا ذلك، ولحظه جميعُ الرفاق، وقضينا من هذه اللغةِ العجَب، ولم نسمع هذه اللغة في بلدة الطائف، ولا في وادي مَحَرم، ولا في الهَدَة، ولا في وادي لِيّة، وإنما سمعناها من الوُهَيط فصاعداً، أي في الشفا عند هذيل، وهذا الحي من ثقيف.

ولما كنتُ في الصيف الفائت في الأندلس، سمعتهم يقولون في كل بلدة: الرابال، يعنون به ضاحية البلدة، فأردتُ أن أعرفَ مأخذَها، فقرأتُ في كتبهم اللغوية أنّها لفظةٌ عربية محرَّفةٌ عن الربض، ففكرتُ حينئذ في قلب الضادِ لاماً عند هُذيل ومن جاورهم من ثقيف، وقلت: مَنْ يدري؟ فلعلّ أولَ من تلفَّظَ بالربض هناك تلفّظَ بها باللام[1]، فقد كان في غزاة الأندلسِ كثيرٌ من هُذيلٍ وثقيف.

وبتنا ليلةً واحدة في الفَرْع، ولكن لم نقدر أنْ ننامَ إلا بعد أن أشعلوا

(١) مخرج الضاد العربية الفصحى قريب من اللام المفخمة، فهو بينها وبين مخرج الظاء، فلهذا تشتبه الضاد تارة بالظاء في نطق أكثر العرب إلى عهدنا هذا، وتارة باللام المفخمة في نطق هؤلاء الهذليين والثقفيين، ومثل هذا الاشتباه يكثر في النطق، ولا سيما نطق الذي يعجل بالكلام فيتلقاه بعض السامعين محرفاً فيصير التحريف أصلاً متبعاً.

وذكر علماء اللغة أنه سمع إبدال اللام من الضاد فقالوا: الطجع أي اضطجع كعكسه في قولهم: رجل جضد أي جلد. وبعد كتابة ما تقدم راجعت مادة ضجع في «التاج» فإذا هو يقول: قال المازني: إن بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول: الطجع، ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهي اللام، زاد في «اللسان»: وهو شاذ، وقال الأزهري: وربما ابدلوا اللام ضاداً كما أبدلوا الضاد لاماً، قال بعضهم: الطراد واضطراد لطراد الخيل ا هـ وأورد شاهد الكلمة الطجع.

النار في الموقد، وأكبروها، وبعد أن التحفنا أسمكَ الأغطية.

وكنّا في صلاتي المغرب والعشاء نتوضّأُ بالماء الساخن، وجلسنا بعد الظهر على سطح بيتٍ، فلما كان عند أذانِ العصر شعرنا بالبرد، ودخلنا إلى الداخل، وكان مبيتُنا في الفرع ليلة(٢٢) أغسطس ـ أب، أي في إبّان القيظ، فإذا كان هذا في الصيف، فما ظنُّك بالربيع والشتاء والخريف؟

ثم انحدرنا من الفرعِ إلى وادٍ لطيف ملآن بالشجر اسمه الضَيْق (بفتح أوله) أو على رأيهم اللَّيق (بتعظيم اللام) وتناولنا الغداء في قرية بهذا الوادي، ثم انتهينا إلى الوادي الذي ذكرنا أنّه مبدأٌ لمياهِ وادي لِيّة، وصعدنا منه عقبة أفضنا منها إلى أراضٍ منبسطة، جيدة للزرع، وفيها السواني والبساتين والقرى، وأبنيةُ جميعِ القرى هناك وفي جميع جبالِ الحجاز كلُّها بالحجر وبغاية المتانة، ومنها ما يخاله الإنسان أبراجاً وحصوناً، وفي كلّ قريةٍ أو دَسْكَرَةٍ برجٌ للحصار، مستديرُ الشكل، عالٍ، متين البناء، معمم الرأس بمدماك من الحجارة البيض.

وكانوا في أثناء غزوات بعضهم لبعض والوقائع التي تحصل بينهم إذا هاجمت القريةَ قوةٌ تفوقُ قوةَ أهلها، لجأوا إلى هذا البرج، واعتصموا به، وجعلوا يرمون بالبندق من أعلاه.

أما اليوم فقد مضى كلُّ هذا، وأينما سرت يقولون لك ذلك القول الذي رويناه من قبلُ، وهو: إنّ الأمنَ في زمن ابن سعود خيّمَ تخييماً تاماً على جميع البلاد، وإنّ الدماء والثارات كلُّها انقطعت، وصار الجميعُ يسيرون في كل مكان بدون سلاح، وقيل لنا: إنّ الأوديةَ التي سلكناها، والفروعَ التي فرعناها، لم يكن أحدٌ في الماضي ليسلكها إلا برفقةٍ شاكيةِ السلاح، وإنّ الحكومةَ في أيام الأتراك لم تصل ولا مرة إلى الفرع والشفا، ولا قَدِرَ أحدٌ من التركِ أن يطأَ تلكَ الأرض.

ومن هناك سرنا إلى قرية يقال لها: الأَمْت ـ (بفتح فسكون) ـ هي أدنى قرى الشفا إلى مدينة الطائف، لا تبعدُ عنها أكثرَ من ثلاث ساعات، وقد كان مبيتنا بتلك القرية، وهي قرية في واد تشرِفُ عليه حروفُ جبالٍ كثيرةِ الصخور والجنادل، والأمت بالعربي معناه المكان المرتفع، ومعناه الروابي الصغار، ومعناه مسايل الأودية، ومعنا الوهدة بين نشزين، ومعناه الانخفاض والارتفاع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] أي لا انخفاضَ فيها ولا ارتفاعَ. وأصحُّ معنى ينطِبقُ على الأمت الذي نحن في صدده مسايل الأودية، أو الوهدة بين نشزين، لأنّ القريةَ هي في مسيل وادٍ، وهي منحفضةٌ بين نشزين، ويجوزُ أن يكونَ من باب الانخفاض والارتفاع، لأننا هبطناها بعقبة، ثم بعد أن وصلنا إليها وجدنا عقبة ثانية على مقربة منها إلى ناحية الطائف.

ومن الأَمْتِ إلى الطائف مررنا بوادٍ كانت فيه سدودٌ عُدْمَلِيَّـةٌ قديمة، تجري منها المياه بأقنيةٍ منحوتةٍ في الصخر إلى بساتينَ خاويةٍ الآنَ على عروشها، ثم إننا ملنا إلى بستانٍ اسمه بستان القصر، في نفس هذا الوادي، عليه سانية غزيرة الماء، تخصُّ رجلاً من القبيلةِ التي يقال لها قريش، فتناولنا فيها الطعام، وبعد القيلولة ركبنا عائدين إلى الطائف.

وأقول بالاختصار: إنَّ مسافة الانتقال من حرارة مكة بالصيف إلى برودةِ الشفا التي وصفناها للقارىء لا تزيدُ اليومَ على نهارٍ واحد، فمن مكة إلى الطائف بالسيارة الكهربائية خمسُ ساعات[1]، ومن الطائف إلى الفرع خمس إلى ستّ ساعاتٍ، ولو كان للشفا طرق معبدة، لكان المصطاف يركَبُ السيارةَ من مكة صباحاً فيكون في الفرع وقت أذان العصر.

* * *

---

(١) بلَغَنَا في العام الماضي أنّهم وجدوا أو عبدوا طريقاً آخر يُقْطَعُ في ثلاث ساعات أو أقل.

سكان الطائف وما حولها

أما سكان **الطائف**، فهم شتى، شماطيطُ من العرب، من ثقيفٍ وعُتيبة وغيرهما، ومن تُرك وهنود وأجناسٍ أخرى.

وأما إقليم الطائف، **فسكان وادي لِيّةَ** من أوسط الوادي إلى أسفله الزوران فخذٌ من عُتيبة أي هوازن، ومن وسط الوادي إلى أعلاه الفعور، وهم أشرافٌ، تقدّمَ ذكرهم.

وأما الذين هم بأعلى الوادي ـ ونزلنا عندهم لما ذهبنا إلى وادي لِيّة ـ فهم عَوْفٌ بطنٌ من حَرْبٍ، وحربٌ من بني هلال.

وأما ركبة الشهيرة التي تقع إلى الشمال الشرقيّ من الطائف، ففيها عِدة أفخاذ من عُتيبة أهمها: العصماء، الشيابين، الروقة، المقطاء، الجعدة، الوذانين، السوطة، العمارة، القثمة، الثبتة.

وأما وادي مَحرَم فعلوه ثقيف، ووسطه النمور، وأسفله إلى وادي السيل طويرق.

وأما **الهَدَة** فأهلُ وادي الأعمق الذراوة، والزنان، وآل أبي شنب، والمعالوة، وكلُّهم من ثقيف، ونفس قرية **الهَدَة**: فيها الغشامرة، والقصران، وبنو صخر، ومرجعهم أيضاً إلى ثقيف.

والعَرْجُ وهو عدة قُرى على وادٍ ينصبُّ إلى وادي وَجّ، إلى الشرق من لقين، سكانُه الأشراف ذوو ناصر، الذين منهم حمود وشاكر.

وكانت ثقيف ممتدة إلى رَكبة، لكنّ هوازن أرجعتهم إلى جبال الحجاز.

ثم إنّ ثقيفاً تنقسم إلى عِدّة أفخاذ، أكبرُها سفيان، وثمالة، ومنها قريش بني سالم، والغشامرة، والقصران.

وبنو سفيان سكان **الشفا**، ينقسمون إلى بني عمر آل حجة، وإلى آل ساعد، وآل عيشة، وآل حسن.

وثمالة تنقسم إلى المشايخ الحدادين (يقال إنهم من سلالة الشيخ الحداد) والضباعين، والسودة، وآل زيد، وآل مقبل، وآل ساعد، وآل عمر.

وجميعُ قبائل الطائف وبلادِها ما عدا الأشراف وما عدا العدوان تفزَعُ مع ثقيف ضد هوازن، وتسمّى ثقيف يوم الفزعة خندقاً، وتسمّى هوازن أو عُتيبة شبابة.

ولا تنحصرُ عُتيبة في هوازن، بل قد دخلها بطريق الحِلف قبائلُ أخرى.

وهذيل يسكنون في جبل بَـرَد وما يليه، وتسمى هُذيل الطلحات.

* * *

استطراد في قبائل الحجاز
بين الحرمين وشمالي المدينة المنورة

لما كنا قد ذكرنا قبائلَ هوازن وثَقيف وهُذيل وغيرها من سكان جبال الطائف، فلا بأس بذكر سائر قبائل الحجاز، ممن ينزلون بين الحرمين، ومن المدينة إلى الشمال، وقد كنّا يومَ زرنا المدينة النبوية قبل الحرب العامة بسنة أخذنا جدولَ هذه القبائل من سِجلّات الحكومة، واطّلعنا على معلوماتٍ ذاتِ قيمةٍ بشأنها، فرأينا إلحاقها بهذا الكتاب إتماماً للفائدة[1].

فأهمُّ هذه القبائل:

١ـ حرب: وهم بنو حرب بن هلال بن عامر بن صعصعة، من العرب العدنانية.

وحرب خلّف أربعةَ أولادٍ: سالم، ومسروح، وعبيد الله، وعمرو.

فمسروحٌ أكثرُهم ولداً، وقد دخلت بطونُ بني عبيد الله وبني عمرو في مسروح.

أما «صبح الأعشى» فيقول نقلاً عن الحَمْداني: إنّهم ثلاثة بطون: بنو مسروح، وبنو سالم، وبنو عبيد الله، وقال: إنّ من حرب زبيد الحجاز، وذكر أنّ منهم بني عمرو، ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنورة،

---

(١) [انظر الملحق (٢) عن الأنساب للمؤلف].

وعددهم يزيد على ستين ألف نسمة.

وأما بنو سالم من حرب، فمنازلهم من مكة إلى المدينة إلى وادي الصفر إلى الجديدة، إلى ينبع البحر، وهم يزيدون على خمسين ألفاً.

فحرب إذا اجتمعت تزيد على مئة ألف نسمة.

وكان شيخُ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الأحمدي، وكان ناصر بن نصّار الظاهر، ومنصور الظاهري من مشايخ المراوحة من بني سالم من حرب.

وبنو مُزينة الذين بأطراف المدينة، والذين منهم زُهير بن أبي سُلمى المزني صاحب المعلقة داخلون الآن في بني سالم من حرب.

والحالُ أنّ مزينة في الأصل هم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن أُدّ بن طابخة، واسمه عمرو بن الياس بن مضر، على ما في «صبح الأعشى» فقد دخلوا اليومَ في بني سالم من حرب، وكان شيخهم حجاب بن بخيت معدوداً من مشايخ المراوحة من بني سالم.

وكان من مشايخ حرب يوم زرتُ المدينة المنورة أو قبلَ ذلك بقليل بخيتُ بن بنيان، شيخُ اللهبة من عوف من مسروح، والشيخ إبراهيم بن فهيد شيخ قرية قبا، والشيخ أحمد بن معين، من مسروح.

وكان محارب بن موقد شيخُ الصواعد من عوف من مسروح، ومرزوق بن عمر، شيخُ بئر الماشي من عوف من مسروح أيضاً.

وكان أحمد بن مزيع بن ريبيق شيخُ بني عمرو من مسروح بوادي الفرع، ومريع بن محمد شيخُ قبيلة جهم من بني عمرو بوادي الفرع أيضاً.

وكان عبد الله أبو ربعة شيخُ قبيلة السهلبة من عوف.

٢ - ثم قبيلة صبح ببدرٍ، وشيخُها ابن حصاني الصبحي، وقبيلةُ صبح تنقسم إلى اللبدة، وبني عبد الله، وذوي مرزوق.

ويوجد فرقةٌ من الأشراف ببدر، كان شيخُهم الشريف محمد بن سالم بن عبد الله أبو نمي.

٣ ـ ثم قبيلة زُبيد بين يَنْبُع وجدة، ومن زبيد هذه [بطونٌ] في الجزيرة الفراتية، وفي الديار الشامية، وفي بلدان أخرى مما نزله العرب.

وزُبيد بضم الزاي وفتح الباء الموحدة هو ابنُ معن بن عمرو بن عنيز بن سلامان بن عمرو بن الغوث بن طيء.

ومنهم بساحل الحجاز الشمالي عددٌ كبير يقال: إنّ منهم نحواً من ثلاثين ألفَ رجل. يعملون في البحر، يجلبون الصدف، ويغوصون على اللؤلؤ، وكان الشيخ حسين بن مبيريك شيخُ رابغ هو شيخُ زُبيد، ومن مشايخهم الكبار محمد بن حسم.

وإلى المشرق منهم بنو سُليم وبنو عبد الله والروقة.

٤ ـ وبنو **سُليم** (بضم السين) من أشهر قبائل العرب، ويقول الحمداني: إنّهم أكبر قبائل قيس، وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان من العدنانية، ومن منازلهم حَرَّةُ سُليم، وحَرّةُ النار، بين وادي القرى وتيماء.

وأكثر عرب برقة والجبل الأخضر من بني سُليم بن منصور، وهم الذين ابتلاهم الله بالطليان في هذاالعصر، ولم يزالوا يجاهِدون عن دينهم ووطنهم منذ عشرين سنة.

وفي عرب مصر كثير من بني سُليم بن منصور، ومشايخ الأحامدة الذين هم مشايخ حرب في الحجاز يقال إنهم من سُليم، وإن جَدّهم العباس بن مرداس السُلمي.

٥ ـ ثم قبيلة جُهينة المنتشرة من ينبع إلى الوجه، وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة من العرب القحطانية، وهم من أكبر القبائل، قيل: إنّ إبراهيم باشا بن محمد علي

باشا أحصاهم فبلغوا في أيامه (٤٠) ألفاً، وسمعتُ مَنْ يحزرهم اليوم بسبعين ألفاً وبمئة ألف، وهم فئتان: موسى، ومالك.

وكان أميرُ جهينة من قبل العرب الشريف جابر بن حمد العياشي، يقيم بينبع النخل، ومن جهة الدولة العثمانية لأواخر أيامها بالحجاز الشريف محمد بن علي بن بديوي الهجاري يقيم بينبع البحر.

والمراوين فرقة تابعةٌ لجهينة.

وكان من شيوخ جهينة أحمد بن حماد الشطيري في ينبع النخل، وصالح بن حامد الصريصري.

وكان حنيشان بن سليم شيخ قبيلة عروة من جهينة.

وكان من مشايخهم في ينبع النخل عبد الرحمن أبو رقيبة، ومطلق المشرق.

وأشهرُ فرق جهينة العياشي وهم أشراف، والصبحة، والعلاوين، وذبيان، والعقيبي، والحجوري، والمحياوي، والفايدي، والمراوين، والزايدي، والعامري، وهم من قبيلة موسى.

[و]عروة وأشراف ذوي هجار، والموال، ورفاعة، والحصينات، وبنو كليب، والحمدة، والأساورة، والسناني، والصيادي، والريباوي، والقضاة، وغيرهم وهؤلاءهم بنو مالك.

٦ - ثم قبيلة بلي من الوجه إلى ظُبَا، ومن البحر إلى مدائن صالح شرقاً. وبلي (بفتح الباء) بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.

وقد ذكر القلقشندي أنّ مِنْ بَلي ومن جهينة قبائل في صعيد مصر.

وقيل لي في المدينة المنورة: إنّ عدد بَلي قريبٌ من عدد جهينة.

وهم عدة فرق: المعاقلة، والعريفات، والرموث، والهلبان، ووابصة، والسحمة، والقواعين، والمواهيب، وذبالة، وكان شيخُهم سليمان باشا بن رفاد مات في أثناء الحرب العامة.

٧ ـ وإلى الشرق من بلي **قبيلة الفقير**، وهم من عنزة، ومنازلُهم من المدائن إلى تيماء.

وهم فرق: الشفقة والجميعات، والمغاصيب، والحجور، والخماعلة، وعددهم نحو(١٠) آلاف.

٨ ـ **وولد علي**: وهم من عنزة أيضاً، ومن هؤلاء قبيلةٌ في بر الشام هي فرقتان:

إحداهما شيخها ابن سُمير، والثانية شيخُها الطيار.

وأما الذين من ولد علي بالحجاز فمنازلُهم بين العلا وخيبر، وقد يبلغون (٢٠) ألفاً، وهم: المسعد، والسند، والشراعية، والعطيفات، والرميلات، والخالد، والركاب، والطلوح، والدمجان، وجبارة، والطوالعة، وكان أشهر مشايخ ولد علي يوم زرتُ المدينة فرحان الأيدة.

٩ ـ **وأولاد سليمان**، وهم كذلك من عنزة، ومنازلهم بأطراف خيبر من جهة الشمال والشرق، وهم من (٥٠) إلى (٧٠) ألفاً، وهم: الشملان، والسبعة، والجعافرة، والبجايرة، والخمشة، والسلمات، وشيخهم العواجي.

١٠ ـ ثم إنّ من قبائل الحجاز مطير: وهم أربع فرق:

الأولى ميمون، وهم العيابين، والهويات، والسكان، والوهيطات، والسميحات، والرماثية، والمدخال، والحرشان، وغراية، والجعافرة، ويبلغون نحو (١٠) آلاف.

ثم الصعبة: ومنازلهم بقرب الحناكية إلى الشرق، وهم: المهالكة، والشطار، والحشوش، والشتيات، العضيلات، والمشاريف، والوطابين، والهجلة، وهم في العدد نظير ميمون.

ثم ذوو عون: ومنازِلُهم من الصفية الى السوارقية، وهم: الحجيلات، وذوو ميزان، والسقايين، وذوو شطيط، وذوو بدير،

والحلف، وذوو عزيز، وعددهم كعدد ميمون أو الصعبة.

ثم الرياحين: ومنازلهم بأطراق السوارقية، وهم: الوسمي، والعوارض، والعنائرة، والكراكرة، والعفاسي، والعطال، والمطارقة، والهبور، وعددهم أقلُّ من إحدى الفرق الأخرى، ومجموع عدد مطير قد يناهز (٤٠) ألفاً ويقال: إنّهم أكثر.

١١ ـ ثم إنّ من قبائل الحجاز **الحويطات**، ومنازلهم من ظُبَا إلى المويلح إلى العقبة، وكان أكبرُ شيوخهم ياسين بن عليان، ويبالغُ الناسُ في عددهم، فيقولون: (١٠٠) ألف، ويقولون: (٢٠٠) ألف، ولهم كثيرٌ من المراسي على البحر، ويتصل محلُّهم ببني عطية، الذين في جبال الشراة التابعة اليوم لشرقي الأردن.

١٢ ـ ومن خيبر إلى الحائط والحويط إلى الحرة **قبيلةُ هتيم**، وليست من القبائل المعروفة بالأصالة في العرب، ولكنّها كثيرة العدد، تصادم شمَّر، وتصادم حرب، وتصادم أيةَ قبيلةٍ كبيرة. ويقال: إنها نحو (٢٠٠) ألف نسمة.

١٣ ـ وشرقي هتيم **حرب الشرقية**، أي حرب نجد.

١٤ ـ ومن شرقيهم شمر، وهي من أعظمِ قبائل العرب، نسبُها في طيء فيما أتذكر.

وأما منطقة الجوف، فهي تابعة لنجد، والجميع الآن في مملكة ابن سعود، وعرب الجوف هم من:

(١٥) عنزة.

(١٦) والشرارات.

(١٧) والحوازم.

ويبلغ عدد أهل الجوف (١٠) آلاف، ولكنّها تسعُ أضعافَ هذا العدد، لكثرة مياهها ونخيلها، وخِصْبِ أرضِها، وهي تبعد عن دمشق مسيرة ستة أيام، وعن بغداد سبعة أيام، وعن المدينة المنورة ثمانية

أيام، وعن حايل سبعة أيام، فلا يوجدُ بلدة أوسط منها في بلاد العرب.

وعلى مسافة (١١) ساعة من الجوف مدينة سكاكة، وقد تكون أكثر سكاناً من الجوف.

وأقرب نقطة إلى الجوف من المعمور الغربي هي الكرك، لأنّ من الجوف إلى محطة القطرانة مسيرة يومين، ومن محطة القطرانة على سكة حديد الحجاز إلى الكرك مسيرة ست ساعات لا غير.

١٨ ـ وفي منطقة **الجوف الطوير**، وفيها(٤٠٠) مقاتل.

(١٩) وقارة وفيها (٧٠٠) مقاتل.

ويتبع هذه المنطقة قُريات الملح وهي كاف، وإثرة، والقرقر، والوشواش، والعقيلة، وأم الأجراس، وفيها كلها نحو (٤٠٠) مقاتل، وهي واقعة في وادي السرحان، ومركز عامل ابن سعود فيها قرية: كاف.

وعلى مسافة ساعتين منها النبك، الذي نزل به بقية المجاهدين السوريين لما أجلاهم الإنكليز بالاتفاق مع الفرنسيس عن الأزرق منذ ثلاث سنوات، وأقام أخي عادل بالنبك نحو سنتين، ولا يزالُ فيه محمد باشا عز الدين الحلبي، ومعه بضع مئات منهم، كما أنّ سلطان باشا الأطرش ومعه بضع مئات نازلون بالحديثة وعين كرم، على مقربة من النبك.

وعلى مسافة ثلاثة أيام من مدينة الجوف إلى القِبلة بلدةُ تيماء، وهي على مسافة يوم إلى الشرق من سكة الحديد الحجازية. ويقول ياقوت: إنّ الأبلقَ الفردَ حِصْنَ السموأل بن عادياء مشرِفٌ عليها.

وشرقي تيماء قرى متعددة وهي: موقد، وقبة، وقنا، وأم القلبان، وطوية، والجذامية، والوزيد. وبين المدينة وحايل الحائطُ والحويطُ.

* * *

خاتمة الارتسامات

في صفة موقع الطائف الجغرافي والعسكري ومكانه من البلاد العربية كلها وما كانت شرعت فيه الدولة العثمانية مِنْ جَعْلِهِ مركزَ قوتها في بلاد العرب وما يجب على الأمة العربية من ذلك

ألا إنّ مدينة الطائف مركز عظيم في بلاد العرب، لأنّها لمكة من قبيل لازم وملزوم، ولأنّ إقليمها من أبدع الأقاليم، وثمراتُها من أشهى الثمرات، ولكونها متوسطة في الجزيرة، الحجازُ محيطٌ بها، واليمن جنوبيّها، ونجد والعراق شرقيّها، والمدينة المنورة والشام شماليّها، فأختم كتابي ببيان ما يجب على الأمة العربية في موقعها.

لحظت الدولة العثمانية هذه الأهمية لموقع الطائف، فكان السلطان عبد الحميد الثاني العثماني عزم على مد خط الحديد من الشام إلى المدينة، ثم إلى مكة فالطائف، فعسير فصنعاء اليمن، ولم يقر ذلك بمجرد رأيه، بل جمعَ الوزراء وكبارَ رجال العسكرية، وبعد مذاكرات طويلة استمرّت عدةَ ساعاتٍ أصدرَ ذلك المجلس قراره بلزوم إنشاء هذا الخط، وقايةً لجزيرة العرب من عوادي الأعداء، وتقريباً لها من مركز السلطنة[1].

---

(١) نزيدُ على هذا اعتقادَ الترك أنّ سلطانهم على جزيرة العرب لا يتم ولا يدوم إلا بذلك، فكان أهمُ غرضٍ لهم منه أنْ لا يتمكّنَ العربُ من تجديدِ دولةٍ لهم في معقل وطنهم وعقر دارهم.

ولقد تمكّن السلطانُ من إيصالِ الخط من دمشق إلى المدينة المنورة، وسارت عليه القُطر، التي لم يكن في كلِّ أوربة إذ ذاك قُطُرٌ أجلُّ منها، وكان المسافِرُ يقطع ما بين دمشق والمدينة أي زهاء ألف وأربعمئة وخمسين كيلو متراً في ليلتين، ولولا مصادفة خلع السلطان أيامَ العمل بهذا الخط لكان أكمَله إلى مكة وإلى الطائف وسار به حتى صنعاء.

فمن واجبات الأمة العربية السعيُ في إكمالِ مشروع السلطان عبد الحميد هذا، **فقد كان السلطان ووزراؤه يرونه ضرورياً للوحدة العثمانية، وكان ذلك حقاً، ولكن العثمانية قد ذهبتْ، وذهبتْ وحدتُها، وانطوى بساطُها، وأماالعربية فلن تذهب، ووحدتها لا تزال نشيدَ آمالِ العرب، وإنّ من أركان هذه الوحدة وأعمدتِها الكبرى هذا الخط الحديدي، الذي لا يقف الإنكليز والفرنسيس في وجه استئناف إتصاله بالشام وفلسطين إلا خوفاً من يقظة هذه الوحدة.**

ثم إنّ الدولةَ العثمانيةَ كانت قد شيدت في الطائف ثُكنةً عسكرية من أعظم ثُكَنِ الجند في العالم، طولها ثلاثمئة متر، وعرضُها يقرُبُ من ذلك، وأمامها سهلٌ منبسط مستو تخد الحصان، لا يجتازه الماشي من باب القشلة إلى آخره في أقل من عشرين دقيقة، وقد جعلت في جانبٍ من هذه الثكنة العظيمة مستشفى متقناً، وفي وسط ميدان الثكنة الفسيح قصراً لاجتماع أمراء الجيش، وجميعُ هذه الأبنية لا تزال ماثلةً، لا ينبغي لها إلا بعض ترميمات غير ذات بال.

ولقد علمتُ من حديثٍ دار بيني وبين سمو الأمير المهذب الكامل فيصل بن عبد العزيز ـ ثاني أنجال جلالة الملك، ونائب جلالته في الحجاز ـ أنّ ترميمَ المستشفى وإعادته كما كان من الأمور المقررة، وكذلك ترميم القصر الذي في وسط الميدان، بحيث يجلس فيه الملك عندما يجيءُ إلى الطائف، وأنّهم ينوون نقلَ جميع دوائر الحكومة في

الصيف إلى الثكنة، وكذلك دوائر إمارةِ الطائف، وهذا لعمري من الأمور التي ينبغي المبادرة إليها وقايةً للثكنة من التداعي، لأنّ كلّ بناءٍ مهجورٍ محكومٌ عليه بالدثور، ولقد كلّفَ بناءُ هذه الثكنة الدولة العثمانية مبالغ طائلة، فكلّما تأخرتْ إقامةُ الحكومة بالثكنة ازدادت على الحكومة الحجازية النجدية كلفة تجديدها.

وأما الجند النظامي السعودي الذي في الحجاز فإنّه يقيم في مكة بالثكنة التي في جرول في أول البلد الحرام للقادم من جدة، ويقيمُ في جدة بثكنة جدة المناوحة للبحر، ويقيم في الطائف بقلعة الطائف، وهي قلعة بُنيت منذ نيف ومئة سنة، قيل لي: بناها الوهابيون قدمتهم الأولى في القرن الماضي. ولقد زرتُها وسُرِرْتُ بانتظام الجند الذي فيها بقيادة ضابط تركي باق من أيام الملك حسين، اسمه تحسين بك، من خيرة الضباط.

ولقد ازدادت الثقة الآن بحسن قيادة الجيش الحجازي بعد أن عهد بها الملك عبد العزيز أيده الله إلى المجاهد المناضل، والعالم الفاضل، فوزي بك القاوقجي، من نخبة ضباط العرب، وفقه الله لتحقيق آمال الملك وآمال العرب في القوة النظامية السعودية.

* * *

صفة قتل مدحت باشا ومحمود باشا الداماد

ولما زرتُ القلعةَ جلسنا في الغرفة التي كان يسكن بها مدحت باشا أبو الدستور العثماني[1]، والتي قُتل فيها، وأمامها غرفةٌ كان يسكن فيها محمود باشا الداماد، وهناك غرفة ثالثة كان يسكن فيها خيرُ الله أفندي شيخُ الإسلام، هؤلاء الثلاثة الذين نفاهم السلطان عبد الحميد إلى الطائف من أجل خلع عمه السلطان عبد العزيز.

ولقد استقصيت من تحسين بك المذكور، ومن الشيخ محمد بكر كمال رئيس بلدية الطائف، ومن غيره من المعمَّرين فيها عما يعلمونه من كيفية قتل مدحت ومحمود الداماد، فقيل لي ما خلاصته: جعلوا إقامتهم من البداية في القلعة، لكن مع الترفيه والاعتناء، وكان لهم طاهٍ خاص يصلِحُ لهم طعامَهم، لكن بعد أن مضت على ذلك مدة، شرعوا بالتضييق عليهم، وأبوا أن يطعموهم إلا من غذاء العسكر، وبعد عدة سنوات من حبسهم بالقلعة، وفي أيام الوالي المشير عثمان نوري باشا، قرروا قتلَ مدحت باشا ومحمود باشا الداماد، وكان مدحت في الغرفة التي جلسنا فيها، وهي محل استقبال الزائرين اليوم، فدخل عليه ملازم تركي اسمه إسماعيل، قيل لي يوم كنتُ بالطائف صيف سنة (١٣٤٧)

---

(١) [انظر ترجمته في كتاب «علماء كما عرفتهم» للشيخ محمد سعيد الباني ص (٢٠٥) وهو من جمعي وتحقيقي، نشر دار القادري بدمشق].

إنه لا يزال حياً يرزق، وأنه مقيمٌ بجدة، ولم يكن قَتل هذا الضابط لمدحت خنقاً كما كنا نسمع، بل قبض على أنثييه، واستلهما بقوة عصبه، فبرد مدحت في مكانه، ثم عادوا إلى الداماد، فحاول أن يجاحش عن خيط رقبته، ولكنّهم صرعوه، وأزهقوا روحه، ولم يستسلم [مدحت ومحمود] للموت بدون صراخ، بل استغاثا بالجيران الذين بيوتهم مجاورة للقلعة، فصاح النساء بالذين في القلعة، ووبخنهم، ودَعَوْنَ عليهم، واشتدت الولولة، إلا أنّ ذلك لم يمنع قيام القتلة بإنفاذ الأمر.

وأما خير الله أفندي شيخ الإسلام فلم يمسوه، وبقي في القلعة إلى أن مات، وتزوّجَ وهو بالقلعة، وأولد أولاداً، وعاش طويلاً ودفن مدحت ومحمود الداماد بتربة الحبر ابن عباس، ولكنّ رئيس البلدية قال لي: إنّهم لا يعلمون في أية زاوية من الجبانة كانت مراقدهما، وقد جاء بعض الأتراك بعد إعلان الدستور العثماني، وبحثوا عنهما وبنوا لهما قبرين حيثُ رَجَّحَ النّاسُ أنّه وقع دفنهما.

وأما قطع رأس مدحت وإرساله إلى السلطان عبد الحميد في الآستانة كما هو شائعٌ فلا يَعْلَمُ هؤلاء الرواة شيئاً عنه.

ذكرنا هذه الواقعة لأنّها تاريخية مهمة.

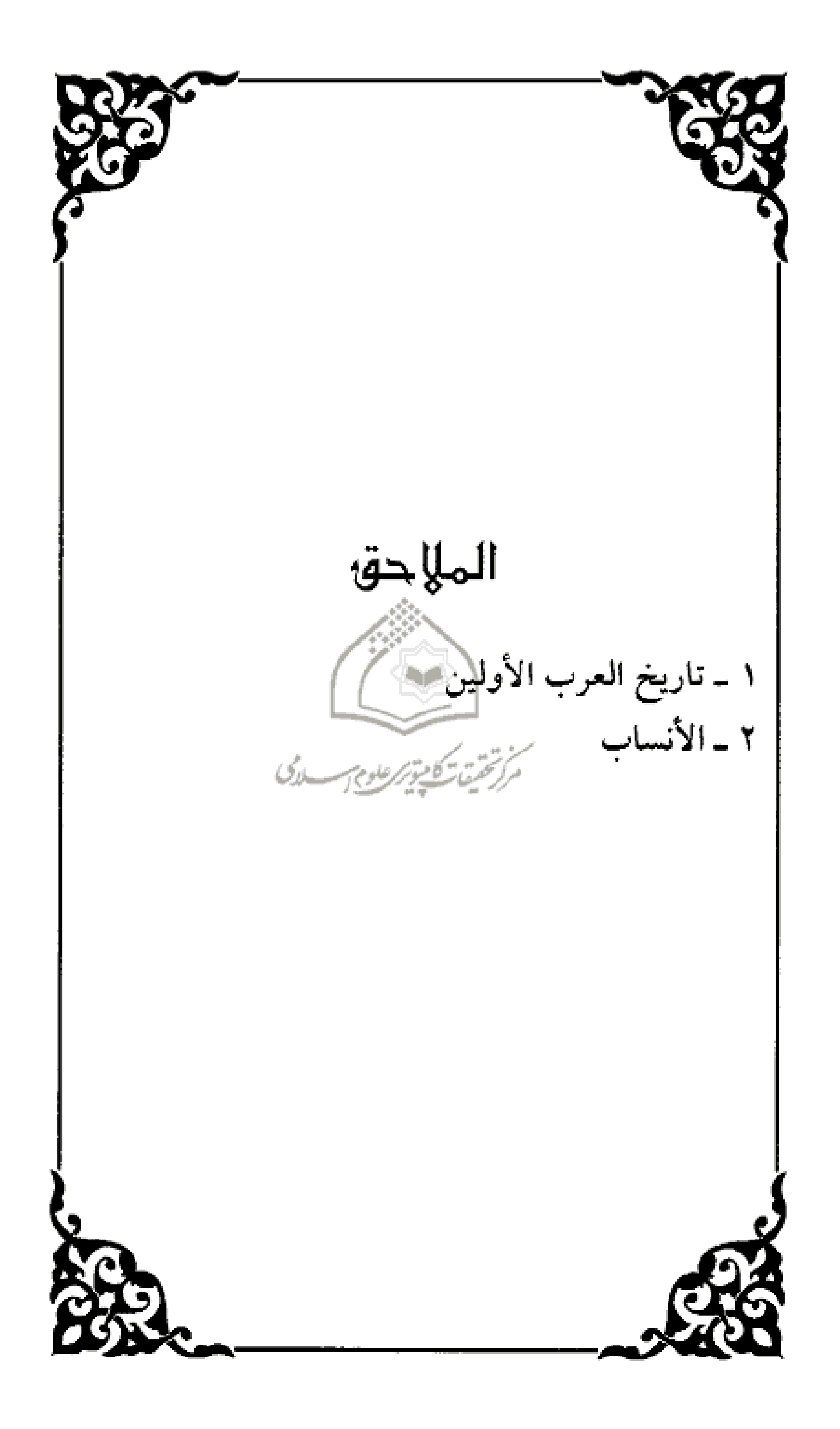
وكان الفراغ من تبييض هذا الكتاب بمدينة لوزان من بلاد سويسرة لأربع خلونَ من ذي الحجة سنة (١٣٤٩) موافق (٢٢) إبريل - نيسان سنة (١٩٣١).

والحمد لله أولاً وآخراً

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّمَ تسليماً كثيراً

وقد تمّ طبعُه في شهر المحرم سنة (١٣٥٠) ولله الحمد.

وقد تم تجديد طبعه في شهر ربيع الأول سنة (١٤٢٤) ولله الحمد



الملاحق

١ ـ تاريخ العرب الأولين

٢ ـ الأنساب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تاريخ العرب الأولين

لا يزال المؤرخون عموماً، والمتخصصون في تاريخ الأمم السامية، متفقين على كون تاريخ العرب القدماء[1] غامضاً، وأنه لا يزال مفتقراً إلى وثائق كثيرة تجلو حقيقته، ولقد عثروا على كتابات غير قليلة كشفت بعضَ نواح منه، إلا أن كثيراً من هذه الكتابات لا يزال مجهولاً، وما دام هذا القسم من الكتابات لا يزال مغيَّباً، فلا يزال تاريخ العرب الأولين ناقصاً. والآن تجد معوّل المؤرخين في هذا التاريخ على بعض الكتابات التي تمكّنوا من حلها في بلاد الغرب، وعلى ما هو وارد في تواريخ الأمم الأخرى من بابليين وآشوريين ومصريين وعبرانيين ويونانيين ورومانيين، وكذلك على ما هو وارد عن علماء الإسلام بشأن عرب الجاهلية.

وقد جاء في الكتابات البابلية الخزفية التي عثروا عليها ما يدلُّ على وجود ملك إسمه مانيوم كان ملكاً على ماغان، أو بلاد العرب الشرقية. ويظنون أن ماغان هذه هي معان، كما أنه ورد في محل آخر ذكر ملوخ، الذي يُظَنُّ أنّ منه اشتق اسم العمالقة.

وكان السومريون ذوي علاقات مع هؤلاء. ثبت إذن وجود العمالقة

---

(١) [في جزيرة العرب].

في التاريخ منذ ألفين وخمسمئة سنة قبل المسيح.

فأما الكتابات التي عثروا عليها في جزيرة العرب فهي ترجِعُ إلى ألف سنة فأكثر قبل المسيح، وأكثر مَنْ خدم العلم في كشف هذه الكتابات المنقوشة على الصخور هو بحسب ما ورد بالأنسكلوبيدية الإسلامية؛ يوسف هاليفي (Gosephe Halevy) وإدوارد غلازر (Edoird Glaser) وهذه الكتابات تنقسم إلى قسمين بحسب اللغة: فالأول: هي **المعينية**، والثاني: هي **السبئية**، نسبة إلى معين وسبأ، وهما قبيلان يقال: إنهما من حضرموت.

وفي سنة الخمسمئة قبل المسيح، كان ملوك مأرب في اليمن يطلق عليهم لقب ملوك سبأ، ثم ظهر بعدهم الحميريون، وتمكنوا في مأرب أيضاً. وفي نحو السنة الثلاثمئة قبل المسيح كان يقال للواحد من هؤلاء: ملك سبأ وذي رَيْدان وحضرموت، ثم أضافوا إلى ذلك اللقب جملة: وعربهم في الجبل وتهامة، وبقي ملك الحميريين هؤلاء إلى ما بعد استيلاء الأحباش على اليمن، أي في القرن الرابع بعد المسيح إلى القرن السادس.

وقد وجد العلماء كتابات منقوشة على الصخور من ذلك العهد. وكان كلازر الآنف الذكر هو الذي كشف الكتابة الطويلة المتعلقة بسيل العَرِم، أي انفكاك سد مأرب، وهو الحادث العظيم الذي وقع في سنة خمسمئة وثلاث وأربعين بعد المسيح، وهذه الكتابة كتبها أبرهة ونصها: «بقوة الرحمان «رحمانان» ولطفه ورحمته وبمسيحه والروح القدس نقشت هذه الكتابة على الحجر بأمر أبرهة الوالي من قبل الملك إليكسومي رامفيس ذي بيامان ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وعربهم في الوعر والسهل».

ثم يوجد في هذه الكتابة إشارة إلى رسل ملك الروم، وملك فارس، والمنذر، والحارث بن جَبَلة. مما يدل على أنّ دسائس كل من الدولتين

الرومية والفارسية كانت بدأت في جزيرة العرب منذ ذلك العهد، ولم يطل الأمر حتى خلع أبرهة عامل الحبشة آخر الملوك الحميريين الملقب بذي نواس، وأزال مملكة حمير، وأبرهة هذا هو الذي زحف إلى مكة ومعه الفيل، وإليه أشار صاحب البردة[1] بقول:

كـأنَّهـم هـربـاً أبطـالُ أبـرهـةٍ أو عسكر بالحصى من راحتيـه رُمي

وفي ذلك الوقـت تغلَّـب العجـمُ على اليمـن لعهـد كسرى الأول، فاستناب عنه رجلاً يقال له وهريز.

ولما ظهر الإسلام كان في اليمن عامل لكسرى أبرويز الثاني يقال له باذان، فأسلم، ودخل بعد ذلك اليمن في الحوزة المحمدية، ولم يقدر العلماء أن يكشفوا شيئاً عن المملكة السبئية يرجعُ إلى أقدم من سنة سبعمئة قبل المسيح.

[المعينيون]

فأما المعينيون فالمظنون أن الكتابات المتعلقة بهم، تملأ تواريخها خمسة قرون، ويظهر أنّ المعينيين كانوا معاصرين للسبئيين، وغاية ما هناك أنهم رجّحوا أن أقدم الكتابات السبئية يرجعُ تاريخُها إلى أحدث الكتابات المعينية، وقد جاء في الكتابات المعينية ما يثبِتُ وجودَ دولة السبئيين في اليمن. وكان ملوك المعينيين مثل خالي كاريبا صادو، ويحتيل ريام أبو تبع كرب في الزمن الذي كان فيه ملوك سبأ، والمظنون أن هذا كان بين سبعمئة وستمئة سنة قبل المسيح، وقد جاء في كتابة معينية ما يفيد أنّ السبئيين وقبيلة أخرى اسمها خولان كانوا يشنون الغارات على الطريق المؤدي من نجران إلى معان في بلاد الشراة جنوبيّ سورية، وقد أشار «سفر أيوب» من «التوراة» إلى هذه الغارات.

---

(١) [البوصيري].

ووجدت كتابات آشورية سابقة لسنة السبعمئة قبل المسيح، فيها إشارة إلى وجود أمير من سبأ اسمه أيطع آماده، يُظنّ أنه كان في بلاد العرب الوسطى، هذا ولم تنفردْ سبأٌ ومعينُ بملك اليمن، بل كان هناك دولتا قحطان وحضرموت، فالجملة دول أربع أعظمها سبأ.

وكان للمعينيين مستعمرةٌ في مدين، نظراً لتجارتهم بالطيب، وقد ثبت ذلك من كتابات كشفها العالم أوتنغ (Eutung) في العلى شماليِّ المدينة المنورة. وسقطت دولة المعينيين في نحو الستمئة والخمسين قبل المسيح، وقد ورث السبئيون مستعمرتهم في مدين.

[اللحيانيون]

وفي ذلك الوقت تقدَّم نحو بلاد العرب دول أخرى مثل حكومة نبوخذنصر، فقد كشف أوتنك و هوبر (Huber) في تيماء كتابات تدل على كون حكم الآراميين البابليين وصل إلى هناك، وربما كان المَلِكُ العربي الذي أشار إليه هيرودوت بأنه عاش في نحو السنة الخمسمئة والعشرين قبل المسيح هو ملك اللحيانيين، الذي قال بلينوس الروماني المؤرخ «Pline»: إنّ عاصمته كانت هَجَر، فاللحيانيون هؤلاء يجوز أن يكونوا ورثوا المعينيين والسبئيين، ووجِدُوا قبل النبطيين، أي كانت دولتهم بين الخمسمئة والثلاثمئة سنة قبل المسيح.

[النبطيون]

ثم ظهرت آثار النبطيين في القرن الثاني قبل المسيح، وبقيت دولة هؤلاء النبطيين إلى سنة مئة وستة قبل المسيح، إذ تغلَّب عليهم

الرومان، وكانت مدينة النبطيين هي بتراء[١] - أي وادي موسى اليوم - وكان يمتدُّ ملكهم إلى مدين وبلاد بني سُليم الوارد. ذكرها في نشيد الأنشاد من «التوارة».

وقد عثروا في وعرة الصفاة من حوران على كتابات مشابهة لحروف الهجاء العربية اليمنية[٢].

أما الكتابة النبطية - موصولة الحروف - فهي مشتقة من الفرع الآرامي من الكتابة الكنعانية، أو يرجح أنها هي أصل الكتابة العربية التي اصطلحوا عليها في القرن الثالث بعد المسيح.

وأقدم كتابة عربية معروفة اليوم هي كتابة نمارة في شرقيّ حوران، تاريخهُا سنة ثلاثمئة وثمان وعشرين بعد المسيح، وهذه الكتابة تتعلَّق بملك يقال له: امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب، وملك أسد وطيء ونزار، ومن هذه الكتابة يعلم أن مُلكَ امرىءِ القيس هذا كان يمتدُّ إلى نجران اليمن[٣].

جاء في «الأنسكلوبيدية الإسلامية» أنه ربما كان امرؤ القيس هو أحد ملوك المناذرة اللخميين. قلنا: هذا محقق إذ جاء فيهم بحسب ما في «تاريخ أبي الفداء» ذكر امرؤ القيس بن عمرو، ثم عمرو بن امرىء القيس، ثم امرىء القيس المحرق بن عمرو، وهو والد النعمان الأعور، ثم جاء امرؤ القيس بن النعمان. وقد تابع أبا الفداء في ذلك جرجي زيدان السوري، وعلي ظريف الأعظمي العراقي، وقابلنا بين هذه

---

(١) [واسمها (سلع)].

(٢) [انظر تاريخ العرب قبل الإسلام» تأليف رينيه ديسو ترجمة عبد الحميد الدواخلي].

(٣) [هناك (نجران) في جبل العرب من أرض حوران شرقي إزرع وهي المقصودة بالنقش المذكور].

السلسلة التي ذكرها كلٌّ منهما وبين تاريخ صالح بن يحيى التنوخي، فوجدنا أنّ في سلسلة صالح بن يحيى ذكر امرىء القيس بن النعمان الأعور بن امرىء القيس المحرق بن عمرو بن امرىء القيس الأول بن عمرو بن عدي اللخمي، وقابلناها مع سجل نسب العائلة الأرسلانية اللخمية، فوجدنا أنّ المنذر الذي أمه ماء السماء، أي المنذر الأول هو ابن امرىء القيس الثالث بن النعمان الثاني بن امرىء القيس الثاني بن النعمان الأول بن عمرو الثاني بن امرىء القيس الأول بن عمرو بن عدي اللخمي.

فمن هنا يعلم أنه يوجد عدة ملوك من اللخميين باسم امرىء القيس، ولكنّ المقصود بالذات هنا هو الملك الذي تولّى منهم بين سنة مئتين وخمسين وثلاثمئة وثلاثين بعد المسيح.

فهذا هو امرىء القيس الأول الذي يقال له المحرق، ويقال له البدء، فإنّه ملك بين سنة مئتين وثمان وثمانين، وثلاثمئة وثمانية وعشرين. وقد كان اللخميون عمالاً للأكاسرة، كما كان الغسانيون عمالاً للقياصرة، وكان مقصِد ملوك الفرس باستعمال ملوك الحيرة أن يكونوا فاصلاً بين الفرس والعرب، ويصدوا غارات القبائل العربية على العراق. ومثل ذلك كان مقصد ملوك الروم بواسطة الملوك أولاد جفنة الغسانيين ردع العرب عن شن الغارات على جنوبيّ سورية.

فهذا جُلُّ ما يعرف من تاريخ العرب قبل الإسلام، وكلّما توغَّلَ هذا التاريخ في القدم يزداد غموضاً كما لا يخفى[1].

---

(١) [صدر عن تاريخ العرب قبل الإسلام عدة كتب قديمة وحديثة فمن القديم «نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب» لابن سعيد تحقيق الدكتور نصرت عبد الرحمن و«المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية» للحلي تحقيق الدكتور صالح دراكة والدكتور محمد الخريسات. =

غير أنّ هناك حقيقة اتفق عليها الباحثون من علماء الفرنجة، ولا سيّما الذين نقبوا عن الكتابات الحجرية المبثوثة في جزيرة العرب. وهذه الحقيقة أنه في نحو الألف سنة قبل المسيح كانت للعرب ـ لا سيّما في اليمن ـ مدنيةٌ في غاية الارتقاء والازدهار.

وبعضُ العلماء يذهب ـ ومنهم صاحبنا الأستاذ المستشرق موريتز (Morits) الألماني ـ إلى أنّ أصلَ إيجاد الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهيروكلوفية كان في اليمن، وهو يعتقدُ أنّ اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأي المشهور.

وقد أفضى موريتز إليَّ بأدلته على هذا الرأي، وقال: إنّ الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمنية، ثم إنّ اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينقيين، وعنهم أخذ الرومانيون، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، وبهذا الاعتبارهم الذين أوجدوا المدنية.

وأما المستشرق هومل (Hommel) ففي «الأنسكلوبيدية الإسلامية» يذكر أَخْذَ اليونان عبادةَ أبولّون وأمه ليتو (Leto) عن العرب[1].

وقال روبيرتسون سميث (Robertson Smith): إنّ ليتو هذه هي اللات، وإنّ اليونان بحسب رأي بريتوريوس أخذوا بعض أحرفهم عن كتابة عرب اليمن، والبعض الآخر عن كتابة الكنعانيين، قال هومل: إنّ جنوبيَّ بلاد العرب كانت فيه مَدَنيّةٌ في أوائل الألف قبل

= وفي الحديث «تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي، و«تاريخ العرب القديم» للدكتور فؤاد حسنين وغير ذلك].

(١) [وإلى هذا ذهب العلامة الكبير الدكتور نجيب محمد البهبيتي المصري رحمه الله تعالى في كتابه «الشعر العربي في منظوره التاريخي القديم» وهو آخر مؤلفاته].

المسيح بالغة الحد الأقصى من الازدهار بما تركته من معابد وحصون، ومحافد وقصور، وكتابات.

فأما الكتابة الحميرية وهي التي يُقال لها خط المسند؛ فقد جاء في الجزء الثامن من كتاب «الإكليل» للفيلسوف العربي الحسن بن أحمد الهمداني صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» تصوير هذه الكتابة كما سيأتي. وقد اشتُهِرَ كتابُ «الإكليل» كثيراً، ولكنَّ أكثره مفقودٌ حتّى في بلاد اليمن نفسِها، فقد بحثنا عنه فلم نجدهم يذكرون إلا جزئين، والحال أنّه عشرة أجزاء.

الأول: مختص بالمبتدأ وأصول الأنساب.

والثاني: نسب ولد الهميسع بن حمير.

والثالث: في فضائل قحطان.

الرابع: في السيرة القديمة إلى عهد تبع أبي كرب.

والخامس: في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى أيام ذي نواس.

والسادس: في السيرة الأخيرة إلى الإسلام.

والسابع: في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة.

والثامن: في ذكر قصور حمير ومدنها، وما حفظ من شعر علقمة والمراثي والمساند.

والتاسع: في أمثال حمير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند.

والعاشر: في معارف حاشد وبَكِيْل.

وقد اطلعت على الجزئين الثامن والعاشر في المكتبة الملوكية في برلين، وأخذت صورتهما بالفوتوغرافية، وعلمت أنّ أحد هذين الجزئين لا يزالُ محفوظاً في إستانبول، كما أني علمت أنّ الجزء الثامن

الذي يدورُ على القصور والمحافد والمساند قد طبعه الدكتور مولر وشرحه سنة (١٨٧٩) وأما سائر الأجزاء فما علمنا بوجودها.

وإليك الآن ما جاء في الجزء الثامن عن الخط المسند، قال الهمداني: باب حروف المسند، وهو كتاب حمير ومثلاته في حروف ا.ب.ت.ث وغيرها.

قال الهمداني: أكثر ما يقع بين الناس الخُلْفُ فيما تقوّلوه في لسان حمير من اختلاف صُوَرِ الحروف، لأنّه ربما كان للحرف أربع صور وخمس، ويكونُ الذي يقرأ لا يعرف إلا صورةً واحدةً، فلما وقع الخلل في هذا الموضع رأينا أن نثبت تحت كل حرف من حروف؛ ألف، باء، تاء، ثاء، صورة جميعها. وإنما كان اختلاف صور الحروف على سبيل اختلاف الكتاب العربي، وكانوا يطرحون الألف إذا كانت وسطاً مثل ألف همدان، وألف ريام، فيكتبون ريم وهمدن.

كذلك تبع كتّاب المصاحف الحروف في مثل: الرحمن، وألف إنسان، ويثبتون ضمةَ آخر الحرف واو [مثل]: عليهمو، إلى أن يقول: ويقرنون كل سطرين بخط، ويفصلون بين كل كلمتين في السطر بخط، ومثال ذلك في أول مسند هذه صورته: (١٠٠)

والذي عليه جمهور المؤرخين والمنقبين اليوم وفي مقدمتهم سبرنكر، وشرودر؛ هو أنّ جزيرة العرب هي مهد الأمم السامية، وأنّ المهاجرة بدأت منها إلى الخارج.

وقد خالف في ذلك بعضُهم، وذهبوا إلى أنه يجوز أن يكون وقوع المهاجرة بالعكس، أي بدلاً من أن يكون العرب ارتحلوا من الجزيرة إلى بابل؛ يجوز أن يكون بعض الأقوام الذين على شواطىء الفرات قد ارتحلوا منها إلى الجزيرة العربية، فأما كون البربرمن العرب وأنهم جاؤوا من جزيرة العرب، وأن اللغة البربرية هي من اللغات السامية؛ فهذا سيكون البحث فيه بمكان آخر.

فبعض العلماء ومنهم نولدكه المستشرق الألماني المعروف يقول بهذا الرأي وبعضهم يردّه.

وقد ذهب هومل (Hommel) إلى أنّ السبئيين كانوا في الجوف في شمالي بلاد العرب ـ التابعة لابن سعود اليوم ـ وأنهم تقدموا منها إلى الجنوب. وقد جاء ذكر سبأ في «التوارة» مراراً، ولكن بأقوال يناقِضُ بعضُها بعضاً، وإنما يمكن الاتفاق على أنّ السبئيّين كانوا تجاراً في تلك الأعصر، يبيعون عود الطيب في مصر والشام، ويتّجرون بالحجارة الكريمة، و«التوارة» تشيرُ إلى ثروة السبئيّين، ويؤيّدُ ذلك مؤرخو اليونان والرومان.

وقد ذكر سترابون المؤرخ الجغرافي اليوناني، أنّ الرومانيين في زمن أغسطس غزوا سبأ، وذلك سنة (٢٤) أملاً بالاستيلاء على أموال هذه الأمة ـ ففشلت هذه الغزوة فشلاً تاماً، ولكنّها عرّفت الرومانيين ببلاد العرب، فقد جاء في كتب مؤرّخي الرومان واليونان مثل ديودور وهيرودوت وغيرهما كلامٌ كثيرٌ عن حضرموت واليمن، ووجد مطابقاً للكتابات التي عثروا عليها في جنوبيّ الجزيرة العربية. ومن ذلك كلِّه يظهَرُ أنَّ أهالي اليمن كانوا أشداء في الحروب، أصحابَ إقدامٍ ونشاطٍ

في الأعمال، وكانت لهم زراعة راقية جداً، وتجارة ممتدة إلى سائر الأقطار وعلاقات اقتصادية مع مصر وفينيقية، وكان لهم قيام على الملاحة وركوب البحر يعجب به المؤرخون.

وكان السبئيّون سبّاقين في هذه المزايا كلِّها، وكانوا أصحابَ يسارٍ وترفٍ. ولكن يظهر أنه لما غزا الرومان تلك البلاد بقيادة كالّوس (Gallus) كان قد بدأ ظهورُ دولةِ الحميريين، وكان قد تقهقر السبئيون. فالقائد كالّوس يذكر أنهم ـ أي الحميريين ـ أصحاب الكلمة العليا في اليمن ، وقد كان هذا في القرنين الأول والثاني قبل المسيح.

ولكنّ السبئيين بحسب ما جاء في تاريخ بلينوس الروماني (Pline) كانوا لا يزالون ذوي سيادة ومكانة، وكانت بقيت لهم بعض المدن، وهذا مؤيد بالكتابات المنقوشة على الصخور، وبآثار العمران، من أقنية وسدود وصهاريج، وبأقوال الهمداني صاحب كتاب «الإكليل» و«صفة جزيرة العرب».

وقد ذكر بلينوس الروماني معادنَ جزيرة العرب، واستخراج هذه الأمة للذّهب الذي زاد في ثروتها، وسهل طرق مدنيتها. وأما محصولُ الطيب فقد كان خاصاً بالسبئيّين والمعينيين.

وفي أوائل القرن الثاني قبل المسيح تقدَّمَ الأحباش إلى بلاد سبأ، وصار أيزاناس يلقَّب بملك حمير وسبأ، ويستدل من الكتابات المنقورة في الصخور أنه من نهاية القرن الثالث إلى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح لم يكن في اليمن ملوكٌ من أهل اليمن أنفسهم؛ وأنّ الحكم كان قد صار للحبشة، ولذلك منذ أواخر القرن الرابع لا تكاد تجد ذكراً لسبأ في كتابات اليونان والرومان.

وقد كان سبرنكر منذ نصف قرن لا غير يقول: إنّ مؤخري اليونان وبلينوس الروماني هم الذين نستقي منهم جميعَ المعلومات عن

السبئيين، وكذلك قبل هذا التاريخ كانت جميعُ المعلومات التي لدينا عن جنوبيِّ بلاد العرب هي ما جاء في العهد العتيق، وما يتناقله العرب من القصص التي فيها من التخيُّل أكثر مما فيها من الحقيقة. فلمّا عثر المنقبون على ما عثروا عليه من الكتابات هناك انكشف لديهم ما يجدر بأن يسمى تاريخاً، والفضلُ أكثرُه في كشف هذه الكتابات راجع إلى كلازر.

وقبل كلازر كان كارستن نيبور (Caresten Nie Buhr) ذهب إلى جزيرة العرب في بعثة علمية أنفذتها الحكومة الدانمركية سنة (١٧٦٣) وكان فيها راتكن الألماني - حدثني بذلك حفيدُه الأستاذ راتكن في هامبورغ.

فهذه البعثة التي هي أول بعثة علمية إلى جزيرة العرب تنبّهت لقضية الكتابات المنقوشة على الصخور، فجابت البلاد من لحج، إلى مخا، إلى تعز، فصنعاء، وكان غرضها معرفة الجغرافية وأحوال السكان، وأصولهم وأنسابهم، مع درس طبقات الأرض ونباتاتها، لكنّها علمت بوجود كتابات في ظفار لم تصل هي إليها، غير أن هولندياً كان قد أرسل إلى هذه البعثة نسخة عن كتابات عثر عليها.

وعلى كل حال فأول من نبّه إلى هذه الكتابات ووجوب حلها خدمةً للعلم هو نيبور الدانمركي، ثم تلاه سيتزن (Seetzen) من أولدنبورغ، فإنّه نسخَ الكتابات المنقوشة على صخور ظفار، وأرسل نسخةً عن بعض جمل سبئيّة إلى أوربة، وذلك سنة (١٧١١) ولم يفهموا مآلها في أول الأمر، ثم توصّوا إلى حلها، فاشتدت رغبتهم في معرفة غيرها.

وفي سنة (١٨٣٤) كشف الإنكليزي ولستيد (Wellsted) كتابةً في حصن غراب على ساحل حضرموت، وكتابةً في محل يقال له: نقاب الحجر، وفي سنة (١٨٣٦) كشف كروتندن (Cruttenden) خمس قطعٍ

سبئيّة في صنعاء، ثم نشر الرحالة فريدي (Wrede) في سنة (١٨٧٠) كتابات وجدها في حضرموت.

ثم جاء أرنود (Arnaud) وهو أول أوربي توصَّل إلى سد مأرب، فنسخ عما وجده في مأرب وفي صنعاء (٥٦) كتابة، أكثرُها كان جملاً قصيرة، ثم كثر الاطلاع على هذه الكتابات في بلاد اليمن. وكان الفضلُ في حلٍّ هذه الكتابات ومعرفة معانيها إلى كيسنيوس (Gesenius) وروديكر (Rodiger) سنة (١٨٤١) وإلى أوزياندر (Oseander) سنة (١٨٥٦ ـ ١٨٦٣) واطلعوا على كتاب ليعقوب بن صافر اليهودي كتبه بالعبري في سنة (١٨٦٦) فإنّه ذهبَ من الحُديدة إلى عُمان على طريق صنعاء، وجاء في كتابه بمعلوماتٍ ذاتِ قيمةٍ، وبها استدل هاليفي (Halevy) على الأماكن التي يجبُ ارتيادُها لأجل الاطلاع على الكتابات الحجرية.

ويُظنّ أن هاليفي كان أول أوربي تمكن من الإيغال إلى وادي نجران، وإلى الجوف اليماني مركز بلاد معين، وبذلك تمكّن من الاطلاع على كتابات كثيرة من أقدم عهود البشرية، ولم يطلع عليها بعدَهُ غيرُه من الأوروبيين، فنسخَ هاليفي (٦٨٦) كتاباً منها خمسون من الكتابات الطويلة، ومن هذه الخمسين ثلاثون معينيّة.

وقد كان ما اطلع عليه هاليفي هذا هو الأساس الذي اتخذه العلماء للتاريخ العربي المتعلق بجنوبيِّ جزيرة العرب.

ثم ذهب إلى هناك الكابتن ميلز (Miles) ثم هينرك ملتسان (Heinrich Von Maltzan) الذي ارتاد سواحل حضرموت سنة (١٨٧٠) ثم ميلنكن (Milligen) الذي ذهب من الحديدة إلى صنعاء سنة (١٨٧٣) ثم مانزوني (Manxoni) الذي جاب البلاد بين عدن وصنعاء والحديدة سنة (١٨٨٠) ثم شابيرا الذي جوّل في تلك البلاد سنة (١٨٧٩) ثم هاريس (Harris) الذي ساح في اليمن سنة (١٨٩٣) ولم يأت هذا

الأخير بكتابات جديدة، ولكنّه أتى بمعلومات عن تلك البلاد مهمة.

ثم جاء لانكر (Langer) النمساوي فتوصل إلى (٢٢) كتابة لم تكن معروفةً من قبل، ومات ضحيةَ بحثِه وتنقيبِهِ، كما مات سيتزن من قبله، وهوبر من بعده[١]. وإنّ القارىء الذي يهمه هذا البحث جدير بأن يطالعَ كتاب فيبر (Weber) الذي أسماه «العرب قبل الإسلام» (Arabien vor dem Islam) وكتاب هومل المسمى «رحلة هلبرخت».

وأما كلازر الألماني البوهيمي فقد برع على الجميع، لأنّه تمكن من نقل ألفي كتابة حجرية، وبدأ سياحته سنة (١٨٨٢) ذهبَ من الحُديّدة إلى صنعاء، وجاب البلادَ ثلاث مرات في الشمال، والغرب، والجنوب الشرقيّ، والشرق. ثم ذهب إلى بلاد ظفار، كما أنّه ذهب إلى مأرب، ونقل أربعمئة كتابة منها، وحقق معلومات جغرافية أطلسية كثيرة، ووقف على فوائد عظيمة من جهة اللغة، واقتنى أكثر من ستمئة مخطوط عربي، فنشرت أكاديمية باريس جانباً من هذه الكتابات. والآن يوجد حجارة عليها كتابات معينيّة في لوندرة، وأخرى في برلين. فأما المخطوطات فأكثرُها في برلين، ومنها جانب في المتحف البريطاني. وأهم هذه الكتابات هي كتابة حدقان وكتابة صرواح التي منها يؤخذ أهم الوثائق التاريخية على جنوبيّ بلاد العرب.

ولما سافر كلازر المرة الرابعة إلى اليمن حصل أيضاً على مئة كتابة لم نعرفها من قبل، وعلى (٢٥١) مخطوطاً عربياً، وجمع معلومات كثيرة.

وإنه يعود أكثر الفضل في تفسير الكتابات واستخراج معانيها إلى هاليفي المار ذكره، وبريتوريوس، وموردتمان، ومولر، وهومل وكلازر.

---

(١) [أغلب هؤلاء الرحالة من اليهود مثل هاليفي وشابيرا وغيرهما].

ثم قام بعض العلماء بسياحات أخرى في اليمن منهم دفلر (Deflers) سنة (١٨٨٧) لكن غرض سياحته كان علم النبات، ثم هِيرش ساح إلى حضرموت سنة (١٨٩٣) وهو أول أوربي دخل شبام وتريم، ولم يكن باحثاً إلا عن الأمور الطبيعية.

ثم في سنة (١٨٩٣) جاء بانت (Beant) إلى حضرموت فدخل شبام وظفار، ثم جاء كارلو لاندبرك (Carrlo Landberg) في سنة (١٨٩٦) وكتب رحلةً مهمةً، ثم أرسلت أكاديمية فيينة سنة (١٨٩٨) بعثةً أنفق عليها ملك السويد، فلم تفز بكبيرٍ طائلٍ، فتحوَّلتْ إلى جزيرة سقطرة، وقامت هناك بمباحث طبيعية ولغوية.

ثم إن بوري (Bury) جاء من قبل هذه البعثة إلى بيحان وخولان، وصوّر عدة كتابات.

وفي سنة (١٩٠٢) أرسلت أكاديمية فينيّة رجلاً اسمه هاين (Hein) إلى حضرموت رجع بمعلومات كثيرة لم يكونوا عرفوها[١].

هذا ويقال: إن جميعَ ما اطلع عليه كلازر الذي هو إمامُ هذا الفن لم ينشر بأجمعه، لأنه لم يتسع له الوقت، ومات قبل أن يتمكّن من نشرِ جميعِ معلوماته، وبعد موته نشروا في فينة جانباً منها لا كلها.

وقد ذهب كلازر إلى أنّ الكتابات المعينية ترجع إلى ما قبل المسيح بألفي سنة، ولذلك تكون أقدم من الكتابة الفينيقية التي لم تظهر إلى ما قبل المسيح إلا بألف سنة، فلذلك اعترض العلماء على كلازر في

---

(١) [ويمكن أن يضاف إلى هذه البعثات رحلة الأستاذ نزيه العظم المسماة «رحلة اليمن السعيدة» وقد نشرها في مصر في جزئين في الثلاثيات من القرن العشرين.
كما أن من أهم بعثات التنقيب عن الآثار في اليمن البعثة المصرية برئاسة عالم الآثار الكبير الدكتور أحمد فخري].

هذا الزعم، بحجة أنّ الكتابة المعينية مستقيمةٌ وأشكالها هندسية، ولا يظن أن مثل هذا الشكل يكون متوغلاً في القدم إلى تلك الدرجة.

جاء في «الأنسيكلوبيدية الإسلامية» أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقي عن اليمن، وبمعلوماتٍ مؤسسة على قواعدَ متينةٍ مثل الهمداني. فقد كان هذا الرجل يمانياً مولوداً في صنعاء، فحمله حُبُّ وطنه والإعجابُ بقومِه على تأليفِ كتاب «الإكليل» الذي ذكر فيه تاريخ اليمن ووصف العاديّات التي فيها. والجزء الثامن من «الإكليل» كان نشره مع ترجمة ألمانية الدكتور مولر (H.Muller) كما تقدّم. وقد أُخذ من الجزء العاشر معلوماتٍ كمَّل ما ود في كتاب الهمداني الآخر المسمّى «صفة جزيرة العرب» وقد كان في كتاب الهمداني قصص أشبه بالأساطير نقلها الهمداني على علاتها، إلا أنّه برغم ذلك هو الكتاب العربي الوحيد الذي يفهم منه القارىء ما اليمن، ومن أهل اليمن؟ وفيه تفاصيل عن أنساب اليمن، وطبائع أهلها، وعن مواقع مدنها، وعن قصورها وحصونها لا توجد في كتب الإفرنج برغم جميع تدقيقاتهم.

وكذلك في «إكليل» الهمداني عن سبأ وعن سيل العَرِمِ ما لا يتمُّ تاريخُ اليمن إلا به.

وقد ذهب مولر إلى أنّ الكتابات الحجرية لا تكفي لجلاء تاريخ سبأ ومعين وبلاد اليمن. فأمّا قولُ الهمداني إنّ باني سد مأرب هو لقمان بن عاد فهو قولٌ تابعَ فيه العوام، والحقيقة التي ظهرت من الكتابات أنّ باني السدّ هو إثيعمر، فأما وصف آثار السدّ بعد خرابه فإنّ أرنود وهاليفي لم يصفا تلك الآثار بغير ما صورها به الهمداني[1].

وقد قسّم مؤرخو العرب أدوار اليمن قبل الإسلام إلى ثلاثة.

الأول: من البدء إلى عهد تبع أبي كرب.

---

(١) [انظر صورة عن سد مأرب في آخر الكتاب].

والثاني: من عهد أبي كرب إلى ذي نواس.

والثالث: من عهد ذي نواس إلى الإسلام.

ولكن علماء الإفرنج قسّموا هذه الأدوار إلى ثلاثة بشكل آخر. فقالوا:

الدور الأول: هو السبئي المعيني.

والدور الثاني: هو الحميري.

والدور الثالث: هو الحبشي فالفارسي.

ولعلَّ الوقتَ يأتي بمعلوماتٍ أوضحَ مما تيسّر حتى الآن[1] فإنّ تاريخَ الأعصر الغابرة كان ظلماتٌ بعضُها فوق بعض، فانكشفَ جزء منها بالحفر والتنقيب، وحلَّ الكتاباتِ القديمة، ولا يزال تحت التراب ـ وربما فوق التراب ـ كتابات كثيرة لم يَصِلْ المنقّبون إليها.

ولما كنتُ في الحجاز منذ ست سنوات، وصعدتُ إلى جبال الطائف، وجدت كتاباتٍ كثيرةٍ على الصخور، وقيل لي: إنها مستفيضةٌ في كلِّ مكانٍ تقريباً من جزيرة العرب، وقيل لي أيضاً: إنّ بين المدينة ونجدٍ كتاباتٌ لا تحصى. وكيف ضرب الإنسان في أرض جزيرة العرب يجدُ كتاباتٍ على الصخور، فإنَّ من عادتهم أن ينقشوا أخبار الحوادث التي تقعُ عندهم على الجنادل، وقد شاهدنا من هذه الأخبار المحفورة على الصخر بالخط الكوفيِّ شيئاً كثيراً، وأوردتُ أمثلة عليه في «رحلتي الحجازية»[2].

ومرة قرأت في طريق وادي ليّة على صخرٍ خبرَ قحطٍ أصابَ الناس وأجدبوا، ثم بعثَ الله الغيثَ وسُقوا.

---

(١) [كتب هذا البحث سنة (١٩٣٥)].

(٢) [انظر ص (٢٧٧) من هذا الكتاب].

على أنّ مؤرخي الإفرنج يعترفون بأنّ في كتب مورخي الإسلام روايات عن مدنية سبأ القديمة، والأدوار التي تلتها تنطبِقُ أشدَّ الانطباق على الكتابات المنقوشة في الحجر، وعلى المنابع[1] اليونانية والرومانية، وكلها تفيد أن مدنية سبأ كانت راقيةً جداً، وأرقى من المدنيات العربية الأخرى، فالمباني القديمة الداثرة من آثار سبأ، والنقوش والتماثيل، وبقايا الأعمدة والهياكل، والقصور والأسوار والأبراج، وسدود المياه، مما شاهده سيّاحُ الإفرنج بعينهم يطابِقُ أشدّ المطابقة الأوصاف التي وصفَ بها اليونانُ والرومانُ تلك الآثار المدهشة، ولا يجدون فيها مبالغةً، كما أنّه عندما ينظر السائح إلى تلك الآثار الباهرة لا يعودُ متعجباً مما جاء عنها في كتب الإسلام، مما كان يظنه من أساطير الأولين. وحسبُك ما ذكره الهمداني عن قصر غمدان وغيره من قصور سبأ مثل قصر سالحين، وبينون، وما ذكره عن عظمة سد مأرب، وما كتبه مؤرخو اليونان والرومان عن فخامة تلك القصور، وهاتيك الأسداد والقلاع، فهو مطابق للمحسوس المشهود بالعيان.

فقد كان العرب في جنوبيِّ الجزيرة في حاجةٍ إلى خزن مياه الأمطار لأجل زراعتهم، فبلغوا من الاعتناء ببناء السدود والحياضِ أقصى درجةٍ يتصوَّرها العقلُ، وترقت الزراعةُ في اليمن لذلك العهد القديم إلى حدٍّ لا يخط ببال أحد.

وروى الهمداني أنه كان يقال لليمن: اليمن الخضراء. لكثرة أشجارها وفواكهها ومحصولاتها، ولم تكن الزراعةُ وحدَها هي التي بلغت الأمدَ الأقصى من الرقيّ؛ بل ضارعتها التجارةُ من جهة، والصناعةُ من جهةٍ أخرى.

---

(١) [المصادر].

فأما خصب أراضي اليمن الذي روى عنه هذه الروايات مؤرخو اليونان والرومان متفقين في ذلك مع مؤرخي العرب؛ فقد اعترفَ به سياح الإفرنج الذين جوّلوا في بلاد اليمن، إلا أن هؤلاء أشاروا إلى تناقص الأشجار والغابات بالقياس إلى الماضي.

وقد ذكر الهمداني اعتدال الإقليم في جهات صنعاء بخاصة، وهذا يطابِقُ ما قاله كلازر وغيره من السياح الأوروبيين، وهو أنّ أعالي اليمن معتدلة الهواء، وأنّ هذا الاعتدالَ هو السبب في كثرة محصولاتها.

ولقد شاهدتُ بنفسي في سياحتي إلى اليمن السنة الماضية(١) اعتدالَ بقعةِ صنعاءَ منذ صعدنا عقبة آنس، حتى انتهينا إلى قريةٍ يُقال لها القُبّة، ثم إلى قرية أخرى يقال لها المعبر، ومن هناك سرنا عدة ساعات بالسيارة الكهربائية في بسيطٍ من الأرضِ يعلو ألفين إلى ألفين وخمسمئة متر عن سطح البحر، إلى أن بلغنا صنعاء، فمررنا ببقعةٍ من أحسنِ بقاعِ الأرض، وأكثرها قابلية زراعية، وأجودها هواءً وماءً، ولما وصلنا إلى صنعاء سألنا: هل يوجد كثير من نمط هذه البقعة في اليمن؟ فأجابونا بأننا لم نشاهد إلا جزءاً يسيراً من البسائط المريعة المحيطة بصنعاء من الجهات الأربع. وقد كاشفتُ بما في نفسي من هذا الأمر الأمير الخطيرَ السيد عبد الله بن الوزير أمير الحديّدة ـ وهو من العقل والفضل بالمقام الذي ينذُرُ مثله ـ فقال لي: إنّ اليمن في الحقيقة هي عبارة عن جبالها.

ولم تكن الزراعةُ وحدَها سببَ ثروة اليمن المدهشة في ذلك العصر، كما تقدم الكلام عليه؛ فقد أفاض المؤرخون الأولون من اليونان والرومان مثل ديودور وسترابون، وأنختريد، في ذكر تجارة

---

(١) [وذلك عام (١٩٣٤) حيث اشترك الأمير في وفد الصلح الذي أرسله المؤتمر الإسلامي للتوفيق بين الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى حميد الدين].

سبأ، واستخراجها للذهب والحجارة الكريمة التي كانت تبيعها من البطالسة بمصر[1]، وإلى الفينيقيين بالشام، هذا مع تجارة العنبر وعودِ الطيب، وأيّدت «التوراة» هذه الروايات كلها.

جاء في «الأنسيكلوبيدية الإسلامية» أنه لا مبالغةَ فيما نقلوه مِنْ أنَّ أبوابَ منازلِ سبأ وجدرانها وسقوفها وأعمدتها كان منها الكثيرُ مموَّهاً بالذهب والفضة، مرصعاً بالحجارة الكريمة، وأن آنيتهم كانت مصوغةً من أنفس المعادن. وهذا ما ذكره الهمداني والمسعودي وغيرهما من مؤرخي العرب، وما أيدتْهُ الكتاباتُ الصخرية نفسُها فيما ترويه عن التقادم[2] العظيمة من الذهب والفضة ونفائس الأحجار. وقد وجد كثير من المسكوكات السبئية ومن الحلي تؤيد أيضاً روايات الرواة من كل قبيل.

وقد عني بعض علماء الإفرنج بالتنقيب عن هذه الحياة الاقتصادية التي كانت في اليمن السعيدة من جميع نواحيها، وكان السابِقُ في هذه الرحلة رودوكَنَاكِيس (Rhodocanakis) الذي ألف كتاباً استخرجَ فيه من الكتابات الحجريّة مما أمكنه أن يستخرجه من المسائل الاقتصادية التي كان يعوِّلُ عليها أهلُ اليمن، والمسائل الحقوقية المتعلقة بها.

وثبت من هذه التدقيقات أنّه يوجدُ عندَ العرب الأولين قانونٌ صارِمٌ يقتضي استثمارَ الأرض بدون إهمال شيء منها، وأنّه كان يوجد إدارة خاصة لأجل تقسيم المياه وتوزيع الأعمال الزراعية، وهذه القوانين المتعلقة باستثمار الأرضين، واستيفاء أسباب القيام عليها؛ كانت متشابهةً في جميع بلاد العرب الجنوبية. وهذا البحث قد حمل كرومان (Grohmann) على تأليفِ كتابٍ خاص بهذا الموضوع وصفَ فيه طبقات الأرض والمناخ، وكيفية توزيع المياه، واستخراج المعادن، وتربية

---

(١) [انظر عن معادن الذهب والفضة (٣٠٥) من هذا الكتاب].

(٢) [الهدايا].

المواشي والصيد، وغير ذلك مما اعتمد فيه على الكتابات الحجرية من جهة، وعلى شهادات المؤرخين والسياح من جهة أخرى. وقد استقى في هذا التأليف من بعض منابع[1] مجهولة حتى الآن نظير الآثار التي جمعها كلازر، ولم يتيسر له نشرها كلها. وبالجملة فرأيُ محققي الإفرنج عن بلاد العرب يتلخَّصُ فيما يلي:

الأول: **أن المدينة العربية ـ** لا سيما في جنوبيِّ جزيرة العرب ـ هي مِنْ **أقدم مدنيات العالم وأرقاها**، وهم على خلاف فيما إذا كان الساميّون هم الذين نزحوا من جزيرة العرب إلى بلاد بابل؛ أو كانوا نزحوا من بابل إلى الجزيرة، وكل فئة من المؤرخين تفترضُ افتراضاتٍ لا يمكن معها الجزم بشيء.

الثاني: **أن أهم أمـة في الجزيرة العربية فـي الثروة والعظمة والآثر في الأرض كانت أمـة سبأ**، وكان يعاصرها ويضارعها المعينيون وقحطان وحضرموت، وأن هاتين الأمتين سبأ ومعين بقيتا سائدتين إلى الزمن الذي ظهرت فيه الدولة الحميرية، وأنّ هذه الدولة تغلّبت على اليمن، وبقيت فيه إلى أن جاء الأحبوش فاستولى على اليمن، وأزال ملك الحميريين، وبقيت اليمنُ خاضعةً للحبشة حتى جاء الفرس، فأزالوهم عنها، وبقيت اليمنُ تابعةً للأكاسرة حتى ظهر الإسلام.

الثالث: أن تاريخ اليمن وبلاد العرب أجمع لم يكن له منابع[1] سوى العهد القديم، وكتابات هيرودوت، وسترابون، وديودور، وأنختريد. وغيرهم من يونانيين ورومانيين، مع بعض تواريخ للعرب أنفسهم بعد الإسلام، مما اختلط فيه التاريخ بالخرافة. فيجبُ على الناظر في التواريخ العربية أن يجِّردَ الأقاصيص من الأخبار التاريخية، وأنّ أحسنَ ما كُتِبَ عن جزيرة العرب بأقلام العربِ هو كتب الهمداني

---

(١) [مصادر].

أي «الأكليل» و«صفة جزيرة العرب».

الرابع: أنّ معرفة تاريخَ العرب الأولين لم يبدأ في الحقيقة إلا منذ بدأ السياح الأوربيين بالاطلاع على الكتابات المنقوشة على الأحجار، وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكّنوا من حلها وفهم معانيها، فمنها ما وافق كتابات المؤرخين، ومنها ما اختلف عنها، إلا أنَّ الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ، ولم يبق شك في صحة المجموع، وإن يكن واقع اختلافٌ في التفاصيل.

والقضية الأصلية وهي ارتقاء مدنية العرب إلى تلك الدرجة العليا في تلك الأعصر المتوغلة في القدم؛ قد ثبتت بالكتابات الحجرية التي أيدت أقوالَ المؤرخين، كما أنّ أقوالَ المؤرخين قد أيدتها.

وهذه مسألة يجب أن تكون عبرةً ودرساً للذين يحملون جميعَ ما يتناقله الناس من الأخبار القديمة مَحْمَلَ الأساطير والأقاصيص الوهمية، وهو ظنٌّ باطِلٌ، ورأيٌ فائل. فإنّه مهماكان التواتر قد داخلته أقوال عامية، وآراء ساذجة؛ فإنّه يرجع إلى نصاب صِدقٍ في الأصل لا شبهةَ فيه في مجموعه، وهذه قضيةُ تاريخ جزيرة العرب شاهدةٌ على ذلك، بعد أنْ جاءتُ فيها المكتوبات الحجرية معززةً للقراطيس والأرواق المخلفة عن اليونان والرومان والعرب، تعزيزاً لم يكن لينتظره أحد.

الخامس: أنه وجدت أقوام دخلت إلى جزيرة العرب، كما وجدت أقوام خرجت منها. وأنّه بسبب اسيتلاءِ الحبشة على اليمن، ثم استيلاء الفرس، حصل اختلاط في الدماء في جنوبيِّ الجزيرة، كما حصل اختلاط في شماليها بسبب تقدم الآراميين إلى مدائن صالح وتيماء، وأنَّ النبطيين كانوا أيضاً تقدَّموا من بلاد الشراة إلى شمالي الحجاز.

السادس: أنه يوجد عرب بائدة، وعرب عاربة، وعربٌ مستعربة كما جاء في تواريخ الإسلام. وإنّ مِنَ العرب البائدة عاداً، وثمودَ، وطسماً،

وجديساً، وكلُّهم نزحوامن اليمن إلى الشمال. وبعضهم يذكر منهم العمالقة، وقد ورد ذكرهم في «التوراة» وقد وُجِدَت كتاباتٌ آرامية في شماليِّ الحجاز، كمدائن صالح منتشرةٌ على الصخور، ويذهبُ بعضُهم إلى أنّ هذه الكتابات من بقايا النبط الذين اختلطوا بالعرب، ولذلك يجدُ فيها الإنسان ألفاظاً عربية مع الألفاظ النبطية(١).

وقد روى هورات (Huart) في «تاريخ العرب» أن الكتبات التي وجدت في تيماء هي أقدم جدّاً من الكتابات التي وُجِدَتْ في مدائن صالح، والمظنون أنها ترجع إلى ستمئة سنة قبل المسيح، وهي خطوطٌ بارزة كما هي خطوط العرب المحدثين بعكس سائر الخطوط السامية التي حروفها مجوفة(٢).

السابع: على ظن محققي الإفرنج أنّ الكنعانيين في الأمم السامية، نزحوا من الجنوب، واستوطنوا فلسطين، وأنّ الفينيقيين جاءوا من شواطىء خليج فارس الغربية، وأقامواعلى شواطىء الشام،واستدلّوا على أنّ أصل الفينيقيين هو من شواطىء خليج فارس بوجود النواويس ـ أي القبور المنحوتة في الصخور ـ في وطن الفينيقيين الأصلي كما في سواحل سورية، وكذلك الرعاة في مصر كانوا عرباً، فتحوا قسماً من وادي النيل، وخرج منهم ملوك. وقد ثبتَ أنَّ الآشوريين في حروبهم مع المصريين قد تكلموا عن العرب، ووجدت لذلك آثار في كتاباتهم الخزفية(٣).

وقد جاءفي هذه الآثار وجود دولتين في شماليِّ جزيرةِ العرب، يقال لإحداهما: موصري (Mousri) وللأخرى: ملوحة (Melouhha) ولم

---

(١) [انظر «تاريخ الأنباط» للدكتور إحسان عباس طبع دار الشروق في عمّان].

(٢) [انظر صور مدائن صالح في آخر الكتاب].

(٣) [انظر كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» للدكتور كمال صليبي].

يعلم شيء عن ملوحة هذه، ولكن ظهر أنّ دولة موصري هي المستعمرة المعينية التي كانتْ في شماليِّ الحجاز، فإنّ تغلاط بيلسَّر الثالث ملك الآشوريين الذي عاش بين سنة (٧٤٥) و(٧٢٧) قبل المسيح كان قد غزا العرب في شماليِّ الحجاز.

فهذه لمحةٌ دالةٌ مما يتعلق بالعرب وتاريخ القديم؛ يقدِرُ أن ينشدَ منها القارىءُ مظانَّ البحث.

ولكنَّ الذي لم أجده حتى الآن في كتب الإفرنج هو أصلُ اشتقاقِ لفظة عرب ومن أين جاءت؟

فعلماء العرب قالوا: إنّ هذه اللفظة جاءت من قولهم: أعرب عن الشيء، أي أبان عنه، سُمِّي العرب بذلك لفصاحتهم، وحسن إعرابهم عن مقاصدهم. وقيل: إنَّهم انتسبوا إلى ناحيةٍ بقرب المدينة المنورة اسمها عربة، وذلك أنَّ أولاد إسماعيل نشأوا بهذه الناحية، فسمُّوا عرباً. ثم غلب الاسم على الجميع.

ورُدَّ على هذا القول بأنَ الغالبَ هو أنّ أسماء الأرضين والبلاد تنقل من أسماءِ ساكنيها، أو من صفةٍ ثابتةٍ لها، ولم يُعْهَدْ أنَّ الناسَ أخذت أسماءها من الأرض التي نزلتْ فيها إلا على وجه النسبة. والأكثرون على أن اشتقاق لفظة العرب هو من مادة الإعراب أي الإبانة عن الضمير، وذلك لما اتصفت به هذه الأمةُ من حسن البيان، وبلاغة التعبير، ومن كون لغتهم هي أشرف للغات، والله أعلم.

* * *

الأنساب

[تعريف علم النسب]

إن علم الأنساب هو العلم الذي يبحث في تناسل القبائل والبطون من الشعوب، وتسلسل الأبناء من الآباء والجدود، وتفرُّع الغصون من الأصول في الشجرة البشرية، بحيث يعرفُ الخلفُ عن أيِّ سلفٍ انحدر، والفرعُ عن أيِّ أصل صدر.

[فوائده]:

وفي هذا العلم من الفوائد النظرية والعملية، بل من الضرورات الشرعيةِ والاجتماعيةِ والأدبيةِ والمادية ـ ما لا يُحصىٰ.

فليس علم الأنساب بطراز[1] مجالس يتعلّمه الناس لمجردِ الاستطراف، أو للدلالة على سَعَة العلم، وإنَّما هو علم نظري علمي معاً، عملي لأنه ضروري لأجل إثبات المواريث، التي يتوقَّفُ توفيرها لأهلها على ثبوت درجة قرابة الوارث من المورِّث، وهذا لا يكون إلا بمعرفة النسب.

وكذلك هو ضروري لأجل الدول الراقية المهذبة، التي تريدُ أن تعرفَ أصول الشعوب التي اشتملتْ عليها ممالكُها، والخصائص التي عرف بها كل من هذه الشعوب، بما يكون أعونَ لها على تهذيبها وحسنِ

(١) [زينة].

إدارتها، فكلما أنَّ العالم المتمدن يُعنى بتدريس جغرافية البلدان من جهة أسماء البلاد، ومواقعها، وحاصلاتها، وعدد سكانها، ومقدار جبايتها، فإنَّه يجبُ أن يُعنى بمعرفة أنساب أولئك السكان، وطبائعهم، وعاداتهم، وميزة كل جماعةٍ منهم، وغير ذلك من المعارف التي لا يجوزُ أن تخلو منها هيئة بشرية راقية.

ولما كان من الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكماء، كما هي مقررة عند الأدباء والشعراء، أنَّ الأخلاقَ والميولَ والنزعاتِ المختلفة تُتَوارثُ كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية، والدماء الجارية في العروق، فقد كان لابدَّ من معرفة الأنساب، حتى يسعى كلُّ فريقٍ في إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب، ضمن دائرة الدموية، بحسب استعدادها الفطري، لأنَّ الاجتهاد في تنمية القرائح الطبيعية والمواهب اللدنية لا يمكن أن يثمرَ ثمرَه في قبيلٍ إذا جاء معاكساً لاستعداده الفطري، وهذه الاستعدادات أحسنُ دليل عليها هو علم الأنساب.

[عناية الأمم بالأنساب]

وليس هذا العلم منحصراً في العرب ـ كما يتوهم بعضُهم، ويظنُّون أنَّ سائرَ الأمم قليلةُ الاحتفال به.

فإنَّ الأمة الصينية الكبرى هي أشد الأمم قياماً على حفظ الأنساب، حتى إنَّهم ليكتبونَ أسماء الآباء والجدود في هياكلهم، فيعرفُ الإنسان أصوله إلى ألف سنة فأكثر، وقد تناهوا في الاعتناء بهذا الأمر، إلى أنْ قدَّسوا آباءهم وجدودهم، وعبدوهم كما يعبدون آلهتهم.

وكذلك الإفرنج كانت لهم عناية تامة بالأنساب في القرون الوسطى والأخيرة، وكانت في دولهم دوائر خاصة لأجل تقييدها وضبطها،

ووصل آخرها بأولها، وقد بقي ذلك معمولاً به إلى أنْ سادَ الحكم الديمقراطي في أوربة، فضعف عندهم الاعتناء بهذا الأمر بإلغاء الامتيازات التي كان يتمتع بها النبلاء، وكانوا يدقِّقون في الأنساب من أجلها، وبقي الاهتمام بالأنساب من الجهة العلمية لا العملية.

[عناية العرب بالأنساب]

فأما العرب فلا شك في أنَّهم في مقدمة الأمم التي تحفظُ أنسابها، وتتجنَّبُ التخليط بينها، فلا تجعلُ الأصيلَ هجيناً، ولا الهجينَ أصيلاً، ولا تحتقِرُ قضية الكفاءةِ في الزواج بينها، بل تعضُّ عليها بالنواجذِ. ولا يقيمُ العربيُّ وزناً لشيءٍ بقدر ما يقيمُ للنسبِ، لا سيما في البوادي التي اقتضت طبيعة استقلال بعضها عن بعض، وتنافسها الدائم فيما بينها؛ أنَّ كل قبيلة فيها تعرف نفسها، وتحصي أفرادَها، وتحفظ بطونها وأفخاذها، حتى تكون يداً واحدة في وجه من يعاديها من سائر القبائل.

فاقتضى ذلك أن يكون العربُ علماءَ بأنسابهم، يحفظون سلاسلهم العائلية بصورةٍ مدهشةٍ، لا تجدها عند غيرهم، فتجد البدويَّ أحياناً يجهلُ أقربَ الأمور إليه، ولكنَّه إذا سألتَه عن أبيه وجده ومنتَسَبه فإنَّه يسردُ لك عشرين اسماً ولا يتتعتع.

وأما في الحواضر، فليس الأمر بهذه الدرجة من الضبط، وذلك لعدم الاحتياج الذي عليه البوادي من هذه الجهة، فإنَّ الحواضرَ مشغولةٌ بصناعاتها ومهنها ومتاجرها، ومكفولة بالسلطان الذي يغنيها عن تماسك الفصيلة أو القبيلة، وعن اعتناء كل فريق بجمع أفراده ليقف في وجه عدوه.

وكلَّما استبحرَ العمران في مصرٍ من الأمصار قلَّ الاعتناء بالأنساب، وصار الناس يُنسبون إلى حرفهم ومهنهم، أو إلى البلاد التي جاءوا

منها، وكلَّما قرب المجتمع من حال البداوة اشتدت العناية بالأنساب، واستفحلت العصبيات، التي هي من طبيعة الاعتناء بالنسب.

وقولنا: إنَّ البوادي أشد من الحواضر عناية بهذا الأمر لا يعني أنَّ الحواضر العربية لا تُقيمُ للأنساب وزناً، فالعربُ غالبٌ عليهم الاحتفال بالنسب حاضرهم وباديهم، وأبناء البيوتات منهم، ولو كانوا في أشدِّ الحواضر استبحارَ عمارةٍ يحفظونَ أنسابهم، ويقيِّدونها في السجلات، وكثيراً ما يصدقونها لدى القضاة بشهادات العلماء الأعلام والعدول، ويسجِّلونها في المحاكم الشرعية.

وإذا كانوا من آل البيت النبوي ـ وهو أشرف الأنساب بالنظر إلى اتصالهم بفاطمة الزهراء، التي هي بضعة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو أشرف الخلق ـ حرَّروا أنسابهم لدى نقباء الأشراف، وكتبوا به الكتب المؤلفة، وهذا أمر بديهي لا نزاع فيه، لأنَّ هذا الشرف هو مما يُتنافَس به، ومما يستجلِبُ لصاحبه مزايا معنوية، وأحياناً منافع مادية، فلا يريدُ منتسب إلى هذا البيت الشريف أن يفقدَ الدليل على نسبته هذه.

ولئن كان البيت النبوي هو أشرفُ الأنساب بالسبب الذي تقدَّمَ الكلام عليه، فليس سائرُ بيوتاتِ العرب من ذراري الملوك والأمراء، والأئمة والعلماء والأولياء أقلَ حرصاً على حفظ أنسابهم من آل البيت الفاطمي.

وجميعُ قريش مثلاً سواء كانوا من الطالبيين أو من غيرهم يفتخرون بنسبهم القرشيّ، وكذلك ذراريّ الأنصار من الأوس والخزرج يفتخرون بأنسابهم القحطانية، وكذلك سلائل الملوك من لخم وغسان، وأمثالهم من العرب القحطانية ليسوا أقلَ حرصاً على حفظ أنسابهم من تلك البطون العدنانية الشريفة.

والعرب بالإجمال سائرون في النسب على مقتضى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، فكل قبيلةٍ راضية بنسبها،

تحفظُ مآثر قومِها، وتعتز بالاعتزاء إلى سلفها، مع أنَّ القبيلة الثانية التي تنافسها تحفظُ لها عورات ومعرات تعيِّرها بها عند المفاخرة والمنافرة.

ولشدة اعتنائهم بالأنساب تجد انتصار بعضهم لبعض على نسبة درجة القرابة، فكلَّما كانتْ القبيلةُ أقربَ إلى القبيلةِ كانت أولى بنصرها، لا يتخلَّفُ ذلك فيهم إلا لعوامل غير معتادة. ومهما اشتدتْ العداوةُ بين أبناءِ فخذٍ واحدٍ فإنَّهم يجتمعون بطناً واحداً على بطنٍ آخر، يناوئهم من قبيلتهم، وكذلك تجتمع البطونُ المنتسبةُ إلى عمارةٍ لمقاومةِ عمارةٍ أخرىٰ، وهلمَّ جرا.

ولابدَّ أن ينزعَ عرق النسب في العربي، فيميلُ به إلى الأقرب مهما كان هذا الأقربُ بعيداً في الحقيقة؛ فالقحطانيُّ ينتسبُ إلى شعبٍ طويلٍ عريضٍ يحصىٰ بالملايين، والعدنانيُّ ينتسبُ إلى شعبٍ لا يقل عنه في العدد والمدد، ولكنْ إذا اختصما في موقف من المواقف وجدتَ عِرْقَ العصبية نزع في كل عربي، فمال القحطانيُّ إلى قبائل اليمن، ومال العدنانيُّ إلى قبائل الحجاز ونجد، أي مضر وربيعة. وقد يؤاخي الفريق منهم مَنْ كان يعاديه بغضاً بفريق آخر أشد عداوة لأنَّه أبعد نسباً، وعليه قول شاعرهم:

وذوي ضِبابٍ مضمرينَ عداوةً ... قَرْحَىٰ القلوب مُعَاوِدي الأفْنادِ
ناسيتهم بغضاءَهم وتركتُهم ... وهمو إذا ذُكِرَ الصَّديقُ أعادِي
كيما أُعِدّهمو لأبعدَ مِنْهُمُ ... ولقد يُجاءُ إلى ذَوِي الأحْقادِ

ومن أجل هذا التدقيق في قرب النسب وبُعده، وترتيب الصداقة والعداوة على درجات هذا القرب وهذا البعد؛ انقسمَ العرب إلى ذنيك الشعبين الكبيرين عدنان، وقحطان.

[القحطانية]

وغلب على قحطان اسم اليمن، لأنَّ أكثرَ منازلِ العرب القحطانية

هي في اليمن، ومن وُجد منهم خارجاً عن اليمن **كالأوس والخزرج** في المدينة، وكطيء وغيرها في نجد مثلاً؛ فإنما خرجوا بعدَ أن انهدم سدُّ مأرب، وتفرَّقت القبائل في البلدان.

وأشهر **القحطانيين حِمْيَر**، ومنهم **قضاعة**، ومن قضاعة **بَلي**، ومنهم الآن في شمالي الحجاز، **وجهينة**، ومنهم على سواحل الحجاز يبلغون ١٠٠ ألف نسمة. **وكلب** وهم في بادية الشام، ويقال لهم اليوم الشرارات. **وعُذرة** المشهورون بالعِشْق، ولهم بقايا بمصر، وبقايا بالشام. **وبَهراء**، ومنهم ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر. **ونَهْد**، **وجَرْم**، **وتنوخ**، وهؤلاء كانوا في شماليِّ بلاد الشام.

ومن **القحطانية**؛ **كهلان**، ومنهم **الأزد**، ومن الأزد **غسَّان**؛ وكانوا بالشام، وكان منهم نصارى، ولذلك تجد كثيرين من نصارىٰ سورية ينتسبون إلى غسَّان، أو يحبون أن ينتسبوا إلى غسَّان.

ومنهم **الأوس والخزرج** في المدينة المنوَّرة، وقد تفرقوا في البلاد، ولا يكادُ يوجَدُ منهم أحَدٌ في المدينة في هذه الأيام.

ومن **كهلان**: **طيء**، وهم من أكبر القبائل، ويقال لهم اليوم شُمَّر، وبطون طيء كثيرة: منها ثُعَل، وجَدِيلة، ونَبْهان، وبولان، وهِناء، وسدوس، وسلامان، وبحتر، الذين منهم البحتريُّ الشاعر. **وزُبَيْد** بضم أوله ففتح فسكون، وكثير من قبائل الشام هي من زبيد، وسُنبس. وجَرْم ومنهم في بلاد غزة ومصر. **وثعلبة**، ومنهم كثير في الديار المصرية. **وغُزَيَّة**، ومنهم بطون في العراق وفي الشام والحجاز. **وبنولام**، وهم بالعراق، **ومنهم** الظفير.

ومن **كهلان**: **مُذْحِج**، ومن هؤلاء **خولان**، وجنب، **وسعد العشيرة**، ومن سعد العشيرة بنو **جُعْفِي** بضم فسكون، والنسبة إليهم جعفي على مثل لفظه، وكان المتنبي الشاعرُ جُعْفيّاً.

ومن **سعد العشيرة**: قبيلة يقال لها أيضاً زُبيد بضم ففتح فسكون، وهم زبيد الحجاز الذين ينتسبُ إليهم عمرو بن معدي كَرِب.

ومن كهلان: **النخع**، ومنهم الأشتر النخعي عامل الإمام علي رضي الله عنه على مصر.

ومنهم **عنس**، الذين منهم عمار بن ياسر رضي الله عنه، ومنهم الأسود العنسي الكذاب.

ومنهم **بنو الحارث** الذين يسكنون في الجنوب الشرقيِّ من الطائف.

ومن **كهلان**: **همدان** ولا يزال منهم في اليمن جموعٌ غفيرة، فضلاً عمن تفرَّقوا في البلاد، ومنهم الهمداني صاحب كتاب «الإكليل» وكتاب «صفة جزيرة العرب».

ومن كهلان: **كِندة**، وكان لهم ملك ومنهم امرؤ القيس الكندي الشاعر، وأبو إسحق يعقوب الكندي فيلسوف العرب. وهم متفرِّقون في البلاد، فمنهم أناس في اليمن، وآخرون في الشام.

ومنهم قوم يقال لهم **السكون**، وآخرون يقال لهم **السَّكاسك**، جاء في «صبح الأعشىٰ»: أنَّ النسبة إلى السَّكاسك سكسكي، ردّاً له إلى أصله، وهذا صحيح.

وقبلي صيدا في سواحل سورية مكان يقال له السكسكية.

ومن **كهلان**: **مراد** الذين منهم قاتِلُ سيدنا علي بن أبي طالب.

وأنمار، ومن أنمار تتفرَّعُ بطونٌ كثيرة مثل **بَجِيلة**، **وخَثْعَم**، وهم متفرقون في البلاد.

ومن **كهلان** **جذام**، وقيل إنَّهم من العدنانية، ولكنَّهم انتقلوا إلى اليمن، وكثيرٌ من أعقاب جذام في الديار المصرية في الصعيد، وفي الشرقية، والدقهلية، ومنهم بنو **صخر** في الشام.

ومن **كهلان: لخم**، وكان منهم ملوك الحيرة من بلاد العراق، وكان منهم بنو عَبّاد ملوك إشبيلية. ومن لخم أمراء لبنان الأرسلانيّون، والتنوخيون، وهؤلاء على الأصح ليسوا من التنوخيين سكان شماليّ سورية، بل هم ينتسبون إلى جَدٍّ يقال له تنوخ من سلالة اللخميين ملوك الحيرة. ومن لخم بطونٌ كثيرة في الديار المصرية، ومن لخم **بنو الدار** رهط تميم الداريّ الصحابي، وذريتُه في خليل الرحمن بفلسطين.

ومن **كهلان: الأشعريون**، رهط أبي موسى الأشعري الصَّحابي. **وعاملة**، ومن عاملة أهالي جبل عاملةَ بالشام بين صور وصيدا، وهم شيعةُ الشام. إلا أنَّ رؤساءهم بني علي الصغير ينتمونَ إلى وائل كما علمتُ منهم.

[العدنانية]

وأما العدنانية فهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وتواريخ العرب تتفق على أنَّ هؤلاء يقال لهم العرب المستعربة، وأنَّ القحطانية هم العرب العاربة، ولكن في مسألة القحطانية يوجد خلاف؛ لأنَّ بعضهم زعم أنَّ العرب العاربة ليسوا قحطان، ولكن الذين قبلهم ممن يقال لهم العرب البائدة؛ عاد وثمود وعمليق وطسم الخ..

والرأي الذي عليه الجمهور أنَّ العرب العاربة هم القحطانية، وأنَّ العرب المستعربة هم العدنانية، وهؤلاء العدنانية هم سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام تعلَّموا العربية من جُرْهُم الذين هم القحطانية، جاؤوا إلى مكة وأقاموا بها، واختلطوا بذرية إسماعيل.

والعدنانية: هم نِزار بن معدّ بن عدنان. ومنهم إياد الذين ينسب إليهم قس بن ساعدة، ومنهم بنو أنمار بن نزار.

[ربيعة]

ومنهم ربيعة، ويعرف بربيعة الفَرَس.

ومن ربيعة: **أسد**، **وضُبيعة**، ديارُهم بالجزيرة الفراتية تُعْرَفُ بديار ربيعة، وفي نجدٍ كثيرٌ من ربيعة الفَرَس.

وأسد أكثرهم أفخاذاً، ومن أسد بنو **عنَزَة**، وكانت منازلهم خيبر من ضواحي المدينة. ثم رحل قسم كبير منهم إلى بادية الشام، وهم أكثر عرب هذه البادية. فمنهم **الرولة**، **ووُلْد علي**، **والمُعْجل**، **والحسنة**، ويقال لهؤلاء **ضَنَا مسلم**.

ثم **السبعة**، والفدعان، ويقال لهم **ضنا عبيد**. **وآل سعود** الذين منهم ملك الحجاز ونجد عبد العزيز بن سعود في هذا العصر ليسوا من عَنَزة، ولكنَّهم مجتمعون مع عَنَزة في ربيعة.

ومن ربيعة: **جديلة**، وكانت ديارهم بتهامة، ثم خرجوا إلى البحرين، ومنهم فريق في الجزيرة الفراتية.

ومن **جديلة بنو وائل**، ولوائل **بكر وتَغْلِب**، ومن تغلب بن وائل كليب الذي قتله جسَّاس، واشتعلت لأجله الحرب المعروفة بالبسوس.

وكان الحَمْدانيون ملوك حلب قديماً من تغلب، وكان من تغلب، نصارىٰ كما كان من غسَّان، ولما ظهر الإسلام أسلم منهم أناس، وبقي الآخرون متمسكين بنصرانيتهم، أبوا أن يدفعوا الجزية كسائر النصارى بحجة أنَّهم عرب، وأصرَّ سيدنا عمر على أخذها منهم، وكان سيدنا علي فكَّر في منعهم من تنصير أولادهم، وذلك حتى ينشأ أحداثُهم في الإسلام.

ولهم حكم خاص في الفقه الإسلامي، واختلفتْ في شأنهم الأقوال، وجاء في «فتوح البلدان» للبلاذري عن ابن عباس قال: لا تُؤكل ذبائحُ نصارى بني تغلب، ولا تُنْكَحُ نساؤهم، ليسوا منا ولا من

أهل الكتاب، وتظاهرت الروايات على أنَّه لما أراد عمر أخذ الجزية منهم لحقوا بأرض الروم، فقال زرعة بن النعمان لعمر: أنشدك الله في بني تغلب، فإنَّهم قومٌ من العرب يأنفون من الجزية، وهم قوم شديدةٌ نكايتهم.

فأرسل عمر في طلبهم فردَّهم، وأضعف عليهم الصدقة.

وكتب عمير بن سعد إلى عمر يسأله رأيه فيهم، لأنَّهم هموا باللحاق بمملكة الروم، فكتب إليه عمر رضي الله عنه يأمره أن يضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض، وإن أبوا ذلك حاربهم حتىٰ يبيدَهم أو يسلموا، فقبلوا أن يُؤخَذَ منهم ضِعْفُ الصدقة، وقالوا: أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج، فإنا نرضىٰ ونحفظ ديننا.

وقال الزهري: ليس في مواشي أهل الكتاب صدقة إلاَّ نصارى العرب الذين عامة أموالهم المواشي، فإنَّ عليهم ضِعْفُ ما على المسلمين.

وكان عثمان رضي الله عنه أمر أنْ لا يُقْبَل من بني تغلب في الجزية إلا الذهب والفضة، فجاءه الثبت أنَّ عمر أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك.

واتفقوا على أنَّ سبيل ما يؤخذ من أموال بني تغلب سبيل مال الخراج، لأنه بدل من الجزية.

وبالاختصار أبت بهم عروبتُهم أن يؤدوا [الجزية] كنصارى الأعاجم، وأبى الخلفاء الراشدون أن يعاملوهم معاملة المسلمين، فوجدوا لذلك طريقاً وسطاً.

ومن بني تغلب: الأخطل التغلبي الشاعر النصراني المشهور، وهم كثيرون في نجد.

وأما بكر بن وائل فمنهم **شيبان**، ومنهم **بنُو حَنيفة**، رهط مسيلمة الكذَّاب، وأكثرُ سكَّان الرياض عاصمة نجد اليوم من بني حنيفة.

ومن بكر بنو **عجل بن لُجيم**.

[مضر]

وأما القسم الثاني من العدنانية فهم **سلالة مضر بن نزار**، ويقال: مضر الحمراء، ولذلك تجتمع عدنان كلها في ربيعة ومضر.

ولمضر فرعٌ جمعَ عدة قبائل وهو **قيس**؛ ويقال له قيس عيلان بن مضر، وقيل: هو قيس بن مضر لصلبه، وعيلان مضافٌ إليه، قيل فرسه وقيل كلبه. ولكثرة بطونِ قيس غلب على سائر العدنانية، حتى صار في مقابل اليمن كلها، فصاروا يقولون قيسٌ ويمنٌ، وفي جميع الديار الشامية انقسم العرب إلى قيسٍ ويمنٍ، وكانت حروب القيسية واليمنية في لبنان متصلةً، وانتهت بواقعة عين دارة منذ (٢٢٥) سنة.

وأما في فلسطين فلا تزالُ هذه القسمة موجودة.

وأما في الأندلس فكانوا يقولون المضرية واليمنية.

ومن أشهر قبائلِ **قيس هوازن**، وهم بنو **هوازن بن منصور** بن عِكْرمة بن خَصْفة بن قَيْس عَيلان.

ويقال لهوازن اليوم **عتيبة**، وهم من أكبر قبائل العرب، منهم أناسٌ في الحجاز، وآخرون في نجد، وينقسمون اليوم إلى فرعين؛ **الورقة**، **والبرقة**.

وبعضهم يرىٰ أنَّ أحد الفريقين وهو البرقة من **عامر بن صعصعة**.

ومن **هوازن بنو سعد** الذين كان النبي ﷺ رضيعاً فيهم، ويقال لهم: بنو سعد بن بكر.

ذكر صاحب «صبح الأعشى» أنَّ منهم فرقة بنواحي باجة من المغرب.

ومن **هوازن بنو عامر بن صعصعة**، ومنهم بنو **كلاب**، وكان لهم في

الإسلام دولة باليمامة، ثم انتقلوا إلى الشام، وملكوا حلب مدة من الزمن.

ومن بني عامر بن صعصعة **بنو هلال**، وهم أشهر قبائل العرب. وكانوا في الحجاز ونجد. وقد انتقلوا إلى المغرب فملأوه.

ثم إنَّ قبيلة حرب الكبيرة في الحجاز من بني هلال، وهم بطون ثلاثة: بنو مسروح، وبنو سالم، وبنو عبيد الله. هكذا في «صبح الأعشىٰ».

وأما في كتاب «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف»[1] فقد جاء في الصفحة ٣٦٩ ذكر قبائل الحجاز النازلة بين الحرمين، وقد كنتُ نقلتُها عن سِجلّات الحكومة في المدينة المنوّرة فهنالك أقول: أهم هذه القبائل حرب؛ وهم بنو حرب بن هلال بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية. وحرب خلَّفَ أربعةَ أولاد: سالم، ومسروح، وعبيد الله، وعمرو.

فمسروح أكثرهم ولداً، وقد دخلت بطون بني عبيد الله وبنو عمرو في مسروح.

أما «صبح الأعشى» فيقول نقلاً عن الحَمْداني: إنهم ثلاثة بطون؛ بنو مسروح، وبنو سالم، وبنو عبيد الله.

وقال: إن من حرب زُبيد الحجاز، وذكر أن منهم بني عمرو.

ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنوَّرة، وعددهم يزيدُ على ستين ألف نسمة.

وأما بنو سالم من حرب فمنازلهم من مكة إلى المدينة إلى وادي الصفر إلى الحديدة إلى ينبع البحر، وهم يزيدون على خمسين ألفاً.

فحرب إذا اجتمعت تزيدُ على مئة ألف نسمة، وكان شيخ مشايخ

---

(١) [وهو هذا الكتاب].

حرب خلف بن حذيفة الأحمدي، وكان ناصر بن نصار الظاهر، ومنصور الظاهري، من مشايخ المراوحة من بني سالم من حرب.

وبنو مزينة الذين بأطراف المدينة، والذين منهم زهير بن أبي سُلْمَىٰ المُزَني صاحب المعلقة؛ داخلون الآن في بني سالم من حرب. والحال أنَّ مزينة في الأصل هم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن أُدّ بن طابخة، واسمُه عمرو بن الياس بن مضر على ما في «صبح الأعشى». وكان شيخُهم حجاب بن بخيت معدوداً من مشايخ المراوحة من بني سالم، إلى آخر ما ذكرناه من أسماء شيوخ حرب في العصر الأخير.

وأخبرني العلامة النسابة الشيخ عبد الله بن بلهيد قاضي قضاة المملكة السعودية، أنَّ ما ذكرتُه عن قبائل الحجاز هو أصحُّ ما اطلع عليه في هذا الباب.

ومن بني عامر بن صعصعة أيضاً بنو عقيل، وكانت مساكنهم بالبحرين، وكانوا أعظم القبائل هناك، واجتمعوا هم وبني تغلب على بني سُليم بن منصور، فأخرجوهم من البحرين، ثم تغلب بنو تغلب على بني عقيل فأخرجوهم إلى العراق، ثم عادوا إلى البحرين، وتغلَّبوا على بني تميم.

ومن بني عقيل بنو عبادة وبنو خفاجة في العراق، ومنهم المنتفق.

ثم من بطون هوازن بنو جشم؛ كانت مساكنهم بالسرَّوات بين تهامة ونجد، ومن بطون هوازن ثقيف، ويقال للطائف سوق ثقيف، لأنّهم سكّانُها، ومحيطون بها من كل جهة. وفي كتابنا «الارتسامات اللطاف» استوفينا الكلام على ثقيف[1].

ومن قبائل قيس باهلة، وبنو مازن، وبنو غطفان، ومن غطفان بنو

(١) انظر ص (٣٦٧) من هذا الكتاب.

عبس جماعة عنترة الشاعر الفارس المشهور، ومنهم أشجع.

ذكر صاحب «صبح الأعشى» أن منهم حياً عظيماً بسجلماسة في المغرب.

ومن **غطفان ذبيان**، ومنهم النابغة الذبياني، ومن ذبيان **فزارة**، ومنهم بنو صُبيح في برقة، ومن هؤلاء رواحة وهيب بأرض برقة إلى طرابلس الغرب، وبأفريقية والمغرب، ومنهم جماعة بالديار المصرية.

ومن قبائل قيس **بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن** خَصْفَة بن قيس عيلان، وكانوا في عالية نجد، بالقرب من خيبر، وفي وادي القُرى وتيماء، ولكنَّ أكثرهم رحلوا إلى مصر، ثم إلى برقة، وأكثرُ عربِ برقة منهم.

ومن شاء أن يتوسع في معرفة قبائلِ برقة فعليه بحواشينا على «حاضر العالم الإسلامي» فإنَّه يجدُ في الفصل المتعلق بطرابلس الغرب من صفحة (٦٤) من المجلد الثاني إلى صفحة (١٦٥) كلّ ما يلزم من المعلومات عن ذلك القطر، ولا سيما عن القبائل بأسمائها القديمة والجديدة مما يطول بنا استيفاؤه هنا. ونحن إنما ذكرنا هنا مُجْمَل أنساب العرب على سبيل التمثيل.

* * *

ومن قبائل قيس **بنو عدوان**، وكانوا بالطائف، ثم غلبهم عليها ثقيف، فخرجوا إلى تهامة، وبأفريقية منهم أحياء بادية، وفي شرقيِّ الأردن اليوم عرب العدوان، وهم رؤساء البدو في تلك الناحية، ولا يعلم هل هم من عدوان هؤلاء، أم هو اتفاق في الاسم.

ومن مُضَر **الياس**، وكانت تحته خِندِف ـ بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال ـ وهي بني حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة، عُرِفَ بنوه بها، فقيل لهم: خِنْدِفْ، وغلب على سائر قيس، قال الشاعر وقد أهانه العدنانية في أسوان، وأعزَّه القحطانية في اليمن:

إذا تمَّ لي في أرضِ مَأْرِبَ مَأربي   فَلَسْتُ على أَسْوَانَ يوماً بِأَسْوَانِ

إذا جَهِلَتْ قَدْرِي زَعَانِفُ خِنْدِف   فَقَدْ عَرَفَتْ فَضْلي غَطَارِفُ هَمْدَانِ

ومن الياس **طابخة**، ومن طابخة هذه **تميم**، وهي من أكبر القبائل، ومن بطون تميم بنو العنبر، وبنو حنظلة.

ومن قبائل طابخة بنو ضبة الذين منهم ضَبَّة الذي هجاه المتنبي، وقُتِلَ بسبب هجوه إياه.

ومن بني تميم قبائلُ في نجدٍ، منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي ينتسبُ إليه أهل نجد، فيقال لهم: الوهابية، وهم يقولون لأنفسهم السلفية إشارة إلى أنَّهم على عقيدة السلف الصالح، ومنهم أناس في الدرعيَّة، ومنهم كثير من سكان القصيم، ومنهم فريقٌ في جوار حايل، مثل أهل قفار والسميرة، وقرى أخرى.

ومن قبائل طابخة مزينة: الذين منهم زُهير بن أبي سُلمى، ولكنهم دخلوا في حرب كما تقدَّمَ الكلام عليه، ومن هؤلاء الإمامُ المزنيُّ صاحب الإمام الشافعي.

ومن الياس بن مضر بنو **قمعة**، ثم **بنو مدركة**؛ ومن مدركة **هُذَيل** ومساكنهم جبال الطائف العليا، وقد ذكرتُ ذلك في «الارتسامات اللطاف»[1]. وهم مجاورون لثقيف.

ولمدركة خزيمة، وله فرعان الهُون وأسد. ومن بطون أسد الكاهلية، وهم بنو كاهل بن أسد.

ومن خزيمة كنانة، وهم قبيلةٌ شهيرةٌ ذاتُ فروعٍ منها: ملكان، وعبد مناة، وغفار رهط أبي ذر الغفاري. وبكر بن عبدْ مناة، ومن بكر الدُّؤَل الذين منهم أبو الأسود الدؤلي. والليث، وبنو الحارث، وبنو مدلج ، وبنو ضمرة. وجميعهم متفرقون في بلاد العرب.

---

(١) [ص (٣٦٧)].

ومن كنانة عمرو، وعامر، ومالك. ومن مالك هؤلاء بنو فراس بن غنم، الذين اشتهروا بإعجاب سيدنا علي بفروسيتهم: لو أنَّ لي بألفٍ منكم سبعةً من بني فراس بن غنم.

* * *

ومن العرب العدنانية قريش، وهم فهر بن مالك.

ومنهم بنو الحارث بن فهر، ومن هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح أحدُ العشرة المقطوعِ لهم بالجنة رضي الله عنه.

وبنو محارب بن فهر، ومنهم الضحاك بن قيس أحد الأصحاب.

وبنو الجد الذين كانوا في الأندلس، ثم صاروا إلى فاس. ومنهم الأمراء والرؤساء والعلماء هم من بني فهر.

ومن قريش بنو غالب بن فهر، ومنهم بنو لؤي بن غالب، ومن هؤلاء بنو سعد وبنو خزيمة، وبنو عامر بن لؤي، وبنو كعب بن لؤي.

ومن بني كعب بن لؤي هُصَيص، ومن هؤلاء بنو سهم رهط عمرو بن العاص رضي الله عنه.

ومنهم بنو جُمَح.

ومن كعب بن لؤي بن غالب بنو عديّ، ومنهم سيدنا عمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد رضي الله عنهما.

ومن قريش مُرَّة بن كعب، ومن بني مرة بن كعب تيم، ومن هؤلاء سيدنا أبو بكر الصديق، وطلحة رضي الله عنهما.

ومن مرَّة بن كعب بنو يقظة، وبنو مخزوم، ومن بني مخزوم سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومنهم سعيد بن المسيَّب التابعي المشهور.

ومن قريش كلاب بن مرَّة، ومنهم بنو زهرة، ومن بني زهرة

الصحابيان سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف من العشرة المقطوع لهم بالجنَّة رضي الله عنهما.

ومن قريش **قصيّ بن كلاب بن مرَّة**، ومنهم بنو **عبد الدار**، الذين بأيديهم مفاتيح الكعبة، ومن بني عبد الدار بنو **شيبة**، وهم الشيبيون الذين بأيديهم مفاتيح بيت الله إلى يومنا هذا.

ومن **قُصَيّ بن كلاب** بن مرَّة بنو **عبد العزَّى**، ومن هؤلاء **بنو أسد** الذين منهم سيدنا الزبير بن العوام أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضي الله عنه. ومنهم خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ومن **قريش بنو عبد مناف**، وهم: **بنو عبد شمس** بن عبد مناف، ومن هؤلاء **بنو أمية**، وهم **بنو أمية الأكبر**، **وأمية الأصغر** ابني عبد شمس، ومن بني أمية الأكبر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعاوية بن أبي سفيان.

ومن **عبد مناف** بن قصي **نوفل**، **والمطلب**. ومن **بني المطلب** الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وأما **هاشم** بن عبد مناف، فاسمه عمرو، وسُمِّي هاشماً لهشمه الثريد أيامَ المجاعة، وكان سيدَ قريشٍ في وقته.

وله **عبد المطلب** بن هاشم، وكان لعبد المطلب اثنا عشر ولداً: عبد الله أبو النبي ﷺ، وأبو طالب والد سيدنا علي، والزبير، وعبد الكعبة، والعباس، والد عبد الله بن عباس، وضِرار، وحمزة، وحِجْل، وأبو لهب، وقُثم، والغيداق، والحارث، العقب منهم لستة: حمزة، والعباس، وأبي لهب، وأبي طالب، والحارث، وعبد الله.

فأما عبد الله فمن ولده سيد الوجود محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وأما **العباس** فمن ولده **الخلفاء العباسيون**.

وأما أبو طالب فكان له عدا أمير المؤمنين عليّاً كرم الله وجهه: جعفر، وعَقِيل. وذريةُ أمير المؤمنين من فاطمة منتشرةٌ في جميع العالم الإسلامي. ويقال لهم: آل البيت، وهم السَّنَامُ الأعلىٰ في الشرف.

* * *

ومن خيبر إلى الحائط، والحويّط، إلى الحرَّة، قبيلة هُتَيْم. وليست من القبائل المعروفة بالأصالة في العرب، ولكنَّها كثيرةُ العدد، تصادِم شُمَّر، وتصادِمُ حرباً، وتصادم أية قبيلة كبيرة، ويقالُ إنَّها نحو من مئتي ألف نسمة.

جاء في «الأنسيكلوبيدية الإسلامية» أن هتيماً مشهورون بالقنص، وأن منهم قيوناً[1] كثيرين، وأن بينهم وبين الشرارات مصاهرات.

ومن القبائل التي لا يختلط بها سائر العرب الصُّلَيْب؛ ولا يعرف أصلهم، وقد ذهب بعضهم إلى أنهم من بقايا الصليبيين، واستدلُّوا على ذلك بمشابهة الاسم، والحقيقة مجهولةٌ، ولا يعادون أحداً، ولا يعاديهم أحدٌ، وكلَّما وقعت واقعة بين العرب وفشت الجراحات جاء الصُّليب هؤلاء، وأخذوا الجرحى من الفريقين، وعالجوهم، فهم يتخذون لأنفسهم مهنة الصليب الأحمر في أوربة، ولذلك لا يعتدي عليهم أحد وأحياؤهم آمنة.

وكلٌّ من العرب كما تقدم آنفاً مفتخر بنسبه، مستمسك بأصله، فإذا كان عدنانياً لم يرضَ أن يكون قحطانياً، وإذا كان قحطانياً ساءَه أن ينتسِبَ إلى عدنان قال الشاعر:

وما قَحْطانُ لي بأبٍ وَأُمٍّ ... ولا تَصْطادُنِي شُبَهُ الضَّلالِ
وَلَيْسَ إليهمُ نَسَبِي وَلَكِنْ ... مَعَدِّياً وَجَدْتُ أبِي وخَالِي

ومن أراد أن يطلع على سلاسل قبائل العرب، وشجرات أنسابهم،

---

(١) عبيداً.

فعليه «بسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للسيد محمد أمين السويدي البغدادي، فهو كتابٌ قَد جمع فأوعىٰ في هذا الباب[1].

على أنَّ إفراطَ العرب في التمسك بأنسابهم قد أوجد بينهم من العصبية بعضهم على بعض ما لا يوجَدُ في أمَّةٍ سواهم، حتى إنَّ دوزي الهولندي المعدود من أوسع المستشرقين علماً ذكر في كتابه عن «مسلمي إسبانية» أنَّ العدواة التي بين العدنانية والقحطانية قد تكونُ أشدُّ من العداوة التي بين العرب والأعاجم.

والحقيقة أنَّ هذه العداوة نفسَها هي التي كانتْ الأصل الأصيل في فقدهم الأندلس، بل في نكوصهم عن قلب أوربة بعد أن وطئوه بأقدامهم، وكادوا يستولون على تلك القارة. وقد كانوا كلَّما تمَّ لهم الظَّفر في واقعة على الأجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطاني ومُضري، ففشلوا، وذهبت ريحهم، واضطروا أن يعودوا من حيث أتَوا.

ولم ينحصر ضرر هذه العصبية في الأندلس والمغرب، بل قد أفنت القبائلُ العربيةُ بعضها بعضاً في المشرق أيضاً، وصرفتهم عن التبسط في الفتوحات فما كانوا قد حازوه بشجاعتهم وعلو هممهم فقدوه في منازعاتهم الداخلية بوقوع بأسهم بينهم، لا سيما بين هذين القبيلتين؛ قيس واليمن. وكثيراً ما كانت تقتتل ربيعة ومضر، وكلا الفريقين من العدنانية، ونظراً لكون مضر أكثر عدداً كانت ربيعة تلجأ إلى اليمن حتى تقفَ في وجه مضر. وكلُّ عربي تنزِعُ فيه العصبيةُ إلى قومه، فلا يسلم من ذلك أحد، حتى الملوك والخلفاء، كانوا يتعصَّبون للقبائل التي هم منها، وهم مع ذلك سادة الجميع.

---

(١) [الأم في هذه البابة «جمهرة النسب» و«نسب معد واليمن الكبير» لابن الكلبي وقد قام بتحقيقها الأستاذ محمود الفردوس العظم].

ومن الأمثال التي تدلُّك على غلوّهم في هذا الباب أنَّ جريرَ بن عطية الشاعر ـ وكان من تميم ـ قال في إحدى مفاخراته للأخطل التغلبي:

إنَّ الذي حَرَمَ المكارِمَ تَغْلِباً ... جَعَلَ النُّبُوَّةَ والخِلافَةَ فيْنَا
مُضَرٌ أبي وأبو الملوكِ جَمِيْعِهِمْ ... فاعْلَمْ فَلَيْسَ أَبُوْكُمُ كَأَبِيْنَا
هُذَا ابنُ عَمِّي في دِمَشْقَ خَلِيْفَةٌ ... لَوْ شِئْتُ سَاقَكُمُ إِليَّ قطيْنَا

فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ضحك، وقال: ما زاد ابن الفاعلة على أنْ جعلني شُرطياً عنده!! ثم قال وقد نبض به عرق العصبية لمضر: أما واللهِ لو شاءَ لسقتهم إليه.

ولم يكن ليفتَّ في عضد هذه العصبية الغالية سوى العقيدة الإسلامية التي جعلتْ الإسلامَ هو العروة الوثقىٰ وجعلت أخوته فوق كل رابطة. ولذلك قيل: إن العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالإسلام، ولولا الإسلام لبقوا شعوباً وقبائلَ يقتتلونَ في جزيرة العرب إلى يوم القيامة، وبأسهم أبداً بينهم، فلما جاء الإسلام ووحّد بينهم في الدين، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب بقوة الاتحاد؛ ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة، ولم يقف في وجههم شيء.

ولكن بعد أن بَعُدَ عهدُهم بعهدِ النبوة وخلافة الراشدين؛ ضَعُفَتْ فيهم العقيدة التي كانت هي مدارُ العمل عند سلفهم، وعادت فتجدَّدت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية، فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنية في الإسلام، كما كانوا يقتتلون قبل الإسلام، ورجعَ بذلكَ زَرْعُهم هشيماً، وبَذْرُهم عُرجوناً قديماً.

فكما أن الأنساب كانت تثير فيهم الحميَّة والنخوة، وتبعثُ روحَ التنافس الحافز لهم على طلب المجد؛ كانت تثيرُ بينهم أيضاً العداوات والفتن، التي تصدع وحدتهم، وتخمِدُ في النهاية جمرتهم، فأضرَّتْ من حيث نفعت.

ولقد أجمع المؤرخون، واتفق علماء الاجتماع، أنَّ سبب سقوط سلطنة العرب، هو طبيعة هذه الأمة في الانقسام والانفراد، وغرامُها في منافسة بعضها بعضاً[1]، ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها، ويتمكَّنُ بها المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلائلهم، والاعتناء بحفظ أصالتها، ومنع اختلاطها بغيرها، مما يشوب نقاوتها.

أفلا ترىٰ كيف ثار الألمان في هذه السنين الأخيرة، وأوجدوا قضية النسب الآريِّ، ومنعوا بجميع الوسائل اختلاط الساميِّ مع الآريِّ بالمصاهرات، حفظاً للنسب الذي ينتمون إليه[2]، والذي لا يرون لهم رقياً إلا به وضمن خصائصه.

وما فعلوا ذلك إلا بناءً على نظرياتٍ علمية ثابتة، **وهم وإن كانوا غلوا في هذا الأمر إلى حدٍ أوجب انتقادَ سائر الأمم لهم؛ فلا يمكن أن يقال: إن قاعدتهم هذه غير راجعة إلى أصل صحيح**[3].

ونحن لو نظرنا إلى السبب في حفظ النسب لا نجده منحصراً في معرفة التاريخ، ولا في الامتيازات المادية التي يحوزها أصحاب النسب في العادة؛ ولكن هناك غرض آخر من ذا وذا، وهو توارث الأخلاق التي تهتف بالفضائل، والأفعال المجيدة التي تزكي الأنفس، فمن المعلوم أنَّ أصلَ

---

(١) [المنافسة في الخير محمودة، وطريقة إلى المجد معدودة، حين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن العصبية أن يحبَّ الرجل الخير لقومه، فقال: «لا» أما العصبية المذمومة كانصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فهي بريد المنافسة في الشر، ومدرجة إلى الهلاك والبوار].

(٢) [في هذا شك، فلا توجد أمة صافية العرق].

(٣) [بل كانت نظرية عنصرية بغيضة جرّت الدمار والبوار على البشرية جمعاء بما فيها الألمان أنفسهم، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب].

البيوت الشريفة هو أن يبرعَ أحدُ الناس على أقرانه، ويبذَّ أبناءَ زمانه بطبيعةٍ ممتازةٍ في نفسه، قد تكونُ أسبابُها النفسيةُ مجهولةً، وإنما آثارُها في أفعاله، فيمتاز بين قومه، وتحصل له رئاسة وسؤدد، ويشيع ذكره، ويرتفع شأنه، وتتمنىٰ الحامِلُ أن تلدَ مثله، وهذا يُقالُ له المجد الطريف.

وبعد ذلك إذا أعقب نسلاً اجتهد نسله أن يقتدوا به بقدر الإمكان، حتىٰ يمتازوا بالأخلاق التي امتاز بها أبوهم، ويحوزوا مثلما حاز من الشرف والسؤدد، وتعب رهطهم في تقوية هذه الروح فيهم، طمعاً في استبقاء هذه الغرائز التي أورثهم إيَّاها سلفهم، وهي التي تغريهم بالفضائل، وتبعدهم عن الرذائل، وترتفع بهم عن سفاسف الأمور ويقال لهذا: المجد التليد.

ولهذا كان من العادة أنه إذا أقدم أحد أبناء البيوتات الكريمة على عمل خسيس كان أول ما يقرِّعه به الناس، ويهيبون به إلى التوبة منه؛ أن يقولوا له: أفلستَ أنتَ ابن فلان؟ أو من آل فلان؟ أيجمُلُ بكَ أن تفعلَ ما هو كذا وكذا!! فماذا تركت للسوقة والطغام؟ وأشباه هذه الأقوال، التي تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الأصالةَ مفروضُ فيها أن تقترن بالنبالة، وبعبارة أخرى إن الأصيل في نسبه ينبغي أن يكون فاضلاً في عمله، بارعاً بأدبه. وما جاء على خلاف هذه القاعدة يعدُّ شاذاً[1].

فإذا تقرر عندنا هذا؛ تقرَّر أنَّ حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل وإمتاع المجتمع بها، ومتىٰ كثرت الفضائل في المجتمع، ترقَّت الأمة، وعرجت في سُلَّم النجاح، وأصبحت أمة عزيزة غالبة، لأن الأخلاق الفاضلة هي الأساس الذي يبنىٰ عليه كيان الأمم.

---

(١) [قال ابن بَشْكوال في «الصلة»: أنشدني محمد بن حزم قال: قال أبو عمرو البيّاني:

إذا القرشيُّ لم يشبهْ قريشاً ... بفعلهمو الذي بزَّ الفعالا

فتيسٌ من تيوسِ بني تميمٍ ... بذي العبلاتِ أحسنُ منه حالا

وقد تقدم لنا أن الأوروبيين شديدو العناية بالأنساب، خلافاً لما يتوهم الشرقيون، وأنَّ الكفاءة في الزواج طالما كانوا يراعونها، ولا يزالون يراعونها حتى اليوم، وإن كان قد خفَّ ذلك التمسكُ القديم بعض الشيء، وذلك أنَّ النبلاء لا يزوجون بناتهم من الطبقات التي ليست في درجتهم. وأشدُّ الأوربيين منعةً في هذا الأمر هم نبلاءُ الإنكليز، الذين يأتي الأمريكي المثري فيبذل القناطيرَ المقنطرةَ من الذَّهبِ حتىٰ ينالَ شرفَ مصاهرتهم، ولا ينالُها إلا لأياً، وكلُّ هذا لأجلِ أنْ يستقطرَ بأنبيق ديناره دمهم الشريف في دِنِّ نسبه، كما قال أحمد فارس[1] في «كشف المخبا عن فنون أوروبا». وما قاله أحمد فارس من ثمانين سنة في هذا الموضوع لا يزالُ تصداقه جارياً إلى الآن.

وكذلك نجد النبلاء في ألمانية وفرنسة وغيرهما محافظين على أنسابهم، مفتخرين بها، مستظهرين على صحتها بالكتب والوثائق والشجرات التي يعتقدونها من أنفس أعلاقهم وذخائرهم، وكثيراً ما اجتمعنا بأُناس من هؤلاء يرفعون أنسابهم إلى عهود بعيدة جداً، ويذكرونَ أنَّ أصول عائلاتهم معروفةٌ من ألف سنة، وألف ومئتي سنة.

ولم نجد أشراف العرب أشد اعتناء بأنسابهم من نبلاء الإفرنج، وهم

---

(١) [هو أحمد فارس الشدياق (١٢١٩_ ١٣٠٤= ١٨٠٤ _ ١٨٨٧) عالم باللغة والأدب ولد لأبوين نصرانيين ورحل إلى مصر ثم إلى مالطة وتنقل في أوربة ثم سافر إلى تونس حيث أسلم هناك وتسمّى أحمد فارس ثم دعي إلى الآستانة فأصدر فيها جريدة «الجوائب» لمدة (٢٣) سنة وتوفي في الآستانة، ترك عدداً كبيراً من المؤلفات أشهرها «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب» سبع مجلدات و «الساق على الساق فيما هو الفارياق» و «الجاسوس على القاموس» وترجم العهدين القديم والحديث وطبعت ترجمته في لندن، كما نشر في مطبعة الجوائب عدداً كبيراً من عيون الكتب انظر «أحمد فارس الشدياق» محمد علي الزركان].

يزيدوننا في شيء واحد؛ وهي هذه الأشعرة ـ جمع شعار ـ التي تمتاز بها كل عائلة منهم، وتحفظها عهود متطاولة.

ونحن العرب لا يوجد عندنا هذا الاصطلاح إلا ما نذر، وأكثرُ ما يكون في الأعلام والرايات، فالعباسيون رايتهم السواد، والأمويون رايتهم بيضاء، والفاطميون رَمْزُهُم اللون الأخضر، وأمراء مكة رايتهم عُـنَّـابية وما أشبه ذلك.

فنحن نستظهِرُ على حفظ أنسابنا بالتواريخ والوثائق والصكوك القديمة، وكثيراً ما نثبتها بالمحاكم الشرعية، فأما أنْ تتخذَ كلُّ عائلةٍ من بيوتات العرب شعاراً خاصاً تمتاز به كما هو الشأن عند الإفرنج فليس بمعهود، وإنما جرت العادة عند العرب بأن تتخذَ عشائرهم أسماءَ خاصة يتنادون بها في ميادين القتال، فهؤلاء يقال لهم: إخوة بلجاء، وهؤلاء يقال لهم: إخوة شيخة، وأولئك يقال لهم: رعاة العليا، أو فرسان الصَّباح، وما أشبه ذلك من الألقاب والكُنىٰ.

فأما نبلاء الإفرنج فلا تكادُ تكونُ منهم أسرة شهيرة بدون شعار تجدُ صورتَه على آنيتها ومواعينها وحُلاَها وفي كتبها، ويقال: إنَّ أصل هذا الاصطلاح عندهم هو من زمان الصليبيين.

وقد غلا نبلاءُ الإفرنج في التمسك بأنسابهم، ورفعوها أحياناً إلى أبعد ما يكون من الأعصر، حتىٰ دفع ذلك العقلُ. وغلا أيضاً علماءُ الأنساب في مراعاة قواعدهم، ودخلَ بينهم المتزلفون الوضَّاعون، الذين كانوا يتقرَّبون إلى الأسر النبيلة بزيادةِ رَفْعِ الأنساب ـ أو بوضعها اختراعاً ـ حتى وقعتْ الشبهةُ في الصحيح منها، واتُّهم النَّسابون جميعُهم بالكذبِ. وفي أوروبة مَثَلٌ سائرٌ يقولون: هو أكذبَ من نسابة[1].

---

(١) [تنبيه: حديث «كذب النسابون» حديث موضوع، انظر «الأحاديث الضعيفة» رقم (١١١)].

وكان يوجد عند الملوك في أوروبة وظيفةٌ اسمها وظيفة نسَّاب الملك، وهو ضابط من ضباط رهبانية روح القدس، ترجع إليه مهمة تثبيت الأنساب، لا سيما أنساب الفرسان، الذين يقال لهم: شيفاليه (Chevalier) وذلك أنَّ النبلاء كانت لهم حقوق لم تكن للعامة، فكان النبيل يدخل في نظام الفرسان عند الملك مثل نظام مالطة، وليون، وسانت كلود، وغيرها. فكانوا يحتفظون بأنسابهم لتكون لهم وسيلة إلى الدخول في هذا الأنظمة، وكان للنساء النبيلات أيضاً رهبانيات يدخلن فيها، ويلتزمن لأجل الدخول فيها تثبيت أنسابهن.

وإثباتُ النسب كان عبارة عن إظهار ورقة المعمودية التي تثبت أنَّ فلاناً هو ابن أبيه فلان، وأنَّ هذه هي ابنة فلان وهلمَّ جرا. وكانوا يقدِّمون مع أوراق المعمودية الوصايا، وعقود الزواج، وصكوك الشراء والبيع والهبة، وما أشبه ذلك من الوثائق، وكانوا إذا حرَّروا نسب عائلة وضعوا جميعَ فروعها في السجل، وجعلوا بجانب كل فرع جميعَ ما يتعلق به من وصايا وعقود وأنكحة، وصكوك مهمة بتواريخها مع براءات الملوك بذلك الفرع.

وهذه البراءات هي التي يقال لها في الدولة العثمانية: الفرامين ـ جمع فرمان ـ ومعناه الأمر، ويقابل الفرمان في الدولة المغربية: الظهير.

وكانوا في أوروبة يذكرون أيضاً في سجلات الأنساب تواريخَ الأشخاص المشهورين، ومَنْ قُتِلَ منهم في الحروب[1]، ويقال: إن هذا الاصطلاح بدأ في فرنسة منذ سنة (١٦٠٠) وإنه من قبل ذلك التاريخ لم تكن للأنساب دائرة خاصة، بل كانت الحكومة عندما تريد التحقق من

---

(١) [وقد سبقهم العرب إلى هذا، فقد ألف الإمام الكبير، والمؤرخ العظيم البلاذري كتابه الجليل «أنساب الأشراف» ذكر فيه سجلات أنساب العرب وتواريخ مشاهيرهم وقد حققه وطبعه كاملاً، الأستاذ محمود الفردوس العظم].

نسب من يُدلي إليها بطلب ترسِلُ مأمورين إلى البلدة التي ينتسب إليها طالب الوظيفة، فيسألون الشيوخَ وأهل الخبرة، ويرفعون خلاصة التحقيق إلى الحكومة.

ولما قدمتُ إلى ألمانية في أيام الحرب الكبرى، كان ممن تعرّفتُ إليهم من العلماء مؤرِّخٌ جليل اسمه الدكتور ستراد ونتز، وكان مديراً لمصلحة الأنساب في البلاد الجرمانية، وقد تذاكرتُ معه طويلاً في مسألة الأنساب، وذكرت له أنساب العرب، وسألتُه عن أنساب الألمان، فعلمتُ منه أنَّ أقدمَ أسرةٍ معروفةٍ في ألمانية ينتهي قِدَمُها إلى القرن التاسع بعد المسيح، ولا يوجد أسرةٌ معروفةٌ يُعْرَفُ لها نسبٌ لأبعد من هذا التاريخ. قال: وإنَّ الأسرة المالكة في الساكس هي أقدمُ بيتٍ في ألمانية، ويوجد مَنْ لهم نسب إلى القرن الثاني عشر للمسيح.

وذكر لي أسراً عريقة، من جملتها آل هونلوهيه، وكنتُ عرفتُ منهم برنساً ضابطاً وشاهدته في الآستانة، وتكلَّمنا على نسب آل هوهنزولون قياصرة ألمانية، وأن أصلهم من جهة بحيرة كونستانزة في بلاد بافارية، ومنذ نحو ستمئة سنة قام جدهم بخدمات جليلة للوطن، فأعطاه الإمبراطور سيكسموند لقبَ شرفٍ، وجعله أميراً على براندنبوك، وهذا هو مبدأ سيادتهم. ومن هناك لم يزالوا يَعْظُمُوْن، ويَغْلُظُ أمرُهم، ويتسع ملكهم، حتىٰ أوائل القرن الثامن عشر ـ أي منذ مئتين وعشر سنوات ـ إذ ترقّوا إلى درجة الملك، وصاروا ملوك بروسية. وفي سنة (١٨٧٠) بعد الغلبة على فرنسة تُوِّجَ الملك غليوم الأول إمبراطوراً على ألمانية كلِّها كما هو معلوم.

ومما ذكره لي الأستاذ المؤرخ أنَّه يوجد في جبال سويسرة أسرة رومانية، أي من الرومانيين القدماء محفوظةَ النسب، يقال لها: بلانتا، وكان ذلك متواتراً عندهم، والناس تنكره، ولا يجدون له سنداً، حتى كشفوا بطريق الاتفاق كتابةً لاتينيةً على حجرٍ كان قد طمسه التراب، فإذا

به يؤيِّدُ تواترَ نسبِ هذه الأسرة، فهي الآن أقدمُ عائلةٍ معروفةٍ في أوروبة. انتهىٰ.

وعلم الأنساب مهم جداً للتاريخ، مشتبِكٌ به اشتباكاً تاماً، لأنَّ به يُعرف تاريخ مشاهير الرجال، الذين قاموا بأدوار عظيمة في العالم، فيتبيَّنُ من هذا العلم أصلهم، كما يتبيَّنُ من التاريخ فصلهم.

وكذلك تعرف من الأنساب علاقاتُ المصاهرة، وما يحصُلُ بسببها من التوارث، وما ينشأ عن هذا التوارث من دعاوَىٰ وخصومات قد تجرُّ إلى الحروب.

[أنساب الحيوانات]

ولم تنحصر الأنساب في العترة الآدمية، بل للطبقة العالية من الحيوانات الداجنة أنساب معروفة، ولحفظ أنسابها فائدةٌ عظيمةٌ في تنشئة هذه الحيوانات وتنميتها، فإنَّ تأثيرَ العِرْقِ غيرُ مشكوك فيه، وانتقالُ النجابةِ من بطنٍ إلى بطنٍ معدود من القواعد العلمية، وإنْ كان قد تعرِضُ أحياناً عوارِضُ تمنعُ انتظام سير هذا التوارث.

ومن الغريب أنَّ الإنسان قد يُهملُ نفسَه أحياناً، ولا يحافظ على صحة بدنه، ولا على متانة عقله، ولا يكترِثُ لقضية تسلسل النجابة في عرقه، ولا لصيانة المزايا التي انتقلتْ إليه بالإرث الطبيعي من آبائه؛ وبينما هو يهمِلُ نفسَه هذا الإهمال، تجده يعتني بحفظ نسل حيواناته، حتى لا يكونَ الفرعُ مقصِّراً عن الأصل. ولهذا كانت أنساب الحيوانات معتنًى بها في كلِّ مكان، وكان ذلك بها جدير، وإن كثيراً من الكتب قد كتب لحفظ أنساب العجماوات. قال لاروس في «معجمه الكبير»: إن العرب سبقوا جميعَ الأمم في حفظ أنساب حيواناتها، وإذا كان الجواد العربي قد بقي محفوظاً بجميع مزاياه الباهرة، فما كان ذلك إلّا بطهارة أصلِه، وصفاء عرقه منذ قرون لا تحصىٰ، وهذا بفضل العرب،

الذين وجَّهوا لصفاء عرق الجواد أشدَّ الاهتمام، وإنَّ جميعَ حيوانات العرب الفارهة لها أنسابٌ يَعتني العربُ بحفظها بمزيد من الدقة. قال: وليسَ عند العرب دفترُ نفوسٍ عموميٍ للخيول، ولكن كلُّ فرسٍ كريمٍ معه حجة يتبيَّنُ منها نسبه، فلا تختلِطُ عندهم الخيل الأصيلة بغيرها[1].

أما الإنكليز فقد نظَّموا ذلك، وجعلوا للخيل دفاتر نفوس رسمية، منها ما يسمونه (Stud-Book) يذكرون به أصل الحصان وسلسلة نسبه، ومنها المسمىٰ (Cing Calender) يذكرون فيها أوصاف الحصان وشيته. وما عملوه لأجل الخيل وحفظ أرسانها؛ عملوه أيضاً لأجل البقر، ولأجل الغنم. ولكن الفرق بين البقر والغنم أنَّ النسب في البقر يكون للثور بمفرده، وأما في الغنم فلا يكون للشاة بل للقطيع كله.

ويرى العلماء في تربية الحيوانات أنَّه لأجل إصلاح جنسها يكون ضرورياً الوقوف على أنسابها. انتهى.

والأنساب معروفة للهررة أيضاً، فهي كالخيل، كلَّما كان الجوادُ عتيقَ الأصل كان أحسن جرياً، وكذلك كلَّما كان الهرُّ أصيلاً كان أحسن صيداً للفئران.

وبالإجمال إصلاحُ الأجناس بالتزاوج وبالتربية وبالتغذية، سواء كان في الآدميين أو كان في الحيوانات الداجنة، يتوقَّفُ على حفظ الأنساب، والعناية بعتقها، ولا يزال الحديث الشريف: «اطلبوا كرام المناكح، فإنَّها مدارِجُ الشرف»[2]، من أصدقِ القواعد العلميَّة، والحقائق العالميَّة.

* * *

---

(١) [وكذلك يعتنون بأنساب الإبل].

(٢) [لم أجده، وحسبنا قول رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» متفق عليه].



الفهارس العامة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١ ـ فهرس الآيات

✽ ✽ ✽


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢ ـ فهرس الأحاديث

* * *


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣ ـ فهرس الشعر



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٤ ـ فهرس الأعلام

(ش)

(ص)

* * *



٥ ـ فهرس القبائل والأمم

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ل)





٦ ـ فهرس الأماكن

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ض)

(و)

(ي)

* * *


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٨ ـ فهرس الكتب

* * *


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٨ ـ فهرس الموضوعات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی